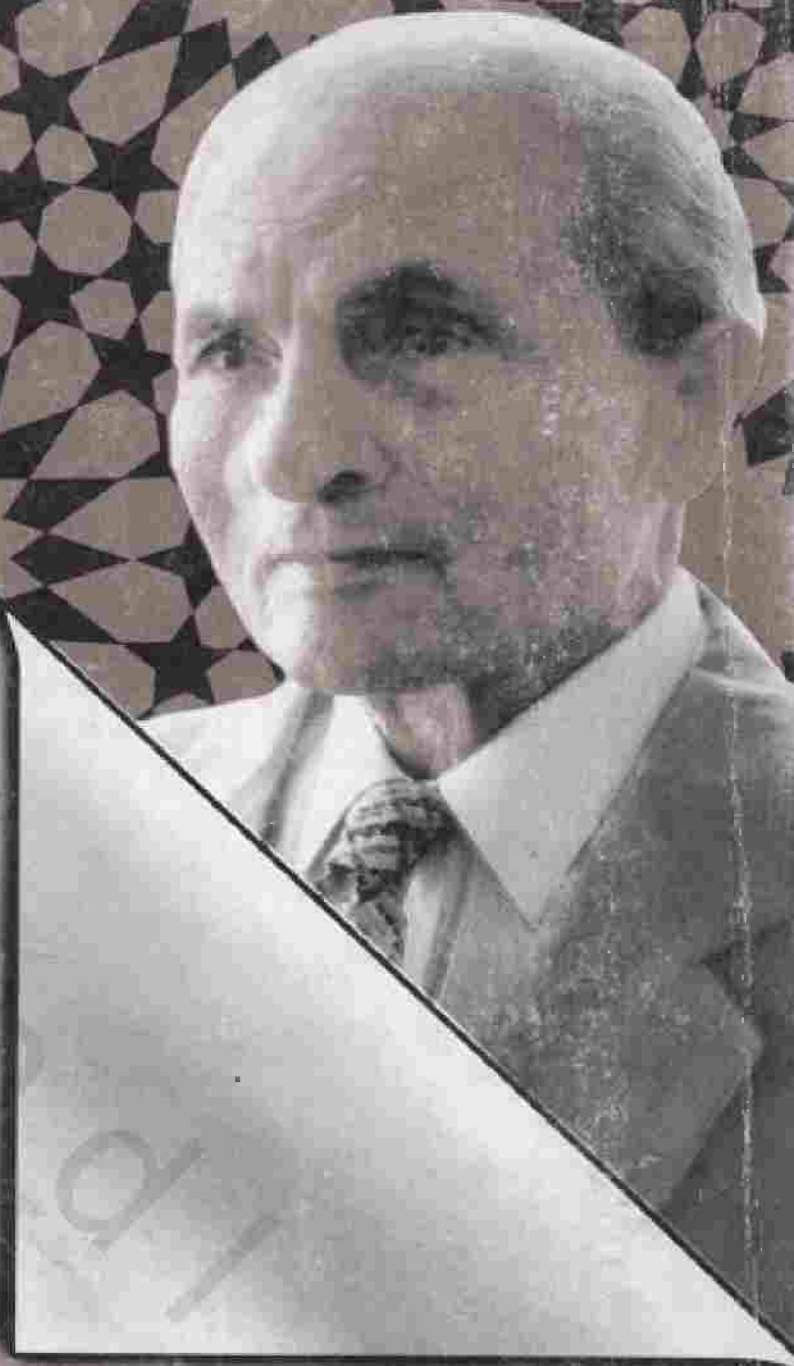


أكتور سوفي صيف

ثاني رنج الأكاديمية العربية



عصر الرواية والقصص الأندلس

فاست



دار المعارف

عنوان الكتاب: عصر الدول والإمارات الأندلس.

المؤلف: الدكتور. شوقي ضيف

الناشر: دار المعارف.

الكلمات الأساسية: تاريخ الأدب العربي، بالأندلس، عبد الرحمن الأوسط، عبد الرحمن الأوسط،

إسحق الموصلي

التاريخ: ١٩٩٩ م.

الترقيم الدولي: ٢ - ٥٩٠١ - ٠٢ - ٩٧٧.

السعر: لا يوجد.

رقم الإيداع: ١٤٩٤٠ / ١٩٩٩.

الملخص: هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسي منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢هـ/ ٧١١م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م مع عرض لتكوين مجتمعاتها وظواهرها وما تسرب إليه من تشيع وسري فيه من زهد وتصوف، ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ/ ٨٢٢م - ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م)، وأرسى في تلك الحضارة قواعد المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلي الوافد على قرطبة في أول عهد عبد الرحمن وأرسى عبد الرحمن قواعد الحكم متخذاً له مجلس وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قوية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع في الموسيقى الإسبانية والأوروبية، وحظيت المرأة في هذا المجتمع الأندلسي بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

الطبعة: الثالثة.

ترجمة: لا يوجد.

المحتويات

١٩.....	السياسة والمجتمع
١٩.....	التكوين الجغرافي والبشري ^٥ :
٢٣.....	الفتح - عصر الولاة
٢٣.....	(أ) الفتح ^٥ :
٢٨.....	(ب) عصر ^٥ الولاة (٩٥هـ / ٧١٤ - ١٣٨هـ / ٧٥٥م):
٣٢.....	الدولة الأموية ^٥ :
	أمرء الطوائف - المرباطون - المودون - بنو
٤٤.....	الأحمر في غرناطة
٤٤.....	(أ) أمرء الطوائف ()
٤٩.....	(ب) المرباطون ()
٥٤.....	(ج) الموحدون ()
٥٧.....	(د) بنو الأحمر () في غرناطة
٦٠.....	المجتمع ()
٦١.....	الحضارة
٦٧.....	الغناء
٧٠.....	المرأة
٧٢.....	التشيع الزهد والتصوف

- (أ) الشيع () ٧٢
- (ب) الزهد () والتصوف ٧٤
- الثقافة ٧٩
- الحركة العلمية ٧٩
- علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا ١٠٠
- (أ) علوم الأوائل : ١٠٠
- (ب) الفلسفة : ١١٤
- (ج) علم الجغرافيا : ١٢٤
- علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ١٢٩
- علوم القراءات والتفسير والحديث والفقہ
- والكلام ١٥٢
- التاريخ ١٧٨
- نشاط الشعراء ١٨٤
- تعرب الأندلس - كثرة الشعراء ١٨٤
- (أ) تعرب الأندلس : ١٨٤
- (ب) كثرة الشعراء : ١٩٨
- الموشحات والأزجال ٢١٣
- (أ) الموشحات : ٢١٣
- ابن عبادۃ^٥ القرّاز : ٢٢٧

- يحيى^٥ بن بقی: ٢٣٠
- أبو بكر^٥. بن زهر: ٢٣٤
- (ب) الأزجال: ٢٣٩
- ابن قرمان^٥: ٢٤٧
- شعراء المديح ٢٥٣
- ابن عبد ربه^٥: ٢٨٠
- ابن^٥ دراج القسطلی: ٢٨٤
- ابن^٥ عمار: ٢٩٠
- ابن الحداد القیسی^٥: ٢٩٥
- الأعمى التطلی القیسی^٥: ٣٠٠
- الرّصافي محمد بن غالب^٥: ٣٠٦
- ابن زمرک^٥: ٣١٢
- شعراء الفخر والهجاء ٣١٨
- (أ) شعراء الفخر: ٣١٨
- سعيد^٥ بن جودي السعدي: ٣٢٨
- عبد الملك^٥ بن هذیل: ٣٣٢
- يوسف الثالث^٥: ٣٣٥
- (ب) شعراء الهجاء: ٣٣٨
- يحيى^٥ الغزال: ٣٥٢

- السَّمِيرُ^٥ ٣٥٦
- اليَكِّي^٥ ٣٥٨
- على^٥ بن حَزْمُون: ٣٦١
- الشعراء والشعر التعليمي ٣٦٥
- أبو طالب عبد الجبار: ٣٧٦
- حازم^٥ القرطاجني: ٣٨٣
- طوائف من الشعراء ٣٩٤
- شعراء الغزل: ٣٩٤
- الرمادي^٥ الكندي: ٤٣١
- الشريف^٥ الطريق المرواني: ٤٣٥
- ابن الزقاق^٥ للّخمي: ٤٤٢
- أبو جعفر^٥ بن سعيد وحَفْصَة الرّكُونِيَّة: ٤٤٧
- ابن خاتمة^٥ ٤٥١
- شعراء الطبيعة والخمر ٤٥٦
- عبادة^٥ بن ماء السماء الأنصاري: ٤٨١
- عبد^٥ الرحمن بن مُقَانَا: ٤٨٥
- على^٥ بن حِصْن: ٤٨٨
- أُمِيَّة^٥ بن أبي الصلت: ٤٩١
- ابن^٥ خفاجة: ٤٩٦

- محمد^٥ بن سفر: ٥٠٣
- شعراء الرثاء..... ٥٠٧
- (أ) رثاء الأفراد: ٥٠٧
- محمد^٥ بن سوار: ٥٢٧
- ابن^٥ وهبون: ٥٢٩
- (ب) رثاء الدول: ٥٣٢
- المعمد^٥ بن عباد: ٥٣٣
- ابن اللبانة^٥: ٥٣٧
- ابن عبدون^٥: ٥٤١
- شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية..... ٥٤٧
- (أ) شعراء الزهد: ٥٤٧
- أبو اسحق^٥ الإلبيري: ٥٥٧
- (ب) شعراء التصوف: ٥٦١
- ابن^٥ العريف: ٥٦٩
- ابن^٥ عربي: ٥٧٤
- الششتري^٥: ٥٧٩
- (ج) شعراء المدائح النبوية: ٥٨٤
- أبو زيد^٥. الفازازي: ٥٨٩
- ابن^٥. جابر الأندلسي: ٥٩٣

- شعراء الاستنصار والاستصراخ ٥٩٦
- ابن^٥ الأبار: ٦٠٨
- أبو^٥ البقاء الرندي: ٦١٤
- النثر وكتابه ٦١٩
- الرسائل الديوانية: ٦١٩
- البزلياني^٥: ٦٢٩
- أبو محمد^٥ بن عبد البر: ٦٣٣
- أبو بكر^٥ بن القصيرة: ٦٣٩
- ابن أبي الخصال^٥: ٦٤٦
- ابن عميرة المخزومي^٥: ٦٥٣
- لسان^٥ الدين بن الخطيب: ٦٥٩
- الرسائل الشخصية: ٦٦٦
- حبيب^٥: ٦٨٧
- ابن^٥ الدباغ: ٦٩٠
- أبو^٥ عبد الرحمن بن طاهر: ٦٩٣
- أبو^٥ القاسم بن الجدد: ٦٩٧
- سهل^٥ بن مالك: ٧٠٢
- الرسائل الأدبية: ٧٠٧
- رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد: ٧٠٩

- رسائل ابن بُردٍ الأصغر: ٧٢٣
- (أ) رسالة السيف والقلم: ٧٢٦
- (ب) رسالة النخلة: ٧٢٨
- (ج) رسالة أهب الشَّاء: ٧٣٠
- رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية: ٧٣٣
- (أ) الرسالة الهزلية: ٧٣٣
- (ب) الرسالة الجدوية: ٧٣٨
- رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها: ٧٤٣
- رسائل نبوية ومواعظ: ٧٥٥
- أعمال نثرية: ٧٧٧
- المقامات والرحلات ٨١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسي منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢هـ/٧١١م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م مع عرض لتكوين مجتمعتها وظواهره وما تسرب إليه من تشيع وسرى فيه من زهد وتصوف، ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ/٨٢٢م - ٢٣٨هـ/٨٥٢م) وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هي أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضم عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى في تلك الحضارة قواعد المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون في هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلي الوافد على قرطبة في أول عهد عبد الرحمن إذ سن للمجتمع الأندلسي سنناً ظلت راسخة فيه، سنناً عمت المأكّل والملبس وما يتصل بهما من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين، وأرسى عبد الرحمن قواعد الحكم متخذاً له مجلس وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قديمة لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع في الموسيقى

الإسبانية والأوروبية، وحظيت المرأة في هذا المجتمع الأندلسي بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثاني كيف أن أيبيريا - قبل الفتح العربي - لم يكن لها دور حضاري بارز في الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم في هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس في مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البطروجي وهو - لاكبلر (Kapler) الألماني - الأب الحقيقي لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوي في الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر في الطب الإكلينيكي وابن البيطار في الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة في الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذي ظل يدرس قروناً متعاقبة في جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكان أثره العميق في الفكر الأوروبي حاسماً، وخاصة في حركة التحرر والإصلاح الديني.

وأوضح الحديث عن النشاط اللغوي بالأندلس اكتشاف ابن حزم وابن سيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة وتبين في الفصل ما لعلماء مصر من أساتذية لغير عالم أندلسي في اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحمل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصري، وحملهم لفتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين في الفقه، وأشار الحديث في الفصل إلى التقاء المبدئين الأساسيين في فلسفة ديكارت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك في حقائق

الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود، مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعاً: من أسلم منهم وأبنائهم المولدين ومن ظل على دينه المسيحي ولم يدخل في الإسلام، وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس ألبرو المشهورة التي يتحصر فيها على إهمال الشبان المسيحيين في أيبريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدراهم لما ألف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون في شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثراً وشعراً، ويؤكد بالثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي تلك الصيحة ويدعم دلائلها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضاً بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية، وفي ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الأسباني ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب في حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون في تلك الحياة عامية عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نظمت باللاتينية الدارجة وهي إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تروى في المشرق وتتداول به وتحاكي فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدي - كتباً مختلفة. ومن يرجع إلى كتاب نفح الطيب يجد المرى يرتجم فيه لعشرين شاعرة كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن، ونفذت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الجحم إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وذهب غير

مستشرق أسباني إلى أن هذا الفن نشأ في الأندلس من المزج بين الشعر العربي وبعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الأسبانية الدارجة، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دعواهم في هذا المزج المزعوم، والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسمطات المشرقية المعروفة في الشعر العربي، وهي تتألف من أدوار، وكل دور فيها يختم بشطر تغاير قافيته قوافي الشطور السابقة له في الدور بينما تتحد مع قوافي جميع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائيين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرض الفصل الرابع روائع الأغراض في بقية الشعر الأندلسي مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - في رأينا - على جميع البلدان العربية بما بثت فيه من لوحات وجد لحب عذري عفيف ظلت جذوتها تتقد وتتوهج في أشعار الغزلين الأندلسيين قروناً متوالية، وبلغ من توهج تلك اللوحات أن امتد شررها الساطع إلى الأديين الأسباني والفرنسي وبالتالي إلى الآداب الأوروبية، ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الأسبان في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦م) وكأنها قصة محب عذري عربي فتن بمحبوبته حتى جن أو كاد يجن وسرفالتس في سطورها الأولى ينسبها إلى عربي حدثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أفاصيص الحب العذري عند الأندلسيين، ونمضي معه في القصة فنرى الحب العنيف يخرج دأماً عن طوره إذ يعيش هائماً على وجهه والجنون يصيبه أحياناً وكلما أفاق منه

تغنى بحبه مفتوناً بصاحبتة مثله الأعلى في الجمال البارع، وللمرأة الأندلسية في هذا الغزل العفيف الملتاع مشاركة واضحة، وتغزلت أحياناً في أختها الأندلسية الفاتنة، وكانت لبعضهم ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر، وعكس غير شاعر عواطفه في عناصر الطبيعة من حوله، مدوناً في شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحول الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وينوه البحث دائماً بتفوق الأندلس على البلدان العربية في شعر الطبيعة، لما كان يتملى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجنته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجري فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلاً، وكأن أهل الأندلس كانوا في عرس دائم ليلاً ونهاراً، وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضي وما يسكب في النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجؤنا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس في كل الأغراض الشعرية - صور في منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد في التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، ويبلغ التأثر بالقارئ منتهاه في مراثيهم للشهداء الأبرار في حروب أعدائهم من حملة الصليب الشماليين، ومن أروعها مراثية لابن الزقاق بكى فيها شاباً استشهد في عنفوان شبابه بعد أن أبلى في حرب أعداء دينه بلاء عظيماً، ولا تقل عنها روعة موشحة علي بن حزمون في بكاء بطل بلنسية أبي الحملات قائد الأعنة حين استشهد في معركة ضاربة مع حملة الصليب بعد أن مزق كثيرين منهم

تمزيقاً، ويتميز ابن وهبون في مراثيه بتأملات عميقة في حقائق الموت والحياة، وبجانب مراثي الأفراد مراث للدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مراثي ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بأشبيلية ونفاه إلى أغمات بالمغرب، ولابن عبدون مراثية طويلة لدولة المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الدائرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطير جارح فإن كل ذلك إلى فناء، وأنشد الفصل خواطر شتى في الزهد وخاصة لأبي إسحاق الإلبيري كما أنشد خوالج وجدانية متنوعة في التصوف الفلسفي الإسلامي عند ابن عربي وغيره، وتكاثر المدائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جابر الأندلسي، ومنذ سقوط طليطلة في حجر حملة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجري حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها في حجور النصارى الشماليين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبي البقاء الرندي.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها في مقدمتها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبي العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بدیع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيها وراء الطبيعة في عالم الجن وأن يضمنها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة، ويلم الفصل برسائل ابن برد الأدبية في المناظرة بين السيف والقلم وفي وصف بخيل صاحب

نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضله لأهب الشاء -
أو بعبارة أخرى جلود المعز - على البسط صيفاً وشتاء، وقد استوحاها من رسالة سهل
بن هرون في فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشح النفس على الجود
والكرم، وتحدث الفصل عن رسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية، وأولاهما في السخرية
- على لسان ولادة مهوى فؤاده - بغريمه في حبها: ابن عبدوس، وثانيتها في استعطاف
أبي الحزم جهور حين زج به في غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان، ويلم
الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة في الشعوبية والردود المفحمة عليها، كما يلم
بالرسائل النبوية التي ضمنها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنان شوقاً حاراً إلى زيارة
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطلب الشفاعة، وتكاثرت المواعظ على نحو ما هو
معروف عن منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

ويعرض الفصل أعمالاً نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفي مقدمتهم ابن
حزم وكتابه "طوق الحمامة" والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العذري
العفيف وتجارب ابن حزم فيه وتجارب معاصريه في غير موارد بل في صراحة مستحبة،
صراحة تسمو فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صغائر الغريزة
النوعية، والكتاب ترجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتي في كتابه "الحياة المتجددة"
وبالمثل تأثر به بعض شعراء الأسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حبان في تاريخ الدولة
الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد في كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصيرة لا مثيل لها
عند العرب قبله ولا بعده، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم

الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة، ومن الطرف الثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبد الله ابن بلقين آخر أمراء غرناطة من بنزي زيري، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفي يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال الثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حي بن يقظان لابن طفيل الوادي أشي القيسي وهي قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ في جزيرة مهجورة نما فيها وحده ونما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقاً وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد، وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكري المحض، وبدلاً من أن يستتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حي بن يقظان أو استلهمها إما في أصلها العربي وإما في ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذي استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذي كان شائعاً في زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهمية، والقصة تكتظ بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية وهي بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لا سابقة له في الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الأسباني كما يتضح في قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التي ذكرها غرسية وأيضاً في قصة الناقد (الكريتيكون) الأسبانية لجراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر والتي يقول منتدث بيلايو عنها أنها تتطابق مع قصة حي بن يقظان تطابقاً واضحاً.

وَألم الفصل برحلات الأندلسيين مبيناً أنها تعددت عندهم بسبب أدائهم لفريضة الحج سنوياً، وللإلمام بمراكز الثقافة في المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصارى الشمالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ما وراء البلدان العربية في آسيا وشرقي أوروبا. ولمرافقة أمراء غرناطة في عهد الأندلس الأخير في رحلاتهم وكذلك في مرافقة بعض سلاطين المغرب في رحلاتهم، ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الإطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولاً - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغض من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذي أثر به في الأدب الأسباني والآداب الأوروبية، والله - وحده - ولي الهدى والتوفيق.

شوقي ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

(١)

التكوين الجغرافي والبشري^(١):

تقع شبه جزيرة أيبيريا في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هي جبال البرنيه التي تكون حاجزاً منيعاً بينها وبين أوروبا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها في الشرق والغرب، وبينهما ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سماها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب، وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسي، وهو يطوق شماليها الغربي في خليج بسكاي ويتصل في جنوبها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذي سمي بعد الفتح العربي إلى اليوم باسم مضيق جبال طارق، وتمتد في هذبة أيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعب التواصل بين أجزائها في الداخل، وبها أنهار كثيرة

(١) انظر في التكوين الجغرافي لإيبيريا كتب الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافي الأندلسي والتعريف به في كتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس، وراجع في التكوين البشري لإيبيريا الصفحات الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس وكتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان وكتاب الإسلام في أسبانيا للدكتور لطفي عبد البديع.

وخاصة في الغرب حيث تصب في المحيط، وهي من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دويرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجه وتقع عليه مدريد وطليلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر أنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادي الكبير وتقع عليه قرطبة وأشبيلية ومنه يتفرع نهر شنيل ماداً ذراعاً له إلى غرناطة، وجنوبه نهر لكه ويصب في المحيط بالقرب من قادس، وتصب في البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو في الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقي إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون بإقليم سرقسطة في الثغر الأعلى بإقليم قطالونية ويصب عند طرطوشة جنوبي برشلونة، ويليه جنوباً نهر الوادي الأبيض ويصب عند بلنسية، فنهر شقر بأوديته وفروعه الخصبه ويصب شمالي دانية، ثم نهر شقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهر أندرش ويصب عند المرية، فنهر البشرات ويصب عند شلوبينيه.

والمناخ في إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو في الجبال وشمالي البلاد بارد، وهو دافئ في الوديان بالوسط وفي الجنوب، ومناخ الأقاليم في الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم في نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم في الغرب لمناخ المحيط الأطلسي ونباتاته وحيواناته وغاباته، وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب، فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحياناً معادن وبسفوحها مراعي، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراعي، وأحواض أنهار بها حبوب ويقول حدائق ذات بهجة، ومن يعيشون في تلك الأحواض وما بها من زرع وضرع تجاري حياتهم سهلة هينة، ومن يعيشون في الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون في سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادي.

وهذا الاختلاف في أقاليم أيبريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف في العناصر والأجناس البشرية التي كونت سكانها، وأول من سكنها الأيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تفد عليها، وكان أول الوافدين الفينقيين وفدوا عليها في القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها أيبريا وقد أسسوا بها مدينة برشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا في شرقيها مدينة قرطاجنة، وظلت خاضع لها، حتى إذا أقبل القرن الخامس الميلادي وأقبلت معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقهم إلى أسبانيا قبائل، الوندال وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وسمي باسمهم: " فاندالوسيا" وعرب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع أيبريا من الجنوب إلى أقصى الشمال.

وأضاف الفتح العربي إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة في المجتمع الأيبيري عناصر جديدة آسيوية من العرب وأفريقية من البربر، وكان عدد العرب في الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً، وسموا باسم البلديين تمييزاً لهم من فوج عربي نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القشيري، وكان تعدادهم عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزاً لهم من البلديين، ونزلها في سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي فوج عربي ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون

منهم، وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكناً ومقاماً لهم، وبجانب البربر والعرب نجد عنصراً ثالثاً فسخ له حكام الدولة الأموية في الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوروبي كان يخصى ويبيع، وأصل نشأته في بلغاريا شرقي أوروبا، ولذلك قيل له صقلبي، وعم الاسم في الأندلس الرقيق الأوروبي جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا، وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شباناً ويدخلونهم في الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسي ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرساً وخداماً في قصورهم، وألحقوا نفراً منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفاً في عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية في عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت في التكوين البشري لأيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوي والأفريقي والأوروبي، وبذلك أصبحت في دماؤها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجوداً ذاتياً وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطتها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الأسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منهما نظامها السياسي الخاص.

الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح^(١):

أتم موسى بن نصير والي المغرب منذ سنة ٨٦هـ/ ٧٠٦م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسي غرباً وجبال السوس الأقصى جنوباً، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعاً، وأسس في بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس في بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطللة على مضيق الزقاق، وولى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد، وأبقى موسى على سبته شرقيها على الزقاق لواليتها الرومي البيزنطي يولييان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩هـ/ ٧٠٩م فأعلن له ولاءه وطاعته، ويظن أنه أغراه حينئذ بغزو أيبريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفي سنة ٧٠٨م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic

(١) انظر في الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضاً لابن القوطية والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ٤/ ١١٦ وما بعدها ونفح الطيب (طبعة إحساس عباس) ١/ ٢١٥-٢٢٠، ٢٣١ وما بعدها ونزهة المشتاق للإدريسي بتحقيق دي جويه ودوزي (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ أسبانيا الإسلامية لبروفنسال ٨/ ١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ص ٤٣ وما بعدها.

حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا بيوليان حاكم سبتة اليزنطي حليف أبيهم، ورأى أنه لا قبل له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغرى موسى بن نصير - حين لقيه في طنجة - بغزوها، أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هي عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته في قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو أيبريا ففي رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقي لموسى بن نصير على غزوها أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيراً من أحوالها الجغرافية والسياسية وأن ليس بها جيش حقيقي يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور في ذلك الخليفة، وكان الوليد بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل في أقصى الشرق: في أواسط آسيا وفي الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك، وندب موسى لهذه المهمة قائداً من قواده هو طريف فعبر - مع أربعمئة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطئ الأيبيري في سنة ٩١هـ / ٧١٠م ونزل في موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبي أيبريا وسائل دفاع تحميها، واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عدداً بقيادة طارق بن زياد والي طنجة، فعبر في سنة ٩٢هـ / ٧١١م مضيق الزقاق بجيش عداة سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سمي فيما بعد إلى اليوم جبل طارق، ويقال أن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقها - إنما كان بسفن أعدها يوليان، ويدحض ذلك أنه

كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمي شواطئ أفريقيا من الأسطول البيزنطي وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، ومادام موسى قد عزم على فتح أييريا فلا بد أنه أمر أسطوله بالتوجه غرباً ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة قبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهي - في رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبي من سحق يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته، ومما يتصل بهذا القصص الأسطوري عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التي أضيفت إلى طارق، وقيل أنه ألقاها على جنوده بعد عبوردهم مباشرة مفتتحاً لها بقوله: "أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصديق والصبر" والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربي تعرب حديثاً مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعاً أعد الخيال الشعبي ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التي جاز بها مع جنده إلى الشاطئ الأييري، وهي لو صحت لكانت عملاً طائشاً، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أي قائد يقدر مسؤولياته وتبعاته، ومما يؤكد أنها مختلفة ومن نسج الخيال الشعبي أنها لم ترو في كتاب التاريخ الأندلسي طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسي الجغرافي المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة في كتابه نزهة المشتاق.

ولما بلغ طارق طليطلة في وسط أييريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه في قوة كبيرة ليشد أزره ويثبت فتحه ويمكن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجداً، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتاً من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندساً معمارياً لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في أييريا ما اتبعه في المغرب من

تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل أيبريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام، ومضى بجيشه غرباً يتمم فتوح طارق واستولى على شذونة وأشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ أنه كان قد امتلاً غيظاً وحقدًا على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلاً من تهنتته بانتصاراته - شد وثاقه وهم بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء، ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقاً ظل الساعد الأيمن في استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق في طليطلة طوال الشتاء في سنتي ٩٤، ٩٥هـ / ٧١٣-٧١٤م وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربي حكم قطراً أوروبياً، وجاءه نبأ بانتفاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز فأخذ الانتفاضة، واستولى غربيها على ليلة وباجة، وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يشره بالفتوح قوله: "إنها ليست الفتوح ولكنه الحشر ولكنها الجنة"، وخرج في ربيع سنة ٩٥هـ / ٧١٤م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لأيبريا قاصداً سرقسطة مفتاح منطقة وادي نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، فرأى أن يلبي مع طارق أمر الخليفة بوفودهما عليه، وأتاب عنه في حكم البلاد ابنه عبد العزيز، ومن سوء حظهما أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى أيبريا، ولا عرف مصيرهما، ويقال أن موسى حج مع سليمان سنة

٩٧هـ وأنه توفي بالطريق في المدينة أو في وادي القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكثفياً بما أدى في سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان في أيبريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لهما، فأخضعهما ابنه عبد العزيز في ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥-٩٧هـ)، وكان قد اتخذ أشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة ويابرة وشنترين وقلمرية، وبذلك استكمل فتح غرب أيبريا، وكانت لا تزال في الجنوب الشرقي جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بمالقة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيما بعد، وكانت أريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطي تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع في مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق في قوس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هي نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاماً للمسلمين بأنه لا يزال في المدينة عدد ضخم من الرجال البواسل المتهيين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاحة وجزية يؤدونها، وفي رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تعد - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التي كانت تتداول في أيبريا، إذ يكفي أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلدته وبطلب الأمان له ولمدينته فيجانب إلى طلبه كما حدث كثيراً في الفتوح الإسلامية.

(ب) عصر^(١) الولاة (٧١٤/٥٩٥-٧١٤/٥١٣٨ هـ/٧٥٥ م):

عملت عوامل متعددة على كثر الاضطرابات في هذا العصر، منها كثرة العناصر التي تكون منها الشعب في الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحل به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حل به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية، وكانت بينهما خصومات قديمة أشعلتها في العصر الأموي حروب قيس المضرية وكنب اليمانية في موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية في الأندلس هذه الخصومات سريعاً. وكان البربر البتر يأخذون صف العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صف القحطانية وكنب اليمانية، وكان الوالي على الأندلس إذا كان يمينياً أو كلبياً تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانياً أو قيسياً مما هيأ لكثرة الاضطرابات والقتال في تلك البلاد وعامل ثان هياً لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا في نحو أربعين عاماً اثنين وعشرين والياً، فلم يكن الوالي يشعر بشيء من الاستقرار، وعامل ثالث هياً بدوره الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولايتها إلى ولايتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجاً، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة في الداخل بعيداً عن الشواطئ -

(١) انظر في ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب الأخبار المجموعة، وافتتاح الأندلس لابن القوطية والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفح الطيب ٢٣٤/١ وما بعدها ١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ص ١٣١ وما بعدها.

بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس، وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبت أقدام المسلمين في ولاية سبتمانية جنوبي فرنسا وعاصمتها أربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث أن استشهد في آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفي قبل السماح فعادت الأندلس تابعة لوالي المغرب، فولى عليها عنبة الكلبي، واقتدى بالسماح في متابعة الجهاد وراء جبال البرنيه واستولى على قرقوشنة في داخل سبتمانية، وتوغل في وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو متراً وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبة الوالي قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدهما ولاية قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابي وله بلاء حسن في الجهاد بأرض غالة، ويقال أنه توغل فيها حتى ماسون شمالي ليون، وولياها عبد الرحمن الغافقي فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشاً كبيراً لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهري جرونة ودوردوني، ومضى في اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشاً كثيفاً من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوروبي، والتقى به لسنة ١١٤هـ / ٧٣٢م بين تور وبواتيه على بعد مائتي كيلو متراً من باريس، وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط في جليقية بأقصى الشمال الغربي من أيبيريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فتحت ما عدا حصن بلاي بالقرب من خليج بسكاي لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرنيه إلى سبتمانية وعسكر بجيشه في عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد في قرقوشنة، وباستشهاده يتوقف هذا المد العربي الإسلامي وراء

جبال البرينية في غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة في أيبيريا.

وإنما عاق العرب عن المضي في هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه في الأندلس - منذ أول العقد الثالث في القرن الثاني - من عصبية عنيفة أخذت تضطرم اضطراباً شديداً لا بين العرب المضربة واليمينية فحسب، بل أيضاً بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينهما في المغرب، واضطر هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشاً ضخماً بقيادة كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مراراً، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم في الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا في بلدان كثيرة هناك وخشي الوالي مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة، وتعاون مع الوالي في القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة في شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم في المغرب، وكانت من البربر كثرة في جليقية وحوض نهر الدويرة وفي الأراضي الواقعة شمالي نهر تاجه، فتركوا تلك الديار جميعاً تنعى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا في الأندلس وحدها بل أيضاً في ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينية في غالة، فقد توقف هذا الجهاد، ليتجمع النصارى فيه ويعمروه ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضي.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين في حروب مع والي الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزاً لهم من هؤلاء

الشاميين الطارئين، وانتصر بلج ولم يلبث أن توفي وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين في الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتهما، وهاجت الفتن والحروب بين الفئتين، وولى - من قبل والي المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفراط في التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخلع سنة ١٢٨، واتفق الطرفان أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشاراً له ووزيراً، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد في غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضاعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دولاً مازالت تناضل المسلمين قروناً متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

الدولة الأموية^(١):

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضي العباسيون على الدولة الأموية في المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين في مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية، في هذه الأثناء فر شاب أموي في التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقية هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذيك سمي عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثياً في أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية، وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت في المشرق فقد قامت في الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقية ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان بإحدى قرى العراق مع أخته له وأخ صغير في الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

(١) انظر في الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثاني وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام في خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب في مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ١١٦/٤ وما بعدها والمقتبس من أنباء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكّي والحجي وشالميتا ومعه رفيقان، وراجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحججي.

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامّة، وكثر تعرض الناس له في الطريق بالسباب، فصلب في سنة ١٩٠ نفراً من الفقهاء، مما جعل مراجل الغضب عليه تغلي في قرطبة إلى أن نفجرت ثورة ضده في جنوبها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشمّلت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسلط عليهم جنده من الصقالية فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم في دولهم بالهدم والإحراق وهدموا الربض الجنوبي منش الثورة ومركها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثّشرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب في لشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفاً، وأنزلهم عبد الله بن طاهر وإلى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ وافيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت يوش الحكم ماتني غاية رائج لحرب المسيحيين في الشمال، واستطاع البشكنس بقيادة ونقة الإستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارة وظلت وراثية في أبناء ونقة. وحاصرت في سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدي العرب في الشمال الشرقي إقليم قطالونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع في عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد في المغرب إن الحكم كان من أشد بني أمية في الأندلس إقداماً إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسي في شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفي سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفي عهده تكاملت أسس الحضارة العربية في الأندلس، وكانت ثلاثة سس من أسسها أخت في الاستقرار هناك هي الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سرعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوئل، وضم إلى ذلك أساساً رابعاً هو الجانب المادي للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيما اكتمل للمجتمع من تكوين فني وحضاري عن طريق وفود زريب المغنى تلميذ إسحق الموصلي على قرطبة في أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه في المتعم الأندلسي جوانب حضارية جديدة في الملبس والمأكل والهيئة.

وبني عبد الرحمن بقرطبة دار للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذي وضع أساس الحضارة الأندلسية من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيساً باسم الحاجب، وجعل له ولمءوسيه من الوزراء بيتاً في قصره يجلسون فيه على فرش نضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير لشغور أو الحرب، وعد بن حبان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يومياً، وكل منهم يعرض مسائله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاب على الأمير، فإن قبله فيها وإلا رد إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه، وعلى نحو ما عني

عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة التغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليه خطة صاحب الرد فيما استرا به الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدي أصحاب المناصب والجاء في الظلمات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصاً بالعامّة، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإداري للدولة وظل هذا النظام بعده إلى نهاية يمهّا. وكان ل يصدر في أمر إلا بعد الروع إلى مجلس لوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لا يجيد عن مشورتهم، وبلّك كله أرسيت قواعد الحكم لأموي في قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شورياً إلى حد كبير. وكان يقل لأيامه أيام العروس لم شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد في جامع قرطبة رواق في الجنوب وبني في الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله ببنائها جواربه.

وفي أيامه نشبت فتنة بين اليمانية والمضرية في تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى ن خمدت، وكثيراً ما كنت جيوشه تغزو المسيحيين في الشمال، وأحياناً كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكندريانة) شواطئ الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس في آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادي الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلولهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه لاشعر القرطبي يحيى الغزال بهدية مماثلة، ويقال إنه قضى في بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح في السفارتين أو

الوفادتين جميعاً، وعنى عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسي وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومتورقة ومما يذكر له بنيانه ثغر مرسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفي أواخر أيامه أشعل المتعصبون من حبار لنصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسب الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق في قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقد مجمع كنسى في قرطبة للنظر في هذه المحنة، وعقد المجمع وأصدر قراراً باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت لأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لى نداء ربه في سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته في الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محباً للعلوم مؤثراً لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد في ترتيب الأداة الحكومية مستكثرًا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين في عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لساناً لهم في مناصب الدولة، من لك تعيينه لقومس بن اننيان متولي جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتباً له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن سلامه وبذكر أنه ستعفى لأمير محمداً أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح لك بعده - كما يقول بن حين - عما في لأندلس. وفي سنة ٢٤٥ أغار لنورمان غارتهم الثانية على شواطئ الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدّهم الأسطول ونكل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على لأندلس وكثرت الفتن والحروب في عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفي مقدمته ثورة عبد

لرحمن بن مروان الجليقي في بلطوس بالغرب سنة ٢٦٠ و ثورة عمر بن حفصون في مالقة سنة ٢٦٧ ودخل في هه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من سلموا من الإسبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلباً على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت لثورتان المذكورتان محتدمتين ولت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع رخوجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين في لشمال. وكان مشغولاً بالبني فزاد قصور آبائه فخامة، وبني لنفسه قصراً أنيقاً في الجنوب الغربي لقرطبة

وخلف محمداً في حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيهما بحرب عمر بن حفصون في قلعة بيشتر بين مدينتي رنده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء الحصار فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة في صفر سنة ٢٧٥ وولى الإمارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجد وصلاة الجماعة مع العامة، وكما مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامة باباً في قصره لأخذ رقاعهم والنظر في ظلاماتهم، وبذلك انتعشت الرعية في عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقماً شديداً في أيامه، حتى لقد كادت تعم كور الأندلس، إجمت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين لعرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتي عبد لارحمن بن مروان الجليقي وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبي الجواد في باجة وابن وضاح في لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بني ذي النون في شنتبرية. وفي أثناء هذه الفتن والثورات التي امتدت في عهد الأمير محمد وطوال عهد

أبنيه المنذر وعبد الله استطاع الفونس الثالث ملك ليون والجلالقة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهري الدويرة والتاجه وانشأ به عدداً كبيراً من الأديرة والكنائس، وأسكن هه الأراضي الجديدة المستعربين من نصرى الإسبن الين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لا بد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبد الله شعر بلك في عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبد الرحمن، اتخذ له ولياً لعهد، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجنود، وكان شاباً له اثنتان وعشرون سنة، وهاله مارأى في الأندلس من كثرة الثورات، وفي مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسألة والعجم، فقاد إليه جيشاً في ألو سنة من سنى حكمه، واستولى في طريقه إلى مركز ثورته في بيشتر بلقرب من مالقة على سبعين حصناً، وعاد الكرة إليه في السنة التالية ورد إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقه. ولم يجد بن حفصون مفرأ في لاسنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إلي، وتوفي سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دفن في كنيسة بيشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائياً سنة ٣١٤ وحول كنيسة البلدة إلى مسدد، واستخرج منها جثة بن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى غربي لأندلس وعبد الرحمن بن مروان الجليقي، ولم تكد تدخل سنة ٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع لبلدان في إقليمها. وبلك مح عبد الرحمن فكرة الثورة في لأدلس وعاشت في أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الولى من حكمه يفرض هيئته على من جاوره من المسيحيين الإسبان في

لاشمال وعنت له بالولاء مملكتنا لاجللق ولقشتاليين واتخذتا منه الحكم المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفزع إلى سدته ملوكهم وأمرأوها يلتمسون رضاه. وطار صيته في أوربا، فوفدت منها سفارت كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والباب في روما وإمبراطور لمملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونت برشلونة وماركيز توسكاني وماركيز بروفنسا: قلدو الذي أصبح - فيما بعد - ملكاً على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات في قصره حفلات فخمة (١). وكانت الدولة الفطمية قد قامت في القيروان ولم يعد للعباسيين وجود في المغرب ن يبادر إلى إعلان نفس خليفة للمسلمين في واخر ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصرز وبلق فصل لأندلس عن العام العربي بعد ن ظلت طويلاً تخضع لسلطان العباسيين الروحي قبله، إرى هذا السلطان يتقلص في إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها لسياسية، وأصدر في ذلك منشوراً قرئ على الناس لعقيدة ابن مسرة المتوفي سنة ٣١٩ أي بعد منشوره بنحو سنتين وكان قد مزج في عقيدته بين مبادئ المعزلة والمتللفة والصفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبهة الملك أن بين لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق في قصره بها وأأبهاه، ولم ينشأ له ولد غلا بنى له فيها قصر مقروناً ببستان واختر له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعنى بالمسجد الجامع في قرطبة، فأضاف إليه في اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وغنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام بهمحراباً بديعاً.

(١) انظر في لك تاريخ ابن خلدون ٤/١٣٧، ١٤٢ وما بعدهما وأزهار الرياض ٢/٢٥٨. و ٢/٢٧٢ وما بعدما.

ومن إنشاءاته لضخمة بناؤه مدينة سالم في الثغر الأوسط بمواهة مملكتي نبارة والجلالقة في الشمال لتكون مركزاً للجيش المجاهدة هناك. وبني أيضاً مدينة المرية على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. ويعد عهده عظم عهد مر بالأندلس بما أتاح لها من الاستقرار والوحدة والمنلة العليا بين الدول العربية، وأعانتة على لك حنكته في السياسة وتدير الحكم وخبرته والدقيقة في اصطفاء الرجال واخيار القواد، كما أعانه خلق إسلامي عربي كريم من التسامح العفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالتمدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذا استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال أنه عدد أيام السرور التي صفت له في هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوماً.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المصتنصر وكان في السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس في عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها في الداخل والخارج وأخت سفارات (١) ممالك النصرى في الشمال وممالك أوربا تفد على قرطبة. وحاول البشكنس في بنبلونة والجلالقة في ليون الإغارة على بلاه فأوغلت جوشه سنة ٣٥٢ في أراضيها وأرغمتها على العودة إلى إلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه في إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدّه بالجنود ضد الفاطميين. وفي عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية في المحيط والشرقية في البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غرباً وشرقاً. وكان قد تهده العلماء في شبابه فشغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهدده إلى جامعة كبرى، وعنى

(١) راجع تاريخ ابنخلدون ٤/ ١٤٥ وما بعدها. وأزهار الرياض ٢/ ٣٨٨ وما بعدها.

عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفي قبل إتمامه للزيادة في الجامع فأتمها، ووقع في خطأ كبير إذا أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وان لا يزال طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرض الدولة لحكم الحجاب الوصياء وبالتالي لزلزلة لا بد أن تنزل بها سريعاً.

وقام بأمر المؤيد ففي أول خلافته جعفر المصحفي حاجب أبيه، وأشرت معه فيها "صبح" أمه محمد بن أبي عامر الملعافري صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان ق أزدلف إليها في عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخ يعد سريعاً لتفرد به الحجابة، فأغرى المصحفي بالصقالبة وأخذ ما في أيديهم من الأموال العظيمة، وساتعان بالطبل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك في سجنه، ثم يجعفر التجيبي على جعفر، ثواب فت بعد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفاً شديد التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق في الحكم، ونقل الأموال المختزنة في قصر الخلافة إلى داره، وكر ابن حزم في رسالته نقط العروس أنه فكر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نفراً من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان لهمجلس معروف في أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخ لنفسه جيشاً من البربر، فاستقدم منهم آلافاً أعانوه في غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نباره والجلالقة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى في إحداها سنة ٣٧٧ على برشلونة.

وقد أخطأ ابن أبي عامر في تكوينه الجيش البربري الي أنزله في قرطب إذ سيكون له - فيه بعد- أثر سيء في قنتتها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبي عامر ستاً وعشرين سنة إ توفى سنة ٣٩٢ بمدينة سالم في الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده هشام المؤيد ابنهعبد الملك الملقب بالمظفر نوه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا في الاستيلاء على أمة الدولة فقطن له وقتله وسار يسيرة أبيه في الجهاد وكثرة الغو للجلالة والبشكنس واحتل بشلونة عاصمة الآخرين سنة ٣٩٧ وتوفى في غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بلناصر وكان نحساً على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إا انفتح منه - كما يقول ابن سعيد- باب وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليه العهد بعده ففعل وخرج لحرب المسيحيين في لاشمال، فثارت عليه الأسرة الأموية، وان في طليطلةن فرجع إلى قرطبة لتتدارك الأمر فقتلاه جند سفكوا دمه في جمادى الأولى سنة ٣٩٩، وبذلك انتهت دولة بني عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيه بالمهدي، وكان طائشاً: فرأى - بغير روية- مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر الجلالة فنصروه، وكان ذلك أو إسفين ق في ضياع الأندلس، وحاصر البربر وجموع الجلالة قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهلها وهزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فر على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالة - مثل

المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشاماً إلى خلافته، وحجبه وأوضح الصقلي، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالقة ليموه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التي استولى عليها المنصور بن أبي عامر، فلم يلبوا المستعين واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود وأخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الزيرة الخضراء، وظل في الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر انت كلها شداداً مشؤمات، ويكفي دولته لا وذكماً أن أنشأها وثبتها الجلالقة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. كان واضح الصقلي قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامه خير ان إلى المرية ومرسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان علي بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازرعه في سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه علي وكان والياً لسبتة واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلي وفر المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلي بمالقة واستولى على الجيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يوماً من حكمه وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفي بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسي الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفي أيامه استؤصلت بقية قصور جده الناصر في الزهراء، ولم يلبث يحيى بن

علي بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المتكفي ومات ببعض الثغور واستولى يحيى علي مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد في الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتد، وفي سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبلك انتهت الدولة الأموية في الأندلس.

(٤)

أمراء الطوائف – المرابطون – المودون – بنو الأحمر في غرناطة

(أ) أمراء الطوائف (١)

تفوض الصرح الشامخ الي شاده بالأندلس أمراء البيت الأموي وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ) إذ أخذت

(١) انظر في هؤلاء الأمراء لاذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد في بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيرة لابن الآبار في تراجمها، وكلك التكملة، والجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثاني من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) وتنفع الطيب للمقري (بتحقيق إحسان) في مواضع مختلفة والتبيان: مكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالية للعبادي (طبع مدريد) والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعالم تاريخ المغرب والأندلس في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادي (تطبع بيروت).

العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصالبة أثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الموسطة والغرب والجنوب وتنافست هذه البلدان تنافساً أدى إلى طور حضاري راق كم أدى إلى نهضة واسعة في الأدب والعلم. وفي الوقت نفسه أخذت تحارب فيما بينها، بل أدهى من لك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغراً لمسيحي الشمال مم قوى في نفسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين ونقف قليلاً عند أهم المدن التي تكونت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نقف عندها قرطبة وقد اجتمع الملاء فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختياره على أبي الحزم جهور ليكون أميناً على حكمه وبذلك تأسس فيها نظام جمهوري ارتسراطي يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم في المسائل المهمة، وخلفه في الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملاء، وفوض التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذي النون، فاتعاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ في عسكر كثيف ففك ابن ذي النون حصاره، وغدر الظافر بعيد الملك فخلع بني جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيّش في الجنوب الغربي للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتعد إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لا قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفي سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه

واستع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يهرب المسييين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبلك كان معولاً كبيراً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس. وتوفي سنة ٤٦١ فلخفه ابنه المعتمد وفي عده بلغت الإمامرة الذروة في السلطان إذ دان له كثير من البلان في غربي الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفي شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً للملك ليون وقشتالة، وكان شاعراً واثم له من الشعراء مالم يجتمع لأي حاكم أندلسي، وكان مولعاً بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين في عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغمات في المغرب وبها توفي سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هي إمارة غرناطة تملكها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زيرى الي اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المرواني بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بها حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤١ - ٤٢٩هـ) وورثة ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين وظل على غرناطة، إلى سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت في الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منر بن يحيى التجيبي ممدوح ابن دراج، وتوفي سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهاز الفرصة وإليه على لاردة - وقيل على تطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقض على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل

وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بني هود وكان فارساً مغوراً وله غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وكان شاعراً وممدحاً للشعراء. وجمع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشاً ضخماً للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالاختفاق الربيع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بريشتر على مسافة ٦٠ كيلو متر في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعارى وباعهن في الأسواق بيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشي الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزق المعتدين شر ممزق ودانت له وشقة في الشمال الغربي من بريشتر وطرطوشة في النوب الشرقي من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من انية على البحر المتوسط وأدخلها في إمارته، وتوفي سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤتمن يوسف وكان شجاعاً باسلاً وحامياً للعلماء ولاشعراء وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزاً بينه وبين المسيحيين في الشمال، وتوفي شهيداً في حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عب الملك، وحاول علي بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها لانصارى واستولوا عليها وأخذوا في تملك بلاد الثغر الشمالي الأعلى إلى أن ملكوها جميعاً.

ومن الإمارات المهمة في موسطة الأندلس إمارة طليطلة ثار فيها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضيتها ابن يعيش، وتوفي سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ي النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفي سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه

المأمون حيحي، وهو أعظم أمرائها قدراً، اجتمع عنده جلة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قصر له تأتق فيه غاية التأتق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون في وصفه، وتوفي سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيء التدبير، وفغر الفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طي السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الألفس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده في أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١ وكان قد تملكها زمن الفتنة صقليان هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد للمنصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز سنة ٤١٧ وظل يدبر شئوها حتى ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، وساتولى عليها لاقادر وثار عليه قاضيتها ابن جحاف، وأخ فارس نصراني يغير عليها هو السيد القنيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيتها حياً، مات سنة ٤٩٢ استولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر في مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلي من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محباً للعلماء مجزلاً العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقدتر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على مبروقة مولاه أغلب وتوالاها بعده مبشر الصقلي وملت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة في الشرق مرسية، وهي - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها في زمن أمراء الطوائف المرتضى المرواني وبايعه الصقالبة الين تغلبوا على لاشرق وذهبوا به إليغرناطة، فهزمهم زاوي بن زيرى وقتل المرتضى في المعركة وخلفه على مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمر الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمراطين. ومن إمارات الشرق أيضاً المرية وهي من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالية ثم معن بن صمادح إلى أن توفي سنة ٤٤٣ وورثها ابن المعتمد، وكان شاعراً وكريماً جزل العطاء للشعراء توفي سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الألفس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وآدبهم وخلفهم عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجي كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب اطماعهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتول أخ المرابطون هذه الإمارة وما كان بتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون (١)

(١) انظر في المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال العلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفح الطيب للمقرى

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهي نتيجة طبيعية لتفتت الأندلس وتوزيعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينما تؤدي الاتاوات لألفونس السادس وأمراء أراون ونبارة وبرشلونة، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرهما وأحس مرء الأندلس وفي مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين في لاشمال وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، وأرسلوا إليه نفراً من قضاة مدنها الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم في وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال واستمع يوسف إلى القضية، وهاله الأمر، فجهز سريعاً جيشاً جراراً وأعد له أسطولاً عبر به في سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها تواءً وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس، وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك لنصارى في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من

وتاريخ ابن خلدن والحلة السراء والتكملة لابن الأبار والمعجب للمراكشي ونم المان لابن الطقان (تحقيق د. مكّي - طبع الرباط) والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادي (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد اله عنان (طبع لاقاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي (طبع لاقاهرة) والتاريخ لعبد الرحمن الحجي (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفي عبد البديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

الفرسان، والتقى الجمعن في الزلاقة بالقب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سحق فيها جيش ألفونس، وفر على وجهه مع الفارين. وتصادف ن توفى اب ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد ها النصر المبين ولو تابع تقدمه لاسترد طليطلة، وكأنه اكتفى لتقليم أظافر العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإارة على شرقي الأندلس، وعلم بلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثاني سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به في الزلاقة، غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن رترك في الأندلس حاميةز وسرعان ما دب الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٨٤٣ مصمماً - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعاً أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصهره سير بن أبي بكر تنفيذ الخطة فاستنزهم جميعاً ومن أبي أخذه أسيراً مثل المعتمد بن عباد الذي نفى إلى أغمات بالمغرب و قتله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بلطوس. وبذلك أطل حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبني هود لتكون حاجزاً بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى لأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه علي وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه في الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تميمياً بجيش إلى أقليم شرقي طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قتل فيه ولى عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفى متأثراً يفقده، واستولى تميم على أقليم وشتبرية. وفي سنة ٥٠٣ غزا جيش للمرابطين أراضي طليطلة واستولى على طليطلة غربها، واستاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان علي بن

يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بني هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه الصنارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون في معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفي سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للإستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردّه المرابطون على عقابه، وأجلّوا عن غرناطة من كانوا سبباً في استدعائه من النصارى إلى سلا ومكانسة بمراكش. وفي سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشاً بقيادة يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقي سرقسطة، ولقى جيشاً لألفونس ملك أراون فمزقه شر ممزق. وتوفى على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفاً مما أذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين في مقدمتهم دوزى وبروفنسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم في مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم في حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير كتاب الإمارة العبادية بإشبيلية، حتى غذا توفى سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجدد، وتوفى سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسي البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعاً كتب من الأندلس. وقد ازدهرت في عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجع حكام المرابطين في

الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصر يعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين إلى ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيها سلطان المرابطين: على ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعي ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبي عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبي بكر. وتبرز من نسائهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سير بن أبي بكر حاكم إشبيلية مدداً متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلي، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاولهم في الشعر ونقده على نحو ما حدث فيما بعد بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأدبات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس النابهن.

وحقاً كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة في عصر المرابطين، وهي سطوة لا ترجع إلى المرابطين أنفسهم، وإنما ترجع على أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد في الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاغر فاه، يكاد يلتهمهم جميعاً، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كي ينقوا الأندلس مم تحولت إليه من دار هو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن وائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيياً أن يعظم شأنهم في هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفتوا بأن لغزالي مجدد الإسلام المصلح يعد من

المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هي حركة الموحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين، في هه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن في الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضي قرطبة وتبعه في بطليوس اب قسى وفي المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميبي وفي مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بني غانية حتى سنة ٥٨٠ إصارت لدولة الموحدين.

(ج) الموحدون (١)

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق وتعلم على أساتذته من الأعشيرة وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون في دراسة الفقه بالفروع دن الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سماها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشاً ضخماً واقع به المرابطين سنة ٥٢٤ وتوفي سريعاً فخلفه

(١) انظر في الموحدين بالأندلس الجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدن ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة علي المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (طبع تونس) والجزئين الثاني والثالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وأعمال الأعلام لاب الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفي عبد البديع.

عبد المؤمن بن علي حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة، إذ استطاع القضاء نهائياً على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طربلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠ وكان ابن الرنك صاحب قلمرية شمالي نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشبونة وشنترين وقصر أبي دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقي الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلهما الموحدون وقضوا عليهما في الستينيات، وكان النصاري قد استولوا على المرية من يد ابن الرميحي فاستعادوها. وتوفي عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفاً ثقافة واسعة أتيحت له في أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائراً على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتقاً لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ لجهاد النصاري وأعاد عليهم الكرة في سنة ٥٨٠ وهي سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصباً للمذهب الظاهري تعصباً شديداً، وفي السنة الثانية من حكمه توفي ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه اشنجه على مدينة لشب، واستردها يعقوب في لسنة التالية ومعها قصر أبي دانس في الجنوب الشرقي لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ في جيش جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعاً كثيرة تزيد على مائتي ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقى عند حصن الأرك في وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة، ومنى ألفونس وجيشه بهزيمة ما حقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجياً بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجاً بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى مئذنته التي عرفت باسم الخير الدا،

وكان حرياً أن يتبع ألفونس إلى طليطلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفي سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفاً وشغلته ثورات مختلفة في المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بني غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعان ملوك النصارى في لاشمال والبابا والأساقفة في جنوبي فرنسا واعدن مساعديه بالغفران وجاءه عباد الصليب من كل فج، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدين في حصن العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرك وهزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تدر السنة حتى توفي وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفي أيامه أعلن استقلاله ابن أبي حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفي عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفي أيامه عظم شأن بني مرين في المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضاً على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدين.

ومنذ زمن المأمون الموحد أخذ بعض الثائرين في لاندلس يعلنون استقلالهم، وفي مقدمتهم ابن هو الملقب بالمتوكل الثائر مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصارى في ماردة شرقي بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخوها، واستولى صاحب ربرشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمي غيلة في المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة

٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦ وآلت مرسية لعم المتوكل بن هود بقريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهزم في وقعة مع النصارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مدرنيش وأخرجوه من بلدتهم، فعادت لبني هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يغاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر (١) في غرناطة

تنتمي هذه الأسرة إلى حفيد الصحابي الجليل سعد بن عباد سيد الخزرج لعهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ولالمقب بلقب الغالب بالله، وكان فارساً مقداماً، رأس في قرية أرجونة شمالي جيان واستولى على جيان سنة ٦٢٩ واتخذها عاصمة وامتد سلطانه في الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلي عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم

(١) انظر في بني الأحمر بغرناطة أو بني نصر كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية والإحاطة في أخبار غرناطة (في تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة النسية في تاريخ الدلة المرينية لابن أبي زرع (طبع الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمقري (انظر الفهرس) ويوسف الأول بسلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعالم تاريخ المغرب ولأندلس لحسين مؤنس.

فيها بتقديم عون له في استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واستع بسلطانه شمالي مالقة والمرية حتى لورقة وجنوباً حتى بل طارق والجزيرة الخضراء وحتى ليلة وشريش وشذونة في الجنوب الغربي لغرناطة، وممكن له من تثبيت ملكه حنكته السياسة وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١ وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاتنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند استجه جنوبي قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بني مرين على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مريني يسمى شيخ الغزاة يدخل في عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المريني مراراً وظل يشتبك مع القشتاليين حتى أذعوا لمسألة محمد الفقيه، وتوفي سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل في إقامة بعض منشآت قصر الحمراء واغتيل سنة ٧٢٥ وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الأول، وفي أيامه استولى القتاليون على طريف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة في وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله وله القسط الأوفر من منشآت قصور الحمراء، وتوفي سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفي سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم ولم يلبث القشتاليون أن استولى على

جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات الصنرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يتعينون فيها بملوك قتشالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزبيلا ملكة قتشالة، فتعاونوا على القضاء على الإمارة، وقدموا بقوات ضخمة استولوا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصروا غرناطة آخر معقل لإسلام في الأندلس واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرنان سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة لتسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة والأندلس بكمال حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الأسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدنيين، بينما سموا من تنصر منهم ظاهراً المرويسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧هـ / ١٦٠٩م أمراً بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الديني المقيت الذي أخرج المسلمين من الأندلس هو الذي أتاح لأوروبا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذي ساعد أرسطوف كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثراً - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون في اكتشافهم لطريق الهند.

المجتمع (١)

رأينا - فميا مر بنا - كيف كان التكوين البشري لسكان إيبيريا مزيجاً معقداً من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديماً قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورمانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العرب والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرين من الصقالية المتتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأنلسي مشتركة في تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا في الإسلام وكانوا يسمون: "مسالملة" وسمى أبناؤهم باسم لمولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اسطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وسموا باسم المستعربين.

(١) انظر في املجتمع الألسي مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السيرة ولا تكملة لابن الأبار ولا ذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة لمعهد المصري بمدريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسبة لابن عبدون صورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس في نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثاني من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون ومقدخته وصفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للإدريسي نشر دوزي ودي ويه (طبع ليدن) ونفح الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥ / ٢ حيث ينقل التيفاشي عن ابن سعيد نصاً مهماً عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة في الكويت وبحاثا فيها عن المجتمع القرطبي للدكتور الطاهر مكي في كتابه: "دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة" ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

وأخذت تعمل عوامل في المج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون في الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل لك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون لإسبانيات الشقروات، وكان البيت الأموي يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضاً روح التسامح الديني الذي بثه الإسلام في تباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومررت بنا في غير هذا الموضوع فتنة دينية لعهد عب الرحمن لأوسط اثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان ما انتهت وحل محلها تعصب وطني واستشعره المسالمة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية لتعصب لوطنهم والشعور بأن بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجنب، مما هيا لثورات عبد الرحمن بن الجليقي في لطبيوس وعمر بن حفصون في بيشتر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس ونتوقف قليلاً بإزاء الحضارة والغناء ولامرأة في الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربي أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون في لقسم الجبل بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخضونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعاً يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا في التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية من عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) بسبب شغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى

استيراد أدواتها ونائيتها، وفي ذلك يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب: "في أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب لجلب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه، ووافق زمنه انتهاب الخائر التي كانت في قصور بغداد عند لع الأمين فلبت إليه". وحاكاه أهل قرطبة ولأ، دلس في العناية بالفرش والرياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس النيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلى والحقاق والتحف والواني والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع لقرطبي يتحضر في المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها في المكل والملبس والتزين وكان من أهم العوامل في لك وفود زرياب غلام إسحق الموصلبي في ول عهد عبد الرحمن لأوسط لذي احتفل به احتفالاً عظيماً وقد علم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسككين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آينة الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألوان جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تتزين وما تتخذ من عطور مومن ضروب الثياب وكيف تتفنن في تصفيفات شعرها وكيف تسد له على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آدابها مختلفة في اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضاً كيف يتأنقون في فرشهم وتأثيث بيوتهم.^(١)

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة في الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار ولاضرع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهياً هذا الثراء فيها وما كان يجنبه حكامها من الضرائب لتفنن في بناء القصور

(١) أنظر في ها الدور الحضاري لرياب النفح للمقري (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣ وما بعدها.

منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا في عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبني قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب بل يبني مينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون ببنائها لمدة خمسة وعشرين عامًا وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفي الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفي الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة باعمدة لارحام وحليها الهبة وجوهرة كبيرة تتلألأ في وسلطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولًا في نحو ثلاثة آلاف راع وعرضًا في نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموي وأهله في بناء المسد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكائدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة في كتاب الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون (١) شاك. وبني المصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة ولا يتضح ثراء الحكم الأموي في بناء الجامع الكبير الي ظل يعني الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا في بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التي ذكر ابن حيان أن عبد الرحمن الناصر (٢) كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إليموسى بن أبي العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البز العجيب الصنعة والطرف النيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون في ترجمته

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكي (طبع دار المعارف) ص ٢٢.

(٢) المفتيس ٥/ ٢٣٨.

للناصر هدية (١) وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندي والمسك الذكي والعنبر ولاكافور ولاثياب الحريرية المرقومة بالذهب ولافراء الثمين والملاحف المذهبة للخليل والأبسطة، وأيضاً سوى عشرين جارية بكسوتهن وزيتتهن وأربعين وصيفاً، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلاً في عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح في تنافسهم في بناء القصور والتفتن في كل ما يتصل بها من أناقة وتميق على نحو ما يصول ابن بسام ذلك في وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذي النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحيوانات وأطيوار وأشجار وثمار، سوى بحيرتين في القصر صفت عليهما تماثيل أسود من الهب والمياه تنساب من أفواهها. نعجب أن ينفق أمير طليطلة - وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة - هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى في خزائنه ما لا يشتري به سلاحاً للقاء أعدائه، وما هي إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى في حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون في طليطلة إسرافاً في بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكثيرة

(١) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار الرياض ٢/٢٦١.

وكان مشغولاً بزوجته اعتمد الرميكية وفي نفح الطيب أنها رأت يوماً بإشبيلية نساء البادية حولها يبعن اللبن في لاقرب، وهن رافعات- في الطين- ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: اشتهي أن أفعل مثلهن أأ وجواري فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصير كل لك طيناً في القصر ومعه قرب وحبال من حرير، وخرجت - هي وجواريها- يخضن في ذلك الطين ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سقط ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقداً نفيساً. وعلى ها النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقاً كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير انه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزيينة الحياة.

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف في الحياة أو بؤس لكثرة ما كان في الأندلس من طيبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدي المرابطين الموحيدين ونرى آثاره في بناء السلطان يعقوب الموحيدي لجامع إشبيلية ومئذنته "الخير ألدأ" التي لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفاً - على مر الزمن- يعرض مهارة الفنان الأندلسي في المعمار والزخرفة وحرى بنا أن نكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت لصناعة الأساطيل وإزدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافي البشرة، ومن عيدانه اتخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن

أهمها معدن الزئبق في شمالي قرطبة، ويقول الإدريسي في القرن لاسادس الهجري نه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأواني والحقاق والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريس إنه رأى في المرية ثمانمائة دار طراز للحريز تصنع فيه لالحلل والثياب والستائر ولابسط. ويقول ابن خلدون في مقدمته عن الأندلس وصناعاته وقد نزلها في أواخر القرن الثامن الهجري: "إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء ولاهو من الآلت والأوتار والرقص وتنضيف الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، وتجد صناعاتها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف" (١). ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية في الأندلس قصر الحمراء الي شاده بغرناطة أمراؤها في الحقب العربية لأخيرة بها، وليس قصراً فحسب بل معرضاً خلافا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهي حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته ورداته وغرفه بالآيات

(١) المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي) ص ٩٣٨ وما بعدها.

القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود في قاعة حاملة حوضاً من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته في كتاب "الفن العربي في إسبانيا وصقلية" لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخت روتته بلبه: "سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ في روحه الأحلام المكبوتة وتحبا الآمال الضائعة (١)".

الغناء

وكان الغناء يشيع في الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلي على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتي دينار في الشهر وأقطعه من الدور والضياح ما يقدر بأربعين ألف دينار غير سلات سنية. وأقام زرياب في قرطبة معهداً يتدرب في الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترّاً خامساً اخترع له مضرباً من قوادم النسر (٢)، وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختتم بالمحركات والأهازيج (٣)، وينقل التيفاشي عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حداة العرب وترانيم الكنائس دون قانون (٤) فيها أي دون رقم (نوت) موسيقية. وزرياب بلك يفتتح حركة الغناء والموسيقى في الأندلس. خرج زرياب كثيرين من الشباب والجواري

(١) انظر الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ١٨٢.

(٢) النفح ٣/ ١٢٦.

(٣) النفح ٣/ ١٢٨.

(٤) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/ ٢.

منهن منفعة أهدها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء في الأندلس يزدهر بعده وممن اتفنوه عباس بن فرناس المتوفي سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكي التجيبي شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالدين في مقدمة شرحه أنه بات ليلة في سنة ٤٠٦ بمالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطناير والمعارف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء، واستعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة في إشبيلية وطليطلة. وممن اشتهر بعد منهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذي أخ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم في الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلمذه أبو عامر بن - رضي الله عنها - لحماره وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحنه عليه ويغني (١) به، شأن المغنين الأوربيين المعاصري الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويغنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقي حتى لنجد بن كسرى المألقي المتوفي سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط (٢):

إذ رقصت أبصرت كل بديعة ترى ألفاً حيناً، وحيناً هي النون

(١) المغرب ٢/ ١٢٠.

(٢) تحفة القادم نشر الفريد لابساتني بمجلة لامشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٧٩٤٧م رقم ٥٧.

فهي تتحرك في رقصها حركات شتى، تارة ترى معتدلة، وتارة تتثنى وتبالغ في التثني حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بطلميوس يوسف بن خروف القطربي نفس الصورة فيقول في راقص ولعها راقصة (١):

ومنوع الحركات يلعب بالنهاي	لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأودا كالغصن وسط رياضه	متلاعبا كالظبي عند كناسه (٢)
بالعقل يلعب مقبلا أو مديرا	كالدهر يلعب كيف شاء يناسه
ويضم للقدمين منه رأسه	كالسيف ضم ذبابه لرأسه (٣)

واشتهر في القر السابع أو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس ولمغرب في شعر متأخر فهو من صنعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجري يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات وقيمون لهم الحفلا وكان للك أثره البعيد في نشأة الموسيقى عند الأسبان، لم يكن يعرفون قبل الغناء العربي وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات في اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية

(١) المغرب ١/ ١٣٧.

(٢) متأودا: مثنيا - كناس الظبي: مأواه في الشجر

(٣) اب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف: مقبضه

على الموسيقى الأوربية فق أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة في رقم (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة في المجتمع - عز وجل - الأندلسي، وكانت تحظى فيه بشيء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها في المشرق، يل على لك من بعض الوجوه أن نجد لها تركب مع الأمير في موكبه إذ نرى ابن حيان يروي أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يوماً وكان قد طال عليه المرض والمكث في قصره دون خروج: "إن بعض كرائمنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة، فأخرج من فورك فانظر في إقامة ما يحتاج إله للنزهة على مقتضى العادة وأعجل بلك فإننا متحركون صبيحة (١) غد" ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على لك ما ذكره ابن حزم في رسالته: "نقط العروس" من أن رسيس كانت سيدة مهية اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يركبها في موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافره بقلنسوة وشق بها الربض الغربي كله بقرطبة إلى مدينته الزهراء (٢). ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما يقول صاحب (٣) الصلة، وأيضاً كاتبته كتمان (١) كما يقول صاحب

(١) انظر المقتبس (بتحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ٢١.

(٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣-٧٤.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.

اليل والتكملة، ومثل لبنى (٢) كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما في الصلة. واشتهرت في الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرئ لعشرين منهم، وسنلم بذلك في الفصل التالي. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة في البيت الأموي كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة نظمهن للشعر مما أعد لظهور ولادة بنت الخليفة المستكفي واتخاذها في قصره ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون ويغره من الشعراء والأدباء. وظل لك في لأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولادة في اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى في عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هي السيدة حاء زوجة سير بن أبي بكر - الذي مهد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حك الأندلس وظل حاكماً على إشبيلية اثنتين وعشرين عاماً - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولادة، وسنعرض لها في ترجمتنا للأعمى التطيلي ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولادة تلقانا حفصة الركونية ونوتها الأدبية في عصر الموحدين وسنترجم لها مع أب يجعفر بن سعيد في حديثنا عن الغزل.

(١) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع المغرب) ٨/ ٢ / ٤٩١.

(٢) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتبس رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الخط نحوية غروضة شاعرة.

التشيع الزهد والتصوف

(أ) التشيع (١)

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصوروا عليا في صفين كانت صورة شيعية كما حدث في عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - في أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في القيروان ولم يمكن اتصال ولاء إنم كان اتصالاً سياسياً كيدياً للأمير عبد الهل بن محمد. ودعا ثار أموي لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية تلقب بالمهدي، فظن خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعارها اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبد ربه المتوفي سنة ٣٢٨ يتحدث في كتابه "العقد الفريد" عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعياً، فقد كان متشيعاً للأمويين متعصباً لهم.

وحاول آسين بلا سيوس أ، يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفي سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامة فترة في القيروان عصامة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى في غير هذا الموضع - إلى العتزال والتصوف والفلسفة، فلا

(١) انظر في التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسي والعقد الفريد لابن عبد ربه والمغرب في مواضع مختلفة والتشيع في الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقاً أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هانئ الشاعر لأندلسي وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعائهم السريين في الأندلس. ووجدت في الأندلس زمن الفتنة الأموية فرصة للشيعية كي ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة في المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلمانه قتلوه - كما أسلفنا - في السنة التالية، وولى بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلي - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بالمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا في الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة ف يعهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بي ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة في غرناطة وبين ما كان في أمرائها بني زيري من نزعة شيعية، وكأننا للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، ولاصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بني زيري لقدرتهم الاقتصادية ما جعل بني زيري يولون أدهم - وهو ابن النغيلة - الوزارة.

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعائه، حتى ليقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربا قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأيوبية نجد كبار المؤرخين في الأندلس مثل بن حيان وكبار المفكرين هناك مثل بن حزم يتعصبون للأندلسيين ضد لاشيعية تعصباً شديداً. وكل ما

يمكن أ، يكون للتشيع في الأندلس إنما هوب عض الأصداء في مائح الشعراء للحموديين في قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهي أصداء ضعيفة جداً إذ قلما صدر الشعراء في شعرهم عن تشيع حقيقي لآل البيت. وسنرى في حديثنا عن الرثاء أن الأندلسي أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين في نم بعض مراث له، بل لقد أاثموا له أحياناً ماتم يندبونه فيها، وكأنها كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم في الأندلس ونخلص من كل من قدمنا إلى أنه لم تظهر في الأ،دلس موجة حادة لتشيع، وكل ما حدث أن أفراداً قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالباً - حب آل البيت.

(ب) الزهد^(١) والتصوف

أخذت تنمو في الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزيكها في نفسو الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم ويذكرونهم بالله واليوم والآخر،هم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار ولاجحيم. وزكاها أيضاً أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفراضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تعني زواتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكن يقفن بعض أموالهن للجهاد في سبيل الله،

(١) انظر في الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبر والمغرب لابن سعيد والفصل في الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشي والمقتبس لابن حبان والإحاطة في أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (أنظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهي ولاطبقت الكبرى للشعراني وتاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا.

واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجداً في الرض الغربي من قرطبة، وشتهرت أبنته البهاء بزهدا ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفها في مسجد لها بين مساجد الرض الغربي.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعباده أيوب البلوطي، ويروي ن السماء شحت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) وفزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كي يصلي بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى يا أيوب البلوطي! عزمت عليك حيث كنت لتقومن، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه في الثالثة، وقال حين قال: يا هذا اشهرتني أما كنت أدعو حيث نا؟ ثواب رفع القاضي رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا، وألح بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحيتهم في أيديهم من كثرة المطر. وطلب أيوب بعد لك فلم يوقف له على أثر ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن في النساك الزهاد. ومن كان يفرط في زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام في المذهب المالكي هو عيسى بن دينار المتوفي سنة ٢١٢ وكان في الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشار. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معا بن عثمان المتوفي سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان ماب الدعوة ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسي المتوفي سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا في زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعي المتوفي سنة ٤١٣ نسب إلى ما كان يكتفي به لسد رقمة من صنع

القنازع التي كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رءوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صوام النهار قوام الليل راضياً بالقليل من كسبه، ولم ينحط يوماً إلى مسألة أحد. ومن الزهاد في عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقي المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية فوعظه ووبخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفي سنة ٥٧٨ كتاباً في هاد الأندلس وأئمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين منها في نهاية القرن التاسع الهجري.

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفي سنة ٣١٩ للهجرة، كان قد ج وطوف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولا بد أن سمع بمحنة الحلاج وصلبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجاً من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة في الأندلس منشورٌ يندد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتمادى الطلب لأفرادها بقية عهد لناصر وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى لا أظلمهم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط في الدعوة لعقديتهم ما اضطر القاضي محمد ابن يبقى بطلمیوس زرب المتوفي سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم وتابت على يديه منهم جماعة. ن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويكر ابن حزم في كتابه "الفصل" من معتنقيها في النصف الأول من القرن الخامس

المهجري إسماعيل بن عبد الله الرعيني، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفني وأنه مستمر إلى مالا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية في الأندلس لعهد مرء الطوائف بل ظل لها اتباع في قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية.

وأخذ التصوف ينشط في عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدهما أبو العباس ابن العريف المتوفي بمراكش سنة ٥٣٦ هـ وهو من أهل المرية وله في لاتصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسين بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقته على الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التي يمن الله به على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقته هي طريقة الخواص التي تقف عند الفناء في محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء في المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السني، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه في الأندلس ابن برجان الإشبيلي عبد السالم بن عبد الرحمن المتوفي سنة ٥٣٦ هـ، وأيضاً ابن قسيابو القاسم أحمد بن الاحسين المتوفي سنة ٥٤٦ هـ والذي قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكن يتزعم في ثورته طائفة كبيرة من المرددين أي المتصوفة. وبلقانا في عصر المويين غير متصوف أندلسي ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفي مثل أبي عبد الله الشوي وتلميذه ابن دهاق المالقي المتوفي سنة ٦١١ للهجرة وينشا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري محي الدين بن عربي (٥٦٠-٦٣٨هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفي المعروف عن شيوخ متعددين

بذكرهم من ترجموا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية
لزمها سنتين خادماً ومريداً. وأشهر من جاءوا بعده في التصوف الفلسفي أبو الحسن
الششتري المتوفي سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفي سنة ٦٦٩. ويلقانا في القرن الثامن ابن
عباد الرندي المتوفي سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنها وجد بالعقيدة الشاذلية
السنية مأربه فانضم إلى اتباعها، وعنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري
ووصف في شرحه رياضته ومجاهداته النفسية.

الفصل الثاني

الثقافة

(١)

الحركة العلمية

لم يكن لإيبيريا دور حضاري في العالم القديم، إذ ظل سكانها قروناً متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مملكة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسي، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارات اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومته من القرطاجنيين، فأعانوهم، واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم في أفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعاً على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها في إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهي التي سمتها باسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة في حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو ولدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هدریان، وكانت الخطابة مزدهرة في روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعد بقوة لهذا الازدهار، كما أعد لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا في هذا النشاط الخطابي باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذي نشأ في قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذي ولد بقرطبة في العام الرابع قبل الميلاد، وجيء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة الرواقيين، وأصبح فيلسوفاً رواقياً ومعلماً كبيراً للخطابة، وعلمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورني وراسين مثلها المسرحي الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاثامه باشتراكه في مؤامرة ضده، ورحل إلى روما شاب إسباني هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتاباً كان - ولا يزال - المرجع الأساسي للأوروبيين في التعرف على الخطابة الرومانية، واشتهر بروما حفيد لسنيكا، هو " لوكان " الشاعر، وكان قد ولد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعراً متألقاً بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبي، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه في مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين.^(١)

(١) انظر في سنيكا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٠/١٦٣ وما بعدها وكذلك ١٧٤ وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديماً في الأدب اللاتيني أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم يتجوه في أسبانيا، بل أنتجوه في روما، وهو لذلك أدب لاتيني روماني خالص وإسبانيا - بذلك - لا تزال في العهد الروماني كما كانت في العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالاً إسبانية متميزة القسما بل ظلت روما ترعاها وتتعهدها في الحضارة كما تعهدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت في القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلمها العرب منهم، ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتاباً من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٤٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصوره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت في قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء في الحقائق، وتدل على ما كان فاشياً في عهد القوط بأسبانيا من الجهالة^(١)، وليس لهذه المجموعة أي ذكر في كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق ما يقوله سعد في كتابه طبقات الأمم من أن هذا القطر لم يعرف في العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقاً في وجه

(١) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢/١٩٤ وما بعدها.

الحكمة إلى أن فتحه العرب (١). وكان فيه - كما مر في الفصل الماضي - يهود ولكن لم يكن لهم أي كتاب علمي، وأيضاً لم يكن لهم دور في الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثيل العلم العربي ثم على المساهمة في ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جد الغرب في طلب العلم الأندلسي والوقوف عليه، ومثل اليهود - في ذلك - الصقالبة الذين مر ذكرهم في غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الربضي، وكانوا يتعلمون العربية ويتقنون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أي دور في الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكماً لإحدى المدن في عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء، أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - إلى أنها أسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومر بنا أن موسى بن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائماً مع الجيوش فقهاء يعلمون أهل الديار المفتوحة الإسلام ويحفظونهم بعض القرآن ويبصرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعاراً من شعائر الدين أخذ به المسلمون في جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة (٢)، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتاباً في عهده،

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة)، ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد)، ص ٤٠.

جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقي في أماكن مختلفة من أحياء قرطبة^(١)، وكانت قرطبة تكتفz بكتاتيب أخرى قبل كتابته، وكان معلم الكتاتيب يسمى مؤدباً، وكان يأخذ أجراً على تعليمه الناشئة^(٢)، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوي بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوه ابن خلدون بتعليم الناشئة في الأندلس قائلاً: "وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في تعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل وممارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي"^(٣). وابن خلدون يثنى - بذلك - على مؤدبي الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا في الناشئة - فضلاً عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مرنوهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يؤدب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والزوراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدب أبناء العامة في المساجد أو في دور ملحقة بها أو في دور مستقلة بهم أو في دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين ينهي هذا التعليم الأول على أيدي المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من

(١) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ٢/ ٢٤٠.

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبع القاهرة، ص ٢٧٨).

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٥٢.

العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوي، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم في أي علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى يبايعه الأساسية في المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تذكر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودي^(١) النحوي المتوفي سنة ١٩٨ والغازي^(٢) بن قيس المتوفي سنة ١٩٩. وكانت الرحلة في طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢-١٨٠هـ) بتحببها إلى الشباب القرطبي وتشجيعهم عليها، ورحل في عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطئه. وتصبح الرحلة في طلب العلم إلى المشرق تقليداً متبعاً منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرئ لمشاهيرهم فصلاً طويلاً في نفحة، وهي تدل على أنها ظلت تقليداً متبعاً قروناً متوالية ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الرضي (١٨٠-٢٠٦هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهد كثره مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الرض القبلي عليه بقرطبة، فقد ألهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلبوهم عن قرطبة فرحل فريق إلى در الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الإسكندرية ١٥ ألفاً وأنزلهم أميرها عبد الله بطلميوس طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي.

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٧٨.

(٢) الزبيدي ص ٢٧٧.

ويلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) ويقول عنه ابن سعيد في المغرب، كما مر بنا: "عنى أبوه بتعليمه وتخريجه في العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذي علم في فنه"^(١) ويقول ابن خلدون: "كان عالماً متبحراً في علوم الدين والفلسفة"^(٢) ويقول ابن القوطية: "التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته وإسعافهم في مطالبهم كلها"^(٣) وسنرى في غير هذا الموضع أنه هو الذي دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهدده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالمئتين - في المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمه بعد يحيى الليثي تضم ثلاثمائة طالب^(٤). وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأ/ير محمد (٢٣٨-٢٧٢هـ) ويقول ابن حيان نقلاً عن الرازي "كان مكرماً لأعلام الناس مقدماً على طبقاتهم ذوي الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف في رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم"^(٥) ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له^(٦)، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشني فقد رحل إلى المشرق وجلب أولهما كتاب مصنف ابن أبي شيبة في الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ١/ ٤٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ٤/ ١٣٠.

(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.

(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة) ٢/ ٨.

(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكي - طبع بيروت) ص ٢٤٥.

(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماء منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثاني أيضاً من المشرق حاملاً كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملأه الكتاب على الطلاب في لمسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) إنه "كان كثير التلاوة للقرآن مثابراً على درسه متصرفاً في فنون العلم متحققاً بلسان العرب بصيراً بلغاتهم وأيامهم حافظاً للغريب والأخبار آخذاً من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أجمع مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمراً ولا يؤخره إلى بمشورة أهل العلم والفقهاء باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوي الزمانة (١)" وفي ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وتبلغ الأندلس في عهد الذروة المنتظرة في قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية في أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستن له الإغداق على العلماء، ويكفي أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي بالفسطاط - وهو أندلسي الأصل - عشرة آلاف دينار (٢) ليفرقها على شيوخ المالكية بمصر لتتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستن لابنه الحكم أيضاً إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا في الأندلس علمهم، ووفد

(١) انظر المقتبس (طبع دار المعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبد الله وتقريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣١٣-٣١٤.

عليه من بغداد أبو علي القالي (١) سنة ٣٣٠ فبالغ في الحفاوة به، وقاد أبو علي في الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذ اللغويين الكثيرين. وكما عني الناصر بعلماء الدين واللغة عني بمن يدرسون علوم الأوائل ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه هدية بينها كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باليونانية، ولم يكن في قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعاً، وألف الناصر لجنة لمساعدته في ترجمة الكتاب إلى العربية (٢)

واقتردى الحكم بأبيه منذ كان ولياً لعهد وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية فنهض بها في أيامه، حتى إذا خلفه في الحكم (٣٥٠-٣٦٦هـ) عني بتلك الحركة إلى الرواة، وقد طرز القالي باسم أبيه واسمه كتابه الأمالي ونوه بهما طويلاً في مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين في الأندلس وفي المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب (٣) في فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشي، ووصلها بجائزة كبيرة، ومن لك كتاب الحقائق لأحمد بن فرج الجياني الذي

(١) انظر في وفادة أبي علي القالي على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٠٤ وإنباه الرواة ١/ ٢٠٤ ومعجم الأدباء لياقوت ٧/ ٣٠ وبغية الملتبس للضبي ص ٢١٦ وجذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ١٥٥.

(٢) انظر طبقات لأطباء والحكماء لابن جليل تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسي بالقاهرة) ص ٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٩٣ وما بعدها.

(٣) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وكان ابن داود ذكر في كتابه مائة باب في كل باب مائة بيت فجعل الجياني كتابه مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئاً^(١)، وسمع الحكم بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فأرسل إليه ألف دينار هباً ليعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقحة، وأرفقه بكتاب في أنساب أسرته الأموية موشحاً بمناقبهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضي الأبهري المالكي حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم في الفقه المالكي^(٢).

ويقول ابن الأبار: "لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها"^(٣) ويقول ابن خلدو: "اجتمعت بالاً، دلس لعهد خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده"^(٤). وكان له وراقون أو بعبارة أخرى جلاب كتاب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته في القصر كانت أربعاً وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون^(٥) ورقة - وفي رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التي اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمي، وكانت تزخر بالخذاق في صناعة

(١) انظر اجذوة ص ٩٧ وبغية الملتبس ص ٤٠ وابن دحية في المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم في الحلة السيرة لابن الأبار (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته في الحلة السيرة وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

النسخ والتليد (١) وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخاً منقحة غاية التنقيح. ويكر الحميدي في الجذوة أن الحكم مر يوماً بأبي علي القالي ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضي منذ بن سعيد التي أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوي ابن ولاد، ومكث معهم قليلاً يسألهم عن نسخ الكتاب (٢) ويقول ابن الأبار منوهاً بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: "كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد له كتاباً كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به (٣)". وطبيعي أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس في عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب في العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فسحب، بل أيضاً بفضل ما أغدق عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الواجب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب

(١) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعمائة ألف كتاب.

(٢) جذوة المقتبس للحميدي ص ٤٧ وما بعدها

(٣) ترجمة الحكم في ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ١/٢٢):

"كان الحك من طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأنه كثير من أهل العلم".

في المساجد، بل كان يعممها في المؤدبين الين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين في الكتاتيب (١) ومر بنا أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين كتاباً، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوه بأهله ورفع ذكرهم، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده (٢).

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبي عامر، لا ينازعه في ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع لنصارى في الشمال انتصر فيها دائماً واستولى منهم على برشلونة وحصوناً وبلداناً أخرى كثيرة، مما حجب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم في كل أسبوع يوماً يلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه (٣)، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادي للغوي، وألف له في اللغة كتباً مختلفة نال بها منه أموالاً جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وحين قده إليه أمر له توأ بخمسة آلاف دينار (٤). وكان يعني بالفقهاء والمحدثين عنايته بصاعد اللغوي واللغويين وكان شديد الطمو فأمر أن يحيى

(١) البيان المغرب لابن عاي ٣٥٨/٢.

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ٢٠١/١.

(٣) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة للقفطي (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مر بنا في الفصل الماضي - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقرباً للعامة - أن ينكل بتلامذة ابن مسرة الصوفي المتفلسف المعتزلي^(١)، ودفعه هذا التقرب إلى يأ/ - رضي الله عنه - بإحراق كل ما كان في مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم^(٢) حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التي ازدهرت في عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت في مدها، إذا كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبي عامر الفتنة أو الفتن التي ظلت أكثر من عشرين عاماً وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتنة أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التي كانت مخزنة في مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

واعد ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية في المدن الكبرى التي تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتشر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو أقل إمارات كثيرة، ففي كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها في العلم

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك ن قاضي الجماعة محمد ابن يبقى في صدر دولة ابن أبي عامر هو الذي تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولا بد أن كان ذلك بإيعاز منه. انظر التباهي في تاريخ قضاة الأندلس صلى الله عليه وآله وسلم ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا (لترجمة العربية) ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٣ ونسبة إحراق الك تب للخيفة هشام المؤي خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٢/ ٤٣٧.

والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه في السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنها أعيدت في هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتهما وما كان بينها من تنافس هياً لعصر من أزهي العصور اليونانية في الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهي الحقب في تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقاً كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بيني الأفطس في لطيموس بغربي الأندلس وقد صعدوا بالتأليف في الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس في موسوعته التي سماها كتاب المظفري في الأدب والتاريخ. وكانت نحو مائة مجلد^(١). وبث بنو ذي النون في طليعة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: "لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجاء"^(٢). ونهضت سرقسطة في أقصى الشمال بحركة علمية نشطة في الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت في دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بني هود وله في العلوم الرياضية تأليف مثل الاستهلال والمناظر^(٣). وكان مألفاً للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت في المرية شرقي الأندلس نهضة علمية وأدبية

(١) المغرب لابن سعيد ١/ ٣٦٤ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حنسة القيروان وعبد الله بن خليفة المصري الحكيم وأبو الفضل البغدادي الأديب.

(٢) المغرب ١٢/ ٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٢.

واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلي أول أمرائها، وكان كاتباً مبدعاً وشغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمئة ألف مجلد^(١)، وصارت الإمارة سريعاً إلى بني صمادح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة في عهد أميرها المعتصم وكان شاعراً مجيداً كما كان ممدحاً أكثر الشعراء من مديحه^(٢). وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون في مرسية وبلنسية في شرقي الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلماؤه^(٣). وكان لغرناطة في جنوبي الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمي والأدبي، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر في الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليعة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر في نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا بيوסף بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة في وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين في الشمال

(١) المغرب ٢/ ٢٠٦.

(٢) انظر ابن الأبار في الحلة السيرة ٢/ ٨٢ ويقول كان يجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في التفسير والحديث.

(٣) المغرب ٢/ ٤٠١ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ٣/ ١٥٧.

وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن الفقهاء في هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجري الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه^(١). واحتذاه في ذلك ابنه على خليفته في الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل في المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيهاً عالماً مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية^(٢). وكان مؤثراً لأهل العلم ويجري عليهم الرواتب الواسعة^(٣). وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨-٥٨٠هـ) وكان قد درس في إشبيلية على فقهاءها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حفظة حتى يقولون إنه حفظ البخاري بأسانيد، وشغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر^(٤). وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفاً مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة^(٥). وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو في الأندلس طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط في أيدي المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس في غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١/١٥٨.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٥) انظر كتابنا الرد على النحاة (طبع دار المعارف) ص ١٥.

استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة في حجر النصارى أن تستم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر في الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقيه (٦٧١-٧٠١) يراعون العلماء والشعراء، وعرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفاً بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسي ومحمد بن أحمد الرقوتي كي يدرسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية^(١). ولعل أكبر أمير من بني الأحمر نشطت دراسة العلوم في عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣-٧٥٥) الذي أنشأ لأول مرة في غرناطة - بل ربما أيضاً في الأندلس - مدرسة سماها المدرسة^(٢). النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعاً في المساجد أو في دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب في منازلهم، ولم يكن ذلك قاصراً على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاماً عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضاً عند بعض معلمي الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجري فإن الحركة العلمية

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة) ٣/ ٦٧-٦٨.

(٢) راجع هذه المدرسة في ترجمة رضوان النصري في الإحاطة ١/ ٥٠٨ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من

بنائها بسنة ٧٥٠.

ازدهرت بهما ازدهاراً عظيماً كما رأينا سواء في المساجد أو في منازل العلماء التي كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة في هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يلزم أتباعه رجالاً ونساءً بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعياً أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروض دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجواريمهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان في الصغر مثل ابنة حزم التي كانت تشترك مع أبيها وأخيها في تأديب الناشئة بدار واحدة^(١). وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم في أي فرع من فروع العلم إلا ويأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعليم القراءة والكتابة وشيء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كن يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الرضي (٢٠٦-٢٣٨هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبته وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد^(٢). وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعاً منه وقراءة عليه، وصحبه، وكان لها يوم في الجمعة تنفرد فيه به

(١) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

(٢) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٨ / ٢ / ٤٨٤.

لأخذ العلم عنه بداره، وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس^(١). ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديباً شاعراً وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) كاتبة لها^(٢). ومر بنا في الفصل الماضي ثلاث من جواري القصر الأموي كانت اثنتان منهن: مزنة وكتبان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة لبني تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحرير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التي عزي فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبي عامر عن أبيه وجدد له العهد بالحجابة^(٣). سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجواري في قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهم اللائي كن يقمن على تربية النشء في تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء في العهد الأموي إذ يقول عن نشأته في أواخر القرن الرابع الهجري بكتابه طوق الحمامة: "إنني ربيت في حجور الجواري ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين بقل^(٤). وجهي وهن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار"^(٥). وتلقانا في كتب التراجم من حين لآخر عالمت متعمقات في العلم مثل ابنة فائز زوجة أبي عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر

(١) المراكشي ٨/٢/٤٨١.

(٢) نفس المصدر ٨/٢/٤٨٥.

(٣) المراكشي ٨/٢/٤٩٣.

(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.

(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر أحمد مكي طبع دار المعارف) ص ٧٩.

وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبي عمرو الداني المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبي داود بن نجاح في آخر سنة ٤٤٤ للهجرة^(١). وكانت تعاصرها إشراف السويداء وقد برعت في العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها في علم العروض وعنها أخذ أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأما القالي^(٢). والشتهرت في تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتاني بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة^(٣). وتلقانا في القرن السادس أم العز^(٤). رواية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتها، وكانت الطيبة لنساء الأمراء من بني عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجوارهم، وكانت تستفتي في الطب لرجلهم فتزید حظوة^(٥). عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتعد بحق - جدة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللاتي كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت

(١) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشي ٨/٢/٤٩٤.

(٢) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشي ٨/٢/٤٨٠.

(٣) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة لابن بسام (تحقيق إحسان عباس) ص ١١٢.

(٤) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشي ٨/٢/٤٨٣.

(٥) أنظرها في الذيل والتكملة للمراكشي ٨/٢/٤٨٣ وراجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة في ترجمة أخيها الطبيب أبي بكر ابن زهر، وكانت ابنتها طيبة مثلها.

تتجول في بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة^(١). ويذكرون عن محيي الدين بن عربي الصوفي المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصور زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها في دفعه إلى التصوف نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادماً ومريداً، مأخوذاً بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم في موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التشقف بالشعر، مما هياً لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

(١) انظر المراكشي ٨ / ٢ / ٤٨٥.

علوم الأوائل – الفلسفة – علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل:

لم يكن في إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافاً منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) إن أباه الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) عني بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث في الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضي ابن سعيد في ترجمته قائلاً إنه: وجه عباس بن ناصح إلى العراق في التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها^(١). وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد في الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسياً في زمنه يقبل على دراسة علم

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥ / ١.

الفلك والهيئة ويصبح منجمًا له هو عبد الله بن الشمر، وكان شاعرًا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجري عليه راتبًا للشعر وراتبًا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهدده، وله معه في التنجيم أخبار طريقة^(١).

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين في القرن الثالث الهجري منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بهما من الرياضيات، وأخذوا سريعًا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس^(٢). بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة في أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: "كان فيلسوفًا حاذقًا وشاعرًا مفلحًا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء" ويقول ابن حيان في المقتبس: "أبدع عباس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتلفس وأغرب في غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصوغ اللحن". وبلغ من علمه بالفلك أن صنع في بيته قبة على هيئة السماء تترأى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال في تطير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سرق (شقق) الحرير فتهيأ له أن طار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل في الهواء فلحق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة.

(١) انظر في ابن الشمر المغرب ١/ ١٢٤ والمقتبس (تحقيق د. مكّي) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضي رقم ٦٨٩ والزبيدي ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذاري ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشني ص ٨٣. والجذوة للحميدي رقم ٥٠٥ وبغية الملتبس رقم ٨٤٥.

(٢) راجع في ابن فرناس المغرب ١/ ٣٣٣ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

وتأخذ علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة في النمو منذ عصر الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم في علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جلب وأكب العلماء عليه يدرسونه. وطبيعي لذلك أن يظهر في عهد المستنصر مسلمة^(١). والمجريطي المتوفي سنة ٣٩٨ وهو يفتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد ترجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: "سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها" وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة في الاسطرلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمي أو جداوله الفلكية وقد حولها من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربي وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتاني سماه تعديل الكوكب. وخلفه في الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمر المنصور بن أبي عامر في زمن حجابته بإحراق كتب علوم الأوائل - كما مر بنا - كان حدثاً عارضاً، وظل لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطها في بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم^(٢). أصبغ بن محمد بن السمع الغرناطي المتوفي سنة ٤٢٥ وكان رياضياً بارعاً في الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك

(١) أنظر في مسلمة المجريطي طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدوميلي (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص ٣٥١ وفي مواضع مختلفة (أنظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣٢٣/٤.

(٢) راجع طبقات صاعد ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ وبالنثيا ص ٤٤٩ وألدوميلي ص ٣٥١.

وحركات النجوم وله "المدخل إلى الهندسة" في تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة في الحساب، وكتابان في الاسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعته والآخر في العمل به، وله أيضًا زيغ فلكي انتفع به وبكتابات الفلكية ألفونس العاشر وعلماءه. ومن تلاميذ مسلمة ابن الصفار^(١). أحمد بن عبد الله الغافقي، وله زيغ جيد ورسالة في العمل بالاسطرلاب، وكان يعلم في قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة في أوائل القرن الخامس الهجري - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامري وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضًا الكرمانى^(٢). عمرو بن عبد الرحمن المتوفي سنة ٤٥٨ عن تسعين عامًا وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بني هود في رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨-٤٧٤هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤمن إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يكب على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضًا كتاب الاستهلال في الفلك^(٣).

ولعل في التلامذة السابقين لمسلمة المجريطي ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولا

(١) أنظر في ابن الصفار طبقات صاعد ص ١٠٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنثيا ص ٤٥٠ وألدوميلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٢) راجع في الكرمانى طبقات صاعد من ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنثيا ص ٤٥٥ وألدوميلي ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنثيا ص ٤٥٥ وعاش في بلاط بني هود من تلامذة مسلمة المجريطي ابن البغونش أنظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٥ وبالنثيا ص ٤٥٣.

يلبث أن يظهر في عصرهم علم الرياضيات الزرقالي^(١). القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢ وهو من أعظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية واسطرلاب و اخترع له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر في الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكوكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماءه من مؤلفاته رسالة في العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما ترجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه "طريقة في عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها".

ويتهيء عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس في حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير في عهدهم ولكنه لا يعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون في الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ويلمع في عصرهم اسم جابر^(٢). بن أفلح الإشبيلي وله كتاب في حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم الذي سماه إصلاح المجسطي، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التي تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دي كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. وت خلف دولة الموحدني دولة المرابطين في الأندلس منذ العقد الخامس في القرن السادس الهجري، ويتألق في عهدهم بالنصف الثاني من القرن اسم عالم رياضي إشبيلي عربي يعد في طليعة

(١) انظر الزرقالي في طبقات صاعد ص ١١٧ وبالنيثيا ص ٤٥١ وألدوميلي ص ٣٥٩ (أنظر الفهرس).

(٢) أنظر في جابر بالنيثيا ص ٤٥٦ وألدوميلي ص ٣٨٣.

الرياضيين العالميين، ونقصد البطروجي^(١). أبا اسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكي في علم الهيئة، إذ قوض فيه نظرية بطليموس في كتابه المجسطي عن الكواكب السيارة قائلاً إنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وترجم هذا الكتاب الفلكي سريعاً إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليعة واطلع عليه حوالي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجي الفلكية مبكراً إلى العالم الغربي وترجمها إلى العبرية موسى بن طبون سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية كالينيموس بن داود سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩ ونشرت ترجمته في البندقية سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣١م. وبدون ريب اطلع كبلر^(٢). الألماني (١٥٧١ - ١٦٣٠م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عد كبلر أباً لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعي، فأبوه الشرعي الحقيقي هو البطروجي الإشبيلي العربي. وتوقف هذا النشاط في الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت في يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها في أيدي المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة في الأندلس، وأخذ النشاط في علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التي ظلت للعرب في الجنوب نحو قرنين

(١) راجع في البطروجي ابن أبي أطبيعة ص ٤٨٢ وبالنشا ص ٤٥٦ وألدوميلي ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) راجع بالنشا ص ٥٣٥.

ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرقوتي^(١). محمد بن أحمد وتوفي بها سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٤م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات في مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب في حضرته، ولباه سريعاً، ويختتم الرياضيين الأندلسيين في نهاية القرن التاسع الهجري القلصادي^(٢). على بن محمد القرشي وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفي ببجاية سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م وظلت كتبه تتدارس في المغرب طويلاً وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

وازدهر الطب في الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جليجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بصر بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط^(٣). (٢٠٦-٢٣٨) ويمكن أن نعزم ذلك في الأندلسيين بعامة، كما مر بنا آنفاً، فإنهم انتظروا في ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته في الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) طبيب يسمى حمدين^(٤). بن أبان وكان - كما يقول ابن جليجل - طبيباً حاذقاً، ووفد على قرطبة

(١) انظر في الرقوتي بالثيا ص ٤٥٧ والإحاطة ٣/ ٦٧ وما بعدها.

(٢) راجع في القلصادي ترجمة واسعة في نفح الطيب ٢/ ٦٩٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوي ٥/ ١٤

وبالثيا ص ٤٥٧ وما بعدها وألدوميلي ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ

محمد أبو الأجفان.

(٣) طبقات الأطباء والحكماء لابن جليجل ص ٩٢.

(٤) أنظر فيه ابن جليجل ص ٩٣ وبالثيا ص ٤٦١.

حيثند طبيب من المشرق يسمى الحراني^(١). اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سماه المغيث، ويذكر ابن جلجل في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) طبيباً يسمى اسحق وآخر يسمى ابن ملوكة^(٢). ثم أخذ علم الطب في الازدهار لعهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) إذ كثر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا في صدر دولته يحيى^(٣). بن اسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله في الطب كتاب في خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حيثند سليمان^(٤). بن باج، وكان يعاصره سعيد^(٥). بن عبد الرحمن ابن أخي عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفي سنة ٣٤٢ وكان حاذقاً في علاج الحميات، وله كتاب في الصيدلية. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) أحمد^(٦). بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتعلمذا لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرأ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحراني وأخذاه عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفي

(١) أنظر في الحراني ابن جلجل ص ٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦.

(٢) راجع في ابن ملوكة واسحق ابن جلجل ص ٩٧ وابن أبي أصيبعة في ٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيًا لقعود الناس.

(٣) انظر في يحيى بن اسحق ابن جلجل ص ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٨.

(٤) راجع في ابن باج ابن جلجل ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩.

(٥) أنظر في سعيد ابن جلجل ص ١٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١/ ١٢٠ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنشأ ص ٤٦٢.

(٦) راجع في أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص ١١٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٧ وبالنشأ ص ٤٦٤.

عمر، وظل المستنصر حفيًا بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهرًا في علاج أمراض العيون كما كان صيدلانيًا حاذقًا، وكان يعاصره محمد^(١). بن عبدون الجبلي وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبر مارستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وتتوج النهضة الطبية حينئذ بالزهراوي^(٢). أبي القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التي بناها غربي قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفي سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة في ثلاثين جزءًا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقسامًا ثلاثة: قسمًا في الطب العام والأمراض وقسمًا في الصيدلة وقسمًا في الجراحة، وعني جيراردي الكريمووني في القرن الثاني عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزاءه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر في البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب في الغرب، وظل يدرس في الجامعات الأوربية من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدون الزهراوي إمامهم في الجراحة سواء في جراحة العظام أو في جراحة الحصى في المثانة والمهبل والشق عنها

(١) أنظر في ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع في الزهراوي الصلة لابن بشكوال ٣٦٨ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربي

لبروكلمان ٤/ ٣٠٠ وما بعدها وبالنشأ ص ٤٦٥ والدوميلي ص ٣٥٣، ٣٥٥.

وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالي وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهي تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البطروجي السالف الذكر أبا لعلم الفلك العالمي.

ويظل علم الطب في الأندلس مزدهراً في عصر أمراء الطوائف وكذلك في عصر المرابطين والموحدين، ويتوارث في بعض البيوت مثل بيت بني زهر بإشبيلية، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين في القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك^(١). جدهم وكان ماهراً في صناعة الطب، وطارت شهرته بها في عصر أمراء الطوائف إلى أن توفي سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء^(٢). طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه على إلى أن توفي سنة ٥٢٥ للهجرة، وله في الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها في السنة التالية لوفاة، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحياناً باسم كتاب النكت) وقد نشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك^(٣). طبيب المرابطين ثم

(١) أنظر في طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩ والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٧ والذيل والتكملة للمراكشي تحقيق د. إحسان عباس ٥/١/٣٧.

(٢) راجع أبا العلاء في التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص ٢٠٣ وفيه أنه طبيب زماناً طويلاً بالمشرق وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبذ بها أهل زمانه.

(٣) أنظر في عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ابن أبي أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا

الموحدين إلى أن توفي سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله في صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقى منها ثلاثة إلى اليوم، هي: كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد وهو في الطب الباطني، وكتاب الأغذية والأدوية وهو في الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو في الطب العملي، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة في البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلي: "يعد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربي عملي (كلينيكي) بعد الرازي". وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذي انفرد بالإمامة في الطب لزمانه إلى أن توفي سنة ٥٩٥ ومربنا في غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب في هذا البيت، فكان عبد الله^(١). بن أبي بكر بن زهر طبيباً حاذقاً وخدم الناصر الموحدي (٥٩٥-٦١٠هـ) إلى أن توفي سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبي الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات في الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبي العلاء زهر، وتلقن صناعة الطب عن ابن رشد

بمدريد) رقم ١٧١٧ وبالنشأ ص ٤٧١ وألدوميلي ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.

(١) راجع ابن أبي أصيبعة في ترجمة أبيه ص ٥٢٩.

ابنه أبو محمد^(١). عبد الله وخدم بها الناصر الموحيدي. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بني الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفي سنة ٧٧٠ رسالة في وصف وباء الطاعون الذي اجتاحت مدينة المرية سنتي ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوي وأسبابها ومرض الطاعون وصفًا طبيًا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب في الطب كتابًا في جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعياً أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس في الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مر بنا، وكان له تأثير بعيد في نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقاً في صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جليل في ترجمته إنه تولى خزانة الطب في قصر المستنصر، ورتب لها اثني عشر صفيًا صقالية طبّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. ونلتقي في عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر بصيدلي يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبي أصيبعة^(٢). كتابًا يسمى كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جليل^(٣). مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذي يتردد ذكره في

(١) أنظر أيضًا ابن أبي أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

(٢) راجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣.

(٣) انظر في ابن جليل طبقات الأمم لصاعد وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتبس للضبّي (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالثلثا ص ٤٦٥ وألدوميلي ص

الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسر لها في الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة في ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب، ومقالة ثانية في أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن^(١). سمجون وله كتاب في الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيدالة في عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلي في عصرهم ابن^(٢). وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: "تمهر في علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله نوادر محفوظة في الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه، وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأميرها المأمون بن ذي النون. وتسند كتب الصيدلة حيثئذ كتب ألفت في الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع في الفلاحة لابن^(٣). حجاج الإشبيلي المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردني. وهو يفيض في بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكة والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب في الفلاحة كتاب لأبي عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في

(١) أنظر في ابن سمجون ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنشيا ص ٤٦٧.

(٢) راجع في ابن وافد طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنشيا ص ٤٦٧.

(٣) أنظر ابن حجاج في المغرب ١/ ٢٥٦ وبالنشيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع في الفلاحة.

نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفي سنة ٤٩٩ بعنوان: "القصد والبيان".

ونمضي إلى القرن السادس الهجري، ونلتقي فيه بصيدلي كبير هو أحمد^(١). بن محمد الغافقي المتوفي سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتي نقل عنه، وأيضاً فإن ابن العبري المتوفي سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصراً ونشره جورج صبحي وماكس ما يرهوف بالقاهرة. وتلتقي بعده بابن^(٢). العوام أبي زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدير، وهو موسوعة تاريخية نفسية في علم النبات، وقد عدد منه ٥٨٥ نوعاً منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. وممن تعمقوا في دراسة النباتات في الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية^(٣). الإشبيلي المتوفي سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر في طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجول في الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية، وأعظم ما أهدها إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار^(٤). أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو

(١) راجع في الغافقي ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٧٢ وألدوميلي ص ٤٠١.

(٢) راجع في ابن العوام بالنثيا ص ٤٧٥ وألدوميلي ص ٤٠١ وأعمال مؤتمر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٩م) ٢/ ٢١٥-٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٣) انظر في ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدوميلي ص ٤١٤.

(٤) راجع في ابن البيطار ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاعر (تحقيق محمد يحيى الدين عبد

ضياء الدين عبد الله بن أحمد، وقد تجول في نواحي المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل رئيساً على العشائين بمصر، وظل يرأسهم في عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: أوجد زمنه في معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" المطبوع ببولاق في أربعة مجلدات وهو معجم أبجدي للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيراً أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثاني المغني في الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده في العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلي في الأندلس بعده محمد بن^(١). السارج الغرناطي المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراکش ووضع في الأدوية والأعشاب كتباً كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة:

الحميد) ١/ ٤٣٤ وبالنشأ ص ٤٧٨ وألدوميلي ص ٤١٤.

(١) أنظر في ابن السراج بالنشأ ص ٤٨٢.

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها في الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن^(١). عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكراً بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه في عقيدته، وكأنها خشى على نفسه، فرحل في سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختلف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحرية في إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأً إلى إنبادوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلي المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذي النون المصري الذي كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألف في ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح في أحاديث الشفاعة ويؤول آيات القرآن. وكان يستر دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه

(١) راجع في ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخيار الحكماء للقفطي (طبع لبيزج) ص ١٦ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها وكتاب الناصر في التنديد بمذهبه ص ٢٥ والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة) ١٩٨/٤ وبالشيا ص ٣٢٦.

سرا، ويبدو أن إتياعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يتلى على الناس في قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضح فيه نحلتههم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لأي القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمر من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور في عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمه من التسامح الفكري حتى إذا توفي وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبي عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضي قرطبة محمد بن يقي بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألف ابن يقي ضد هذه التعاليم كتاباً ينقضها، وحاكاه في ذلك الزبيدي اللغوي. ويظل لابن مسرة إتياع مستترون. ويذكر ابن حزم في كتابه الفصل - كما مر بنا - داعياً كبيراً لتلك التعاليم كان يعاصره في القرن الخامس الهجري، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فإما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعيني، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبداً، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه^(١). وظلت تعاليم ابن مسرة حية في الأندلس طويلاً، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربي، وأيضاً عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا في اتجاهه

أو بعبارة أخرى في اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسططاليس.

وكثر هذا الاتجاه في عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطي المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأمم مراراً إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد الوقشي الطليطي وابن الجلاب السرقسطي وابن سيده المرسى، وفيه يقول: "عني بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفاً كبيراً مبسوطاً". وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية^(١). بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدير مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن^(٢). السيد البطلوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوي وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: "كتاب الحقائق في المطالب الفلسفية العويصة" وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفنى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.

(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ١/ ٣٨٥ وقلائد العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٣/ ٦٩ وأزهار الرياض ١/ ٥٦، ٣/ ١٠١ وبالشياص ٣٣٤.

ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرًا من محاوره تيمائوس ونقل بالثيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاور.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن^(١). باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنيت بالترجمة له شيئًا عن نشأته ودراسته، ويبدو أن أكب مبكرًا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكب على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغًا عظيمًا. وكان شاعرًا مبدعًا كما كان ناثرًا بليغًا، مما جعل ابا بكر^(٢). بن تيفلويت حين حكم سرقسطة من قبل المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتبًا له ووزيرًا، حتى إذا توفي هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مراثيه وتغني بها في ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين في المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبي أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل

(١) انظر في ابن باجة القفطي ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح في القلائد ص

٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفح الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والوافي بالوفيات للصفدي

(طبع استانبول) ٢٤٠/٢ والخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار

التونسية ٣٣٢/٢ وبالثيا ص ٣٣٥.

(٢) أنظر ترجمته في الإحاطة ١/٥٠٤.

ابن سينا بأن لك الرجحان في أقاويله، وقد عني عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعي أو سماع الكيان، وجزءاً من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءاً من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابي والأدوية المفردة لجالينوس وأيضاً لابن وافد. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله في الفلسفة كتاب في البرهان وكتاب في النفس وكتاب في العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدير وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أي رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوي الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصل بين التأمل العقلي وبين عون علوي، محاولاً الوصل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طفيل وابن رشد^(١)، فبلغا بالفلسفة الإسلامية في موطنها الغاية التي ليس وراءها غاية.

(١) انظر في تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشي (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفي تلمذة ابن رشد له ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

وابن طفيل^(١). هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسي، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة في برشانة من أعمال المرية، وقيل في وادي آش من أعمال غرناطة، وقيل بل في تاجلة من أعمال جيان، وقد أكب على كتب الفلسفة والطب مبكراً، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف في زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف في الفلسفة مثل كتاب له في النفس، واشتغل بالطب في غرناطة وبعث بعض الأعمال الإدارية فيها وفي سبتة وطنجة، ثم صار طبيباً لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذته مستشاراً، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، ومن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيماً به إلى أن توفي قبله بقليل في مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له في الطب والفلك مؤلفات سقطت في يد الزمن، ويقول البطروحي أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر في عصره إلى اليوم بقصته: حتى بن طفيل، وسنخصصها بحديث مفرد في الفصل الأخير.

(١) راجع في ابن طفيل المعجب ص ٣١١ وما بعدها والمغرب ٢/ ٨٥ وتحفة القادِم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٢/ ٤٧٨ وبالنبأ ص ٣٤٨ والميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقي. (طبع دار المعارف).

وابن رشد^(١). هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، ولد لها في العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضياً في إشبيلية سنة ٥٦٥ وفي قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكب على دراسة الفقه في بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعاً مهماً في الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وترجم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٨٢ وترجم له أيضاً إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب طبع أيضاً في البندقية بعد كتابه الكليات بستتين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٧٧-٥٨٠هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو في كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو

(١) راجع في ابن رشد ابن أبي أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار في كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوافي بالوفيات للصفدي (طبع استانبول) ١/ ١١٤ وابن فرحون في الديباج المذهب ٢/ ٢٥٧ والمغرب ١/ ١٠٤ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٤ وابن العماد في الشذرات ٤/ ٣٢٠ وبالثلثيا ص ٣٥٣ وتراث الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقاله كراي فو عنه في دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابي د. عاطف العراقي عن النزعة العقلية والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد. (طبع دار المعارف).

سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضي إشبيلية حينئذ - فاستدعاه وطلب إليه ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥هـ) حتى إذا انتصر في موقعة الأرك المشهورة ضد نصارى الإيبان سنة ٥٩١ أخذته الحمية للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدوم العالم بالقوة موافقاً بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالاً، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه في سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراكش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبي نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحاً مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: "رأيت له تلخيص كتب أرسطو في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة لخص في كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء" ويقول بالثبث إنه وضع شروحاً مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحاً متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضاً مؤلفاته الأصلية في الفلسفة وفي مقدمتها تهافت التهافت الذي يرد فيه على الغزالي في كتابه تهافت

الفلاسفة مدافعًا بحرارة عن الفلسفة وأرسططاليس. وله شروح على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وترجم إلى اللاتينية أيضًا كتاباه: "الكشف عن مناهج الأدلوة في العقائد الملة" و"فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" ومن قوله فيه: "الحكمة (أي الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجواهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل في قصة حي بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفي كل إنسان قبس منه، وإذا ازداد اتصاله به سما إلى حالة الكشف الصوفي. وأدته محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل في النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين رأي أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالي وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وجد وتشكل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلي أو جزئي، إذ هو علة الموجودات جميعًا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريموني (١١٨٧م) وميشيل سكوت الإنجليزي (١٢٣٥م) وهرمان الألماني (١٢٧٢م) يذيعون أعماله أخذت تدرس في الجامعات الأوروبية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتي الأستاذ

بجامعة باريس وطرده من رحابها في سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقاً رشدياً، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكاني الألماني ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكويني هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه في التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه في طريق واحدة متبعين خطاه فيما قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقيصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لا تران البابوي قرر سنة ١٥٠٢ لعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الديني في النهضة الأوروبية، ويقول بالنشأ إن تأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوروبي كان حاسماً، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يعد - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام في الأندلس.

(ج) علم الجغرافيا:

تابع الأندلسيون المشاركة في الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربي والإسلامي، وقد يصفون أنحاء من أوروبا الغربية والشرقية، وضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك في جاهليتهم حين كانوا يكثرون من الرحلة وراء الكلا ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج

جزءاً لا يتجزأ من عبادتهم ومنسكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقاً إلى أواسط آسيا وغرباً إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعياً أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوه ورحالته، وأن تشارك الأندلس في ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافي مهم نلتقي به فيها أحمد^(١). بن محمد الرازي المتوفي سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافي، ولم يبق من أعماله سوى قطعة في جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: "أخبار ملوك الأندلس" وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها في قسميها الغربي والشرقي وإنهارها وجبالها وكورها ومذنها وإنشاءها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان في كتابه - وكذلك ابن سعيد في كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو^(٢). عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس في عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) المتوفي سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك. ويلقانا في عصر أمراء الطوائف أحمد^(٣). بن عمر بن أنس العذري الدلائي المري المتوفي سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك وفيه

(١) أنظر في الرزي جذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي

رقم ١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص ٥٦.

(٢) راجع في أبي عبد الله التاريخي الحميدي رقم ٩٠ وبغية الملتبس للضبي رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار

رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.

(٣) أنظر في الدلائي الحميدي رقم ٢٣٦ والضبي رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

يعرض كور الأندلس وأجزائها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضًا أبو عبيد البري^(١)، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان آباؤه أمراء ولبة وشلطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذهما منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتعلم على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المرية، وأرسله ابن صمادح صاحبها في رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فأثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفي. وله في الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه مطبوع، والكتاب الثاني معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع في جزيرة العرب طبعه وستنفذ قديماً، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة في أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد في مقدمته: "هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة" واستهله بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

(١) راجع في أبي عبيد البكري الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص ١٩١ والصلة لابن بشكوال ص ٢٨٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ والمغرب ١/٣٤٧ والحلة السيرة (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص ١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا ص ٣٠٩ وما بعدها وألدوميلي ص ٣٦٠.

ونلتقي في انصف الأول من القرن السادس الهجري بجغرافي يسمى محمد^(١). بن أبي بكر الزهري عاش في المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافي في وصف ما سماه "الخارطة المأمونية للعالم" وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعني بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليتمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا في الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها في مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس لابن غالب^(٢). من مؤرخي القرن السادس الهجري وهي تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورتها ومحاربه ومنبره ومع بيان الجبال في الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفي سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسي من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرئ احتفظ بها في النسخ، وله في الجغرافيا كتاب مجمل سماه "كتاب بسط الأرض في الطول والعرض"، ويقول الدكتور حسين مؤنس: "يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها في دقة^(٣)".

(١) انظر في الزهراوي د. مؤنس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع في ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع لها وقد نشرها في الجزء الثامن من المجلد

الأول في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د. مؤنس ص ٤٥٢ وما بعدها.

(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدئ من جزائر الخالدات في المحيط الأطلسي، وتنتهي بجزائر السيلي أي اليابان. وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية في وصف غرناطة لكتابه: الإحاطة في تاريخ غرناطة واللمحة البدرية في الدولة النصرية. وحرى بنا أن نذكر محمد^(١). بن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

(١) راجع في الحميري كراتشكوفسكي ص ٢٩٥ وبالمثيا ص ٣١١ ود. مؤنس ص ٥٢٩.

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعياً أن تعني الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سوراً منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا في الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعاً النطق بالفصحى وبيع بعض آيات القرآن الكريم في صلاتهم. وملتقى في القرنين الثاني والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائلهم الغازي^(١). بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفي الغازي سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقي بالأصمعي ونظرائه في اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ في الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس في القرن الثاني والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين في القراءات والفقه والحديث النبوي. وعلى شاكلته في الرحلة والأخذ عن الأصمعي ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى^(٢). الهواري، وله كتاب في القراءات وكتاب ثان في التفسير. ومن معاصريهما جودي الراحل إلى المشرق

(١) أنظر في الغازي كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي بتحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم

(طبع ونشر الخانجي) ص ٢٧٦.

(٢) انظر في الهواري الزبيدي ص ٢٧٥.

المتوفي سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائي إمام النحو الكوفي وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف في النحو، وكان يعاصره محمد^(١). بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الرضي الراحل بدوره إلى المشرق. ويذكر الزبيدي في طبقاته عشرات من لغويي الأندلس في القرن الثالث الهجري، منهم عثمان^(٢). بن المثنى القيسي تلميذ ابن الأعرابي، لقي أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد^(٣). بن الفرج وكان من أقوم العلماء في زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبد الله حفيد الغازي السالف ذكره، تتلمذ للغويي العراق من أمثال الرياشي وأبي حاتم وجلب إلى الأندلس علماً كثيراً من اللغة والعربية، وعنه روي الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنها ثابت^(٤). بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضي منذر بن سعيد بسماحه من أبي العباس بن ولاد المصري المتوفي سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط^(٥).

(١) راجع الزبيدي ص ٣٠٦.

(٢) انظر في ابن المثنى الزبيدي ص ٢٨٨ وابن الفرضي ٨٨/١ والمغرب ١/١١٢.

(٣) راجع في الرشاش الزبيدي ص ٢٨٤ وابن الفرضي ص ١٤١ والحميدي ص ٢١١ والمغرب ١/١١٤.

(٤) أنظر في ثابت وابنه قاسم الزبيدي ص ٣٠٩ وابن الفرضي ٨٨/١ وبغية الملتبس للضيبي ٢٣٨ وإنباه

الرواة للقفطي (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم) ١/٢٦٢.

(٥) الحميدي ص ٤٧.

وينزل قرطبة أبو علي^(١). القالي اللغوي الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوي عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالي هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه "الأمالي" وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه "ذيل الأمالي والنوادر" وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتابا في الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبياني وعلقمة والأعشى والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدي وأوس بن حجر والقطامي والأخطل وذو الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه "البارع" وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت في النمو أثناء القرن الرابع الهجري على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالي في اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريफ الأفعال طبعه جويدي في ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذي فتح للعلماء الكتابة في هذا الموضوع، وله كتاب في المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يجد

(١) راجع في القالي الزبيدي ص ٢٠٢ وابن الفرضي ٨٣/١ والقفطي ٢٠٤/١ وبغية الملتبس ٢١٦ ومعجم الأدباء ٢٥/٧ والأنساب للسمعاني ٤٣٧ب وابن خلكان ٢٢٦/١ والحميدي في الجذوة ١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفي مواضع مختلفة وشذرات الذهب ١٨/٣.

ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية في القرن الرابع الزبيدي^(١). محمد بن الحسن تلميذ القالي المتوفي سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: "كان واحد عصره في حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه" واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال في عهدهما دنيا عريضة، وفي مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيرا من المواد التي يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لا يمكن أن يروي عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوي بصري، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله في لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبد التواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجري في ألسنتهم من أخطاء. ومن لغويي القرن الرابع السرقسطي^(٢). سعيد المعافري المتوفي بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبي بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه في كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد

(١) انظر في الزبيدي ابن الفرضي ٩٢/٢ والحميدي ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتبس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا في الهوامش.

(٢) راجع في السرقسطي الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

نشره مجمع اللغة العربية في أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدي ابن الإقليلي^(١). إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روي عن أستاذه كتاب الأمالي للقالبي، وله شرح جيد على ديوان المتنبي. ومن لغويي القرن الخامس ابن سيده^(٢). على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفي المغرب لابن سعيد: "لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفاً، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر" وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثاني المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعاني في سبعة عشر مجلداً، ويذكر في مقدمته مصادره، وهي تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في اللغة كتاب لعالم لغوي قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده في هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: "كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية"^(٣). وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثاً من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن حزم معاصره يتنبه بقوة على أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعاً لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات في لغة واحدة، يقول في كتابه

(١) انظر في ابن الإقليلي الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسن عباس) ٢٨١ / ١ والصلة ٩٤ والإنباه ١ / ١٨٣ ومعجم الأدباء ٢ / ٤ وابن خلكان ١ / ٥١.

(٢) راجع في ابن سيده الحمدي وبغية الملتبس رقم ٢٠٥ والمطلع ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٣١ وابن خلكان ٣ / ٣٣٠ والأنباه ٢ / ٢٢٥ ونكت الهيبان ٢٠٤ وشذرات الذهب ٣ / ٣٠٥ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢ / ٢٥٩.

(٣) انظر المخصص لابن سيده ١٣ / ١٦٧.

الإحكام في أصول الأحكام: "إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة - لا لغة حمير - هي لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي.. وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل^(١)". وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعاً لغة واحدة، وتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شمالاً وغرباً أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثاً، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوي فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه اللغات المقارن بين اللغات السامية التي ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوربيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم في ذلك نفس شأنهم الذي مر بنا في قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلام الشتمري^(٢). يوسف بن سليمان المتوفى سنة

(١) راجع الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم (طبع القاهرة) ٣٠ / ١.

(٢) انظر في الشتمري الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٧ / ٨١ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٦٠.

٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلي: امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ في شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هدهاء كتب أبو بكر عاصم^(١). بن أيوب البطليوسي المتوفى سنة ٤٩٤ شرحاً لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبدي البكري المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب للآلي في شرح أمالي القالي نشره عبد العزيز اليمني بالقاهرة، وكتاب فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويي الأندلس المهمين ابن السيد^(٢). البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبي العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضاً شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الاشتراكوني أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل في الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا في أوائل القرن السابع الشريشي أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحه لمقامات الحريري منشور بمصر.

ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(١) راجع في عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

(٢) انظر مصادره في ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون في القرنين الثاني والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومر بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتبا بالكسائي، وله تأليف في النحو، ويروي أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ كتاباً في إعراب القرآن، وملتقى في أواخر القرن الثالث الهجري بالأقشطين^(١). محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينوري كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. وملتقى بعده بمحمد^(٢). بن يحيى الرباحي المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفي دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدي، وهو أستاذ في النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذي نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفيلي المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمي عن الرباحي. ولابن سيده الذي تحدثنا عنه آنفاً بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي وينوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيها مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا علي الفارسي وابن جني، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم في نحو المدرستين

(١) انظر في الأقشطين الزبيدي ص ٣٠٥ وابن الفرضي ١/ ٣٢٩ والإنباه ٣/ ٢١٦.

(٢) راجع في الرباحي الزبيدي ص ٣٣٥ وابن الفرضي ١/ ٣١٤ والإنباه ٣/ ٢٢٩ وابن خلكان ٤/ ٣٧٢.

البصرية والكوفية - في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمري الذي عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفاً بعلل النحو المعقدة، وقد روي كتاب سيبويه عن ابن الإفليل وأقرأه لطلابه مذلاً لهم صعابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحي من كتاب سيبويه التي ذكرناها آنفاً - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوي أندلسي كان مجاوراً بها هو عبد الله^(١). بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. ونلتقي بابن السيد البطليوسي المار ذكره بين اللغويين، وكان يعني بشرح كتاب الجمل للزجاجي، وله كتاب في النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية بغدادي الاتجاه، يختارها أحياناً من المدارس النحوية السابقة وأحياناً ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن^(٢). الباذش على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابن الطراوة^(٣). سليمان بن محمد معاصرهما المتوفى سنة ٥٢٨.

(١) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣٧٢ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٨٤ وانظر

التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (طبع القاهرة ٥/ ١٨٢).

(٢) راجع في ابن الباذش بغية الملتبس ص ٤٠٦ والإنباه ٢/ ٢٢٧ وطبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥١٨

والديباج المذهب ٢/ ١٠٧ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ٤/ ١٠٠.

(٣) انظر في ابن الطراوة بغية الملتبس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢/ ٢٠٨ وكتابنا

المدارس النحوية ص ٢٩٦.

ويسود هذا الاتجاه في النحو الأندلسي من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلي^(١). عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ في كتابه "نتائج الفكر" وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى^(٢). الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة في النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجي، ومثله ابن خروف^(٣). على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجي، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد^(٤). بن عبد الرحمن القرطبي قاضي قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذي نشرته مع تحليل لآرائه التي هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليقات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوين^(٥).

(١) راجع في السهيلي بغية الملتمس ص ٣٥٤ والإنباه ٢/ ١٦٢ وطبقات القراء ١/ ٣٧١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.

(٢) انظر في الجزولي الإنباه ٢/ ٣٧٨ وابن خلكان ٣/ ٤٨٨ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٣) راجع في ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ١٥/ ٧٥ وابن خلكان ٣/ ٣٣٥ والذيل والتكملة للمراكشي ٥/ ٣١٩ والفوات ٢/ ١٦٠ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٤) انظر في ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبغية الملتمس ص ١٩٢ والديباج المذهب لآين فرحون ١/ ٢٠٨ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٥) راجع في الشلوين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ٢/ ١٢٩ والإنباه ٢/ ٣٣٢ وابن فرحون في الديباج ٢/ ٧٨ وابن خلكان ٣/ ٤٥١ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولي المسماة بالجزولية وكتاب في النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور^(١). على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية في زمنه بالأندلس، وله الممتع في التصريف والمقرب في النحو وهما منشوران، وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. ولتقي بعده بابن^(٢). مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصري وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخاري سوى مصنفات أخرى في النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع^(٣). على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي على الفارسي والجمل للزجاجي، وخاتمة أئمة النحو في الأندلس أبو حيان^(٤). محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله

(١) أنظر في ابن عصفور بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٧ وعرضنا لأرائه في كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦.

(٢) راجع في ابن مالك طبقات الشافعية لسبكي ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢/٢٢٧ وطبقات القراء لابن الجزري ٢/١٨٠ والنجوم الزاهرة ٧/٢٤٣ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ وفي كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لأرائه النحوية.

(٣) أنظر في ابن الضائع الإحاطة ٤/١٢٠ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

(٤) راجع في أبي حيان طبقات الشافعية لسبكي ٩/٣١ وطبقات القراء ٢/٢٨٥ والإحاطة ٣/٤٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٣٠٢ وفوات الوفيات ٢/٣٥٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ٦/١٤٥ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

شروح على كتاب سيبويه وكتابي ابن عصفور: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضًا في النحو كتاب ارتشاف الضرب أي غسل النحل في ستة مجلدات، وصنع له مختصرًا في مجلدين، ويقول السيوطي في البغية: "لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة".

وبجانب علوم النحو واللغة عُنيت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجري تعتمد في ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشاركة في البيان العربي، واستطاع المؤدبون في أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلي والإسلامي والعباسي بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربي، وأصبحوا شعراء وكتابًا ناهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربي في البلاغة وبذلك ظلوا - آماذًا - بعيدين عن مناحي الاتجاه البلاغي المجدد الغالي في التجديد^(١). والذي كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابًا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

ويلقانا في مطالع القرن الخامس الهجري كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه "الفوائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية" لعلي^(٢). بن محمد بن أبي الحسين المتوفى قريبًا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات

(١) انظر في هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢-٦٦.

(٢) راجع في ابن أبي الحسين واسم كتابه الحمدي ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتبس رقم ١١٩٣ والحلة السيرة طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ١/ ٢٢٤.

لشعراء الأندلس، والثاني على شاكلته، واسمه "كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" لابن الكتاني^(١). أبي عبد الله بمحمد المتطرب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقي المتوفى سنة ٣٣٢ في كتاب "عيار"^(٢). الشعر "وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادي الحسى والمعنوي الذهني ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، إنما عني بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهي موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب في وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، واتبع تلك الأبواب بأبواب في وصف الخمر والغناء والمغنيين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنساني والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان في الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتعرض في كل ذلك التشبيهات الطريفة في رأي ابن الكتاني لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن حبيب الحميري الملقب بحبيب^(٣). المتوفى بعد ابن الكتاني بنحو عشرين عامًا قريبًا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع في العنوان لا تعني

(١) انظر في ابن الكتاني طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جليل ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه لكتابه (طبع دار الثقافة بيروت).

(٢) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه في كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٣) انظر في حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر في الرباط بتحقيق هنري بريس وفي السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيان.

البديع بمعناه البلاغي الإصطلاحي، وإنما تعني المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول في مقدمة الكتاب "لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه". وحقاً للأندلسيين أشعار بديعة في وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون فيها على المشاركة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفي المشاركة أن يكون من بينهم ابن الرومي أكبر مبدع في وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميري في كتابه مختاراته الشعرية والنثرية في ثلاثة أبواب: باب جعله في وصف الربيع ورياحينه وباب ثان في وصف أزهاره، وباب ثالث في وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدماً لها: "ومن غريب الرصف في عجيب الوصف" وقوله: "ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل" وقوله: "ومن السحر المتحل والكلام المتخل". وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعني بالكتابة في البلاغة، إنما كانت تعني بعرض المختارات الشعرية، وقد أكدت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت في أواخر العصر تعني بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نقل إليها من كتابات المشاركة في البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهي تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية،

ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد^(١). بن عبد الملك الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصاً له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصل القول فيها كتاب إحكام صناعة الكلام للكلاعي^(٢). أبي القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالي منتصف القرن السادس الهجري، وقد جعل كتابه في مقدمة تحدث في فصولها عن صور من محاكاته لأبي العلاء ومضى يعلى الشر على الشعر ثم أفاض القول في بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعاني، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشاركة منذ بدر^(٣). الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث في الصور البيانية والمحسنات البديعة لأنها قتلت بحثاً عند المشاركة وأيضاً عند ابن رشيق، فأفرد فصولاً لأنواع الأسلوب في الكتابة وهي عنده سبعة ك الأسلوب العاطل وهو الخالي من الأشجاع، والخالي وهو المحلي بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حلى بالأخبار والأمثال والشعار والآيات

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر في الكلاعي المطمح ص ٢٩ وابن الأبار في التكملة ص ١٨٧ والمغرب ١/ ٢٤٢ ومقدمة كتابه

إحكام صناعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعان داخلية تتقابل في كل سجعة طويلة مع قريبتها في السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين في الأسلوب أغصان وفروع مثل: "ومن السلام سلام وإن لاح جوهرًا، ومن الكلام كلام وإن فاح عنبرًا" والمفصل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقي السبيل لأبي العلاء ولبيد الزمان الهمداني رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهي صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعيني محمد^(١). بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ريجان الألباب وربيعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج إليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها في سبعة مراتب واهتمنا في حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب في بيان شروط الفصاحة مستمدًا من كتابات المشاركة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة" واستمد منه ومن الجاحظ في حديثه عن عيوب الكلام من المعاطلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثرًا فيها بقدامة في كتابه نقد الشعراء والحاتمي في كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

(١) راجع في المواعين ابن الأبار في التكملة رقم ٧٦٣ ص ٢٣٣ والمغرب ١/ ٢٤٧.

ونمضي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فنرى البلاغة تلتحم في الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدى لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصهما ويشرحهما بفكرة العبقرى الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصاً وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه مورداً لكل مبدأ بلاغي فيه أمثلة من الشعر العربي على نحو ما يتضح في قسمه الثالث الخاص بالعبارة وهو فيه يفصل الحديث في أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه^(١) فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذر من التشبيهات النابية ملاحظاً أن التشبيه ينبغي أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثراً بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صوراً مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسناً وقبحاً كقول القائل في وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فشتان - في رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضاً تفاوت البيان في التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الإيجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل في الشعر ولا تقبل في النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد

(١) انظر في آراء ابن رشد الرلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد في الجزء الثاني والرابعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع في الحركة النقدية وأعلامها التالين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

صنع قبل ابن رشد تلخيصاً لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله في هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوي بمحسوس ملاحظاً أنه ينبغي أن لا يكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبي تمام، ويهاجمها متأثراً بالآمدي في كتابه الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحري. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة في بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق ولمراعاة النظير، وهاجم المبالغة في الشعر التي تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التي تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجئ بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء^(١). صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط في المكتبة التيمورية، يسمى: "الوافي في نظم القوافي" وهو في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق في كتابه العمدة، والجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث في سرقات الشعراء، والرابع في حد الشعر والعروض. والجزء الثاني في الكتاب يلتقي في وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشاركة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرهما، كما يتناول المحسنات البديعة، وقد أضاف

(١) انظر في مصادر أبي البقاء الرندي ترجمته في الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافي في كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأنلدس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق في كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

إليها نحو ثلاثين محسنًا. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتيم والتسهم والترصيع والمبالغة، وفي كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقلما نلتقي بعد الرندي في الأندلس بكتب مستقلة في علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشاركة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري على نحو ما يتضح في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفصل القول في هذه الرسالة^(١). في الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم ويهاجم في رسالته شيخهم ابن الإفيلي، لأنهم يفقدون في رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبي، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: "إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة". ويلاحظ على أبي تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يغرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعاني الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البينة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعاني بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائماً عنده رهافة الذوق الأدبي ودقة الإحساس بالجمال الفني. ويعرض ابن حزم بعده

(١) انظر في الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته في الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١/ ١٩١

وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٤٧٥.

لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة في الشعر ويقصد بها إيراد المعاني الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبني على الإغراق والمبالغة.

ونمضي إلى القرن السادس الهجري ونلتقي بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها ينوه بالتخييل في الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى في الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ في شعر عبد المحسن الصوري والشريف الرضي ومهيار. وكان يعاصره الأشركوني الذي مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها في غير هذا الموضع ونراه في مقامتين من مقاماته يصدر أحكاماً سريعة على أعلام الشعر المشرقي حتى زمن مهيار، وهي أحكام منشورة في كتب النقد عند المشاركة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعاني الماثلة في أشعار المشاركة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويلات شعراء الأندلس لمعاني الشعر المشرقي وصوره وأخيلته، ونراه يحمل^(١) على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبي أو بعض معانٍ إلحادية مما نسب إلى أبي العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعتة المحافظة. ويلقانا عند الكلاعي الذي تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبي الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعيني في كتابه ريجان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

(١) الذخيرة ٢/ ٤٧٩ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص ٥٠٣ وما بعدها.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدي كان يركز على نقد المشاركة، وقلما التحم منه شيء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان في كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنما احتفظ النقد الأندلسي بذلك لناقد متأخر هو حازم^(١). القرطاجني المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي وهو في النقد الأندلسي يقابل ابن رشد في البلاغة الأندلسية الذي سبقه بنحو قرن، وقد ولد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقي الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت في حجر الروم - إلى المغرب وعاش في ظل الدولة الحفصية. وله في النقد كتاب يسمى "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزائه والأداء وطرقه وأثر الكلام في السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتعمق في بحث المعاني والمباني والسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها اسم معلّم أو معرف، ويعني المعلم بالتفريعات المنطقية غالباً بينما يعني المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختتم بملاحظات سماها مأمّا أي مقصداً، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقاً علمياً سديداً وقدم لها

(١) انظر في كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه النقدية مقدمة محققه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

بمدخل علمي قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم في كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربي الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجي صاحب سر الصناعة مراراً وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعول فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر في الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد اشار إليه في الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابي للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو في أكثر كتابه يعد شارحاً لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة؛ أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليوناني والمأساة فيه وأنها تمثل أعمالاً وأفعالاً للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هي تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة في الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو في القسم الثاني أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث في الشعر وقيامه على التخيل في المعاني والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها في النفوس دافعاً عن معاني الشعر ما لا يلائمها من المعاني العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغي لكل عمل فني من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه في البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لا بد في الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، وفي عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من

انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقاً من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوه بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفي القسم التالي يبحث في الملكة الشعرية ومقوماتها وفي أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لا بد في القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبي وصنيعه المحكم في قصائده. وفي القسم الأخير قسم الشعر إلى جدى وهزلي وتحدث عن موضوعات الشعر العربي ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحري والمتنبي وأبي تمام وابن الضحاك وأبي سعيد المخزومي ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازهم وتفرد واضح. وحازم يختتم النشاط النقدي في الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون في الأندلس يحفظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك، ومر بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازي بن قيس الذي كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلباً للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدي - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرئ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازي أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الرضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) ويقول الزبيدي إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطي الأصل المصري تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة في الأندلس كما أخذت تشيع في المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله^(١). بن محمد القضاعي الذي كان يقرئ الناس بقراءة ورش في عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) حتى توفي سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشاركة ويحاولون

(١) طبقات القراء ١/ ٤٥٦.

التأليف فيها مقتدين بهم في ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفاً كبيراً في القراءات هو أبو عمر^(١).
 الطلمنكي المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها في الشام
 ومصر، وخاصة عن عبد المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد في
 القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعني بدراستها حتى توفي سنة
 ٤٢٩ وفه فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى^(٢). بن أبي طالب
 المعروف بحموش القيرواني منذ نزها سنة ٣٩٣ إلى أن توفي سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبد
 المنعم بن غلبون مثل الطلمنكي، وعد له ابن خلكان في القراءات واختلاف القراء
 تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب في أصول قراءة نافع وذكره
 الاختلاف عنه في جزئين وكتاب في تصحيح المد لورش في ثلاثة أجزاء. ومن القراء
 المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني^(٣). المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل
 إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى
 سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة في الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعاً
 إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة
 ٤١٧ واتخذها سكناً ودار إقامة إلى أن توفي سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة في

(١) انظر في الطلمنكي النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٧١/١ وكتابه طبقات القراء ١/١٢٠.

(٢) راجع في مكى طبقات القراء ٢/٣٠٩ وبغية الملتبس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٩/١٦٧ وإنباه الرواة
 ٣/٣١٣ وابن خلكان ٥/٢٧٤.

(٣) أنظر في الداني طبقات القراء ١/٥٠٣ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢/١٢١ وبغية الملتبس
 ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٩٨ وطبقات المفسرين للسيوطي ١٥٩ وإنباه الرواة ٢/٣٤١ والنفح
 ٢/١٣٥.

قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير في القراءات السبع وعليه عول الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان في قراءة ورش عن نافع، ونشر له في دمشق كتاب المحكم في نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد^(١). بن شريح الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافي في القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الداني الإمام الشاطبي^(٢). الضرير القاسم بن فيره نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدراً لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة "حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات" وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً، وعليها عول القراء في زمنه وبعد زمنه حفظاً وقراءة وتفسيراً، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: "استوعب الشاطبي ما دونه الداني في القراءات بقصيدته وعنى الناس بحفظها وتلقينها للوالدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس"^(٣). وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطي الذي مر ذكره بين النحاة، ويقول في مقدمة تفسيره إن له في القراءات منظمة في ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتاباً في كل قارئ من القراء السبعة وأيضاً كتاباً في قراءة زيد بن علي إمام الزيدية.

(١) راجع النشر في القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٢) انظر في الشاطبي التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢/٢٠ والذيل والتكملة للمراكشي

٥٤٨/٥ ومعجم الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٠/٧

ونفح الطيب ٤٥/٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافي ١٠٣٠/٣.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسومه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئ: الداني ومكي في ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعني بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشاركة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم في تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما ألف فيه هناك كتاب بقى^(١). بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: "هو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره" وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبري أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. ولتقي بعد بقى بمحمد^(٢). بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر في التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، وملكى المذكور آنفاً تفسير ضخم سماه: "الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه" وكان في سبعين جزءاً، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقى التفسير الكبير لابن عطية^(٣). أبي

(١) راجع في بقى ابن الفرضي ١٠٧/١ والحميدي ١٦٧ ونفح الطيب (تحقيق إحسن عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبي ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ والبغية للضبي ٢٢٥٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبي ٦٢٩.

(٢) انظر في ابن أبي زمنين الحميدي ٥٣ وابن بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطي رقم ١٠٢ والوافي للصفدي ٣/٣٢١ وابن فرحون ٢/٢٣٢.

(٣) راجع في ابن عطية الفتح في القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهي ص ١٠٩ واللغة رقم ٨٢٥ وابن فرحون في الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضي المرية المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيهاً نابهاً عارفاً بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز في التفسير من أحسن التأليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعاً، وهو في مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول ابن خلدون - التفاسير الماثورة كلها وتحرى الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس^(١). وينسب لمحيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، وتلتقي بعده بالقربي^(٢). محمد بن أحمد نزيل مصر الذي اختار المنيا بالصعيد سكتا إلى أن توفي سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: "جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن" وهو في عشرين مجلداً، سار فيه على نهج ابن عطية في تفسيره^(٣). ويحتتم نشاط الأندلسيين في تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبي حيان الذي مر بنا ذكره بين النحاة وهو في ثمان مجلدات ضمام، ويذكر في مقدمته مصادره في اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوي وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبد الحق بن عطية موطنه وتفسير الزمخشري، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنهما والمراجعة لهما في تفسيره، ويعني فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/١٠٣٢.

(٢) أنظر في القرطبي طبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٨ وابن فرحون ٢/٣٠٨ والوافي للصفدي ٢/١٢٢

وشذرات الذهب ٥/٣٣٥.

(٣) ابن خلدون ٣/١٠٣٢.

وبيان لغات العرب كما يعني بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس في علم الحديث نشاطاً واسعاً منذ محدثها وقاضيها معاوية^(١). بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء في روايته أو في التصنيف فيه وفي رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجري، ونلتقي فيه ببقى بن مخلد الذي مر ذكره بين المفسرين، وله في الحديث النبوي مصنف يقول فيه ابن حزم: "له في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عليهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابي ونيف، ثم رتب حديث كل صحابي على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند" أي أنه مصنف في الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعي فيه الصحابي الراوي للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: "ما أعلم أحداً سبق ببقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه، فإنه روى أحاديثه في المصنف عن مائتي رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير"^(٢). ويقول ابن حيان في المقتبس به انتشار الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد^(٣). بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - في نشر الحديث وسعة الرواية "فاستوسع أهل

(١) راجع في معاوية ابن الفرضي رقم ١٤٤٣ والحميدي رقم ٧٩٦ ومعجم الصدي لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضي عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١/١٠٢ والقضاة للخشني

(طبعة ريبر) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدرآباد) ١٠/٢٠٩

(٢) نفح الطيب ٣/١٦٨.

(٣) انظر في ابن وضاح ابن الفرضي رقم ١١٣٤ والحميدي رقم ١٥٢ والضبي رقم ٢١٩.

الأندلس في الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند^(١). وهما لم يدفعا الأندلس إلى السعة في الحديث وروايته فحسب، بل دفعها أيضًا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقى وابن وضاح تلميذهما ثابت^(٢). بن عبد العزيز السرقسطي المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق في طلب الحديث وعاد إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب في غريب الحديث سماه "الدلائل" وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم في زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين في القرن الرابع قاسم^(٣). بن أصبغ تلميذ بقى بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له في الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد^(٤). بن عبد الملك بن أيمن (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من كتب المصنفات. ويلقانا في آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال في كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأسماء الرواة: المعدلين منهم والمجرحين^(٥). ونلتقي في

(١) المقتبس (تحقيق د. محمود مكي - نشر بيروت) ص ٢٦٤.

(٢) راجع في ثابت وقاسم ابنه مراجعتهما في هامش ص ٩٢ وأيضًا النفع ٣/ ١٧٠ والحميدي رقم ٣٤٥.

٧٧١.

(٣) انظر في ابن أصبغ النفع ٣/ ١٦٩ وابن الفرضي رقم ١٠٦٨.

(٤) راجع في ابن أيمن النفع ٣/ ١٦٩ والحميدي رقم ٩٨ وابن الفرضي رقم ١٢٢٨.

(٥) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي^(١). صاحب جذوة المقتبس التي نرجع إليها في الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوي في القرن السادس الهجري، ومنهم رزين^(٢). السرقسطي المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس: البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وقد دوت شهرته في المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير في كتابه "جامع الأصول". وجاء بعده الرشاطي^(٣). عبد الله بن علي المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب في أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعاني.

وجاء بعده ابن قرقول^(٤): إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض في غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق^(٥). الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، وله أيضاً كتاب في الجمع بين الصحاح الستة وكتاب في المعتقل من الحديث وكتاب في غريب القرآن والحديث ضاهي به الغريبين

(١) راجع في الحميدي الصلة رقم ١١١٤ ومعجم الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من مصادر والوافي للصفدي ٣١٧/٤.

(٢) أنظر في رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبي ٧٤١.

(٣) راجع في الرشاطي الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ١٢٠، ٦١ وابن خلكان ١٠٦/٣.

(٤) راجع في ابن قرقول بقية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١.

(٥) انظر في ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشي في المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

للهروى وثلاث نسخ من كتاب له في الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن القطان^(١). على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلله ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تأليف مختلفة في الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن^(٢). فرح الإشبيلي نزيل دمشق وبجامعها حدث إلى أن توفي سنة ٦٩٩ وه قصيدة غزلية ضمن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة في رجال الحديث وراته، ومن أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطي المار ذكره، ومن أهمها أيضًا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ^(٣). يوسف بن عبد العزيز الأندي المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب في الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولاً على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفي مقدمتهم صعصعة^(٤). بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذي أفتى الناس هناك - أخذاً برأي أستاذه - بغرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل في

(١) راجع ابن القطان في التكملة رقم ١٩٢٠.

(٢) انظر ابن فرح في طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات

الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٣) راجع ابن الدباغ في الصلة رقم ١٣٩٥.

(٤) أنظر في صعصعة ابن الرضي رقم ٦٠٥ والحميدي رقم ٥١٠.

المساجد الجامعة بالأندلس^(١). بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك^(٢). بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون في كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تعد دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فج، فكان طبعاً أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوية في العالم الإسلامي، وأيضاً فغن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشاماً (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعاً الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضباً للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل منبيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أي طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث وإليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجرده وضربه بالسياط عقاباً له على فتواه^(٣). وهو ما جعل - في رأينا - عبد الرحمن الداخل وابنه هشاماً يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهي نصرته له ضد العباسيين وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحمل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازي بن قيس الذي مر بنا بين المؤدبين والقراء، يقول ابن القوطية: "في أيام عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازي بن

(١) انظر في هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت في الأندلس بقية لمذهب الأوزاعي في الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيهاً على مذهبه. انظر الحميدي ص ٢٠٥ وابن الفرضي في تاريخعلماء الأندلس (طبع مدريد) ص

(٣) راجع ترجمة مالك في ابن خلكان ٤/ ٣٥.

قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله^(١). ويقول الحميدي: كانت تدور الفتيا على الغازي بن قيس في عهد هشام إذ كان مشاوراً مع مصعب بن عمران^(٢). ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضاً إلى الأندلس شبطون^(٣): زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفي بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يعد - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى^(٤). بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: "رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: "هو الذي علم أهل الأندلس الفقه" ويقول أيضاً ابن حيان: "كان لا يعد في الأندلس أفقه منه في نظرائه" وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم^(٥). وتألق في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى^(٦). الليثي المتوفى

(١) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد)، ص ٣٥.

(٢) الحميدي ص ٣٠٥.

(٣) راجع في شبطون ابن الفرضي رقم ٤٥٦ والحميدي رقم ٤٣٩ والقضاة للخشني ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ١/ ٣٧٠.

(٤) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والحميدي ص ٢٧٩ والضبي ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكّي) ص ٩٩، ٧٨.

(٥) النفح ٣/ ١٦٧ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١/ ١٧.

(٦) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و ٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والحميدي رقم ٩٠٨ وابن

سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضي (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: "إنه كان لا يولي قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس". ولم يقبل تولي القضاء إذ فرغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير فيالفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرج في الفقه المالكي على يد عبد^(١). الرحمن بن القاسم، وتخرج مثله على يده سحنون فقيه القيروان الذي حمل عنه مدونته^(٢). وأذاعها بموطنه، فنسبت إليه، وهي من عمل

خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

(١) يذكر كثيراً في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بآباء عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها المقرئ في النفح (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: "أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضياً إلا بشرط أن لا يعدل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم".

(٢) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيرون أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

ابن القاسم وإملاءاته^(١). على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليًا لاسم مالك في كتب الفقه المالكي الأندلسي، ونمثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكًا في فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضًا في تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل اشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفي سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفي سنة ٢٢٥. ويذكر أيضًا فيها الإمام الليث المذكورة آنفًا الذي قال فيه الشافعي: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به" يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثي عميد الفقهاء المالكيين في الأندلس المذكور آنفًا والذي كان لا يفتى إلا برأي مالك يترك رأيه في القنوت في الصبح لرأي الليث، كما يترك رأيه في الأخذ باليمين مع الشاهد لرأي الليث في إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث^(٢). التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعًا الإمام مالكًا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهي الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل في غنم مائة وعشر ولآخر في نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعهما فيكون عليهما ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منهما شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التي خالفت يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة

(١) انظر المقتبس ص ٨٤.

(٢) راجع في هذه المسائل التي خالفت فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهي ص ٥١.

التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعاً مالكا إلى رأي الليث هي مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثالث مثلاً وهو نظام معروف في مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومر بنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعي في غرس الشجر في المساجد مخالفين في ذلك رأي مالك. وخلف يحيى الليثي في رئاسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد^(١). الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب الواضحة في الفقه المالكي الذي اشتهر في الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة^(٢). محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها في الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى^(٣). بن مزين المتوفى سنة ٣٢٥٩ وله كتاب في تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعاني الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له في رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى^(٤). بن عبد الله حفيد يحيى الليثي المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملئ على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم

(١) أنظر في عبد الملك بن حبيب ابن الفرضي رقم ٨١٤ والزيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ والحميدي رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمح لابن خاقان ص ٣٦ وابن فرحون في الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

(٢) راجع ابن عتبة في ابن الفرضي رقم ١١٠٢ والحميدي رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.

(٣) انظر في ابن مزين ابن الفرضي رقم ١٥٥٦ والحميدي رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع ١٦٨/٣.

(٤) راجع في يحيى بن عبد الله ابن الفرضي رقم ١٥٩٥.

وحديث الليث وعشرة^(١). جده يحيى الليثي. وفي ذلك ما يدل على أن كتاباً في الأندلس كان يروي عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون في القيروان، كما كان يروي كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبي زمنين^(٢). المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب في اختصار مدونة سحنون وكتاب في الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقي في زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكي الأندلسي الكبير ابن عبد^(٣). البر يوسف النمري المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله "كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معاني الرأي والاثار" شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحاً بديعاً، وله "كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" رتبته على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءاً^(٤). واشتهر بعده في القرن الخامس أبو الوليد^(٥). الباجي

(١) يريد بعشرة جده كتباً عشرة له كان يرويها عن شيوخه وخاصة شبوط.

(٢) انظر مصادر ابن أبي زمنين بين المفسرين ص ١٠٨.

(٣) راجع في ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحميدي ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٤) انظر في أبي الوليد الباجي الصلة رقم ٤٤٩ وقلائد العقيان ص ١٨٨ والنباهي ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثاني ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلف كثير غرباً وشرقاً وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتقى مختصره، والإيلاء مختصر المنتقى، وكتاب في الأصول باسم إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأيضاً كتاب المقتبس من علممالك بن أنس والمهذب في اختصار مدونة سحنون. ويلقانا في القرن السادس ابن^(١). رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية في زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله "البيان والتحصيل لما في المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل" بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت في المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو^(٢). بكر بن العربي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة في شرح كتب الصحاح في الحديث وفي أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله في الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن البار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعلل ووجه فأفاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفه منه ولا أحسن مساقاً^(٣). ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيهاً مالكيًا كبيراً باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية في المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية في

(١) انظر في ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤ والنباهي ص ٩٨ والديباج ٢/٢٤٨.

(٢) راجع في ابن العربي الضبي رقم ١٧٩ والنباهي ص ١٠٥ والمغرب ١/٢٥٤ والصلة رقم ١١٨١ وابن

خلكان ٤/٢٩٦ وتذكرة الحفاظ رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٣/٨٦-٩٥ وابن فريحون ٢/٢٥٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة في الفقه المالكي في نحو ١٦٩٠ بيتاً وهي منشورة في باريس منذ القرن الماضي، وكان الطلاب يدرسونها في جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكي في الأندلس، وكان من أهم الأسباب في ذلك أن جمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب^(١). أبي حنيفة، إذ عد مذهب العباسيين خصوم الأمويين في الأندلس، ومثله المذهب الحنبلي البغدادي، أما المذهب الشافعي فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المزني ومحمد بن عهبد الله بن عبد الحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبد الأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم^(٢). بن محمد بن سيار المتوفى سنة ٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبد الله بن عبد الحكم للثقة والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس

(١) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفي محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين في عهد عبد الرحمن الأوسط. أنظر ابن الفرضي رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

(٢) راجع ابن سيار في الحميدي ٣١٠ وابن الفرضي ٣٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.

فعنى بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتاب الإيضاح في الرد على ابن عتبة وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضي من فقهاء الشافعية يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز^(١). المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبد الأعلى، ومما سمعه من ابن عبد الحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون^(٢). بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم^(٣). بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولى بهاء قضاء الجماعة مرتين في أيام عبد الرحمن الناصر وكان يقضي بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك.

(١) راجع في يحيى ابن الفرضي رقم ١٥٦٨.

(٢) انظر في هرون ابن الفرضي رقم ١٠٤٧ وابن فرحون ٣٦٠ / ٢.

(٣) انظر في أسلم ابن الفرضي رقم ٢٧٨ والحميدي رقم ٣٢٢ والقضاة للخشنى ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨ / ١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧ / ١.

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيًا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعي في الأندلس. ووفد في عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعي فأكرمهم وتوسع لهم في العطاء والرواتب مثل عبيد^(١). الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إمامًا في الفقه على مذهب الشافعي كثير التصنيف فيه وفي القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين في القرن الرابع الأصلي^(٢). عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سماه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن الرابع ابن^(٣). أمية الحجاري وله كتاب في أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلاً إنه كان بصيرًا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بني أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية في الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسي هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد في نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقي معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكي. ونمضي إلى القرن الرابع الهجري، ونلتقي بمنذر^(٤). بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق

(١) راجع في عبيد الله بن عمر ابن الفرضي رقم ٧٦٩.

(٢) انظر في الأصلي ابن الفرضي رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١.

(٣) راجع في ابن أمية الحميدي ص ٣٨٠ وقد سباه ابن آمنة وانظر في كلمة ابن حزم عنه النفع ١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر منذر في ترجمته بالفصل الخامس.

ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصري واختلاف العلماء رواية عن ابن المنذر النيسابوري، كما يحمل مذهب داود الظاهري، وكان خطيباً مفوهاً، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما في عهد ابنه الحكم وكان شديداً في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهي المذهب الظاهري وكان يحتج له ويحامي عنه ويؤثرن، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهبه^٨ مالک الذي عليه العمل في بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قوياً على الانتصار للمذهب الظاهري، وله كتاب في أحكام القرآن غاية في بابه. ويلقانا في القرن الخامس إمام مذهب الظاهرية في الأندلس على^(١).
 بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ وكان من أسرة ناهية، إذ كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد عليها مراراً وأقامه المستظهر وزيراً سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصم ابن حزم على اعتزال السياسة والفرو والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكي، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعي ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهري على أبي الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمناً به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التي أخذ بها الأحناف والشافعية، وهي القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغي إبطاله والاكتفاء بالكتب والسنة. وله كتاب في أصول المذهب المالكي القائمة على

(١) راجع في مصادر ابن حزم ترجمته في الصل الخامس.

التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهري ازدهر في عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة في عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعياً لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهري يتقدمهم قاضي القضاة ابن مضاء^(١). أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن^(٢). حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولى القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن^(٣). خطاب الإشبيلي على بن عبد الله قاضي إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكي بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهري، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهراً ثم تحول إلى المذهب الشافعي.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين في الأندلس لأن لهم كتباً متعددة مطبوعة تعني بهم مثل كتاب القضاة للخشني ولا بن عبد البر كتاب مماثل وكذلك للنباهي، وإنما يهمنها من دفعوا الحركة الفقهية المالكية في الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغي أن أشير إلى أن النظام القضائي بالأندلس

(١) مرت مصادر ابن مضاء في ص ٩٧.

(٢) راجع في ابن حو الله النباهي ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٣) انظر في ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره في المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية^(١). من الفقهاء يرجع عليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد في القضايا المشككة، وهي تشبه ما نعرف في قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها في القضايا المتنبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسي. والظاهر الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوي والمتهمين على نحو ما نعرف في قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محامياً يثبت ذلك في عقد بينه وبين المحامي^(٢). وكان للمحامي الحق في أن ينيب من يترافع عنه في القضية أمام القاضي، ويثبت ذلك أيضاً في عقد بينهما^(٣). والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهي كتب بالغة الأهمية في بيان الأحوال الاجتماعية في الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات في المزارعات وغيرها من الاستتجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستتجار الخيل والسلاح للحرب واستتجار الثياب والحلي والكتب^(٤)، وكان لابد للإسلام نصراني أو يهودي من وثيقة يقدمها للقاضي وعليها شهادة شهود بأنه اسلم غير مكره ولا فار من شيء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذي لا

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة في مقتبس ابن حيان لعهد بني أمية ويسميهم المشاورين.

(٢) أنظر في ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار الأندلسي المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص

٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار في الديباج المذهب ٢/ ٢٣١.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضي أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق^(١).

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التي عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصاراً فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلي ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجري ومن المعتزلة القدامي حيثئذات عبد الأعلى بن وهب القرطبي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة^(٢). للإنسان، وكان يعاصره معتزلي مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان^(٣). في أفعاله، وتابعه في اتجاه الاعتزالي ابن السمين^(٤). يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزلياً. وأول معتزلي أندلسي دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذي ألمان به في أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمر الناصر في سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلايذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الإنسان حر في إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء -

(١) ابن العطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

(٢) انظر ترجمته في ابن الفرضي رقم ٨٣٥ وابن فرحون ٢/ ٥٥ وبالنشيا ص ٣٢٥.

(٣) راجع ترجمته عند ابن الفرضي رقم ٤١٧ وبالنشيا ص ٣٢٥.

(٤) انظر فيه طبقات الأمام لصاعد ص ١٠١ وابن الفرضي رقم ٥٧٨، والنفع ٣/ ٣٧٥ وبالنشيا ص ٣٢٥.

كما أسلفنا - في عهد الناصر وعادوا إلى الظهور في عصر ابنه الحكم لما نضر من التسامح
إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ)
وحاجبه المنصور بن أبي عامر الذي أظهر التشدد في كل ما يخالف آراء أهل الأندلس،
ومع ذلك كان حكم بن منذ بن سعيد في عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم
وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول^(١). ابن حزم، واضطرت شيعة ابن سمرة إلى
الاختفاء ثانية في عهد ابن أبي عامر وعادت على شيء من النشاط في عصر أمراء
الطوائف على نحو ما مر بنا - في حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل
الرعي. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالي أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن
كثيراً من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته
الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات
والصيدلة مما هيأ لقيام التأليف العلمي في أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيأ لقيام
التفكير الفلسفي فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة في التفكير الأوروبي أن
نجد ديكارت (١٥٧٩ - ١٥٦٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدأين
يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى نتبين فيها
وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام في كتابه الحيوان مستشهداً
بقوله: "لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك". وكان حرياً بالأستاذ الدكتور طه حسين
حين نوه بهذا المبدأ في أوائل كتابه "في الأدب الجاهلي" وأضافه إلى ديكارت أن يضيفه
إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالي أو الكلامي الثاني أشار إليه بدير

(١) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكي) ص ٧٢.

دانييل هويه إذ قال إن ديكارت أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفي: "أنا أفكر فأنا موجود"^(١). مما يقتضي وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدآن أو الأصول الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبهما ديكارت اجتلاباً مما ترجم في اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرئ في^(٢) النفح عن بخض يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلماً متحققاً برأي الأشعرية، وأنشد له بيتين في مديح إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج في الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثاً خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام في الإسلام، وفيه ينقض نقضاً دقيقاً مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءة والربانية والعيسوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعاً من صنع البشر. ويرى أن الكلمات في التوراة وفي الإنجيل بعهديه - القديم والجديد * حرفت عن مواضعها على أيدي أصحابها من اليهود

(١) بالثيا ص ٥٣٤. وانظر في مبدأ ديكارت الفلسفي ترجمته في قصة الفلسفة الحديثة للدكتورين أحمد أمين

وزكي نجيب محمود ١/ ١٠٠.

(٢) النفح ٣/ ٣٥٣.

والنصارى. وينتهي من دراساته المتعمقة في التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين
والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل -
ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحي الإلهي، وكيف أن الله
نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بني إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعده - كما
يعده المسلمون عامة - نبيًا مرسلًا.

التاريخ

نشطت الأندلس - منذ القرن الثالث الهجري - في الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أو بالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أو بالسيرة النبوية العطرة أو بكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد في هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منا. ويتضح في كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثي الذي مر بنا ذكره بين فقهاءها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معها وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى صلى الله عليه وسلم وألم بالخلفاء وبفتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه في عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا في أوكسفورد^(١). وملتقي بعده بعريب^(٢). المتوفي سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبري وهو مثله على السنوات بادئاً بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والترجم له في الفصل الأخير رسالة تدخل في التاريخ العام سماها نقط

(١) راجع مقال د. مكّي عن هذا المخطوط في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس ص ١٨٩، ٢٢١.

(٢) انظر في ترجمة عريب القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.

العروس في تواريخ الخلفاء ونوادير أخبارهم نشرتها في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتاب كتاب إعلام الإعلام في تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وف مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد^(١). بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموغب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. ونلتقي بكتاب الأخباء المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف في أيامه، كما نلتقي بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض في الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله (٣٧٥ - ٣٠٠هـ). ونلتقي في عصر أمراء الوائف بابن حيان كبير مؤرخي الأندلس المتوفى سنة ٤٦٩ وموسوعيته التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما في الفصل الأخير، وليحيى^(٢). بن الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب في تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب^(٣). الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله في تاريخ الموحدين كتاب باسم "المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي إمام الموحدين". ويلقانا عبد الواحد^(٤). المراكشي المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربي درس في الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو

(١) انظر مصادر ترجمة الرازي بين الجغرافيين ص ٨٩.

(٢) راجع في ترجمة ابن الصيرفي التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٣) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة في التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٤) راجع في ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

الحجاج البياسي^(١). يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له في الفصل الأخير وله كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية، وهو تاريخ لبني الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة في السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصري المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولابن حزم فيها "جوامع السيرة النبوية" ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضي عياض كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو سبتي، وأولى لذلك أن نذكره في الجزء الخاص بالمغرب، وللکلاعي^(٢). سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولابن^(٣). سيد الناس الإشبيلي المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ في السيرة النبوية "عيون الأثر في فتون المغازي والشمال والسير" وهو منشور بالقاهرة من قديم في مجلدين.

(١) انظر في ترجمة البياسي المغرب ٧٣/٢ واختصار القدح المعلق (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإيباري ص ٩٤.

(٢) انظر في الكلاعي التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٣) راجع في ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطي ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد في تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي^(١). عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد^(٢). المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدي^(٣). محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهي به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال^(٤). المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتبس للضبي أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدي في جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له في الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيرة في تراجم العلماء والأدباء والأمرء الذين نظموا الشعر في الأندلس والمغرب وله أيضاً معجم الصدي وشيوخه وأصحابه، وللملاحي^(٥). محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب في علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير^(٦). أحمد بن إبراهيم الغرناطي المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتتمة لكتاب ابن

(١) انظر في ابن الفرضي كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدي ٢٣٧ والمغرب ١/١٠٣ والذخيرة ٢/٦١٤.

(٢) راجع في صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدي بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال في التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدي لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢/٢٤٠.

(٥) انظر في الملاحي التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ٢/١٢٦.

(٦) راجع في ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشي ١/٣٩ والإحاطة ١/٨٨ والدرر الكامنة ١/٨٤.

بشكوال. وأخيراً كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة وعلماؤها وأدبائها لابن الخطيب وهو في أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشني^(١). المتوفى سنة ٣٦١ والمرقة العليا للنباهي^(٢). المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جليل المتوفى سنة ٣٧٧ ومر ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المار ذكره، وألفت في أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب (الأندلس) لابن دحية^(٣). المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب. وفي مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح^(٤). بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهي في ثمانية مجلدات وسنلم بها في الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيرة المذكورة آنفاً وكتاب تحفة القادم في تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق في العديدين

والمنهل الصافي ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(١) انظر في الخشني ابن الفرضي رقم ١٣٩٨ والضبي رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٠٠.

(٢) راجع في النباهي الجزء الثاني من أزهار الرياض ونيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(٣) انظر في ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.

(٤) انظر في الفتح بن خاقان معجم الصديقي: ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٦١٨٦ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٢٩/٥ وابن خلكان ٢٣/٤.

الثالث والرابع من سنتها الحادية والربعين، ولابن^(١). سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية في جزئين بدار المعارف، وله الغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضاً، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن^(٢). الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين في كتابة التاريخ ينبغي أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها بوائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة في نفح الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حمل عنهم من الكتب مثل فهرسة^(٣). ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

الفصل الثالث

(١) راجع في ابن سعيد الإحاطة ١/ ٢٣٠ والفوات لابن شاعر ١/ ١٨١ ومقدمتنا لنشر القسم الأندلسي من كتابه المغرب (طبع دار المعارف)

(٢) انظر في ابن الأحمر درة الحجال لابن القاضي (طبع الرباط) ١/ ١١٦ وجذوة لاقتباس ٦٩ ونيل الابتهاج ٩٩.

(٣) راجع في ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضبي ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. محمد بن شريفة) ٨/ ٢٩٩ وطبقات القراء لابن الجزري ٢/ ١٣٩.

نشاط الشعراء

١

تعرب الأندلس – كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس:

مر بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربي من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والفاندال والقوط، ومنها الآسيوي من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مصريون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعة لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيما أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا في الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا في موطنهم بالأندلس، وإنما في روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع في تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئاً ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من الفندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضرراً من العسف والظلم حتى كاد

أهلها يستحيلون إليها يشبه الرقيق، سوى ما نشروا في البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقي العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد اشرنا إليها في الفصل الماضي وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل في مضمار الدين والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذي لا تطيب حياة أي شعب بدونها بل إنها تصبح نكراً وشرّاً خالصين مع ما كان يجرم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكانما كتب للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السموح في معاملة أهل الكتاب من النصراني واليهود بمتتهى الرفق، بحيث تكفل لهم حريتهم الدينية في عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أي تدخل، وبحيث يرفع عنهم ثقل الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغضضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التي حررت أهل الأندلس من جور القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقاً قبيحاً، والتي ملأت الأندلس بالعدل الذي يعطي لصاحب الحق حقه دون أي حيف، والذي يسوى بين الناس في مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سبباً قوياً في أن يعتنق كثيرون من مسيحي الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مثل إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أي شائبة من فكرة التثليث

المعقدة في الدين المسيحي، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة في دنياه وآخرته، وأيضاً لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهياً ذلك سريعاً في الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة في الإسلام وكانوا يسمون المسالمة، وسمى أبناؤهم باسم المولدين. وينبغي أن نذكر أنه لم يحدث في تاريخ العرب بالأندلس أن أكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لا بد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين في قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك في وثيقة يشهد عليها شاهدين، قائلاً فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته "طائعاً آمناً، غير فائر من شيء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرًا له نعمته على هدايته له"^(١).

وطبيعي أن يقبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التي تعد جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعرباً كاملاً: ديناً ولغة، وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيتته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانشية لغة في مخاطبه اليومي، غير أنه شعر سريعاً بما ذكرناه آنفاً من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبي كتراث العربية، وأيضاً ليس لها مثلها تراث ثقافي ولا حضاري، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلاً عما لأهل العربية في البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائماً يحاول أن

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

يحكي الغالب، فما بالنّا إذا ظل هذا الغالب يستعلّى على مسيحي الأندلس ويهودها ثقافيًا وأدبيًا وحضاريًا لا قرنا ولا قرنين بل قرونًا متعاقبة من القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربي الباهر في العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك "ترند" في مقاله بتراث الإسم قائلاً: "كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الأوروبية حضارة، وكانت في ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونباره وبرشلونة كانوا يقصدون إليها كلما مستهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معماري أو مطرب كبير"^(١). ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التي استولت عليها الإمارات المسيحية الشمالية إلى مؤسسات^(٢). ترجمة ضخمة لكل ما هو عربي من علم وفلسفة وأدب، ويؤم طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوروبية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلاً عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباساً عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل في نهضة أوروبا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين في الأندلس على دينه تعرب – مثل زميله الذي اعتنق الدين الحنيف – بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضاري وثقافي، وأيضاً بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٧.

(٢) انظر في ذلك تاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا ص ٥٣٦ وما بعدها وفي مواضع مختلفة.

قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة في التخاطب "اليومي" للمسيحيين في الأندلس وفي شمال إيبيريا فقيرة فقرًا شديدًا، بحيث لا نستطيع أن نجد مبررًا كافيًا لما ذهب إليه المستشرق الإسباني ريبيرا في نظريته^(١). الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانسية، ويقول: إن هذا الازدواج في اللغة كان الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تتمزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعري واحد، غير أن الزجل سوقي دارج والموشحة عربية فصيحة. وفي رأينا أن ريبيرا بالغ في كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروي الخشني عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضي قد أدركته الملالة والسامة^(٢). وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك في الأدلة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشني من أن رجلاً من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بلغة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضي في مجلسه

(١) راجع هذه النظرية في النشأ ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) قضاة قرطبة للخشني (طبعة مصر) ص ٩٦.

بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قضاي انظر لشقيتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: كما يقول الخشني - لست أنت شقيتي إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار^(١). وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمي اللسان مقبول الشهادة عندهم^(٢). وهذه الأخبار جميعاً عند الخشني لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلاً عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب في لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، ويمكن أن يكون القاضيان السالفان رزقاً لأمين أعجميتين، فتلفظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمي اللسان فيدل على أنهم كانوا في حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التي يلوكلها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوي أو المتهمين، حتى يحكم القضاة في قضاياهم عن حسن فقه بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب في قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. ومما يدل به أيضاً أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التي دخلت في الإسلام، وهو شيء طبيعي أن يظل اللقب اللاتيني القديم ملحقاً ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يلحق بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لقب زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي الشاعر بلقب النذل كما في المقتبس

(١) الخشني ص ١١٨.

(٢) الخشني ص ٨٤.

لابن حيان^(١)، وفي التكملة لابن الأبار أنه لقبه بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أي النذل^(٢). وكأنما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيراً قذر الثياب دائماً، فلقبه بعض معاصريه انتقاماً منه بلقب القلفاط^(٣). و Calafate باللاتينية الدارجة دهان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكّي - لقساارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المروني شاعر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع ^{ين} ر بلقب البلينه^(٤). Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب في قرطبة والأندلس كان محدوداً إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح في دلالة على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذه دليلاً على شيوع اللاتينية الدارجة في تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن في أدينيا برهانا قوياً على صحتها هو ما ذكره ابن حزم في كتابه "جمهرة أنساب العرب" عن قبيلة ^{يلي} بالأندلس، إذ قالك "دارهم في الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (في القرن الخامس الهجري) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقطك نساؤهم

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكّي طبع بيروت) ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/ ١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع في ذلك تعليق د. مكّي في المقتبس ص ٥٠٤.

(٣) راجع المغرب ١/ ١١١.

(٤) المغرب ١/ ١٩٧.

ورجالهم"^(١). ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بليّ وحدها في الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب في لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بليّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما في نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع في كتابه معجم البلدان عن أهل شلب إذ يقول: "قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ومن لا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه"^(٢). ويقول ابن الخطيب في الإحاطة^(٣): "إن أهل غرناطة - في زمنه بالقرن الثامن الهجري - ألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها إعراب كثير. وفي الروض المعطار للحميري المتوفى سنة ٩٠٠: "مدينة شلب في الجنوب الغربي للأندلس" ويقول: "إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة"^(٤). وكأنما ظل يعيش في الأندلس ببعض مدتها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيراً منهم - هناك زابت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

(٢) انظر مدينة شلب في معجم البلدان لياقوت.

(٣) الإحاطة (الطبعة الأولى) ١/ ١٣٥.

(٤) الروض المعطار للحميري (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦.

الدارجة في مخاطبتهم اليومي، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب؟!.

ومما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضاً - من بعض الوجوه - صحيحة ألبرو القرطبي المشهورة سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م وفيها يأتي لولع نصارى الإسبان بالأدب العربي ولغته العربية فما بالناس بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطع نياط قلبه: "إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً، وأين تجد الآن واحداً - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً"^(١).

(١) راجع نص هذه الصيغة في النشيا ص ٤٨٥ وما بعدها.

والبرو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصارى في الأندلس لزمه أصبحوا يشغفون شغفاً شديداً بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعيتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هي تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وغذا هم يعكفون عليها قارئین متخذين منها أمثلتهم في الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالثيا تلك الصيحة لألبرو قائلاً: "إن كل ما ذكره حقيقي تؤيده تلك القصائد التي نجدها في خاتمة مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبواباً على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قس يسمى بنجنسيس، والكتاب مُهْدَى إلى السقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء في قصيدة شعرية عربية لا تفترق في شيء عما ينظمه العرب المسلمون في هذا المقام شكلاً ومضموناً". ويسوق بالثيا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: "والكثير من الكتب اللاتينية التي كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمناً طويلاً بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (في طليطة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية زمناً طويلاً بعد زوال سلطان افسلام من الجزيرة (في طليطة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التي خلفها لنا مستعربوا طليطة"^(١).

(١) انظر بالثيا ص ٤٨٦ وما بعدها.

ويشهد لبالثيا والبرو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عينوا كتاباً في دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجري مثل قومس بن أنتيان الذي مر ذكره في الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن. وإذا كان البرو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعربت - في ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها وشاحيها، وقد ترجم ابن سعيد في كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغيلة وزير باديس بن حبوس في غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولمعاصرها حسداي بن يوسف بن حسداي كاتب بني هود بسر قسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديباً مجيداً شعراً ونثراً، وله ترجمة طويلة في كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتباً عند بني هود قبله، وعين عبد الرحمن الناصر جده حسداي كاتباً في دواوينه. ومن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة بن صدود الطبيب واسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودي طليطي مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة في دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد في القرن السابع أيضاً لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي الذي أثر الإسلام ديناً وعقيدة، وكان شاعراً نابهاً ووشاحاً مجيداً. ومما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نساثرهم شاعرات مجيدات مثل قسمونة بنت إسماعيل اليهودي وكان أبوها - كما يقول المقري - شاعراً واعتنى بتأديبها،

وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسماً من موشحة، فاتمتها هي بقسم آخر. ومما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعرباً كاملاً أنه حين أخذ الإسبان والغريون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة في لغتهم العبرية، حتى ليقول بالثيا: "نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة"^(١).

ولعل في ذلك كله ما ينقض - بوضوح - نظرية رييرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن في ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التي قدمناها. وأيضاً فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان في الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون في مخاطبتهم اليومي العامية العربية الأندلسية، بينما سمعوا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قروناً متوالية. وكل ما يستدل به رييرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبي في الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت في نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظيم بالعربية الفصحى في جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها في الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية في نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضاً أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تتراءى فيها أحياناً ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهي ليست عامية لاتينية، إنما هي عامية عربية، شأنها شأن العاميات التي نشأت في جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها

(١) راجع دور اليهود في ترجمة الثقافة الأندلسية عند بالثيا ص ٤٨٨ و ٥٣٧.

بلغات أهلها الوطنية، وقد دخلتها في كل بلد عربي بعض خصائص تلك اللغات في النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث في الأندلس على نحو ما يتضح في أزجالها، فهي منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانشية التي كانت مستقرة في الأندلس قبل الفتح العربي وظلت حية فيما وراءها من الإمارات المسيحية في الشمال، وبالمثل في الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجواري الإسبانيات والمسترقين من الإسبان في الحروب، وانزلت منها بعض ألفاظ في الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أي نص مكتوب أو منظوم باللهجة الرومانشية الدارجة في الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أو يلمون بشيء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة في الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضاً قصائد نظموها على أوزان العروض العربي، على نحو ما يلقانا عند أبي عبد الله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجري، إذ ذكر صفى الدين الحلبي في كتابه: "العاطل الحالي" أنه قرأ له في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وقد سمى أوزان عشر قصائد منها، وهي أربع من وزن المديد، واثنان من وزن الرمل، وآخران من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلص البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من

أبياتها العامية^(١). ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربي كما سيتضح - فيما بعد - في تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب في ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس في تخاطبهم اليومي بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى في ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم ألبروا أنفاً. والشعب الأندلسي - في هذا الصنيع - يلتقي بجميع الشعوب الإسلامية في البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعاً متمسكة بالفصحى وتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفي الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها في ذلك مثل لعامة من حولها، وهي لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التي كانت سائدة في تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطاناً جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدلت في بعض ألفاظ العربية تبادلات مختلفة في حركاتها وانزلت من كلماتها السوقية والعامية بعض ألفاظ إلى كتابات الكتاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين في المشرق يؤلف كتباً في لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو

(١) راجع كتاب العاقل الحالي والمرخص الغالي لصفى الدين الحلي بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

ما نعرف عند الكسائي البغدادي المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألف الزبيدي القرطبي الذي مر ذكره بين اللغويين الأندلسيين في القرن الرابع الهجري كتاباً في لحن العوام حتى ينه الكتاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحياناً في كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبينوه ويحتموه^(١).

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية في الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانشية، كما ظن رييرا، وهي عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحياناً النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التي نشأت في البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدي كتباً، ونظم فيها زجالون أزجالاً كثيرة، وأحياناً دواوين زجيلة، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربي أندلسي عامي ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلف العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافي وأدبي وعلمي وفلسفي، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا في الأندلس شعباً عربياً كبيراً ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربي اللغة فصيحة وعامية، وظل عربي الدين والحضارة كما ظل عربي الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

(ب) كثرة الشعراء:

(١) انظر مقدمة كتاب لحن العوام للزبيدي بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (طبع مكتبة دار العروبة بالقاهرة).

كان طبيعيًا أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدودًا زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار في تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرّي مبكر في عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جعونة الكلّابي كان مداحًا للصميل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهري وإلى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعارًا لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضي. ويظل الرواة ينشدون أشعارًا لأمرء البيت الأموي. وقد أخذ هذا البيت القرشي في رعاية الشعر منذ أول ولايته في الأندلس، ويذكرون من الشعراء في عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المرواني الداخل إلى الأندلس في صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المرواني وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء في عهد الأمير هشام أبو المخشى عاصم بن زيد المتوفى في دولة ابنه الحكم الربضي، واشتهر لزمن الحكم غريب بن عبد الله الثقفي الطليطلي المتوفى في أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وعهده يُعد - كما مر بنا بدء الازدهار الحضاري والثقافي بالأندلس، وأيضًا بدء الازدهار الأدبي، وحظى بنزول زرياب في قرطبة لأول حكمه، ودفعه لنهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهورهم عباس بن ناصح قاضي الحكم الربضي على شذونة والجزيرة، ومر بنا - فيما أسلفنا - أن

عبد الرحمن الأوسط وجه به إلى العراق في التماس الكتب القديمة التي تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزًا كثيرةً أكب عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم في إساعة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهوري الشعراء أيضًا في هذا العهد يحيى الغزال الذي بدأ ظهوره في عهد الحكم الرضي وعاش طويلاً حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم في عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثنى مؤدب أبنائه، ومثله عبد الله بن بكر الكلاعي الملقب بالنذل، ومثلهما أبو عثمان سعيد بن الفرّج الملقب بالرشاش، وكان من آداب الناس في زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهوري الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفي جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتيبي وله مدائح كثيرة في الأمير وابنه القاسم وزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار في المغرب والمقتبس. ومن تدور أسماؤهم من العراء في المقتبس لعهد الأمير محمد طاهر بن حزم وتما بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد الموروي وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم في المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحهما له حتى وفاتها

لعهد، وعداد ابن عبد ربه في بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس في بيوتات المولدين لعهد الدولة المرونية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبري مخترع الموشحات وهو عربي صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلي وأحمد بن قلزم واسحق المنادي وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المططب ابن أخي الشاعر ابن عبد ربه وعبيد يس بن محمود، وكان كاتباً في القصر وله مدائح كثيرة في الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه الثائر بجيان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله الثائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلفاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح في الأمير عبد الله وأيضاً في كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا في الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله في ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالم والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التي حدثت فيها هذه الفتنة إلبيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته ويهجو متوعداً الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودي وغلى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربي هو الأسدي محمد بن سعيد بن مخارق، ومولد من انباء المسالمه هو العجلي عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا في عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذي امتد خمسين عاماً حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: "اجتمعت له حلبة من

فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوا في تقریظه وتوسعوا في ذكر عدالته وسباحة كفة وشجاعة قلبه وجزالة رأیه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنًا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيد^(١). مقدمهم معلمه في الصبا ابن عبد ربه، يليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادي وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السناط وغيرهم من كبار الطائرين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادي ومحمد بن الحسين الطنبلي الإفريقي^(٢). ويذكر ابن حيان في الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهتثون فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفي ومحمد بن أضحي صاحب الحامة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازي الذي مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون في عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفي مقدمتهم جعفر المصحفي مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطنبلي ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجباني صاحب كتاب الحقائق. وكان الحكم مثل أبيه الناصر - شاعرًا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارًا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيه محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور

(١) الخناذيد جمع خنذيد، وهو من الشعراء: المجيد المحسن.

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الإسباني للعربي للثقافة بمدريد) ص ٤٠ وما بعدها.

بن أبي عامر ثم ابنه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عامًا، ويقضى فيها على الحكم الأموي قضاء مبرماً. ومن مشهوري الشعراء في الدولة العامية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبلينه سعيد بن عثمان المرواني وهو من مداح المنصور بن أبي عامر، والقائد يعلى بن أحمد بن يعلى وعبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهشيمي وعبد الله بن أبي الحسن ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادي المتوفى سنة ٤١٣ ومحمد بن الحسين الطبني وجعفر بن أبي علي القالي، وعيسى بن الحسن، وعبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتاني محمد بن الحسن المذحجي المطب وابن دراج القسطلي وأمية^(١). بن غالب الموروي.

ومما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجري، على نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه "طبقات الشعراء بالأندلس" وتتوالى بعده المصنفات التي تعني بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعرض أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكتاني المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي في زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف

(١) أنظر تراجم هراء الشعراء في المغرب وخاصة في كتاب مدينة الزاهرة ١/ ١٩٧-٢١١.

الأزدي المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني المتوفى سنة ٣٥٧ وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني، ومر بنا في الفصل الماضي أنه ألفه للحكم المستنصر معارضاً به كتاب الزهرة لابن داود البغدادي وكان ابن داود وزع كتابه على مائه باب وأودع في كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - في مائتي باب وفي كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبياناً لتفوقهم في الشعر وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً في أخبار لشعراء الأندلس، وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السماء كتاباً مماثلاً، وألف ابن الكتاني "كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألمنا به في حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية في الفصل الماضي. وفي سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضي إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تعن بجذب الشعراء إليها كما عُنيت إمارة بني عباد بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم في الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعراً كبيراً وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها في عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح في

وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عام راحميري الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع في وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسين الهوزني وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلي وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبي الذي اتخذ وزيراً ومديراً لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعياً كبيراً للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجند وأبو القاسم بن مرزقان وابن المرعزي النصراني الإشبيلي. وكاد أن لا ينجم في بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبي الذي وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صحبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقيه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البشراة في البيرة ابن القزاز محمد بن عبادة، ومن المرية يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وهبون الذي تغنى طويلاً بانتصاره مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذي تفجع على دولته تفجعا مريراً حين نفاه ابن تاشفين إلى أغمات بمراكش. ومن وفد عليه أيضاً ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل في هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء في عهد أمراء الطوائف وحقاً لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغت إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من

شعراء يحقون بها وبأمرائها، ولناخذ مثلاً المرية، فقد كان من أمرائها راع كبير للشعر هو المعتصم بن صمادح الذي ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعراً، وكذلك كان أبنائه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد في إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين عليه من الأندلس وغيرها الأشكركي يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيري الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادي آشي والسعد بن بليطة الطليطي وابن شرف القيرواني. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سبباً في أن تتعدد بالأندلس المراكز التي تغدق على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفاً زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هي التي تنثر الدنانير، أما في هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل برتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمرية ومرسية ودانية وبطليوس وطليطلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهر مستجدة في هذا العصر هي ظاهرة الشعراء الجوالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير في طلب النوال والمال مثل أسعد بن بليطة الطليطي وابن القزاز محمد بن عبادة وأبي عامر بن الأصيلي وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبوني المبدع، ورأى أن يرجع أخيراً إلى موطنه "القبداق" ويشغل فيها بالزراعة بعد أن كلت قدماء وأضناه التطواف على

الإمارات والأمراء^(١). وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هي ظاهرة المداحين المتسولين من أهل الكدية الذين يسميهم ابن بسام في الذخيرة باسم القوالين، وهم لا ينظمون شعراً ولا مديحاً، وإنما ينشدون غرر القصائد على الأبواب وفي الأسواق يستجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مقانا:

أَلْبَرْقُ لَائِحٌ مِنْ أَتْدَرِينَ ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ بِالْدمْعِ المَعِينِ^(٢).

ويقول إن طائفة القوارين في الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة في اللفظ وسلاسة^(٣).

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس في عصر المرابطين (٤٨٤-٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى في الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم في الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعي أن ظل يعيش في عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا في عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء في هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبي الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام ومحمد بن الجراوي الغرناطي وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفي وله كتاب في تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملتمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر

(١) الذخيرة ٢/ ٧٨٧.

(٢) أتدرين: قرية بالشام.

(٣) الذخيرة ٢/ ٧٩١.

بن الحاج وأمية بن أبي الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو بكر المخزومي الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب وأبو بكر بن العربي وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلام ومحمد بن الروح وابن الفخار الأصولي المالقي، ومن كبار الشعراء الوشاحين في العصر الأعمى التطيلي ويحيى بن بقى واليكي يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو عبد الله بن أبي الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين والشعراء تراجم وأشعار في كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضاً فإنه ترجم لابن قزمان الواضع النهائي لفن الزجل الأندلسي وديوانه منشور منذ القرن الماضي وقد توفي سنة ٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاماً، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ومضي إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد في كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من أربعين شاعراً نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبي وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن الصفار الأعمى القرطبي والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبي والخزار البسطي وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن عبد الواحد الملاحي مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندي محمد بن عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبي والرصافي محمد بن غالب وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينق الشاطبي ويحيى الجزار السرقسطي.

وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصري الفيلسوف وعلى بن المريني وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبيّ. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبيليّ والبلاّرج القرمونيّ وابن الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقي. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري كثرة ناظمية بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مر بنا على أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهامًا واسعًا بزت فيه أخواتها في البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل الغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرئ في النفع لأكثر من عشرين شاعرة، منهن في القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشّص عاصم بن زيد، ومنهن في القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجازية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجانية، ومنهن في القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفي ومهجة بنت التيان القرطبية ومريم بنت أبي يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجازية والعبادية جارية المعتصد بن عباد واعتماد المعروفة باسم الرميكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائهم وغاية المنى جارية المعتصم بن صمّاح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطي سير بن أبي بكر وإلى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمتع إلى أحاديثهم

وأشعارهم وتبدي بعض انتقادات على ما تسمع. ومن ترجم لهن المقرري في القرن السادس نزهون بنت القليعي ومحمد بن زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت يثان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماء العامرية، وترجم المقرري في أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأي إقليم عربي، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفاً أذكى في نفوسهم نساء ورجالاً جذوة الشعر مما جعل الأندلس تمتلئ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالي سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذي رافق الشعر الأندلسي قروناً متعاقبة في التقلص والنحول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التي كان يستمد منها في الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى في وسط الأندلس وشرقيها وغربيها في حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربي ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصاري الصحابي لضاعت الأندلس نهائياً من أيدي العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكون دولة في غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبنائه وأحفاده يقومون عليها حتى غلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش الموحدين فيها أحسن الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلاً أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يتراءى لهم سريعاً، وكان ذلك سبباً في أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم

علومهم وآدابهم التي أثروا بها تأثيراً عميقاً في البلاد المغربية خاصة في مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب نُشر مجمل له باسم اختصار القُدَح المَعْلَى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس في المائة السابعة ممن جالسهم في الأندلس وقيد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم في البلدان المغربية وخاصة تونس أو في البلدان المشرقية في الإسكندرية أو في القاهرة أو في دمشق، وقد بلغوا في كتابه اثنين وسبعين شاعراً، وترجمهم أكثر تفصيلاً وأشعاراً من ترجماته في كتاب المغرب، ومن يذكره بينهم أبو الوليد الشقندي صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس وتفوقها الثقافي والأدبي، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجياني ويقول إن أباه ممدوح مدغليس في أزجاله. ويتوسع في الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوبيين والدباج والأعلم البطليوسي منشداً بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلاً، ولذلك عني بالحديث عمن نزل فيها من الأدباء والعشراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيرة وتحفة القادم ومعجم الصدي وبها توفي سنة ٦٥٨ ومثل أبي المطرف أحمد بن عميرة وأبي الحجاج يوسف البياسي وابن هَمَشْك محمد بن يحيى. ومن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلي المطبّب وقد عينته المصريون في مارستان القاهرة. وكانت مصر دائماً ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دَحِيّة الذي أسند إليه السلطان الكامل رياسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذي جعله رئيساً للعشابين أو الصيادلة في القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربي المتصوف وتوفي بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفي سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القُدَح

المعلّى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس في المائة السابعة. ونلتقي بعده بكتاب "الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة" للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزي المتوفى سنة ٧٩١ وتلاههم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبي حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر في إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين في شعراء الأندلس في المائة الثامنة كتاب نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عامًا، وهو يلتقي معه في طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة لسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل في كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في الأندلس منذ اكتمل تعريبها في القرن الثالث الهجري كثرة مفرطة، وظل الشعر حيًا بل مزدهرًا في الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلما وجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك في ذلك علماءهم من كل صنف ورجالههم ونسائهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر كرها ومثلها مرج الكحل الشاعر البلنسي فقد نشأ ينادي في الأسواق ويتعيش من بيع السمك، وأخذت همته تترقى قليلًا قليلًا في حب الشعر إلى أن نظمه وأاده. ومثله ابن جاح الصباغ البطليوسي.

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات:

الموشحات جمع موشحة، وهي مشتقة من الوشاح وهو - كما في المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومات يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزاً، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، يليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأول سواء في الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول في قافيته، فلكل غصن قافية تتحد في أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعاً في الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة في الأقفال المتعاقبة في الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها في الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائماً، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفاً أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هي التي ابتكرت فن الموشحة، ويظن أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب في عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مر بنا في الفصل الأول أثر كبير في نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفقرة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله

بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: "ذكر الحجاري في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها"^(١). ويسمى ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبري الضرير، ويقول: "كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة"^(٢). وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم في نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربي وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوروبي^(٣)، وهو خطأ في الفهم إذ أن كلمة "الأعاريض المهملة غير المستعملة عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما رده العروضيون المشاركة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التي ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريض الشعر العربي تفسح لأوزان مهمة لا تنحصر لم يستخدمها العرب في أشعارها، واستخدمها في عصره - كما يقول صاحب الأغاني - تلميذه عبد الله بن هرون بن السמידع البصري، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رزّين العروضي وأتى فيه

(١) راجع كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفي حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ١/٤٦٩.

(٣) انظر بالنيثا في تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور مكي في كتاب أثر العرب في النهضة الأوروبية ص ٥٠ وما بعدها.

ببدائع حجة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس^(١). وقد أنشد ياقوت قصيدة له في مديح الحسن بن سهل، وأشار على أنها خارجة على أوزان الشعر العربي وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - في رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسي ثان نظم أشعاراً له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا "العصر العباسي الأول"^(٢).

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التي أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها أنها من أعاريض دوائر الخليل المهملة التي لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - في رأيه - محمد بن حمود القبري الضرير أنه كان: "يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة" وهو يقصد قفلها الأخير الذي يأتي في الخاتمة. وربما كان ذلك ما دعا "ريبيرا" إلى القول بأن الموشحة طراز شعري يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلاً بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانشية في الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بني على شاكلتها موشحته مرصعاً لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفص من الجواهر الكريمة. وليس في يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٢) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

رومانئية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصح منطقياً أن يكون قد حدث أحياناً عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية في نهاية الموشحة على سبيل التظرف، كما حدث ذلك مراراً عند بعض الشعراء العباسيين^(١). وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن في القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانية إلى أغنية رومانية كانت متداولة في الأندلس أو تغنى، فالقول بذلك إنما هو - في رأينا - مجرد ظن لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون ينجحون أحياناً في بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: "الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط في المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللحن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويجعل الخروج إليها وثباً واستطراداً وقولاً مستعاراً على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولا بد في البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت"^(٢). وواضح أن ما تحمله الخرجة أحياناً - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب في استخدام الوشاح

(١) انظر في ذلك فصلاً فتحه الجاحظ في البيان والتبيين (طبعة هرون) ١/١٤١ - ١٤٤ لمن كان يتملح بإدخال ألفاظ فارسية في شعره من الأعراب فضلاً عما كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا العصر العباسي الأول ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٣٠.

الأندلسي أحياناً للخرجات الرومانشية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني من خرجات الموشحات في كتابه - الزجل الأندلسي - يلاحظ أن كثيراً من الخرجات العجمية التي ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمرها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذلة لعاشقها تذلاً شديداً، وقد يصاغ ذلك في خرجات عامية ولكن في تلميح غالباً دون أن يחדش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يחדش حياءها فكان يصوغه في عبارة لاتينية دارجة أو رومانشية وهذا - في رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية في بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغاني الرومانشية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التي ظهرت منذ القرن الثاني الهجري على لسان أبي نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان في الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذي يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركز أو القفل في الموشحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو في مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان في الموشحات الأولى شطراً واحداً. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذي اختاروه لها اشتقاقاً من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك

تلتقي جميعاً عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور في المسمط مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أي الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذي يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالف بينهما ويعطف أحدهما على صاحبه. وهي تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبري وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامي أو العجمي مركزاً أو كما سُمي فيهما بعد قفلاً ويضع عليه أشطاراً، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطراً واحداً بالضبط كما كان في المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر اشطاراً الأشعار، وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل بن أحمد في دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية^(١). بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول في الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضي وأبي العتاهية في بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأولى الذي ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادي الكندي المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطوراً مهماً يقول ابن بسام في نفس النص السابق: "فكان أول من أكثر في الموشحة من التضمين في المراكز" يريد أنه أول

(١) راجع في ذلك ترجمة الخليل في كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.

من أحدث في الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور في المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعة. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجي، الأنصاري المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطوراً جديداً هو تضمينه مواقع الوقف في الأغصان أو بعارة أخرى دقة التجزئة في أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التي حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلاً: "كانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منادها، وقووم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه". وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء في كل غصن تقابلاً دقيقاً على نحو ما نرى صنيعة في هذا الغصن متغزلاً^(١).

وَوَجَّهَهَا نَهَارٌ^(٢).

لَيْلِيَّةُ الذَوَائِبِ

وَرَشَفُهَا عَقَارٌ^(٣).

مَصْقُولَةُ التَّرَائِبِ

وَالْحَدَّ جُلْنَارٌ^(٤).

أَصْدَاغُهَا عَقَارِبُ

(١) راجع الموشحة في الفوات ٤٢٨/١.

(٢) الذوائب = الضفائر.

(٣) العقار = الخمر.

(٤) جلنار: زهر الرمان.

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها في القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليداً ثابتاً في الموشحات بعده. والوزن في هذا الغصن والإغصان بعده مستفعلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى التي أنشدها ابن شاعر من وزن الرمل أقفالها وغصونها، ومطلعها:

مَنْ وَلِيَ فِي أمة أمرا ولم يعدلِ يُعْزَلِ

إِلَّا لِحَاظَ الرَّشَاءِ الْأَكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنظَّمُ إما على أعاريض الشعر العربي المستعملة وإما على أعاريضه المهملة، وموشحاته تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب في الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ - أقرع، وقد يتألف القفل من جزئين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن. ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا، ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قرباً شديداً من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزاز محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان هو والقزاز فرسي رهان في العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر كما كان

يحيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح في المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأبنائه، وهو يستهلها دائماً بغزل رقيق من مثل قوله في موشحة مدح^(١). بها المعتمد:

يفترُّ عن لؤلؤٍ في نسقٍ من الأقاح بنسيمه العبقِ

هل من سبيل لرشفِ القبلِ

هيئاتٍ من نيلٍ ذاك الأملِ

كم دونه من سيوف المقلِ

سَلَّتْ بلحظٍ وقاحٍ خجلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعَلن فعَلن مُستَعَلن. والثاني على زنة: مُتَفَعَلَاتُ والثالث على زنة: متفاعَلن. والرابع على زنة فعَلن. واجتماع هذه التفاعيل تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن فيطرد على زنة: مستفعَلن فاعَلن مستفعَلن، وهو وزن عربي مستعمل بكثرة ونقص وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة في موشحاته مراراً العذوبته.

وتتسع موجة الوشاحين في عصر المرابطين، ومن أهمهم في عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلي المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِيّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخسه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلي يقل عنه براعة، غير أن له ديواناً كبيراً مما جعلنا نخسه بترجمة بين الشعراء، ويكفي لبيان مهارته في صنع الموشحات ما يروي من أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم في

(١) أنظر الموشحة في دار الطراز ص ٥٤ وفي المغرب ٢/ ٤١٤.

مجلس بإشيلية بينهم يحيى بن بقى والأعمى التطيلي، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

مزق ابن بقى موشحته وتبعه الباكون^(١). لما فجأهم به التطيلي في موشحته من عذوبة في اللفظ وروعة في التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثاني والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعَلن، وتمضي جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضي الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله في الغصن الأول:

آه مما أجد شفنى ما أجد
قام بي وقعد باطن متد

وكان التطيلي تعمّد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالاً وأغصاناً من وزن عربي مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة في موشحات التطيلي الملحقة بديوانه كقوله في موشحة نظمها من الوزن الأخير:

(١) المغرب ٢/ ٤٥٦ والمقتطف ص ٢٥٦.

على رِواءِ البساتينِ

أرقَّ من دَمَعِ محزونٍ

في أهيفِ القَدِّ لَدُنْه

ما جَفَنه غير جَفَنه

ولو برِّمان غُصَنه

حُثَّ الكئوسَ رِويَّة

من قهوةِ بابلِيَّة

خلعتُ عِزِّي وديني

يَسْطو بسيفِ المنونِ

يا قسوةَ الحبِّ ليني

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا على وزن المجثث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلي من الوشاحين النهاهين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره في الفصل الماضي وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحاً في مديح ابن تيفلوت المرابطي الوالي على شرقي الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه والقاءه على قينة، فلما غنت ابن تيفلوت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشي ابن باجة في طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين في عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو بكر بن رَحِيم ويحيى بن الصيرفي المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناه من مخلع البسيط مستخرجاً دائماً الجزء الثاني من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة في الجزء الأول على هذا النمط^(١):

(١) المغرب ٢/ ١٤٧.

يا رَبَّةَ المنظر الجميلِ ميلي

رأيت في وجهك السعيد عيدي

وتظل الموشحات مزدهرة في عصر الموحدين (٥٤٠-٦٣٤هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن وإلى غرناطة كما يتضح في موشح له بديع^(١). مستخرجاً الجزء الثاني من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله في مطلعته:

يا ليلة الوصلِ والسُّعودِ بالله عُوْدِي

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثاني مستفعلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المريني وفي المغرب له موشحة^(٢). بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس في إحدى موشحاته:

ورداء الأصيلِ تطويه كفُّ الظلامِ

(١) المغرب ٢/ ٢١٥.

(٢) المغرب ٢/ ٢١٨.

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء^(١)؟ وهي صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحِّلَ الدُّجَى يَجْرِي من مُقْلَةِ الْفَجْرِ
على الصَّبَاحِ ومِعْصَمِ النَّهْرِ
وفي حُلِّ خُضِرٍ من البَهْ طَاحِ

طرب لهذا القفل منها طرباً شديداً^(٢). لعذوبة الفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حيثئذ على بن حزمون الهجاء، وله موشحة^(٣). بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد في الدفاع عنها في إحدى معاركه المحترمة مع النصارى وسنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٧، وله في إحدى موشحاته^(٤):

وأَفَرِدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبِتُّ عَلَى جَهْرَاتِ الْغَضَا
أَعَانَتْ بِالْفَكْرِ تِلْكَ الطُّلُولُ وَأَلْثِمْتُ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومُ

(١) المقتطف ص ٢٦٠.

(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) المغرب ٢/٢١٧.

(٤) المغرب ٢/٢٨٩ والغضا: من أشجار نجد يستوقد بخشبه.

وأغصان الموشحة وأقفاها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتقضى
الأندلس بعد الموحدین إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى في حجر النصارى، وقلما
يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا في عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل
إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأشهر موشحاته^(١):

هل دَرَى ظَبِّي الحمى أن قد حمى قلب صَبَّ حَلَّه عن مَكْنَسِ

فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلًا لعبت رِيحُ الصَّبَا بالقَبَسِ

وقد صاغه أقفالاً وأغصاناً من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل
المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربي
والششتري. وملتقى في غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة
مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحاً لها بقوله^(٢):

جادك الغيث إذا الغيثُ هَمَى يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ

لم يكن وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا في الكَرَى أَوْخِ لَسَةً المختلسِ

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بها وعدنا
من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن
بقى وابن زهر.

(١) ديوان ابن سهل الإشبيلي (طبع بيروت) ص ٢٨٣ ومكنس الطبي: مأواه في الشجر ليستتر به. القبس:
شعلة النار.

(٢) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٢١٣ وهمي: سقط مدراراً.

ابن عبادة^(١) القزاز:

هو ابو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال إنه من حصن بلور من إقليم غرناطة وظنه ابن خامة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبداً لآل صمادح وفي أرضهم أصلي وعيشي ومولدي

لما كان لي إلا إليهم ترحل وفي ظلهم أمسى وأضحى وأغدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضاً فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: "من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في اوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف". وربما قسا ابن بسام عليه في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات في كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلي ويحيى بن بقى من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلي يتكون قفله من ستة

(١) أنظر في ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن خاقان: ١٤ والمغرب ٢/ ١٣٤ وأزهار الرياض ٢/ ٢٥٢ والذخيرة ١/ ٨٠١ وما بعدها والخريدة (طبعة تونس) ٢/ ١٨٢ ودار الطراز لابن سناء الملك: الموشحات ارقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣.

أجزاء بينها يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفي منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه قال: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَدُرْتِمُ شَمْسُ ضَحَى	غُصْنُ نَقَا مَسْكُ شِمِّ
ما أتم ما أوضَحَا	ما أَوْرَقَا ما أَنَمَّ
لا جَرَمَ من لَمَحَا	قد عَشِقَا قد حُرِّمَ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تحد، رشاقة كأنها تطير بها في خفة فتحدث عبقاً، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هي مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء في كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستعلن فاعلن مستعلن فاعلن، وقدم القزاز في الجزئين الأولين فاعلن على مستعلن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداهما من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مر بنا في قفل موشحتين للتطيلي وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجري على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن "رييرا" ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التي نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع في دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدماً ومؤخراً في أسبابها وأوتادها ومستخدمها إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث في التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلاً أن يستخدم

من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئاً. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهمة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا في نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبري الوشاح الأول أثبتها مفصلة في كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التي أنشدناها والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجاباً شديداً أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عرض لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوة والرشاقة التي رأيناها في الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول في أحد الأغصان:

مثل الجياد السابقة

وجاريات تجول

ينشي السحاب الوادقه^(١).

إنشاء من في المحول

منها فروع باسقه^(٢).

سمت على النجم طول

والموشحة ترد إلى بحر الرجز وزحافاته. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسباب بين مديح المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد، وفي أحد أقفاها يقول فيهما:

سيفا نغم لمن مرد^(٣). أو خان

بحرا نغم لمن ورد ظمآن

(١) المحول: الجذب. الوادقة: الممطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلاً ببسالته الحربية.

(٢) باسقة: عالية. يقصد الصواري وما يرفع عليها ويمتد من القلاع.

(٣) مرد: عتا وجاوز الحد.

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعني بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفي بذلك بل يعني عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى^(١) بن بقی:

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القيسي المشهور باسم ابن بقی نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح في القلائد، فقال عنه: "هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيه طائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما ضفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهي الجمان" وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاقه وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

(١) انظر في يحيى بن بقی القلائد ٢٧٩ والذخيرة ٢/٦١٥ ومعجم الأدباء ٢٠/٢١ والتكملة رقم ٢٠٤٢ وابن خلكان ٦/٢٠٢ والمغرب ٢/١٩ والإحاطة ٤/٤١٨ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها ومعجم السلفي ٥٠ والخريدة (طبع تونس) ٢/٢٣٦ ونفح الطيب في الجزئين الثالث والرابع (أنظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢/٢٠٨ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة في المغرب وثانية في معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه "جيش التوشيح" بطائفة من موشحاته.

وَعَلَّتْ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فَأَعْجَزَنِي	نَيْلُ الرِّغَائِبِ حَتَّى أُبْتُ بِالْندَمِ
--	--

ولم يلبث أن فتح له باب كبير هو باب بني عشرة قضاة سلا بالقرب من الرباط الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة في الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن علي بن القاسم وأخاه أحمد قاضي سلا، فمكث في رحابها طويلاً، وأضفى عليهما من شعره وموشحاته دررا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي مدح بها القاضي أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمتها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق

أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وهو لم يحسده في رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضاً على روعة تصويره في الفقرة الثانية إذ جعل القاضي أحمد كوكبا يبرز في المغرب ولا مثيل له في المشرق. ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متغزلاً بصاحبه:

كالظبي لبيده^(١).

الحلي بجيده

في بري عميده

عطا بليتية ومر

فدل عليه تكسر

تفتير عينيه يسرع

(١) الليث: صفحة الجيد وجعلها تعطو بها وتمدهما، كناية عن طولها.

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصوراً بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرت سريعاً إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الظباء بل هي من النساء إذ سمع صوت الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع في ضنا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقي لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد في كتابه "رايات المبرزين" والمقري في أزهار الرياض ومع ذلك نجد أنها في ديوان التطيلي خطأ^(١). كما نجد أختها لها في ديوانه أيضاً وهي في مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقي الذي تفيماً ظلالة، وينص ابن سناء الملك في مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه^(٢). وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِيمَةُ العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

لما جَنَى الوَرْدُ مِلءَ كَفِّهِ تشوّفتُ وردتان إليه

فحلّتا في رياض خَدَيْهِ

(١) انظر ديوان التطيلي ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢/ ٢٠٩.

(٢) راجع ديوان التطيلي ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضاً ابن سعيد في المغرب ٢/ ٢٥ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقي وقد أضيفت إلى التطيلي في ديوانه ص ٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقي اختلطت بموشحات التطيلي وخاصة في كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ في نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيلي وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!.

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: "معذب كفاني" لأن وزنه مستفعلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد في حدود صاحبه تنقلنا إلى عالم شعري حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

يا وَيَحْ صَبَّ إلى الْبَرْقِ له نَظَرٌ وفي الْبِكَاءِ مع الْوَرَقِ له وَطَرٌ

من وزن البسيط أفعلاً وأغصاناً، وهو يضم في الوزن الجزئين الأولين والتالين بعضهما إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلٌ فالصَّبْرُ بالجميل جميلٌ

والوزن في أفعالها وأغصانها مستفعلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة في كثير من أغصان ابن بقي وخرجاته كقوله في موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلٌ ولا مُعِينٌ يا قلبَ بعضِ الناسِ أما تَلِينُ

وقوله في خرجة موشحة ثانية مستخدماً لغة عامية كأنها تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيراً بعيداً:

سافرَ حبيبي سَحَرَ وما ودَّعْتُ

يا وَحْشَ قلبي في الليلِ إذا افْتَكَرْتُ

وكلمة وحش حذفت منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحياناً إذ تصبح مستفعلاتن. وبهذه الألفاظ الغزلة المفرطة في السهولة وبها كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره، وقد لبي نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبوبكر^(١). بن زهر:

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سلسل أسرة طبية أئمتها بين الأطباء في الفصل الماضي، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخاري أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثالث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥هـ) وتوفي في آخر سنة ٥٩٥ وصلى المطرب إن الذي انفرد به وناقذت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه:

(١) انظر في أبي بكر بن زهرة التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ١/ ٢٧١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٥٦ وزاد المسافر لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوافي للصفدي ٤/ ٢٩ وراجع في موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبي أصيبعة وتوشيع التوشيع للصفدي (أنظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيع لابن الخطيب.

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ

وَنَدِيمٌ هَمَّتْ فِي غُرَّتِهِ

وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ

كَلِمًا اسْتَيْفَظَ مِنْ سَكْرَتِهِ

جَذَبَ الزَّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعٍ

والموشحة من وزن الرمل، وهي تسيل خفة ورقة وعدوبة ورشاقة في نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذًا بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الغصن وقفه:

هل تستعاد أيامنا بالخليج أو ليالينا

إِذْ يُسْتَفَادُ مِنَ النَّسِيمِ الْأَرِيحُ مُسْكُ دَارِينَا^(١).

وإذ يكادُ حُسْنُ المكان البهيج أن يحيينا

نَهْرٌ أَظْلَهُ دَوْحٌ عَلَيْهِ أُنَيْقُ مُورَقٌ فِينَانٌ^(٢).

والماء يجري وعائِمٌ وغريقٌ من جَنَّا الرِّيحَانِ

والغصن والقفل جميعًا يزخران بشجى يثير في القلب حنينًا بل جدوة متقدمة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربي ينسب إليها المسك والطيب.

(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

والليالي ولا ما كان في حدائقها البهيئة من النسيم العطر حتى لكأنها كل شيء فيها كان يلقاهاهم بالتحيات والبسات، وماء نهر إشبيلية يجري من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظله، والرياحين والزهر بين سابح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنها انتزع منه انتزاعاً. وزنة الجزء الأول في القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثاني مستفعلن فإعلان، وزنة الجزء الثالث في القف فإعلان وفي الغصن فعلن، وبذلك يرد وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائماً وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات في تفاعيل هذه الموشحة وما ماثلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجري أحياناً على أعاريض مهملة أي من أعاريض الشعر العربي كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمي مهملة أي من أعاريض الشعر العربي كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمي الوهمية، كما ظن "ريبيرا" وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قَلْبِي من الحَبِّ غير صَاحِ صَاحِ

وإن لَحَانِي على المِلاحِ لَاحِ

وإن دَرَى قِصَّتِي وشَانِي شَانِي

والجزء الأول في الغصن والقفل من معل البسيط، والجزء اثنائي على زنة فعلن تفعيلة المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم، وشاني الأولى: مخففة من شأني والثانية: المبعض. واستمر ابن زهر في هذه الموشحة

يستخرج الجزء الثاني من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعري. وكان كثيرًا ما يفجأ قارئه بصور طريقة كفوله في الموشحة التي أنشد لها ياقوت في معجم الأدباء:

طرقت والليل ممدودُ الجَنَاحِ مرحبًا بالشمسِ من غير صباحٍ

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبتة فأضاءت في هذا الليل كأنها شمس تطلع دون صباح مما يلقي في نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالاً وغصوناً من وزن الرمل، وأنشد له ابن دحية في المطرب موشحة من وزن المتقارب افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشُّعُورِ على أَوْجِهٍ كَالْبَدُورِ

سَفَرْنَ فَلَاحَ الصَّبَاحِ

ضَحَكْنَ ابْتِسَامَ الْأَقَاحِ

كَأَنَّ الَّذِي فِي النُّحُورِ تَحَيَّرْنَ مِنْهُ الثُّغُورُ

والصور طريقة إذ يجمع في غزله والإعجاب بجمال صواحيبه ظلام الشعور وبدور أو أقامار الوجوه ويضيف أنهن سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذي طالما شبه به الشعراء الثغور لنصاعة بياضه. ويفجأنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود الآلئ التي تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تحيرن ثغورهن من تلك الآلئ البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقي وابن عبادة القزاز وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقاً خالفوا بين قوافي الأقفال وقوافي الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها في كل موشحة كما تتحد قوافي الأجزاء في كل غصن. فالقافية لم تهمل في الموشحة إنما تنوعت في الأغصان، وظلت موحدة في أجزاء الأقفال، وكان حرياً أن يسقط بذلك شيء من وفرة الأنغام المعروفة في القصيدة العربية غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرشق الألفاظ العربية وأكثرهم عذوبة وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصروا الشطور في أجزاء الأقفال والأغصان، حتى أصبحت أنغام أي موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وفرة، بل إنها لتتفوق عليها في كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياح، حتى لتصبح روائعها وكأنها يم من الأنغام تغرق الأذن في خصمه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وضعت في نشأتها - وظلت توضع أحياناً - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانشية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام: إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربي المهملة التي حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فنظروا في دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك في موشحاتهم أحياناً بزيادة سبب في بعض التفاعيل أو نقصه مع إطراد ذلك في الموشحة، بحيث تدخل بدقة في أعاريض الشعر العربي وإيقاعه، فضلاً عن أن

كثيراً منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربي وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال؛

الأزجال جمع زجل^(١)، وهو في اللغة التطريب، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة. وفي اسمه الذي اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغني به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالي الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك في بعض أزجاله^(٢)، ونلتقي بعده بابن عبد الرؤوف ورسالته في الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغي أن يمنع الذين يمشون في السواق بالأزجال إلا أن تكون نفيراً للجهاد أو تهليلاً لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز^(٣). وحين رأى المستشرق الإسباني "ريبيرا" أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأفعال والأغصان قرنهما في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري قائلاً إنه نشأ حينئذ طراز شعري شعبي تمتاز فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذاً صورتين هما الموشحة الفصيحة والزجل السوقي الدارج^(٤)، ويبسط غرسية غوميس

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الزجل في الندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني (نشر معهد الدراسات العربية العالية في الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ في ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرؤوف في ثلاث رسائل نشر بروفنسال.

(٤) أنظر بالثيا ص ١٤٢.

فكرته قائلاً إنه "قدم براهين جلية على وجود لغة رومانية كان يتكلمها أهل الأندلس وهي اللغة التي كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثاني عشر الميلادي أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن في قرطبة"^(١). والشعبتان جميعاً كما يراها ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقيني، أما أنه كانت تشيع في الأندلس لغة دارجة رومانية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعاً فتحت لها وتناسدها الناس فيها، وأكبوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب^(٢). ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثاً ولا دراسة، وأن أول من بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئاً من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادي هو صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ في كتابه "العاطل الحالي والمرخص الغالي" ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانية أو لاتينية كانت دارجة في الأندلس ما استطاع فهمها ولا درسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ في كتابه السالف، الذي لا أبالغ إذا قلت إن أحداً لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعاً في المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية

(١) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكي ص ١٨٦.

(٢) المقتطف ص ٢٦٣.

دارجة أو رومانية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها في لغات الشعوب التي فتحها العرب والتي استحدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعاً - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى "رييرا"، وهي أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجري في حاجة أيضاً إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أي شيء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجري، مما يمنعنا علمياً أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلاً عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان المتوفى في منتصف القرن السادس يحدثنا في مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا في زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهي أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاسيح بالألفاظ العربية الجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساساً للزجل أخطأ بن نهاره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسلة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائياً قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن نهاره تفاسحه ببعض الألفاظ التي لا تجري في العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في

زمانه^(١). ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: "لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل"^(٢).

ومعنى ذلك أن تصور "رييرا" ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكراً مع الموشحة وأنه نظم بلغة رومانثية دارجة كانت تشيع على السنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانثية، ونظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت في عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخصص ابن قزمان بكلمة. وينبغي أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمير ووصف الطبيعة والإعجاب بجمالها الفاتن والمديح والهجاء والثناء وجميع أغراض الشعر العربي، وكان كثير منه ينشد في الحث على جهاد النصارى وفي المناسبات الدينية. وأكبر زجال في الجيل التالي لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مدغليس^(٣)، وهو من أهل المرية، وله أزجال كثيرة في مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد أن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرئ في نفح الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت

(١) المقتطف ص ٢٦٣٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. علي عبد الواحد وإفي) ص ١٣٥٠.

(٣) انظر في مدغليس المغرب ١ / ٢١٤ وتعليقنا على ترجمته في الهامش.

للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنها كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه^(١). وكان ديوانه يروي في المشرق وحصل صفى الدين الحلبي على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الجمل الأندلسي وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وذكر له قطعاً من أجزاله وأروعها الزجل الذي أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول: (٢).

ثلاث أشياء فالبساتين	لَسْ نُجِدْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
النسيم والخضرة والطير	شِمٌّ وَاتْنَزَهُ وَإِسْمَعِ
ورداً ذاق دق ينزل	وشاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض	وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر	والغصون ترقص وتطرب

ويشيد في نهاية الزجل بغناء أم الحسن. والزجل مفعم بالسلاسة والعدوبة والتصاوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنها تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحد القوافي بين الأجزاء الأولى المتقابلة في قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها في الأجزاء الثانية أسوة

(١) النفح ٣/ ٣٨٥.

(٢) المغرب ٢/ ٢٢٠.

بابن قرمان في بعض أزجله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته في اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه في انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقي. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد بالعامية التي أسلفنا الحديث عنها، وكأنها رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياساً على الموشحة صاغ القصائد العامية قياساً على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مر بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن على بن محمد الشاطبي، وقد أنشد له صاحب العاقل الحالي قطعة من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفاً حال العدو^(١):

كلما رَا السيفُ إليه تَنَجَّرُ	صاح ويشكو وثمَّ لم يَرْتَفِدْ ^(٢) .
يَنْبَحُ الكلبُ إذ يَرَى الأسدَّ	والأسدُّ لَسَّ يَهْزُو ذاك النَّبَّاحَ
وَرَجَاعَتْ عليه جنودٌ ووبالٌ	ومال النَّحْسُ ما عو كَفَّ ما مالٌ
لم تنجيه وصية الكردِ نالٌ	ول فَادَتْ نصيحة النَّصَّاحَ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد في المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجالية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقي، ومنهم زجالو إشبيلية: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله

(١) أنظر العاقل الحالي ص ٣٤ و ٨٠.

(٢) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمدد من قومه.

بن خاطب وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن^(١). ناجية اللورقي. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجلي القرن السابع أمثال البلارج القرموني ويحيى بن عبد الله بن البحبضة. وترجم لابن الدباغ^(٢). المذكور آنفاً وقال إنه لقيه بمقالة وإنه إمام في الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششتري المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاقل من زجل قوله^(٣):

يا حَبِيبَ قلبي تعطفُ
بعض هذا الهجر يكفُ
فدموع عيني ما ترقأ
ولهيب قلبي ما يطفأ

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس في المغرب ونظم لهم نوعاً من الشعر الملحون في أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض^(٤). البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين في عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام في الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلاً لمدغليس استهله بقوله:

حلّ المجونُ يا أهل الشطارا
مذ حلّت الشمس بالحمل

(١) انظر في هراء الزجالين فهرس المغرب.

(٢) المغرب ١/٤٣٨.

(٣) العاقل الحالي ص ٥٦.

(٤) المقدمة ص ١٣٥٧.

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي ونتحدث عن بعض أجزاله.

ابن قزمان^(١).

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش في عصر المرابطين إلى أن توفي بعده سنة ٥٥٥ للهجرة في صدر دولة الموحدين (٥٤٠-٦٤٠هـ) وفي المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه في قرطبة نشأة علمية أدبية، وهي نشأة أهلته ليكون أديباً وكاتباً وثائقاً كما يكون شاعراً ووشاحاً^(٢)، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات في كتابه تحفة القادِم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة في مديح يحيى بن غانية وإلى غربي الأندلس من قبل علي بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص في مجلس شراب، فأطفأ فيه السراج بأكمامه. ولعل في ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكراً للمتاع بالخمير واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاقل الحلي موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً^(٣). وفي المغرب أنه "كان في أول شأنه مشغلاً بالنظم المعرب (شعراً وتوشيحاً) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعتمد إلى طريقة لا يمازجها فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس". وقد طارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها، بل في كل مدن الأندلس،

(١) انظر في ابن قزمان المغرب ١/ ١٠٠ و ١٦٧ وما بعدها وتحفة القادِم لابن الأبار في مجلة المشرق عدد ٣

سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة ٢/ ٤٩٤ والعاقل الحلي لصفي الدين الحلي (أنظر الفهرس)

والوافي للصفدي ٤/ ٣٠٠.

(٢) راجع الزجل السابع في الديوان.

(٣) العاقل الحلي ص ٨٢.

وأيضاً في المغرب والمشرق، حتى لتحفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نساخ بمدينة صفد في فلسطين قبل سنة ٦٨٣هـ / ١٢٣٤م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصورة في لوحات، وعنى في سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكي "نيكل" بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة في مدرسة الدراسات العربية بمديرية وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ في رأينا خطأ كبيراً حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربي القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسباني بحجة أن الزجل نظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهي حجة لا دليل عليها أي دليل، بل كل شيء ينقضها نقضاً فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهي لذلك تلتقي بها في أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا في تحليلنا العروضي لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك في الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربي ودوائر الخليل التي أثبتتها ابن عبد ربه في العقد الفريد وتأتي في قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعاً لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها في صفد قديماً أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفي الدين الحلبي أن يدرسها في كتابه العاقل الحالي، وهي على أعاريض الأشعار الأوروبية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفي الدين يشهد في كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة

أوزان العرب^(١). ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوروبي؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غنية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين في الأندلس غير مدافع، ويتراءى لنا فيه ابن قزمان ماجنا عاكفاً على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مراراً مجاهراً به في غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحياناً إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضي يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطي محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعي لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المرفهة في المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله في أزجاله مداحاً كبيراً للأمرء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدي العطاء في إلحاح. وهو يهبط في هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذي يسكنه مصوراً في تضاعيف ذلك بؤسه وحرمانه وما هو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب نكره عنده كما ننكر إسرافه في اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحينا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجال الفنان الكبير الذي

(١) العاقل الحالي ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلاً إنهم خالفوا أحياناً بين الأوزان في الإفعال والأغصان من غير أن يخسروا في الميزان.

أعطى للزجل صورته العامية التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب
الألباب بخفته ورشاقتة من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ في الديوان:

لأنسيت إذ زارني حبي وأنجلي همي وزاد كربي قلت له وقتاً أخذ قلبي
قال متى نحين قل غداً وغدا للناظرين قريب

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف في جزئي القفل. والجزء الثاني في الغصن:
"وانجلي همي وزاد كربي" يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه
زاد كربه، وهي صيغة لا يقولها إلا من شفه العشق. ويقتطف صفي الدين الحلي هذا
المطلع من أحد أزجاله^(١):

قالوا عني بأني فيك عاشق إيش تقل يصدقوا
يا حبيبي لقيت كثير في الناس بالصواب ينطقوا
هذا شئ والنبي يا نور عيني ما تحدثت بيه
ول بالله خطر على بالي لا ولا خضت فيه

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستعلن فعلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة،
مع غير قلبي من الرفق والعطف والحب الذي يكظمه في نفسه ويشيع - دون إرادته -

(١) العاقل الحالي ص ٣٤.

من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد في المغرب طائفة من أزجاله الماجنة،
وتدخلها أحيانا قطع أو فقر بديعة في وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

مثل سلطاناً مؤيداً	الربيع ينشر علاماً
بثياب بحل زبرجد	والشمار تنثر حليّه
من نبات فحل زمرّد	والرياض تلبس غلالاً
يا جمال ابئض في أزرق	والبهار مع البنفسج

واستمر يذكر الندى يترقرق على الغصون وأزهار الخيري والآس، والماء يجري،
والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته
النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت
تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانية فإنها جاءت من العامية الأندلسية، وهي
أشياء محدودة لا تخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانية كما ظن "ريبيرا"
وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة في أزجاله صياغة عامية عربية هي عامية الأندلس
على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفي الدين الحلي أنه على
الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية
الجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا
من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفي الدين لذلك كله وما يماثله

بشواهد كثيرة من أزجاله.^(١) ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قرمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفي الدين لها في كتاب العاقل الحالي، إذ لم يتصد أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجماً لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيراً واسعاً في الغرب، إذ على هديه ظهرت الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالثيا حديثاً مفصلاً عن مدى تأثيره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضاً بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضي بالثيا في الحديث عن تأثير الزجل في الأغاني افسبانية بطرازه الشعري وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها في قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر (١٢٢١-١٢٨٤م) الذي سماه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعمئة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثمئة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا في القرن الرابع عشر الميلادي الذي سماه: "الحب الطيب" ويقول بالثيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

(١) انظر العاقل الحالي ص ٦٤ وما بعدها.

شعراء المديح

طبيعي أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون في التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) كما مر بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش في عصره من الشعراء يدبج القصائد في مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس^(١). بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه في التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله في تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرًا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة في نبارة بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول^(٢):

مكْرَمِينَ عَلَى الدُّنْيَا عَزِيزِينَ

إِنَّ الْقُفُولَ الَّذِي أَوْفَى بَعِيدِينَ

قُدُومٌ أَكْرَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةً

قُدُومٌ أَكْرَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةً

(١) انظري عباس بن فرناس المقتبس لأبي حيان (تحقيق د. مكّي - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزيدي ص

٢٩١ والحميدي رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية الملتبس رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين

أشعار كثيرة في المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

طابا كَتَفَاحَتَيَّ خَدَيَّ مُنْعَمَةً تَوَرَّدَا فِي بِيَاضٍ بَيْنَ صُدُغَيْنِ^(١).
أَوْ مُقْتَلَتَيَّ رَشَاءً فِي طَرْفِهِ حَوْرٌ مَكْحُولَتَيْنِ بِسِحْرِ الْبَابِلِيِّينِ^(٢).

ونلتقي بعده بشعراء ابنه الأمير عبد الله وفي مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد^(٣) الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف في المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان في قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيد الله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لك:

قد جاءك الفَتْحُ في العيد الكبير فما رأيتُ مثلها في اليوم عيدَيْنِ
يا فَرَحَةً مَنْ رَأَى في الغَزْوِ طالعها وشاهدَ الفتح لم يأسلف على البَيْنِ
أَلَدَّ في السمع من بُشْرَى الحَمِيمِ إذا وَاقَى ومنَ منظر المعشوق في العَيْنِ

وممدح البيت الأموي الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذي أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة

(١) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

(٢) البابليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٣) انظر في ابن إدريس الحميدي رقم ٥٨٢ وابن الفرضي رقم ٧٦٥ والضبي رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان في الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر أشعاراً كثيرة (أنظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعاً حتى قالوا إنه كان يؤذن في مسجده وهو وزير.

الحضارة والثقافة في أوروبا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التي تفككت في عهد جده عبد الله، ودان حكام نبرة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومر بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء في زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفي مقدمتهم ابن عبد ربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبدي الله بن يحيى بن إدريس وله يقول في مدحها ميمية: (١).

يَهِنَا الْخِلَافَةُ سَعَى خَيْرِ إِمَامٍ	لِللَّهِ مَسْعَاهُ وَلِلْإِسْلَامِ
لِيُعَزَّ دِينَ اللَّهِ فِي كَنْفِ الْعَلَا	وَيَذَبَّ عَنْ حَرَمِ الْهُدَى وَيُحَامِي
مُسْتَنْجِزًا وَعَدَ الْإِلَهَ بِنَصْرِهِ	فِي شِيعَةِ الْإِشْرَاكِ وَالْإِجْرَامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال في شهر رمضان وأدركه عيد الفطر في بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزق جموعه تمزيقاً. ولابن إدريس يذكر زيادته في جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها: (٢).

سَيَشْهَدُ مَا شَيْدَتْ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ	مُضِيْعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا
فِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالتَّقِي	وَبِالزَّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعَلِيَا

(١) المقتبس الجزء الخامس ص ٤٢.

(٢) المغرب ١ / ١٨٠.

وقد استحال جامع قرطبة في عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائماً يرفع شعراء الأندلس في مدائحهم لأمرأ البيت الأموي الدين الحنيف شعاراً لهم في غزواتهم للمسيحيين في الشمال، فهم يحامون ويصولون تحت لوائه دفاعاً عنه وانتصاراً له زلفى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب في الأندلس، بل في جميع العالم العربي، لعصره، غير أنه لم يكن داهية في السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية في تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويمده بالسلاح والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمي، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبي العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه في تلك السياسة إذ القى بخيرة قواده وجنوده في الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعا جبهته الشمالية في حروبه مع نصارى الإسبان. وفي هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن معد الفاطمي ودعوته وولاءهما له، وهلل شعراؤه بوفادتهما طويلاً، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص^(١):

بأيمن إقبال وإسعاد طائر
تباشير محتوم من الأمر واقع

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر في ترجمة ابن شخيص الحميدي في الجذوة ص ٨٤ وبغية الملتبس ص ١١٩ واليتيمية للثعالبي (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبي في البغية: له على لسان رجل يعرف بأبي الغوث أشعار مشهورة في أنواع الهزل.

تَوَافَتْ بِمُلْكٍ مِنْ مَعْدٍ مَقْوُضٍ لِمُلْكٍ إِلَى مَهْدِيٍّ مَرُوانٍ رَاجِعٍ
 فَيَالِكَ مِنْ بُشْرَى سُرُورٍ تَضَمَّنَتْ بِلُوعِ الْأَمَانِي عَنْ سُعُودِ الطَّوَالِعِ
 فَجَعَفَرُ يَغْنِي عَنْ جُنُودٍ بِرَأْيِهِ وَيَحْيَى يَلَاقِي حَاسِرًا أَلْفَ دَارِعٍ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمي تقوض من أساسه للملك المرواني: الحكم، ويصفه بأنه مهدي منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطبني وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام في الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبي عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابنه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعاً فأكثر من غزوات النصارى في الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جريرة في صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلاً من مثل قول صاعد^(١):

اليوم عاش الدينُ وابتدأ الهدى غَضًا وعاد الملكُ عذبَ الموردِ
 من فاته بدرٌ وأدركَ عمرُه جَرِيرٌ فَهُوَ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَسْعَدِ

(١) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢-٧٣ وهو صاعد البغدادي اللغوي الشاعر الوافد على المنصور بن أبي عامر، وراجع ترجمته في الذخيرة ٤/ ١/ ٨ وما بعدها والحميدي: ٢٣٣ والبيعية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ١١/ ٢٨١ وإنباه الرواة ٢/ ٨٥ والمعجب للمراكشي ص ٧٥ وابن خلكان ٢/ ٤٨٨.

وهو يجعل غزوة جريرة أختا لغزوة بدر التي أعز الله بهما الإسلام ورسوله
والمؤمنين مبالغة في تمجيده لانتصار ابن أبي عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن دارج
القسطلي وسنخسه بكلمة. ويقول فيه وفي حجابته عبادة بن ماء السماء^(١):

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسرها فأصبحَ في أخلاقه واحدَ الخلقِ
فلا يغترُّ منه الجهولُ ببشره فمعظمُ هولِ الرَّعدِ في أثرِ البرقِ

وعاصر عبادةً زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد
الخلافة على بن حمود العلوي من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه
متحزباً له متشيعاً بمثل قوله^(٢):

أطاعتك القلوبُ ومنَ عصي وحزبُ الله حزبُك يا عليُّ
وإن قال الفخورُ أبي فلان فَحَسْبُكَ أن تقولَ أبي النبيِّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى
ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود

(١) راجع ترجمة عبادة في الذخيرة ١/ ٤٧٥ وسنخسه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر في هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة عبادة في الذخيرة ١/ ٤٦٨ وما بعدها.

بجنود من البربر إلى قرطبة ويسترد الحكم من يحيى سريعاً، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فها أنا ذا يابن النبوة نافث^١ من القول أرياً غير ما ينفث^٢ الصل^٣.
وعندي صريح^٤ في ولائك معرق^٥ تشيعه محض^٦ ويبيعه^٧ بتل^٨.

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضي فيذكر أن جده كان موالياً لعلی مما جعل معاوية يبغضه بغضاً شديداً. وكان ابن الحنات الكفيف القرطبي يتشيع مثله للحموديين وله مدائح متعددة فيهم وخاصة في علی بن حمود وفيه يقول: (٣).

إمام أقام الدين حد حسامه طريراً ومنه في يد الله قائم^٩.

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين في الأندلس، إذ لم يكونوا هم ولا آباؤهم الأدارسة في المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

(١) الأرى: غسل النحل. الصل: الحية.

(٢) بتل: حق.

(٣) انظر القصيدة في ترجمة ابن الحنات بالذخيرة ١/٤٣٧ وراجع ترجمته في الجذوة ص ٥٣ والبغية رقم

١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١/١٢١ والتكملة رقم ٤٢٩ والوافي ٣/١٢٤.

(٤) طريراً: له رواء وبهجة.

وإذا مضينا في عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبج فيه المدائح، إذ تكاثر الحب في تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الافدين على أمرائها، وقد استحال قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث في الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثاً عن الشعراء البارعين بكل حاضرة في هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني لإدريس بن يحيى الحمودي أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخمراً وسنعرض لذلك في ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشداً^(١):

وَكأنَّ الشَّمْسَ لما أَشْرَقَتْ	فَأَنثَنَتْ عنها عيونُ الناظرينَ
وَجَهْ إدْرِيسَ بنَ يحيى بنَ	عليٍّ بنِ حمودٍ أميرِ المؤمنينَ
كتبَ الجودَ على أبوابِهِ	أَدْخُلُوها بِسلامٍ آمينَ
انظرونا نَقْتَبِسُ من نوركم	إنَّه من نورِ ربِّ العالمينَ

(١) أنظر القصيدة في ترجمة ابن مقانا بالذخيرة ٤٨٦/٢.

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليهز وتغنى ابن زيدون مراراً بأمرأ قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك في مؤامرة ضدهم وزجوا به في غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله^(١):

بنى جَهْورٍ أحرقتُم بجفائكم جناني فما بال المدائح تعبُ
تظنونني كالعنبر الورد إنما تطيبُ لكم أنفاسه وهو يحرقُ

وردت إليه حريته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذته وزيراً له وأجزل له في الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون في إحدى مدائحه^(٢):

همام يزين الدهر منه وأهله مليك فقيه كاتب متفلسف
يتيه بمرقاه سرير ومنبر ويحمد مسعاه حسام ومصحف
جحيم لعاصيه يشب وقوده وجنة عدن للمطيعين تزلف^(٣).

(١) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد سيد كيلاني) ص ٦٠ والمغرب ١/ ٦٩.

(٢) الديان ص ١١٢.

(٣) تزلف: تقدم وتصبح زلفى ومنزلة.

ومرّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بها قدموه لها من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له في الفصل التالي، ومن قصيدة له في مديح المعتمد^(١):

ملك إذا عقد المغافر للوغي	حلّ الملوك معاقد التيجان ^(٢) .
وإذا غدت رايته منشورة	فالخافقان هنّ في خفقان ^(٣) .
يا منشئ العلياء بعد مماتها	تفنى النجوم وما ثناؤك فإن
الأرض حاجتها إليك بطبعها	كالعين حاجتها إلى الإنسان

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية في عهد أميرها المعتصم بن معن بن صمّاح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعراً، فهتفت باسمه الشعراء في إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولمواطنه أبي حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله^(٤):

(١) الذخيرة ٦٨٧/٣.

(٢) المغافر: جمع مغفرة: زرد من الدروع على قدر الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغي: الحرب.

(٣) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة نبضات القلب.

(٤) انظر في الأبيات ترجمة أبي حفص بن الشهيد في الذخيرة ١/ ٦٧٠ وما بعدها، وانظره في الحميدي ص

٢٨٣ والمغرب ١/ ٢٠٩ وبغية الملتبس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيّدك شاعر المرية في زمانه وكان

مقتصصاً على أمير بلده المعتصم بن صمّاح.

وأحسن من روض تحلى بنوره
محيا ابن معن في حلى الفضائل
جواد كأن الأرض جمعاء راحة
له وبحور الأرض خمس أنامل
جللت فجلى القول فيك وإنما
يقدر لقدر السيف قدر الحمائل

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقل عن المعتصم والمعتمد جوداً وشعراً ولسناً وفصاحة المتوكل بن المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، ولأبيه كتاب المظفري في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس في عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتتلى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسمنخصه بترجمة في الفصل التالي، وفيه يقول^(١):

طبقت أفاق الكلام فلم أدع
زهرًا يرف ولا جمانًا ينظم
لله درك هل لمجدك غاية
إلا وأنت بها معنى معرم
هزتك أرواح السباحة بانه
ومن الرجاحة في حماك يللم
وتعلمت منك الغمامة شيمة
تهمى وفيها للبروق تبسم

(١) الذخيرة ٢/ ٦٨٥.

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التي يشبه بها الشعراء محبوباتهم في الحسن سماحة وجودا، ومثل جبل يلملم في رجاحة العقل وحلمه ورزاقته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يغدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها ماتني تلمع كبسماته التي ترتسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلاً عند موقعة الزلاقة في أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا في الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمرء عاشوا للترف واللهو، وإن سددوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم في الإمارات وإخوانهم في الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين في الشمال، وسقطت طليطلة في حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفكرين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفي مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين في المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية في غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس في الزلاقة بالقرب من بطليوس في اليوم الثاني من رجب سنة ٤٧٩ وصدى - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - في وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقاً ذريعاً، وكأنما استؤصل جيشهم استئصالاً، إذ لم ينج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولاً مقهوراً، وفر على وجهه ألفونس يتسنى الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنا

الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح في تهنتة له^(١):

ثناؤك ليس تسبقه الرياحُ يطيرُ ومن نَدَاكَ له جناحُ
تطيبُ بذكرك الأفواهَ حتى كأن رُضابها مسكٌ وراحُ^(٢).
جلبتُ إلى الأعادي أسدَ غابٍ برائتها الأسنةُ والصفاحُ^(٣).

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب في حمير وكان بنو عباد من قبيلة لخم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون في قصيدة يهنئ فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشداً^(٤):

نَمَى في حَمِيرٍ وَنَمَتَكَ لَحْمٌ وتلك وشائجُ فيها التحامُ
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منه كيامن، لا وَهِي لكما نظام
فإن يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كَحَرٍّ ولكن مثلاً ينجو اللثامُ
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا كأن وهاذا منهم إكامُ

(١) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت في الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن القزاز.

(٢) الرضاب: الريق المرشوف. راح: خمر.

(٣) البرائن: جمع برثن: مقلب السبع. الصفاح: السيوف.

(٤) الذخيرة ٢/٢٤٥ وابن وهبون من شعراء المعتمد بنعباد، وسنفرده له ترجمة في الفصل التالي.

وهو يجعل يوسف نفس سميهِ الصديق ويجعل لمعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن
أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكامًا
أو أكمام وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة^(١) للمعتمد
بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح
أمراء الطوائف بالوحدة، ولقب بعد تلك الموقعة المظفرة بأمير المسلمين، وبني ألفونس
حصنا ضخماً بالقرب من مرسية في موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء
الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانياً الزقاق سنة ٤٨١ ووجه قواته إلى حصن
ليبط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى
سابق العهد بهم من الانغمار في الخلافات وفي الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس
ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت
المسلمين في الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق في رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده
ابن أخيه سير بن أبي بكر، فاستسلم طواعية عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، واستسلم
المعتمد بن عباد في إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلل
فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجدي في مدحة
لابن تاشفين متشفياً فيهم قائلاً^(٢):

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

(١) انظر في هذه التهنة الذخيرة ٣ / ٨١٤.

(٢) راجع القصيد في الذخيرة ٢ / ٢٥٦ وانظر في ترجمة ابن الجدي المغرب ١ / ٣٤٠.

وكيف يشعر مَنْ فِي كَفِّهِ قَدَحٌ تحذو به مذهلاتُ النَّايِ والوَرْتِ^(١).
 فقلْ لمن نام أصبحَتْ انتَبَهَ فلقد مضى لك الليلُ ضَرْفًا وانقضى السَّحَرُ
 وانظرْ إلى الصبحِ سَيْفًا في يديْ ملكٍ في الله من جُنْدِهِ التأييدُ والظفرُ
 يرعى الرعايا يطرفُ ساهرٍ يَقْظُ كما رعاها بطرفٍ ساهرٍ عُمَرُ^(٢).

ويُظَلُّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا في قتال النصارى ما آخر استردادهم للأندلس جميعها قرونًا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويموج ديوان الأعمى التطليلي بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يموج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتميم، وكان إبراهيم واليًا له على شرقي الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تميم واليًا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقي الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مفتتح بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول^(٣):

وأبلج منصور اللواء إذا سرى أظلت عقاب النصر أجنحة النسر

(١) يشير ابن الجدي إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والغناء وكأنهم يعيشون في دور ملاح لا في دور حكم وسياسة.

(٢) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٣) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازي) ص ٢٥ وما بعدها.

له فتكة لو زاحم الدهر تحتها لعدت به دهم الليالي من الشقر
وعزم يرد الطود هداً ونجدة تهز قدود السمر في الخلل الحمر
تقسّمه جود يفيض وهمّة فمن منهل غمر ومن جبل وعر

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات في معاني الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالي شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمته لا تباري كجبل وعر لا يساميه جبل في وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بدیعة في مديح زوجة تميم مريم، وكانت سيدة أدبية فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة^(١):

مشهورة في الفضل قدماً والنهى والجود شهرة غرة في أدهم
تولى الأيادي عن يد نزل الندى منها بمنزلة المحب المكرم
حمل الثناء بها القريض وإنما حمل الحديث رواية عن مسلم

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عطراً عطر الحديث المروى عن مسلم في صحيحه مبالغة منه في بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغني بها

(١) الديوان ص ٩٧-٩٨.

ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة في الفصل الثاني. وفي ابن تيلفويت والمرابطين يقول ابن باجة معللاً لا سمهم "الملثمين" إذ كانوا يضعون لثاماً على وجوههم^(١):

قومٌ إذا انتقبوا رأيت أهلةً وإذا هم سَفَرُوا رأيتُ بدورا
لا يسألون عن النّوال عَفَاتِهِمْ شكراً ولا يَحْمُونَ منه نَقِيرًا^(٢).
لو أنهم مسحوا على جَدْبِ الرُّبِي بأكفهم نَبَتَ الْأَقَاخِ نَضِيرًا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءاً من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكراً على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا ييقون منه لأنفسهم أي شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزت وربت وأنبتت أزهاراً وأقاحا ناضراً.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعيني المار ذكره بين البلاغيين في الفصل الماضي مدحة في الزبير بن عمر المثلثم وإلى قرطبة يقول في تضاعيفها مخاطباً المثلثمين أو المرابطين^(٣):

جُولُوا وَصُولُوا فَاَلْمُنَاسِبُ حَمِيرٌ أَهْلُ الْمَفَاخِرِ وَالنَّدَى وَالنَّادِي

(١) النفح ٤١٧/٣.

(٢) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب المعروف.. النقير: الشيء المتناهي في الصغر.

(٣) انظر الأبيات في ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

للقوم في كل البلادِ رياسة تحكى بني العباس في بغدادِ
أضحت مجالسهم سروجَ جيادهم إن السروجَ مجالسُ الأمجادِ

والصورة في البيت الأخير بديعة، ولليكي يحيى بن سهل هجاء الأندلس في
المرابطين معللاً لتسميتهم بالملثمين بالغابهم الغاية من المديح^(١):

قومٌ لهم شرفُ العلا في حميرٍ وإذا انتَمَوْا صنهاجَةً فهمُ همُ
لما حَوَّوا إحرارَ كل فضيلةٍ غلبَ الحياءُ عليهم فتَلَّثَمُوا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب ورعاية للشعر والشعراء،
وهي أسرة بني عشرة أصحاب خطة القضاء في مدينة "سلا" على شاطئ المحيط، وأول
من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضي على بن القاسم
بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطي ومحمد
بن سوار الأشبوني المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند
النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله^(٢):

لو أن رِفَقَكَ في القلوب مركَّبٌ لم يَلْتَقِم في البحر يونس حوتٌ
ولقد حملت من الوقار سَكِينَةً لم يحتملها قبلك التابوتُ

(١) المغرب ٢/ ٢٦٨ وسنفرده له ترجمة في الفصل التالي بين المهجائين.

(٢) البيتان في ترجمته بالذخيرة ٢/ ٨١١.

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: (فالتقمه الحوت وهو مليم) وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: (إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ). وخلف عليا في القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام في ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موثلاً لشعراء الأندلس، وبني أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبو عامر محمد بن الحمارة حاضرا ولم يكن أعد شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد^(١):

فحلَّ فيها حلولَ الشمس في
الحمل^(٢):

يا أوحَدَ الناسِ قد شَيَّدتَ واحدةً

ولا كدارك في الأخرى لذي عملٍ

فما كدارك في الدنيا لذي أملٍ

ومر بنا في ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خص القاضي أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نوالهما عليه، مما جعل لسانه يلهج بمدحيهما والثناء عليهما طويلا، من مثل قوله في يحيى من مدحة طويلة^(٣):

(١) انظر ترجمة أبي عامر في النفح ١٣/٤ و ١٤٠ وقد دعاه أبا الحسين على بن الحمارة وراجع ترجمته في

المغرب ١٢٠/٢ وفي البغية ص ٥١٧.

(٢) الحمل: من منازل الشمس.

(٣) ابن خلكان ٦/٢٠٤.

نَدَبٌ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةٌ فِيهَا حَفِظَتْ كُلَّ لَيْثٍ مُخْدَرٌ^(١)
 مِثْلُ الْحَسَامِ إِذَا انْطَوَى فِي غَمْدِهِ أَلْقَى الْمَهَابَةَ فِي نفوسِ الْمُحْضَرِ
 أَزْرَى عَلَى الْبَحْرِ الْخَضَمَ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةُ أَبْحَرِ
 أَقْبَلْتُ مَرْتَادًا لِحُودِكَ إِنَّهُ صَوَّبُ الْغَمَامَةِ بِلَ زُلَالِ الْكَوْثَرِ^(٢)

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحيدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقي الأندلس: مرسية وجيان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفي سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده في حوزة الموحيدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهراً يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوماً لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومديحه، وكان يوماً مشهداً، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفي مقدمتهم الأصم المرواني القرطبي الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافي البلنسي محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلي

(١) حفيظة: حمية. ليث مخدر: أسد في خدره وغليه.

(٢) صوب: مطر. الكوثر: نهر في الفردوس.

وأخيل الرندي وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي، وأنشده مدحة يقول
في تضاعيفها^(١):

دعانا نحو وجهك طيبٌ ذُكِرَ ويدعو للرياض شذا الرياح
وكنْتَ كساهرٍ ليلاً طويلاً ترنح حين بُشِّرَ بالصباح

ورثب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاية لمدنها الموالية له، وولى مدينة إشبيلية
وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين في الأندلس، وولى ابنه
عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محباً للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون
كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) أباه وكان ممدحاً، ومن مداحه أبو محمد
المالقي وهو يستهل مدحة قدمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمانه
تسند سور الحواميم القرآنية السبع التي يرددها هي وغيرها من سور القرآن الكريم
أناء الليل وأطراف النهار، ويقول إنه ستسند وتنصره السبع المثاني وهي آيات سورة
الفاحة السبع التي يرددها كل يوم في صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة
إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينهما في المصحف
بالبسمة. ويجعله الجوهر الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم
والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسي. وكان سيوساً وعالمًا بالعربية
وبالحديث ويقال إنه كان يحفظ البخاري بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع

(١) انظر مدحته في المغرب ٢ / ١٦٤ وسنخسه بكلمة في الفصل التالي.

للحكم المستنصر الأموي قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذي نبهه - كما مر في الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وفي أيامه شرع في بنيان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيراً من قصورها، وفي سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذي بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم في الأندلس، فعبر إليه الزقاق في جهادي الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها في إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقاء بدوره، والتقى الجمعان في الثالث من شعبان في الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفاً منهم، وأسروا ثلاثين ألفاً، وفر ألفونس ومن بقي من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعباً وفزعاً، وكان حرياً بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، فاكتمى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطباً المنصور^(١):

نفحات الفتح باندلس

إن الإسلام لفى عرس

طهرت الأرض من الدنس

حيثك معطرة النفس

فذر الكفار وماتمهم

أإزام الحق وناصره

(١) القصيدة بتمامها في المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها.

وصدعت رداء الكفر كما

صدع الديجور سنا قبس^(١)

ومضى يصور في القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سُقِيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويملؤهم هلعاً قائلاً إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعتها وأغار بها روح القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفي يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥-٦١٠هـ) وفي عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعد لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنها شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطرية القرطبي^(٢):

ويسمو لأملاكه السيّد

كذا يشرف الطالع الأسعد

قريب له عزيمة تبعد

ويرعى أقاصي أقطاره

وأخذ الناصر يعد العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أربا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رحي هذه الموقعة الصليبية أن دارت في سهل يقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة وجنوبي قلعة رباح، ومنى الناصر وجيش المسلمين

(١) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

(٢) انظر البيتين في ترجمته بالمغرب ١/ ١٣٩ وله ترجمة في تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها بعض شعره.

بهزيمة فاحدة، كانت نذيراً لانتهاة دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعاً على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفي الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفي، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزدد وهنا على وهن، مما هياً للملك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط في حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شيء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها إلى المغرب والشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمتنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التي ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجني الذي اتجه إلى أبي زكريا الحفصي، وقدم إليه مدحة يقول فيها^(١):

أمير الهدى من يدن منك فإنه	بقربك عن صرف الحوادث قد أقصى
عسى الله أن يتناش أندلساً بكم	ويأخذ فيها للهدى أخذ مقتص

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي. وكان قد قيض للأندلس منذ الثلاثينيات في القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التي استمرت نحو قرنين ونصف، وطبيعي أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعي أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه

(١) ديوان حازم القرطاجني (طبع بيروت) ص ٦٦.

يقول ابن سعيد: "كان من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجَحافلُ وتَذخرُ أبناءُ القنَا والقنابلُ^(١).

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفي سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصاري الشماليين، وأرغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق للملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد غسمايل، وناله الجيش القشتالي سنة ٧١٨ في مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنئه أبو عبد الله اللوشي بمثل قوله^(٢):

قصدوا العرينَ ليغلبوا آسادهُ ففضى عليهم بأسك الغلابُ

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة ابي عبد الله اللوشي في الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع في ترجمة اللوشي الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

وقويت شوكة المسلمين في عهد أبي الوليد وعهد ابنه أبي عبد الله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعادته بعد موقعة بحرية عنيفة سحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنته بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سمالك العاملي منشداً^(١):

فَتَحَ قُضَاهُ لِمُلْكِكَ الرَّحْمَنُ لَمْ تَأْتِ قَطْ بِمِثْلِهِ الْأَزْمَانُ
فَلَأَيَّ يَوْمٍ سَعَادَةٍ أَوْلَاكَهُ ذَلَّتْ بِعِزَّةٍ نَصْرُهُ الصُّلْبَانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣-٧٥٥) وكان راعياً للآداب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوي الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وفي ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزين بها قبة العرض المطلة على مجلسه في الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة^(٢):

أَبْصَرْتُ مِنِّي فِي الْمَصَانِعِ قُبَّةً تَأْتِقُ فِي السَّعْدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَتَتَلَّى سَطُورَ الْكُتُبِ فَوْقِي دَائِمًا وَتُعَرِّضُ مِنْ تَحْتِي سَطُورَ الْكُتَائِبِ

(١) راجع ترجمة ابن سمالك العاملي في الكتيبة الكامنة ص ١٩٨.

(٢) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: "الصيب والجهام والماضي والكهام" تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

والقطعة بديعة، ولا بن جزى الغناطي مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة في أبي
الحجاج من مثل قوله^(١):

إن المعالي والعوالي والندى والبأس طوع يدَي أبي الحجاج^(٢)
ماضي العزيمة والسيوف كليلة^(٣) طلق المحيا والخطوب دواجي
ليث الوعى والخليل تزجى بالقنا والبيض تنهل من دم الأوداج^(٤).

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣هـ) مكمل منشآت قصر
الحمراء، وكان ممدحاً للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما
قليل. وكان حفيد الغنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠هـ) شاعراً، ولزمه ابن
فركون الشاعر يمدحه واتخذه كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ
نحو مائة قصيدة ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية
إلا ونظم للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلد السلطة^(٥):

إليك تباشيرُ البشائر مُقبله تلوح بأفاق الهدى متهلله

(١) انظر هذه القصيدة في ترجمة ابن جزى الضافية في أزهار الرياض ٣/ ١٨٩ وترجم له ابن الأحمر إسماعيل
بن يوسف في كتابه نثر فرائد الجمان وابن الخطيب في الكتيبة الكامنة ص ٤٦.

(٢) العوالي: الرماح.

(٣) تزجي: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق في العنق إذا قطعه الذابح لم يبق في الإنسان حياة.

(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن شريفة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

فَهَنَّتْ مَا اسْتَقْبَلَتْ يَا مَلِكَ الْهَدَى
 مِنْ الْعِزِّ لَا زَالَتْ سَعُودُكَ مَقْبَلَهُ
 لَقَدْ قَلَّدَ الرَّحْمَنُ أَمْرَ عِبَادِهِ
 إِمَامًا لَهُ فِي الْعَدْلِ أَرْفَعَتْ مَنْزِلَهُ

وَيَعَدُّ يَوْسُفَ الثَّالِثَ آخِرَ أَمْرَاءِ بَنِي الْأَحْمَرِ الْمُهَمِّينَ، وَيُفَضُّونَ بَعْدَهُ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ إِلَى خِلَافَاتٍ، تَقْضِي عَلَى الْإِمَارَةِ قَضَاءً مُبَرِّمًا. وَحَرَى بِنَا أَنْ نَتَوَقَّفَ قَلِيلًا لِنَتَحَدَّثَ عَنْ أَهَمِّ شُعَرَاءِ الْمَدِيحِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَهُمْ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَابْنُ دِرَاجِ الْقُسْطَلِيِّ وَابْنُ عِمَارٍ وَابْنُ الْحَدَّادِ وَالرَّصَافِيُّ وَابْنُ زَمْرُكٍ.

ابن عبد ربه^(١):

هُوَ أَبُو عَمْرِو أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَلَدَ فِي قَرْطَبَةِ سَنَةِ ٢٤٦ لِلْهَجْرَةِ، فِي أُسْرَةٍ مُتَوَاضِعَةٍ مِنْ أَسْرِ الْمَوَالِي إِذْ كَانَ جَدُّهُ سَالِمٌ مِنْ مَوَالِي هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخَلِ، وَأَلْحَقَهُ أَبُوهُ بِأَحَدِ الْكَتَاتِيْبِ، ثُمَّ وَجَّهَهُ إِلَى الدِّرَاسَةِ عَلَى الشُّيُوخِ فِي جَامِعِ قَرْطَبَةِ الْكَبِيرِ، فَأَخَذَ يَخْتَلِفُ إِلَى حُلُقَاتِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَاللُّغَوِيِّينَ مِنْ أَمْثَالِ بَقِيٍّ بْنِ مَخْلَدٍ وَابْنِ

(١) انظر في ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدي ٩٤ وابن الفرضي ٤٩/١ والبقية رقم ٣٢٧ واليتيمة للثعالبي (طبع بحبي الدين عبد الحميد) ٢٢/٥-١٠، ٧٤-٩٩ والمطرب ص ١٤١ ومعجم الأدباء ٤/٢١١ والمطمح ص ٥١ وابن خلكان ١/١١٠ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود مكي ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر ملسور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن الناصر والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفح الطيب للمقري. انظر في كل ذلك الفهارس، وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٢٢٣.

وضاح والخشني. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - في الغزل والخمر، وقلما يقع له فيهما شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيهما عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيهما عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له في الغزل قوله:

الجسم في بلدٍ والروح في بلدٍ يا وحشة الروح بل يا غربة الجسدِ
إن تبك عيناك لي يأمّن كلفت به من رحمةٍ فهما سَهْمَاك في كبدي

وكان سريع الغضب، وجر عليه ذلك اشتباكه مع القلواط الشاعر معاصره في الهجاء، ونراه في كثير من أشعاره شاباً وشيخاً ميلاً إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادراً في ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية في شبابه بمقطوعة في ذم الدنيا والتنفير منها، وسمى تلك المقطوعات الممحصات أي المخلصات من الذنوب، كأنها عد شعره في شبابه ذنباً وآثاماً وهو إنما كان في رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافاً حقيقياً للآثام، لأنه لم يكن مهتماً لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه "العقد الفريد" وهو مطبوع بمصر مراراً في عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط يحیی الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى

خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال الصاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وهو رمز واضح لروحه المسرفة في المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياتة وزهدياته يبدو فيها جميعاً التكلف الشديد تنجلي في مدائحه شاعرية بارعة، وكأنها خلق للمديح أو مداحاً، وبدأ مديحه مبكراً، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفي فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

شَرَفْتُ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ

بالمنذر بن محمد

وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدْ أَنْسَ

فَالطَّيْرُ فِيهَا سَاكِنٌ

وتوفي المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقيدة قافية يقول فيها متجاوزاً كل حد في المبالغة على عادة الشعراء:

فَأَنْتَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ رَفِيقُ

إِذَا فُتِحَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَأُزْلِفَتْ

ويقتصر عبد الله على ابن حفصون الشاعر في إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد أشتدت شوكته وتداعي له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهنأه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفي الثانية يقول:

فِي ظُلْمَةِ الْأَفَاقِ نَوْرَ سِرَاجٍ

هَذِي الْفَتْوحَاتُ الَّتِي أَذَكَّتْ لَنَا

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عبد ربه أحد معلميه وكان الناصر جديرًا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين في الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملو النصارى وأمراؤهم في الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يعد جيشًا جرازًا لغزوة المتتلون، ويستولى فيها على مائتي حصن من حصون الثوار ويهنته ابن عبد ربه بهذا النصر المبين مرارًا منشداً:

في غزوة س مائتا حصن ظفرت بها في كل حصن غواة للعناجيج^(١)
ما كان ملك سليمان ليدركها والمبتني سد يأجوج ومأجوج

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذي القرنين باني سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عبد ربه في حروب الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ منظومة^(٢). تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدارك تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذي نقرؤه في حديثه عن غزوة المتتلون بجيان:

(١) العناجيج: الخيل.

(٢) أنظر في هذه المنظومة العقد الفريد لابن عبد ربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤/ ٤٩٩ وما بعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

أَرْجَفْتُ الْقِلَاعَ وَالْحَصُونَ كَأَنَّمَا سَاوَرَهَا الْمَنُونُ^(١).
 وَأَقْبَلْتُ رَجَالَهَا وَفُودًا تَبَغَّى لَدَى إِمَامِهَا السُّعُودَا
 قُلُوبَهُمْ بِاخِيعَةٍ بِالطَّاعَةِ قَدْ أَجْمَعُوا الدُّخُولَ فِي الْجَمَاعَةِ

وأسلوب ابن عبد ربه في المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها في دوائر الشعر التاريخي التعليمي كمنظومة على بن الجهم التاريخية التي ألمنا بها في كتاب العصر العباسي الثاني، وفي الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يلحق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن^(٢) دراج القسطلبي:

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ في بيت من بيوت قبيلة صنهاجة الغربية بمدينة من أعمال جيان تسمى قسطلة دراج، وفي نسبتها إلى جده ما يدل على

(١) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٢) راجع في ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ١/ ٥٩ وما بعدها والحميدي ١٠٢ واليتيمة للثعالبي (طبعة محمد محبي الدين عبد الحميد) ٢/ ١٠٣ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتبس رقم ٣٤٢ والمغرب ٢/ ٦٠ والمطرب ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٨٥ والبيان المغرب لابن عذاري ٢/ ٢٧٤ و ٩/ ٣ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ - ١٢٤ وأيضاً في مواضع مختلفة وابن خلكان ١/ ١٣٥ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكي وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

عراقة أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيان فأتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عرف بين شعراء بلده، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكياً بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحقائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلصاً وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبي عامر حاجب المؤيد هشام في الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديواناً لأعطيائهم ورواتبهم وأقام عليه أديباً بصيراً بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة في المنصور أعجبهت فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بدهاته في نظم الشعر وهو يوفق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له في مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس في رائيته: "أجارة بيتينا أبوك غيور" فنظم في معارضتها قصيدة بديعة صور فيها امرأته متلهفة عليه في وداعه مشفقة ورضيعها في المهد وهي تتجرع مرارة الفراق وتنتحب يقول:

بصبري منها أنة وزفير

ولما تدانت للوداع وقد هفا

وفي المهد مبغوم النداء صغير^(١).

تناشدني عهد المودة والهوى

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.

تبوأ ممنوعَ القلوب ومهدت

له أذرع معطوفة ونحور

ويطيل في تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقاً وغرباً، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى في الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم ما يزالون يفدون عليه في قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد في أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبارة معلناً ولاءه ومحكمًا له في نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ويحمي ذمار الملك والدين من

ألا هكذا فليسم للمجد من سما

حمى^(١).

وألقى بكفيه إليك محكمًا

فهذا عظيم الشُّرك قد جاء خاضعًا

ووفد في نفس السنة أمير قشتالة وولى عهداً على المنصور، ويصف في لامية له مثوله خانعاً بين يدي المنصور والعرض العسكري الرهيب الذي أقيم لاستقباله. ولا يفيد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالي مدائح فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابتدراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحق أهلاً لها وجديراً، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شتياق في

(١) ذمار الملك: ما ينبغي حياطته والدفاع عنه.

جليقية بأقصى الشمال الغربي لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفي كنيستها، وتعد من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفي تلك الوقعة يقول ابن دراج في مدحه بديعة:

لقد قصمت عرى دين الضلالة من رأس القواعد ممنوع الحمى أشبه^(١).
وسمته جاحماً للنار ما بقيت نفس من الكفر إلا وهي من خطبه
فالله جازيك يا منصور غزوته بسيف ماضٍ لنصر الدين محتسبه

ويتوفى المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستن سنة أبيه في غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن في الحجابة لمدة شهرين إذ قتل في إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعاني منها أشد العناء نحو عشرين عاماً هدمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبي عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحداً بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدي، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزير القاسم الحمودي ويعبر الزقاق إلى سبته لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر في مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ومر بنا أن الحموديين

(١) أشب: ملف الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوي في الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا في أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبي، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خَيْرَانُ وبُشْرَاك قد آواك عَزَّ وسُلْطَانُ

ويقصر خيران في جزائه، وينتهي به المطاف - بعد سنوات ثمان مضية - إلى الأمراء التجيبين في سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها في رعاية منذر بن يحيى التحيبي ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى في عينيه، يهنئه فيها بجهاده في شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقِي الحَيَاةَ لِمَن سَالَمَتْ، مُطْعِمُهَا ذُعَافَ سُمٍّ لِمَن حَارَبَتْ نَاقِعُهُ^(١).
مَوَاصِلًا بِالنَّدَى مَا اللَّهُ وَاصِلُهُ وَقَاطِعًا بِالظُّبَى مَا اللَّهُ قَاطِعُهُ
فِي جَيْشٍ عَزَّ وَنَصَرَ أَنْتَ غَرَّتُهُ وَشَمَلَ دِينَ وَدُنْيَا أَنْتَ جَامِعُهُ

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحاً بقصيدة بديعة استهلها بقوله:

(١) السم الذعاف: السم القاتل.

إلى أيِّ ذكرٍ غيرِ ذكركَ أرتاحُ
ومن أيِّ بحرٍ بعدَ بحرٍ أمتاحُ

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له في العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن
القدر لم يمهلَه فقد توفي بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١.

وقد أشاد بـابن دراج كل من كتبوا عنه شرقاً وغرباً، فالثعالبي يقول عنه في اليتيمة:
"وكان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما
ينظم" ويقول ابن حيان عنه: "أبو عمر بن دراج القسطلبي سباق حلبة الشعراء
العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين" ويصفه ابن شهيد "بجزالة شعره
وصحة قدرته على البديع وحوك الكلام وتلاعبه بالمعاني وإطالته فيها" ويقول ابن
بسام عنه: "لسان الجزيرة شاعراً وآخر حاملي لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس"
ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعاني من المتنبي، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه
للبيديع، وكأنه يحاكي فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة في ترجمتنا له بكتاب "الفن
ومذاهبه في الشعر العربي"، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع في
بعض شعره للمصطلحات العلمية. ومما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن
يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضاً يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشاركة
وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبي، وهو - كما ذكرنا في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر
العربي - يلتقي صوته في أشعاره بصوت ابن هانئ في العناية باللفظ الطنان وقعقاته،
وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكياً بذلك المتنبي

في مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التي جعلته يحس بالضيق
سنين عديدة.

ابن^(١) عمار:

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما
ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد
إلى فلاح بها خلف محراثه قرض شيء من الشعر قرضه له توا في أي معنى يطلبه منه،
فكان طبعياً أن تهدي إلى الأندلس شاعراً فذا من شعرائها، وكأننا اختار القدر لها محمد
ابن عمار الذي نشأ بشلب طفلاً لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على
شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعمى، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل
فيها تأديبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضنك العيش وبؤسه، مما
جعل ابن بسام يقول عنه إنه "أحد من امترى" أخلاف الحرمان، وقاسي شدائد
الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس^(٢) دهليز فلان وأبي فلان". ولم يكن له
شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به في بعض مدن الأندلس مسترفداً، لا يبالي ممن

(١) انظر في ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيارة (طبع
القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٣٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) ص ١٦٩
وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والخريدة ٧/٢ وبغية الملتبس رقم ٢٢٧ وابن خلكان ٤/٤٢٥
ونفح الطيب للمقري (أنظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحاً في رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفير، وإذا هو يسر إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخللة شعير، وفكر في دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب في بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنان عن
السَّرى^(١).

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

واستحسنها المعتضد وأمر له بهال وثياب ومركب وأن يكتب في ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره في تلك الولاية وساءت السمعة عنهما لعكوفهما على الخمر والغناء، فأمر المعتضد بالتفريق بينهما وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صمادح أمير المرية وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية، وفترات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذها وزيره ومستشاره.

(١) السرى: المسير ليلاً.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزين له ذلك ابن عمار، فأعد جيشاً جرازاً بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراعاة له حرمة بره القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتمادى في إنكاره للجميل إذ سولت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هي وأعمالها، وجلس مجلس التهنة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثا حاول المعتمد بن عباد أن يرده عن غيه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلاً من أن يطلب الصفح هجاء وهجا زوجته الرميكية قرعة عينيه بقصيدة طارت شهرتها في الأندلس منها:

فيا عامر الخيل يا زَيْدَهَا منعت القَرَى وأبحت العِيالاً^(١)

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر في العواقب، وبينما كان سادراً في خمره ولهوه أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببني إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها في يده، حينئذ انتهز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية في وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤمن بن مقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد ولى نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

(١) القرى: طعام الضيوف.

على وإلا ما نواح الحمائم

وفي وإلا ما بكاء الغمام

وأخذ يذكره بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيماً. ولم يلبث أن رغب المؤمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبد الله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة في شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه المعتمد ابنه الراضي بهال وخيل، وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضي ببعض شعره فلم يضع إليه، ونظم في طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجايك - إن عافيت - أندي

وعذرك - إن عاقبت - أجلي

وأسمح

وأوضح

ولم ينفعه عند المعتمد تذلل فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفاً في قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استشارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون بيت مفرد هو قوله:

عجباً لمن أبكيه ملء مدامعي

وأقول: لا شلت يمين القاتل

وبدون ريب كان ابنعمار انتهازيًا وصوليًا لا يرعى صداقة ولا عهدًا، أما شعره ففي الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح في القلائد: "مقذف حصا القريض وجماره ومطلع شمسه وأقماره" ويقول ابن بسام: "شعره غرب وشرق، واشأم في نغم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام" ويطلق في الإشادة به، ويقول ابن الأبار في ترجمته: "من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة في الامتياح وقصائده المصوغة في الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله" ويتمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية في المعتضد عباد التي ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضا كأنه حسناء تكتسي بوشي الزهر الأنيق، وتتقلد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادُ المخضَّرُ نائلُ كَفِّهِ	والجوُّ قد لبسَ الرداءَ الأغبر ^(١) .
أَنَدَى على الأكبادِ من قَطَرِ النَّدى	وَأَلَذُّ في الأجفانِ من سِنَةِ الكَرَى ^(٢) .
أَيَقِنْتُ أَنِي من ذراه بجنَّةٍ	لما سَقَانِي من نَدَاهِ الكَوْثَرِ ^(٣) .
فاحِ الثَّرَى متعطِّراً بشنائه	حتى حَسَبْنَا كُلَّ تُرْبٍ عَنَبَرًا

(١) الجوُّ قد لبسَ الرداءَ الأغبر: كناية عن الجذب.

(٢) الكرى: النوم سنة الكرى: الغفوة في أوله.

(٣) ذراه: كنفه. الكوثر: نهر في الجنة.

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعاني البديعة، ومما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقه لأعناق كماتهم وشجعانهم إذ يقول:

أثمرت رُمَحَكَ من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغُصنَ يُعَشِّقُ مُثْمِرًا
وصبغت دِرْعَكَ من دماء كماتهم لما رأيت الحسن يُلْبِسُ أحمرًا

وابن عمار لا يباري في روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكأن مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافي البديع.

ابن الحداد القيسي^(١).

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسي من مدينة وادي آش في البيرة موطن بني عقيل وغيرهم من القيسيين وشغف في صباه - كما يقول ابن بسام - بصبية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها في حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضًا في الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء في موطنه، ويذكر مترجموه أن له في العروض كتاب "المستنبط في علم الأعاريض المهمة عند العرب" ولا أرتاب في

(١) انظر ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ١/ ٦٩١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ٢/ ١٤٣ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢/ ٢٠٤ والفوات ٢/ ١٦٧ والإحاطة ٢/ ٢٥٠ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ١٠/ ٦ والوافي للصفدي (طبع استانبول) ٢/ ٨٦.

أنه لو وصل إلينا لكان دليلاً قوياً على ما قلته في حديثي عن الموشحات من أن الأعاريض المهملة التي ينظم فيها والتي أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هي أعاريض العرب المهملة التي نص عليها الخليل في دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم "ريبيرا" ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له في العروض كتاباً ثانياً باسم: "قيد الأوابد وصيد الشوارد" وكتاباً ثالثاً باسم: "الامتعاظ للخليل" رد فيه على السرقسطي المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجاً فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب في أن كتبه جميعاً تؤكد ما ذهبت إليه في فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات في الأوزان المهملة التي أشار إليها الخليل في وضعه لدوائره العروضية، وهي مرسومة بدقة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صمادح التجيبي أمير المرية التي بناها عبدالرحمن الناصر بالجنوب الشرقي للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية، وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميراً لها في الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التي امتدت إلى أكثر من أربعين عاماً، وكان يخصص يوماً في كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بليطة الطليطلي والقزاز محمد بن عبادة الإلبيري المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركي ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذي عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله في إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ
لما كانت الأيامُ عندي ذخائرًا
يحبُّ ذراه الدهرَ عافٍ وخائفٌ
جموعًا كما وافى الحجيحُ المشاعرا^(١).
فرر مَكَّةَ مهما اقترفت مآثما
وزرُ أفاقه مهما شكوت مفاقرا^(٢).
تهيمُ بمرآة العصورُ جلاله
وتحسدُ أولاهها عليه الأواخرًا

والصورة في البيت الثاني رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة
البدیعة، كقوله في مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على
مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشداً.

ويا لك من نهرٍ صئولٍ مجلجلٍ
كأن الثرى مُزَن به دائم الرعدِ^(٣).
كأن يدَ الملك ابنِ معنٍ محمدٍ
تفجّره من منبع الجود والرّقدِ^(٤).
فمن جوده ما في الغمامة من حياً
ومن نوره ما في الغزالة من وقْدِ^(٥).
ومنك أخذنا القول فيك جلاله
وما طاب ماءُ الوردِ إلا من الوردِ

(١) ذراه: حماء وكتفه عاف: طالب معروف.

(٢) مفاقر: وجوه فقر.

(٣) صئول: شديد الهياج. المزن: السحاب الممطر.

(٤) الرقد: العطاء.

(٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

و قرن جلجلة ماء النهر في حصباء الثرى بصلصلة الرعد الدائم في السحاب الممطر
في منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور في البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أحاً له اقترب ذنباً اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحسن الشاعر
بشيء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية مولياً وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ -
٤٧٤هـ) بسرقة، وكان شاعراً يقدر الشعر وأهله كما كان بطلاً مجاهداً صاحب
غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالاً حافلاً، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه،
وأكثر ابن الحداد من التغني بانتصاراته على ابن رديمير حاكم أراجون، وله فيه من
مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناء حصن المدور في نحر العدو:

مساعيك في نحر العدو سهاً	ورأيتك في هام الضلال حساماً ^(١) .
ولمحك يردى القرن وهو مدجج	وذكرك يثنى الجيش وهو لهام ^(٢) .
كأنك لا ترضى البسيطة منزلاً	إذا لم يطنبه عليك قتام ^(٣) .
كأنك خلت الشمس خوداً فلم يزل	يقنعها بالنقع منك لثام ^(٤) .

(١) هام: جمع هامة: الرأس.

(٢) اللهام: الجيش الجرار.

(٣) يطنبه: يغطيه كالخيمة. القتام: الغبار.

(٤) الخود: لحساء. النقع: غبار الحروب.

وواضح أنه أبدع في تصوير غزوات المقتدر المستمرة التي لا يزال يشنها على العدو حرباً في إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكناً في الأرض إلا ساحات القتال وقد شدت عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويبعد في الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذاً منه لها لثاماً أو حجاباً. وحن إلى المعتصم بن صمادح، فعاد إليه وإلى المريّة، وهو يردد.

واصل أخاك وإن أتاك بجفوة
فخلوص شيء قلما يتمكن
في كل شيء آفة موجودة
إن السراج على سناه يدخن

وذكرنا في صدر الحديث عنه أن كان مولعاً بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سماها "حديث الحقيقة" وضاعت فيها ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناس فانفرادي أنيسي
وكتابي محدثي وجليسي
صاحب قد أمنت منه ملالا
واختلالاً وكل خلق بئس

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشرهم طويلاً دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيراً لبي ابن الحداد نداء ربه بالمريّة سنة ٤٨٠.

الأعمى التطيلي القيسي^(١) :

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة التطيلي القيسي، فهو عربي الأرومة، أما نسبته إلى تطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرًا إلى إشبيلية، فولد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد في كتابه "رايات المبرزين" ففيها كان مرباه وتعلمه، ويعلن مرارًا أنه ضيق باستيطانها، يقول عنها:

فَتَأَلَّه مَا اسْتَوَطَنْتَهَا قَانَعًا بِهَا وَلَكِنِّي سَيْفٌ حَوَاهِ قِرَابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أو غمد، لا بد أن يسكن لها راضيًا أو راغمًا. وربما بعثه على إعلان ذلك برم وقلق كانت تنطوي عليهما بنفسه، بسبب فقدته لبصره، إذ كان ضريراً، وبكر إليه - فيما يبدو - شيء من الصلع أو بعض الشعرات البيض في رأسه، مما جعله يصرخ:

أما اشتفتُ مِنِّي الأيامُ في وطني حتى تضايق فيما عَنَّ من وَطَرٍ^(٢).
ولا قضتُ من سَوَادِ العين حاجتَها حتى تَكَرَّرَ على ما كان في الشَّعَرِ^(٣).

(١) انظر في ترجمة الأعمى التطيلي وأشعاره الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلائد ص ٢٧٣ والخريدة

٥١١/٣ وبغية الملتبس رقم ٤٢٩ والمغرب ٤٥١/٢ ونكت الهيمان للصفدي ص ٤١٠ ونشر ديوانه

وقدم له د. إحسان عباس في دار الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

وكان يلتقي في إشبيلية دائماً بطائفة من الشعراء والوشاحين المجيدين في مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقی وكان يقدمه على نفسه معترفاً له بالتفوق والسبق في التوشيح كما مر بنا في حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلي هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي بمرافقته في روحاته وغدواته. وليس في ديوانه مدائح لأمرء الطوائف ولا ليوסף بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧هـ) مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت في القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفي سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتبط (مات) شاباً (أو قريباً من الشباب) عندما به اغتبط". ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفي ديوانه مرثية حارة لزوجته له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر في بعض شعره أنها كانت تعنفه لقعوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوي الجاه والثراء في إشبيلية من مثل بني الحضرمي وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبي العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلاً من مهنته وحل من السلطان محلاً لم يحظ به أحد من أهل الأندلس في وقته وله ينشد:

خَشُنْتَ فلم تترك وأنت منازِعٌ وَلِئْتَ ولم تأخذ وأنت قديرٌ

(١) تكرر: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كر الليل والنهار.

من المجدِّ دانٍ دونه متعرِّضٌ
إلى الهول سباقٌ عليه جَسُورٌ

كفيلٌ بأرواح الأنام موكلٌ
عليهم بأسرار الحمام خيرٌ

وهو يشير في البيت الأخير إلى مهارة أبي العلاء في الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم في أمير المرباطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد ويتوسل في إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف موطنه، الذي اتخذه الأمير المرباطي جلسيًا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارًا، وفي إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جَنَابُكَ لِلْعَلَا حِصْنٌ حَصِينٌ
وَذِكْرُكَ لِلْمَنَى دُنْيَا وَدِينٌ

طليعةُ جيشك الظفرُ المَوَاقِي
وظلُّ لوائك الفَتَحُ المِينُ

جوادٌ بالديار وما حَوَتْهُ
ولو أنَّ الزمانَ بها ضَينٌ

قد اهتَزَّتْ بِأَنعَمِكَ اللَّيَالِي
كما تهتَزُّ بِالثَّمَرِ الغِصُونُ

وله في على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضًا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضي على هذه الشاكلة:

سما على
لأمرة المسلمينا

صبحَ جَلِيٌّ
راق، النَّهْيُ والعِيون^(١).

(١) النهي: العقول:

سَمَحَ أَبِي

يَرْضِيكَ شَدًّا وَلِينًا

كَاهْنَدَوَانِي وَكَالْغَمَامِ الْهَتَّانِ

وَفَقُّ الْأَمَانِي وَمِلْءِ عَيْنِ الزَّمَانِ

وممكن أكثر من مديحهم ابن حميد بن حميد بن محمد التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائحه إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أَسَدٌ يَمْلَأُ الْعَرِينَ مِنَ الْبَأْسِ

سِ وَطَوْدٌ يَحْمِي مِنَ الْإِمْلَاقِ^(١).

زُهَيْتٌ خَطَّةُ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْدٌ

وَحَمَامُ الْغَصُونِ بِالْأَطَوَاقِ

أَرْيَحِي تَرَاهُ يَهْتَزُّ لِلْبَدَنِ

لِ اهْتَزَّازِ الْقَضِيبِ لِلْإِيرَاقِ^(٢).

وكان صديقاً للشاعر الوشاح يحيى بن بقى ورآه طريق أبواب بنى عشرة قضاة سلا رعاة الشعراء لزمانه كما مر بنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضي بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقى يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قُضَاتِهِ

تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهِيَ سَوَامِكُ^(٣).

(١) العرين: الغيل أو بيت السد. البأس: القوة. طود: جبل. الإملاق: الفقر.

(٢) القضيب: الغصن: الإيراق: خروج الورقة منه.

(٣) سوامك: جمع سامك: عال.

إذا سمعت أذناه حيَّ على العلا
فلا الجود متروك ولا البأس تارك
رفعتم لأهل الغرب أعلام دينهم
فأبصر مأفوك وأقصر آفك^(١).

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نوية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضي المذكور توفي سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حيثئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير علي بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بني عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقي أن القدماء نصرُوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقي، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة، ونظن ظناً أن الموحشتين رقم ١٠ و ١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن علي بن القاسم حري بهما أن تنسبا أيضاً إلى ابن بقي مثل اختهما رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذي تفيأ ظلاله كما نص القدماء وتغنى به في غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى يوسف بن القاسم، فهي التي يمكن أن تضاف إلى التطيلي، وخاصة أن نسبتها إليه

(١) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ^(١). المتصوف في القرن السابع الهجري، وفيها يقول:

إن جئت أرض سلا وأفاك بالمكارم فتیان^٢
هم سطور العلا ويوسف بن القاسم عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر الذي مهد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عامًا فيما يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم في الشعر وتشارك في نقد بعض الأبيات، ومن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاتبان أبو بكر بن القصيرة وابن المرخي محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلي عليها في قصيدته:

ملیكة لا یوازی قدرها ملك^٣ كالشمس تصغر عن مقدارها^٤
دنيا ولا ترف، دین ولا قشف^٥ الشهب^٦
بر ولا سقم عیش ولا هرم^٧ ملك ولا سرف درك ولا طلب^٨
جد ولا نصب ورد ولا قرب^٩ جد ولا نصب ورد ولا قرب^{١٠}

(١) انظر أزهار الرياض للمقري ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعني أن ورد العطاء لهذه السيدة في متناول الأيدي ولا يكلف عناء ولا

ويفيض التطيلي في وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بأخوتها يحيى وإلى قرطبة ومحمد محرر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفي منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلي اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: "له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجاري، وذهن لا يباري، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز".

الرّصافي محمد بن غالب^(١).

ولد محمد بن غالب في رصافة بلنسية، فنسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة إذ كان أبوه رفاعاً، وكأنما كان مولده في تلك الرصافة بشيراً بأنه سيكون من شعراء الطبيعة في الأندلس لجهاها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد في ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياها جارية، وفي بلنسية يقول: "خصها الله بأحسن مكان، وحفها بالأنهار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازل ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة". وفي هذه اللجنة الفيحاء نشأ الطفل المرفه غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته

ولا مشقة.

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٢/ ٣٤٢ والمعجب للمراكشي ص ٢٨٦ والإحاطة ١/ ٥٠٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤/ ٤٣٢ والوفي ٤/ ٣٠٩ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها في دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافي البلنسي مع مقدمة عن حياته وشعره.

فيهان إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مقالة وهو لا يزال صغيراً في نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأبار في ترجمته بالتكملة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفي ذلك يقول عنها:

بلادي التي ريشت قويدمتي بها فريخاً وآوتني قرارتها وكراً^(١)
مهادي ولئن العيش في ريق الصبا أبي الله أن أنسى لها أبداً ذكراً

وطار الطفل صغيراً من وكره مع أبيه إلى عش متواضع في مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقيه حرفته من رفو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كتاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والتزود من علوم الدين الحنيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يروي أنه خرج مع بعض رفاقه في الدراسة إلى نزهة في مالقة، وارتجل في تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحيين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويستدعي الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله في جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مر بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافي، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعاً كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصور شاعرية ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدي الموحيين وإمامهم

(١) قويدمة الطائر: الريشات في مقدم الجناح.

ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبت في جانب جبل الفتح كالنار التي جاءت في القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء (امْكُثُوا إِنِّي أَنسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُورٌ * دَيَّ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) وتمثل الرصافي الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحاً قصيدته بقوله:

لو جئت ناراً اهْدَى من جانب الطُّورِ	قَبَسْتُ مَا شَتَّ من عِلْمٍ ومن نورٍ
فِيضِيَّةَ الْقَدَحِ من نور النبوة أو	نور الهداية تجلو ظلمة الزُّور
ما زال يُقْضِمُهَا التَّفَوُّى بِمَوْقِدِهَا	صَوَامٌ هَاجِرَةٌ قَوَامٌ دَيَّجُورٌ ^(١) .
نورٌ طوى الله زَنْدَ الكون منه على	سَقَطَ إلى زمن المهدي مَذْخُورٌ ^(٢) .
حتى أضاءت من الإيَّان عن قَبَسٍ	قد كان تحت رماد الكفر مكفورٌ ^(٣) .

ويشيد الرصافي بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدي إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التي طبقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تنهادى بين أيدي مجاذفها وكأنها تغرق في ماء الورد الأرجواني الصافي، وتسرع

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذي تقدح به النار. السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.

(٣) مكفور: محجوب مستور.

خائضة التيارات في الزقاق فيخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافي في تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد في عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيد الخطو غير أنه جوال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكا، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به وبهدى دعوته وبسالة جيشه، وينهي القصيدة بتمثله في جبل طارق والمهدى ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبل الطور وموسى وفتاه يوشع قانع الجبابرة الذي تاخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافي أن يقدرها عبد المؤمن وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمي للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاهاً، وفوجئ بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمماً أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفياً بصنعة رفو الملابس. وسكن غرناطة وقتاً وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبي جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألح عليه في امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها مجاملة لأبي جعفر. وفي بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة في المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحداً، وراجع بعض الشعراء في ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً لأدركتَ حَتْمًا في الزمان بها أمرا

ومن دون هذا غيرة جاهلية
وإن هي لم تلزم فقد تلزم الحرّاً

وهي ليست غيرة جاهلية، بل هي غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره في تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجراً زهيداً تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقشي الشاعر وزير ابن همشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الثائر على الموحدين بمرسية وشرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧هـ) فأخذ يرسل إليه بهدايا نفيسة، ولم ير الرصافي بدا من أن يشكره، ووالى الوقشي هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجال له	كثر العديد وأعور الند ^(١) .
من معشر رنجم العلاء بهم	زهرٍ كما يتناسق العقد ^(٢) .
وكانما فاق الأنام بهم	نسب إلى القمرين ممتد
فيرى وليدهم المنام على	غير المجرة أنه سهد
هيهات يذهب عنك موضعه	هطل الغمام وجلجل الرعد

(١) الند: النظير.

(٢) نجم: نشأ. زهر جمع أزهر: النجم والكوكب الساطع.

وظل الرصافي بهالقة قانعاً. بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا في المديح ولكن في الطبيعة وفي بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه واصدقائه محرماً على نفسه أن يتتبع أحداً بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالي لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفي سنة ٥٧٢ وهو في نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مدون بأيدي الناس متنافس فيه.

ابن زمرك^(١).

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحي البيازين في غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقي الأندلس، وهي أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حداداً، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعاً، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه في الفقه أبا سعيد بن لب وفي الحديث النبوي أبا البركات ابن الحاج وفي الأصول أبا علي منصور الزواوي وفي التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفي العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطي أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفي الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريجه وصنيعته، وعنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتباً حسناً. ونراه حين خلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبي سالم المريني يلتحق به في منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبي الوليد إسماعيل مدبر المؤامرة ضده، ولم

(١) انظر في ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكتي (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضي (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/١٢ وخصه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠هـ) بكتاب ضخيم سماه البقية والمدرك من كلام ابن زمرك، واطلع المقرئ على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثاني من كتابه أزهار الرياض وهي تشغل في هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

يهنا إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من
 أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقباً له الغالب
 بالله، وتطورت الظروف سريعاً، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغني بالله إلى إمارته
 في جمادي الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب،
 ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائماً في رسائل وقصائد ولاءه له وحمده وشكره على ما
 أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن
 مؤامرة تدبر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المريني عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن
 زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغني بالله. ويرسل الغني بالله إلى
 السلطان المريني أبا الحسن النباهي قاضي الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متهماً
 بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضي في مهمته، إذ حمى ابن الخطيب منه السلطان
 المريني، غير أن حاميه لم يلبث أن توفي سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس،
 وتجددت مساعي الغني بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيراً يقبض عليه في سنة ٧٧٦
 وتقدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه
 القديم وصنيعته في المحاكمة متهماً له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على
 لسانه في كتابه: "روضة التعريف بالحب الشريف" ويسترسل في توبيخه. وزج به في
 غياهب السجون، وبإحدى الليالي دس إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل
 دفنه، فاسودت بشرته ووورى التراب مأسوفاً عليه لتهمة زائفة دبرت له كيدا آثماً.
 ونعم ابن زمرك بوزارة الغني بالله عشرين عاماً متوالية أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة
 حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفاراته الموفقة للغني بالله إلى الملوك وأنه فوض له في

عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين أي بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوضه في الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثاني فيهوى به من حالق إلى غياهب السجون ويرد إليه بعد نحو عام ونصف حرّيته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطي والتجني عليه لمآرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته نقرؤهما وجدناه ينزل فيها منزلاً علياً من شعراء الأندلس في مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث في كتابه السالف: "البقية والمدرك من كلام ابن زمرك" أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعاً وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده في تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة في ستة وستين عيداً. ويذكر أيضاً أن كل ما في منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش في القباب والطاقات والثياب السلطانية فهو له. وينشد المقرئ له في كتابه أزهار الرياض عن كتاب "البقية والمدارك" ما يقرب من عشرين قصيدة وخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة في مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة في مديح ابن الخطيب ولى نعمته وسوى قصيدة في مديح أبي سالم المريني وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثاني وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مرات في الغنى بالله ومرثية في أستاذه الشريف الغرناطي. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتاً استهلها بغزل بديع

شغل ثمانية وعشرين بيتاً، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلاً إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريب والبعيد والغيث الذي يهطل على العفاة دائماً والباسل الذي يروي غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ في وصف مبانيه في قصور الحمراء مأخوذاً بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنَاكُ الجميلُ فَإِنَّهُ يفوقُ على حكم السعود المبانيا
بنيتَ له كفَّ الثريا معيذَةً ويصبح معتلَّ النواسم راقياً
وتَهْوَى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ بهِ ولمْ تَكُ في أَفْقِ السماءِ جَوَارِيا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عوذة له وتميمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرقية التي يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجري في قنوات مثبتة في الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضي ابن زمرك فيصور البهو الذي شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسداً تخرج المياه من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك في وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلاً:

به البَهُوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا به القَصْرُ آفاقَ السماءِ مُبَاهِيا
به المَرْمَرُ المجلوُّ قد شَفَّ نورُهُ فيَجْلُو من الظَّلَماءِ ما كان داجياً
وراقصةٌ في البَهُوِ طوعَ عِنانها تراجع ألحانَ القيانِ الغوانيا

إذا ما علت في الجوّ ثم تحدّرت
تُحَلَّى بمَرْفَضِ الجَمَانِ النَّوَاصِيَا^(١).
يذوبُ لَجَيْنٍ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا^(٢).
تشابه جارٍ للعيون بجامدٍ
فلم أدّر أيّا منهما كان جارياً

وتصويره للنافورة في الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير، إذ لم يعد يدري أيهما السائل لجين الماء أو جواهر المرمز الناصعة البياض، ويشيد بما في البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد في السماء وينشد:

وطامحة في الجوِّ غير مُطَالَةٍ
يردُّ مداها الطَّرْفَ أَحْسَرَ عَانِيَا^(٣).
تمدُّ لها الجوزاءُ كَفَّ مَصَافِحِ
ويدنو لها بَدْرُ السَّاءِ مَنَاجِيَا
ولا عجبٌ أن فاتت الشُّهْبَ بالَعَلَا
وأن جاوزت منها المَدَى المتناهِيا

والأبيات السالفة جميعاً لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بني سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك في نفس القصيدة جنة العريف القائمة في مدخل القصر، وهي من

(١) مرفض الجمَان: متناثر اللؤلؤ.

(٢) اللجين: الفضة.

(٣) أحسر: كليلاً.

عجائب البساتين والرياض في الدنيا، وكأنها تكمل زينة القصر بل كأنها تكمل العرس
اليهيج الذي لا يزال قائماً فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها في مديح الغنى بالله، وإحداها في مديح
الرسول صلى الله عليه وسلم، وجمهورها من مخلص البسيط، واشتهرت له موشحات
صباحية يذكر فيها وداع صاحبتة في الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله
بل عند العرب منذ عمر بن أبي ربيعة وسنعرض لذلك في حديثنا عن الغزل، ويعد ابن
زمرك بدون ريب آخر الشعراء الأندلسيين المبدعين.

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر:

الفخر من أغراض الشعر العربي التي رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسدين فيه دائماً مثالياتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والغزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون غصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التي يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر في الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن الثاني الهجري وخاصة على لسان الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) الذي استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضي قضاء مبرماً على ثورة أهل الربض الجنوبي بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجاً بعد تلك الواقعة^(١):

وَقَدْماً لَأُمْتُ الشَّعْبِ مَذْكَتُ

يافِعاً^(٢).

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعاً

فَسَائِلُ ثُغُورِي هَلْ بِهَا الْيَوْمَ ثَغْرَةٌ

أَبَادِرُهَا مُسْتَنْضِي السَّيْفِ دَارِعاً^(٣).

(١) المغرب ١/ ٤٤.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشاقات الثائرين، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جيلين. والاستعارة واضحة.

وشافه على الأرض الفضاء جاجا
كأقحاف شريان الهبيد لوامعا^(١).
تنبيك أني لم أكن في قراهم
بوانٍ وأنى كنت بالسيف قارعاً

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه في القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناعاً. ويهتف شاب أموي متهور في عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحون أنه فوق الناس جميعاً من بيته وغيره وأنه سيشعل الأرض ويضرمها بنيران الحروب، فيزج به عبد الرحمن في غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومر بنا في الفضل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسألة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد في نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٣٠ هـ) وقادها في نواحي مالقة عمر ابن حفصون وفي نواحي بطليوس عبد الرحمن الجليقي وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى البيرة في أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقاله وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربي القيسي، وساعده الأيمن سعيد بن جودي وكان فارساً وشاعراً مجيداً، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثاراً لابن صقاله سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الواقعة

(١) مستنضي السيف: شاهره. دارعا: لا بسا درع الحرب والنزال.

(٢) أقحاف: رءوس. الهبيد: الحنظل.

سعيد بن جودي مفاخرًا متوعدًا ومهددًا، وأخذ كثيرون من العرب من كورقي جيان ورية يتجمعون إلى سوار في حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل البيرة، ولسعيد بن جودي فيها قصيدة حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غرة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمر العرب عليهم سعيد بن جودي، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يحرض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية^(١). نظم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعيلي واسمه عبد الرحمن (أبو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى السدي محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بني خزيمة، ومن قول العيلي في إحدى قصائده يهون من العرب وجموعهم بغرناطة:

منازلهم منهم قفارٌ بلاقعٌ تجاري السفا فيها الرياح الزعازع^(٢).

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصداً، فرد عليه الأسدي ناقضاً لقوله، منذراً متوعداً له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منازلنا معمورة لا بلاقعٌ وقلعتنا حصن من الضيم مانعٌ

(١) انظر في أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٢) بلاقع: مقفرة. السفا: التراب.

إلا فائذنوا منها قريباً بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

واتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقي فيها سبعة عشر ألفاً منهم
حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله في قرطبة، ومن مشهور قول العبلي في تلك
الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصت قناتهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل

وناقضه الأسدي بقصيدة طويلة يعيره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم
من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرًا:

لواء النصر معقود علينا بتأييد الإله فما يحل

وللأسدي شعر كثير يحرض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع
الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين في كورة البيرة حتى إذا خلفه حفيده
الناصر قضى على مثيري هذه العصبية الجنسية في كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت
هل الأندلس وحدتهم عرباً ومسالمة ومولدين.

ومن طريف ما يروى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠هـ) أن نزاراً الفاطمي
الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) كتب إليه كتاباً يسبه فيه ويهجوّه،
فرد عليه المستنصر المرواني: "أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بني مروان كيف تبدلت
بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت
له الأرض واهتزت إليه المناير

فأفحمه^(١) ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخي المستنصر المرواني
المسجون في عهد المنصور بن أبي عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده
بكلمة. وللمنصور بن أبي عامر^(٢):
رميت بنفسي هول كل عزيمة
وخاطرت والحر الكريم يخاطر
رفعنا المعاملي بالعوالي بسالة
وأورثناها في القديم معافر^(٣).

وحكاياته في الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيفاً وخمسين غزوة في النصارى وإنه كان لا
يخل في أكثر أيامه بغزوتين في السنة يشنهما عليهما، ومر بنا في الفصل الأول حديث عنه
وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد^(٤):
بالعلم يفخر يوم الحفل حامله
وبالعفاف غداة الجمع يزدان
وما ألان فئاتي غمز حادثة
ولا استخف بحملي قط إنسان

(١) انظر هذه الرواية في النفح ٥٥٨/٣.

(٢) المغرب ٢٠٣/١.

(٣) العوالي: الرماح. ومعافر بفتح الميم: قبيلة ابن أبي عامر وهي يمنية.

(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكي (طبع القاهرة) ص ١٦٣.

أَمْضَى عَلَى الْهَوْلِ قَدَمًا لَا يَنْهِنُهُنِي وَأَنْشِي لِسْفِيهِى وَهُوَ غَضْبَانٌ

ومضى يقول إنه لا يرد على حق بحق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطوى حانياً الضلوع على لظي المسغبة ون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن^(١) حزم:

أنا الشمس في جَوِّ العلوم منيرةٌ ولكنَّ عَيْيٍ أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ لجدَّ على ما ضاع من ذكرى النَّهْبِ

وهو حقاً - كان شمساً منيرة في العلوم ولم يعبه طلوع شمس من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينهما إلى اليوم، وسنفرد له حديثاً في الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف اشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحميتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيلية^(٢):

أقومُ على الأيام خيرُ مقام وأوقدُ في الأعداءِ شرَّ ضرام

(١) الذخيرة ١/١٧٣.

(٢) الحلة السيرة (تحقيق د. مؤنس) ٢/٤٤.

وَأَنْفَقُ فِي كَسْبِ الْمُحَامِدِ مُهْجَتِي وَلَوْ كَانَ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ حِمَامِي
وَأُبْلَغُ مِنْ دُنْيَايَ نَفْسِي سَوْهَا وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ الْعَلَا بِسَهَامِي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغاً من دنياه كل ما يتمنى محققاً لنفسه كل ما يريد من المعالي والأمان. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم في نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول^(١) على بن أضحى الهنداني الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نحن الأهلّة في ظلام الحِنْدَسِ حيث احتللنا فهو صدر المجلسِ
إن يذهب الدهرُ الخئونُ بعزنا ظلماً فلم يذهب بعزّ الأنفسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها توا محن الزمن دون أن تنال منها أي نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له في مسقط رأسه بجزيرة شقر يعيشون للباس والنجدة والنضال وخوض الدماء بخيلهم المحجلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر، وفيها يقول^(٢):

مَضَاءٌ كَمَا سَلَ الْحُسَامُ مِنَ الْغَمْدِ وَبَأْسٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزَّندِ

(١) مغرب ١٠٨/٢.

(٢) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

تساقوا وما غير النجيع سلافة
تدار ولا غير الأسنة من ورد
وإني على أن لست صدر قناتهم
لخدن العلا ترّب الندى لدة المجد
أخوض الظبأ تخضر في النقع ييضها
فألقي المنايا الحمر في الحلل الرمد

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يقلون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكأن سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا ورد لهم سوى السنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صدرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خدن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الظبأ بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكدرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التي تستحقهم سحقا.

وبهذه الروح العاتية التي لا تفهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن ينق^(١) المتوفى في آخر سنة ٥٤٧:

دعني أصاد زماني في تقلبه
فهل سمعت بظل غير منتقل
وكلما راح جهما رحت مبتسما
كالبدّر يزداد إشراقا مع الطفل

(١) مغرب ٣٨٨/٢ وانظر في ترجمة ابن ينق القلائد ٢١٢ والتكملة ص ١٩٨ ومعجم الصديقي ص ١٦٢ والخريدة ٤٦٣/٣.

ولا يرو عنك إطراقي لحادثة
فاليث مكمته في الغيل للغيل
وما تأطر عطف الرمح من خور
فيه ولا أحمّر صفح السيف من خجل
لا غرو أن عطلت من حليها هممي
وهل يعير جيد الظبي بالعطل

وهو يقول دعني أصادي الزمان وأعارضه في تقلباته بي وأحداثه معي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومهما تجهم لي ونظر إلى مكفهر الوجه فسأظل مبتسمًا كالبدور يزداد إشراقًا مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقًا إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث في غليه للوثوب على فريسته، ومهما يصبني من أحداث فلن تنثني إرادتي، وحتى إن ظن أنها تنثني فهو تنثني حد الرمح شديد المضاء، وسأظل قاطعًا نافذًا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن هممي لأعظم من أن تتحلى بالرماح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضي من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحلي تجرد جيد الظبي رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعجب لا يماثله عجب بمروءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقي بسهل بن مالك الأزدي الغرناطي البارِع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت قد نالته محنة في عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغرب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد^(١):

(١) الذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع في ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدح المعلي ص ٦٠.

وإِنِّي من عزمي وحزمي وهمتي
وما رزقته النفس من كرم الطبع
لفى منصبٍ تعلو السماء سِمَاتُهُ
فتثبت نوراً في كواكبها السبع
تدرّعت بالصبر الجميل وأجلبت
صُروفُ الليالي كي تمزّق لي درّعي^(١).
فما ملأت قلبي ولا قبضت يدي
ولا نحتت أصلي ولا هصرت
فرّعي^(٢).
فإن عرضت لي لا يفوه بها فمي
وإن زحفت لي لا يضيق لها درّعي^(٣).

ونفس سهل - حقاً - كانت نفساً كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط
الجأش قوي النفس أمام صروف الدهر وهمومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولابن^(٤). جزي
المرار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥:

وكم من غادة كالشمس تبدو
فيسلى حسنها قلب الحزين
غصّضت الطرف عن نظري إليها
محافظة على عرضي وديني

(١) أجلبت: أحدثت جلبه وصخباً، كناية عن تكاثرها.

(٢) هصرت فرعي: كسرتة، كناية عن أن صروف الليالي انزاحت عنه دون أن تنال منه.

(٣) الذرع: الطاقة.

(٤) أزهار الرياض ٣/ ١٨٦.

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشاركة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فحسوا للفخر في اشعارهم، وهم سعيد بن جودي وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد^(١) بن جودي السعدي:

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي من هوازن من جند دمشق الداخلين إلى الأندلس في عهد الولاة، ولحقه الأقراب جودي بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوار بن حمدون المحاربي أمير عرب البيرة المنازعين للمولدين والمسألة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب في تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودي - وكان شاعراً - أهم مساعد له في حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثأر زعيم العرب قبله في تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقاله، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودي يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

(١) انظر في ترجمة سعيد بن جودي المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله (راجع الفهرس) والحميدي ص ٢١٣ والبيعية ص ٢٩٤ والحلة السيرة لابن الأبار ١/ ١٥٤ وما بعدها وأيضاً في ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ٢/ ١٠٥ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٤/ ٢٧٥.

قد طلبنا بثأرنا فقتلنا
منكم كل مارقٍ وعنيدٍ
قد قتلناكم بيحيى وما إن
كان حكمُ الإلهِ بالمردودِ
فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوفِ
تتلظذي عليكم كالوقودِ
لم تزالوا تبغونها عوجًا حتَّى
سى ورَدْتُم للموت شرَّ ورودِ

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقاله غدراً، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسالمة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثني عشر ألفاً، ويرميهم بقصيدة ملتهبة، يقول فيها:

لقيتم لنا مَلْمُومَةً مُسْتَحِرَّةً
تُجِيدُ ضراب الهام تحت العوامل^(١).
وظلت سيوفُ الهند تَحْصِدُ جمعكم
حصادَ زروعٍ أَيْنَعَتَ للمناجل^(٢).
ولم يَبْقَ منكم غيرُ عانٍ مُصَفِّدٍ
يُقَادُ أسيراً موثقاً في السلاسل^(٣).
وآخر منكم هاربٌ قد تضايقت
به الأرضُ يَعْدُو من جوى وبلايل^(٤).

(١) مَلْمُومَةٌ: كتيبة. مُسْتَحِرَّةٌ من استحر القتل إذا اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح.

(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها. وأينع الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة لحصد الزرع.

(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمّر العرب مكانه في زعامتهم سعيد بن جودي صاحبه، وظل يزود عنهم زياد الأبطال سبع سنوات طوال، مثيراً فيهم الحماسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعراً حماسياً كثيراً لسعيد نظمته في تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعة ثم غودروا كمثل حصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدٍ^(١).

وله مرثية في بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن لقوا حتفهم في تلك الحروب، وله أيضاً بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها بشجاعته على شاكلة أبي دلف قائد المأمون في غزلياته. وله في جارية تسمى جيجان سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبد الله في إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها يقول:

سَمْعِي أَبِي أَنْ يَكُونَ الرُّوحُ فِي بَدَنِي فاعتاض قلبي منه لوعةَ الحزنِ
أعطيت جيجانَ رُوحِي عن تذكُّرها هذا ولم أرها يوماً ولم تزني
فقل لجيجان يا سُوْلِي ويا أَمَلِي استوصِ خيراً بروح زال عن بدنٍ^(٢).

(١) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلابل: وساوس.

(٢) الحصيد: الزرع المحصد أو المقطوع. الصعيد: وجه الأرض.

بدن^(١).

كَأَنِّي وَأَسْمَهَا وَالدَّمْعَ مَنَسْكَبٌ
مَنْ مَقْتَلِي رَاهِبٌ صَلَّى إِلَى وَثْنٍ

وَمَنْ عَجِبَ أَنْ قَتَلَ هَذَا الْفَارِسَ الْبَطْلَ غِيلَةً بِأَيْدِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ
مِنْ سَنَةِ ٢٨٤.

(١) حذف الياء في "استوص" في خطاب جيجان لضرورة الوزن.

عبد الملك^(١) بن هذيل:

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رزين من أكابر جند البربر، وفي أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدين بحسن سياسته وتديره. ومربنا أنه أول من أفرط في ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار كانت أدبية تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف والخناجر المرفهة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعني المسرح الذي كانت تغني وترقص عليه القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفي هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعياً أن تتفتح فيها ملكته. وتوفي أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثاً في الندى، وليثاً في العدا^١ بينما يقول ابن الأبار إنه "كان - مع شرفه وأدبه - متعسفاً على الشعراء، متعسراً بمطلوبهم من ميسور العطاء" ويقول ابن بسام: "كان له طبع يدعو فيجيئه، ويرمى ثغرة الصواب عن قوسه فيصيبه". وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابن تاشفين وتوفي سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحجب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم في مركب ولا ملابس. وله وقائع مع النصاري

(١) انظر في عبد الملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١ والخريدة ٣/١٠٩ وما بعدها والحلة السيرة ٢/١٠٨

والمغرب ٢/٤٢٨ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب لابن عذاري ٣/٣٠٩ والمطرب ص ٣٩.

مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هي التي اضطرتته إلى عدم الاتساع في النوال على الشعراء لا عن شح وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للجود في بعض شعره قائلاً:

اهدم بناء البخل وارفض له من هدم البخل بني مجده
لا عاش إلا جائعاً نائعاً من عاش في أمواله وحده

وهو يدعو على البخل الشحيح الذي يقيض يده عن العطاء للناء ولا يشركهم في أمواله أن يعيش جائعاً نائعاً أو ظامئاً وبعبارة أخرى فقيراً بائساً. وكان موقفه كريماً من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مر بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاص صياحه وأملاكه، وإن شق عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلدانها الجنوبية، هي شتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرًا:

شأوت آل رزين غير محتفل وهم - على ما علمتم - أفضل الأمم
قوم إذا سئلوا أغنوا وإن حربوا أفنوا وإن سوبقوا جازوا مدى
جادوا فما يتعاطى جود أنملهم الكرم^(١).
مد البحار ولا هطالة الدائم

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعدوا.

وما ارتقيت إلى العُلْيَا بلا سبب هيهات هل أحدٌ يسعى بلا قدم
فمن يرمّ جاهداً إدراكَ منزلي فليحكني في الندى والسيف والقلم

ومبالغة منة مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم
- ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعداً إلى ذروة العلياء إلا
بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أنا ملكٌ تجمعت في خمس كلها للأنام محيٌ مميت
هي ذهنٌ وحكمةٌ ومضاءٌ وكلامٌ في وقته وسكوتٌ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم
إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذاً ماضياً كالسهم المصمية. وروى له
ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذمّاً شديداً من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم
وثلبهم بينما هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب
فيها من رهبته أمام عيون صاحبه وما تسله من الحاظها بينما لا يخشى السيوف في
القتال ولا يرهبها، يقول:

إذا سلّت الأَلفاظُ سيفاً خشيته وفي الحرب لا أخشى ولا أتوقعُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والتبل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث^(١).

حفيد الغني بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتبه الثالث عشر بين أمرائها بني الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حققه الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرئ في نفحه - كما جاء في مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته "سلمى" وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مرات في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلاً بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣هـ) بسبب جبل طارق ومن يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيراً به وتصفو بينهما العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف في بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله في قصيدة حماسية من قصائده:

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لحجي ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

راق الزمان وجاءنا ميقاته^(١) بالضحوة الغراء من أيامه^(٢).
 نأتم في حرب الصليب وحزبه^(٣) بشفع كل موحد وإمامه
 مستأصلي بيع العداة مهتمي ما صان فيها الكفر من أصنامهم^(٤).
 والله جل جلاله متكفل بالنصر والمعهود من إنعامه

ويوسف يعلن أنه انتصر في ضحوة أضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدي في جهاده لهم بجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم للكفار. مصمماً على استئصال بيعهم أو كنائسهم وتهتهم أو تهشيم أصنامهم مستعيناً بعون الله في نصره عليهم وسحقهم سحقاً ذريعاً. وطبيعي أن يكتظ ديوان يوسف بحمم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمت نصر^(١) بأني كفيلاً إذا هاجت الهيجاء واحمرت
 الأرض^(٢).
 أَدافع عنهم بالصوارم والقنا وأحمي حماها أن ينال لها عرض^(٣)
 بنا ساعة الهيجاء يحمي^(٤) وطيسها وتهتك أستار^(٥) البُغاة إذا انقضوا

(١) الضحوة: الضحى.

(٢) بيع: كنائس مهمتي: محطمي.

(٣) كفيل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احمرار الأرض: كناية عن كثرة الدماء.

إلى عِثْرَةِ الْأَنْصَارِ تُعْزَى أَرْوَمَتِي إلى مَعْشَرٍ فِي الذِّكْرِ حُبُّهُمْ فَرَضُ

وهو يقول إن بني نصر من أسرته يعلمون بلاءه في الحرب وأنه حين يحمي وطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعي يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتًا بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمي إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عباد، ومعروف أن عداده في السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

وخير ملوك الأرض قومًا ولا فخر^(١).

أَلَسْتُ سَلْسَلَ الصَّيْدِ مِنْ آلِ حَمِيرٍ

لَنَا الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ وَالْغُرُ الْغُرُ^(٢).

لَنَا الْمَنْصَبُ الْأَعْلَى عَلَى كُلِّ مَنْصَبٍ

لَنَا الرَّايَةُ الْحَمراءُ يَهْفُو بِهَا النَّصْرُ^(٣).

لَنَا الْهَضْبَةُ الشَّاءُ سَامِيَةُ الذُّرَى

وهيهات ما للشَّهْبِ فِي أَفْقِهَا حَضْرُ

مَكَارِمُ أَعْيَتْ كُلَّ مَنْ رَامَ حَضْرَهَا

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحول والطول من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة

(١) الصيد: جمع أصيد: السيد.

(٢) القعساء: الوطيدة. الغر: الأعمال العظيمة. الغر: المشهورة.

(٣) الشاء: السامقة. يهفو: يخفق.

والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهي مكارم يعز حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار في الفخر والحماسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهي طبيعية ممن ينشأ مثله في الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء:

الهجاء قديم في الشعر العربي، ومر بنا - في كتابنا عن العصر الجاهلي - أنه كان في الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلونه كما يسلون سيوفهم في حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أن احتدم بالعراق في العصر الأموي ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سميت بالنقائض. وظل التهاجي مضطرباً بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعراء في الأندلس لعهد عبد الرحمن الأسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفي مقدمتهم يحيى الغزالن وسنخصه بكلمة، ومن هرلاء الهجائيين المبكرين عبد الله^(١). بن الشمر

(١) مرت مصادر ابن الشمر في الحديث عن علوم الأوائل في الفصل الثاني.

المتفنن في العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان^(١). عن قاض اسمه يخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغل ذلك يوماً - وهو في مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التي كان ينادي بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوباً عليها: يونس بن متى، المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة في يده أمر أن يدعى له بمن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرر الهاتف النداء خارج مجلس القاضي ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما عن علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخَامِرُ مَا تَنْفَكُ تَأْتِي بِفَضْحَةٍ دَعَوَاتِ ابْنِ مَتَّى وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ
قَفَاكَ قَفَا جَحْشٍ وَوَجْهَكَ مَظْلَمٌ وَعَقْلُكَ مَا يَسْوَى مِنَ الْبَعْرِ دِرْهَمًا

فتألب الفقهاء على يخامر وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارَت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايتِهِ. ومن المهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن^(٢). بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجي ثمانية عشر شاعراً رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن

(١) المقتبس (تحقيق د. مكّي - طبع بيروت). ص ٦٥-٦٦.

(٢) انظر في ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره الحميدي. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس في مواضع مختلفة

(راجع الفهرس) وقضاة قرطبة للخشني ١٠٣ - ١٠٥ والحميدي ص ٣٣٠ وبغية الملتبس ص ٤٥٦

والمغرب ١/ ١٣٢.

يقربه ويجزل له النوال، وأسرتة النصارى في إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوه شامتاً به في قصيدة طويلة:

تصبح أبا حفص على أسر هاشم ثلاث زجاجات وخمس رواطم^(١).
وبح بالذي قد كنت تخفيه خفية فقد قطع الرحمن دولة هاشم

وافتنى الأمير محمد هاشماً فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حبال السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفي سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائيين في عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) القلقاط^(٢). محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسئل لسانه على الناس جميعاً حتى على الأمير عبد الله وفيه يقول:

ما يَرْتَجِي العاقل في مُدَّة الرُّجُل فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقاً لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجس منه شراً، وتهاجياً وأقذع كل منهما في هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر، (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) بإراقة الخمر وتشدد في ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بدمه، من بينهم الرمادي: يوسف بن هرون، فأمر

(١) رواطم لعلها من آنية الخمر في الأندلس.

(٢) انظر في القلقاط وشعره الزبيدي ٣٠١ والحميدي ٩١ وبغية الملتبس ١٣٤ والمغرب ١١١/١ وابن عذاري ١٩٣/٢ وإنباه الرواة ٣/٢٣١ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله في طفل حلق أهله شعره خوفاً عليه من الحسد^(١):

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحًا خيفةً منهم عليه وشُحًا
كان قبل الحلاق ليلاً وصُبْحًا فمَحَوْا ليله وأبقوه صُبْحًا

ونمضي إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عنى في الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون بابا سواه وفي مقدمتهم السميسر وسنفرده ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب^(٢) الملقب بالحجّام شاعر قلعة رباح غربي طليطلة وقد سقطت في حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالباً لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو عليه القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التي تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناس أكثرهم فسادًا وليس لهم لصاحبة نهوض
ألم تر في صباغ الطير سراً تسالمتنا ويؤذينا البعوض

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) راجع في أبي تمام غالب الحجّام وشعره الذخيرة ٣/ ٨٢١ وما بعدها والمغرب ٢/ ٤٠ ورايات المبرزين ص ٨٢.

وقوله:

فيا للملك ليس يرى مكاني وقد كُجِلَتْ لواحظه بنوري
كذا المسواك مطرًا هوانًا وقد أبقى جلاءً في الثغور

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيرًا، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجذب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالًا وإجدابًا، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر^(١) الأصيلي، وهو كثير الدم والهجاء للناس بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغاد يعتمرون دورًا ومالي في بلاد الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رعا عا كبارهم إذ اختبروا صغارُ

(١) انظر في أبي عامر الأصيلي وشعره الذخرية ٣/ ٨٥٧ والمغرب ٢/ ٤٤٤ والخريدة ٢/ ٣٠٨.

ونشبت لعهد أمراء الطوائف أكبر^(١) معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة البيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوي بن زيري الصنهاجي زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتباً له يهودياً يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النغيلة، وكان داهية خبيثاً درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفي حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفي عهده أصبح ابن النغيلة رئيس وزرائه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبإلغ باديس في الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حامياً لليهود في الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدري شيئاً من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجاً من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن في أشعار، وتوفي سنة ٤٥٦ وكان قد أعد ابنه يوسف ليخلفه في وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب،

(١) انظر في هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٣/٢٦٤ والإحاطة ١/٤٣٩ وتاريخ ابن خلدون ٤/١٦١ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة الرد على ابن النغيلة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩-١٨.

وأخذ غير شاعر يستشير العمدة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفي مقدمتهم
السميسر وأبو الحسن يوسف بن الجدد القائل في سخط وغضب^(١):

وتاهت بالبغال وبالسروج	تحكمت اليهود على الفروج
وصار الحكم فينا للعلوج ^(٢) .	وقامت دولة الأندال فينا
زمانك إن عزمت على الخروج	فقل للأعور الدجال هذا

وأصبح المسلمون في غرناطة، يموجون بالحنق والغيط من يوسف واليهود الذين
اعتصروا طيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد
أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم
الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو
اسحق الإلبيري الذي سنترجم له بين الزهاد يمدهم بقصيدة حماسية ملتهبة، بل
بالشعلة الشعرية المضطربة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف في مطلعها برجال
صنهاجة الحاكمين^(٣):

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الندى وأسد العرين ^(٤) .
-----------------------	---

(١) الذخيرة ٢/ ٥٦٢.

(٢) العلوج: جمع علج: الفظ.

(٣) ديوان الإلبيري (طبع مدريد) ص ١٥١.

(٤) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد ومأواه.

لقد زلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ
تَحِيرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا ولو شاءَ كانَ منَ المسلمين
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا وتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ^(١)
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوالين يحملون أخرجاهم على ظهورهم في صغار وذل وهوان باحثين في المزابل عن خرق من الثياب ملوثة يتخذونها أكفاناً لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحاً مثنياً حتى يتنبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميتهم يوسف أفتاه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً وَضَحَّ بِهِ فَهُوَ كَبْشٌ ثَمِينٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً بلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْبَثُونَ
وَقَدْ نَكُنَّا عَهْدَنَا عَنْدهُمْ فكيف تُلامُ على الناكثين

(١) انتخوا: تعاضموا وتكبروا.

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها في الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صمادح أن يرسل إليه جنوداً إلى غرناطة أملاً في أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفي مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسور كثيرون من الرعية قصره حين تبينت لهم جليلة نواياه مصممين على قتله، فاختبأ منهم في بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائيين في عصر المرابطين عبد الله^(١). بن سارة الشنري المتوفى ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: "رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تربي على حصى الدهناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم" ويقول إنه أضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذي اتخذ في الذخيرة، وهو أن ينحي عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقتراً عليه في الرزق، فتنقل طويلاً في بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوراق، وفيها يقول ذاماً هاجياً:

أما الوراقُ فَهِيَ أَنْكَدُ حَرْفَةٍ أغصانها وثمارها الحُرمانُ
شَبَّهْتُ صاحبها بإبرة خائِطٍ تكسو العُراةَ وجِسمُها عريانُ

(١) انظر في ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٢/ ٨٣٤ والخريدة ٢/ ٣١٥ والقلائد. ٢٦٠ والتكملة

٨١٦ والبغية رقم ٨٩٦ والمغرب ١/ ٤١٩ وابن خلكان ٣/ ٩٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

ويكثر في زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجياً، ومثله ابن خفاجة وابن النبي وفيهم يقول مخاطباً لهم:

أهل الرِّياءِ لبستمُ ناموسكم	كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملتكم الدنيا بمذهب مالك	وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتُم شُهَبَ الوابِّ بأشهب	وبأصْبَغِ صُبغت لكم في العالم

وهو يتهمهم بالمراعاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمتهم المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدراً لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصْبَغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. ومن عنف بالفقهاء في الهجاء الأبيض^(١). محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطي حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالة جاهداً	ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النَّارِ
ما زال يأخذ سَجْدَةً في سجدةٍ	بين الكُؤوسِ ونَغْمةِ الأوتارِ
فإذا اعتراه السَّهْوُ سَبَّحَ خلفه	صوتُ القِيانِ ورَنَّةُ المزمارِ

(١) راجع في ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفح الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

وكانت في الأبيض جرأة شديدة، وأفحش في بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرعه ويوجعه باللوم قال له هازئاً به: إنني لم أر أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وامر بقتله، وهو حمق منه ما بعده حمق. وكان معاصره إليكي يهجو المرابطين مثله، غير أنه لم يبلغ مبلغه في الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبي العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة في مهنة الطب كما يقول المقرئ - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن^(١) باجة:

يا ملك الموت وابن زهر جاوزتما الحدَّ والنهاية
ترققاً بالورى قليلاً في واحدٍ منكما الكفاية

وهي في رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرئ، مما جعله يعقب لأبي العلاء بن زهر بيتين يصف فيهما شخصاً بالزندقة وأنه لا بد أن يصلب والجدع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا في عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى^(٢) المخزومي أبو بكر محمد، وأنشد له

(١) نفح ٣/ ٤٣٤ وما بعدها.

(٢) أنظر في ترجمة الأعمى المخزومي وشعره المغرب ١/ ٢٢٨ والإحاطة ١/ ٤٢٤ ٣/ ٢١٦.

ابن سعيد في المغرب هجاء كثيرًا، من ذلك قوله في إحدى مقطوعاته يهجو قوماً لقوه لقاء قبيحاً:

وأنتم سَنَتَمُّوْا كُلَّ مُحَدِّثٍ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحاقاً لآخر

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبة وكل مذمة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لغنة تزرى سواءً وعاراً بلعنات كل من في المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون^(١) - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلاً:

ألا قل لنزهونة مالها تجرُّ من التيه أذيالها

فردت عليه بهجاء موجه أخرسه. وكما هجا تلميذته التي كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابناً له بقوله:

الحقُّ أبلجٌ لست أنت وحقٌّ من أحيا بك الأجلافَ ممن يفليح^(٢).

لا تهتدي بفضيلة لا ترعوى بملامة لا أنت ممن يصلح

يزداد عقلك ما كبرت تناقصاً وتلج في صمم إذا ما تنصح^(٣).

(١) تأتي في الفصل التالي مراجع نزهون.

(٢) أبلج: مضى.

(٣) تلج: تنهذى.

وبدلاً من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصيح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمّية. ويقول ابن سعيد عنه في مطلع ترجمته نقلاً عن الحجاري: "بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأذاة، وهو الذي أحيا سيرة الخطيئة بالندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد". ويروي ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبره ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله في دار تلطفاً، وقال لغلام له: اسأل في الموضع الذي نزل فيه المخزومي متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له في دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومي فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتاً منها:

فالظل أفيد منهم للسائل

لا ترجون بني سعيد للندى

وسرورهم أبداً بخيبة راحل

قوم مصيبتهم بطلعة وافد

ومن كبار الهجائيين في عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد^(١) بن الصفار الأعمى القرطبي المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوف في الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروي ابن سعيد أنه لما قال أبو يد الفازازي كاتب أبي العلاء المأمون الموحدي (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التي أولها: "الحزم والعزم منسوبان للعرب" يشير بذلك

(١) أنظر في ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره ١١٧ واختصار القدح المعلي ص ٢٠٣.....

إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة في مديح يحيى بن الناصر
الموحدي أخي المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجياً له
بقوله:

وإن ينازعك في المنصور ذو نسب منجل نوح ثوى في قسمة العطب
وإن يقل أنا عم فالجواب له النبي بلا شك أبو هب

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرض على قتله، وفر ابن الصفار إلى أبي زكريا
بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتباً شهرياً إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر
الهجاء يتطاير في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشعراء حيثئذ من ذم الزمان والناس، على
نحو ما يلقانا عند البسطي محمد بن عبد الكريم القيسي بأخرة من زمن تلك الإمارة،
وقد صب كثيراً من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضي
بلدته^(١):

تباً لقاضي بسطة ابن مفضل تباً له فيه يروح ويغتدي
إذ غير الأحكام عما أصلت تغيير جبارٍ عنيدٍ مُعتدي

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء أربعة من كبار الهجائيين في الأندلس على مر
عصورها هم يحيى الغزال والسميسر واليكي وعلى بن حزمون.

(١) انظر كتاب البسطي آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت) ص ١٩٤.

يحيى^(١) الغزال:

هو يحيى بن الحكم البكري الجياني المعروف باسم الغزال، وُلد حوالي سنة ١٥٦ للهجرة وتوفي حوالي سنة ٢٥٠ وإذا صح ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أدركت بالمِصْرَ ملوكًا أربعة وخامسًا هذا الذي نحن معه

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لقب بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدبًا وعلمًا. ويبدو أنه كان يتولى أحيانًا بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشترى للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفي برد ما يياثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرًا فذا فاستعطفه ببعض

(١) راجع في ترجمة يحيى الغزال المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (تحقيق د. مكّي - طبع بيروت) ص ١١-١٣، ٦٤-٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدي رقم ٨٨٧ والبغية للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢ والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذاري ٩٣/٢ والنفح ٢/٢٥٤ واليتيمية للثعالبي ٥٦/٢ وكتاب القضاة للخشي ص ٨٣. ونشر ديوانه د. محمد رضوان الداية بدار فتيبة.

منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب
 بهن ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد
 القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربي الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى
 ملكهم، ونجح فيها كما نجح في السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته
 المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش في غير قليل من لين العيش وأنه كان في
 أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعاً - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات
 اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من الماراة مما دفعه إلى أن يكثر
 من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب في أول قدومه على
 قرطبة، ويهجو الناس جميعاً حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أرى هاهنا من الناس إلا	ثعلباً يطلب الدجاج وذيباً
أو شبيهاً بالقط ألقى بعينه	إلى فارة يريد الوثوبا

فالناس بين ثعلب مكر وذئب مفترس وقط ينتظر فرصة من فارة، وجميعهم متحفز
 للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه
 قاضي الجماعة بقرطبة يخامر بن عثمان الجذامي الجياني موطنه، ولاه عبد الرحمن قضاء
 الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه

ومن أحكامه، كقوله في شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملاً لا يحسن أدائه على نحو ما كلف القاضي يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ له كَلَّفْتَنِي غَيْرَ صَنَعَتِي كما قَلَّدُوا فَضْلَ الْقَضَاءِ يُخَامِرُوا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لي سأفُضِّحُ ما قد كان مِنْكَ مُغَايِرَا
فقلتُ له: رَأْسُ الْفُضُوحِ إِقَامَةٌ علينا كذا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مُكَابِرَا
وخبَطْتُكَ في دينِ الإلهِ على عَمِيَّ خِبَاطَةٌ سَكْرَانٍ تَكَلِّمُ سَادِرَا^(١)
فلن يَحْمِلَ الصَّخْرَ الذُّبَابُ ولن ترى سَلَّاحِفَ يَزِجِنِ السَّفِينِ مَوَاخِرَا^(٢)
الـ

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخبط في قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله في حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التي لا يؤتاها إلا أولو العزم بذباب يطلب إليه أن يحمل صخرًا ضخماً وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفناً تشق مياه البحار شقاً. وما يزال يهون منه ويزري به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلي الخصى تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذي الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدمت يداه:

(١) سادرا: غير مبال.

(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

أيا لا هيا في القصر قُرب المقابر يرى كل يوم وارداً غير صادر
 تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما تلذُّ به من نقر تلك المزاهر^(١).
 سترحل عن هذا وإنك قادم - وما أنت في شك - على غير غافر

وكان الأمير عبد الرحمن ولى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ في سنة ٢٣٦ يفكر في صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهاكه في اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونبه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة في معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقبا له بأبي الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أغنى أبا الفتح عما كان يأمله حفيرة حُفرت بين المقابر
 فصار فيها كأشقى العالمين وإن لفؤه بالنفح في مسك وكافور

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه في قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إليمسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفنه أكما يقول سوى ثلاثة أثواب.

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجه في زمنه.

السميسر^(١).

هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام الشعراء في زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقدح، وكأنما تخصص بالقدح والهجاء في أهل زمنه، حتى ليكتب في هجائهم كتابا في مجلدات سماه "شفاء الأمراض في أخذ الأعراض". وكانت كورته البيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجي منذ سنة ٤٦٧ وان السميسر ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين في ملاهيهم بين الكاس والطاس متنازعين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاعرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبي شققتم

(١) انظر في ترجمة السميسر وشعره الذخيرة ١/ ٨٨٢ وما بعدها، ونفح الطيب ٣/ ٢٢٧، ٢٩١، ٤١٢، ١٠٨/ ٤ والحميدي ص ١٩٣ والخريدة ٢/ ١٦٧ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب ٢/ ١٠٠.

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثاً منكراً مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم في يده، بل إنهم ليستعدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير في حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمر غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادي، فعبد الله بن بلقين غارق في تشييد قلعة يتحصن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخراً:

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهَا

كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ

فهو - في رأيه - كدودة القز لا تزال تنسج حولها معقلاً لها وهو ليس معقلاً بل عقلاً تلفه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمر وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعاً بمثل قوله:

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ

أَبَا الْبَرِيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا

أَنَّ الْبُرَابِرَ نَسْلُكَ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ

حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجه المؤلم توعده الأمير عبد الله بسفك دمه، ففر إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية مستجيراً به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السمسير سيئ الظن بالناس سوءاً شديداً، حتى لينشد:

رَأَيْتُ بَنِي آدَمَ لَيْسَ فِي

جَمْعِهِمْ مِنْهُ إِلَّا الصُّورُ

ولما رأيتُ جميعَ الأنامِ كذلك صرْتُ كطيرٍ حَذِرٍ
فمهما بدا منهمُ واحدٌ أقولُ أَعُوذُ بِرَبِّ البَشَرِ

فقد أصبح من الناس جميعاً مثل طير حذر لا يزال يتلفت يمينا ويساراً خشية أن يقع في شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيز منهم ومن شرهم بربه لاجئاً إليه ضارعاً. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء يقول فيهم:

أنا أحبَّ الشعرَ لكنني أبغضُ أهلَ الشعرِ بالفِطْرةِ
فلستَ تلقى رجلاً شاعراً إلا وفيه خلةٌ تَكْرَهُ
والعُجْبُ والنُّوكُ إلى الجهل في أكثرهم إلا معَ النُّدرةِ

وطبيعي أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ في وصفهم بهما. ويعلن مراراً أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثُر من أشعار طريفة في الزهد والقناعة والحياة والموت.

اليكى^(١)

(١) انظر في ترجمة اليكى وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢/ ٢٦٦ والخريدة ٣/ ٥٨٠ والضبي في البغية ص ١٨٨.

هو أبو بكر يحيى بن سهل إليكي من قرية يكة شمالي مرسية، قال فيه الحجاري: "هو ابن رومي عصرنا وحطية دهرنا، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء" عاش في زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفي حوالي سنة ٥٦٠ وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا المثلثين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لَمَّا حَوَّوْا إِحْرَارَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَّثَمُوا

في مدحة بلغ بها غاية رضاهم، ثم عاد إليه طبعه وما فطر عليه من الهجاء المقذع، فهجاهم وقذح في أخلاقهم ولثامهم رامياً لهم بالدناءة ونقص العفاف قائلاً:

فِي كُلِّ مَنْ رُبِطَ اللَّثَامُ دَنَاءَةٌ وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كَيَّوَانٍ^(١)

لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عَفَةٍ وَاطْلُبْ شِعَاعَ النَّارِ فِي الْغُذْرَانِ

وفي نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسي - أن المثلثين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها في براثن النصارى الشماليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلافة التي سحقوهم فيها سحقاً بعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموا بمثل قوله:

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس وشؤم.

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم
فأصبحت فيكم الآراء متفقه
وربما اجتمعت في بعض سادتكم
نقائص أصبحت في الناس مفترقه

ويتمادى في البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنها يحصى عيوب نسه،
وبالمثل ما أحصاه من خصال عشرة ذميمة للفقير وزوجته، وما وصم به قاضي بلده:
مرسية من جوره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:
يطالبه الأيتام في جلّ ما لهم
ويطلبه في حقّه كل مسجد^(١).

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدرك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر في
شيء، إذ يصبح سباً وقذفاً مذموماً. وربما كان أخف ما هجا به أهل فاس قوله:
قصدت جلة فاس
أسترزق الله فيهم^(٢).
فما تيسر منهم
دفعته لبنينهم

(١) جل: معظم.

(٢) جلة: أجلاء.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئاً من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال يمينه يدفعه لأبنائهم يساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله في بعض مهجويه:

أَعِدِّ الوضوءَ إذا نطقتَ به متذكِّراً من قبل أن تنسى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظلُّ منه ينجسُ الشَّمْسُ

وكأنه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو في الإقذاع والإيلام. وفي أهاجيه فحس كثير. وتردد ابن سعيد في المغرب في نسبة موشح له وقال إنه لابن المريني ويروي لليكي مما يدل على أنه شارك في نظم الموشحات.

على^(١) بن حزمون:

هو أبو الحسن على بن عبد الحمين بن حزمون، من المريّة، يقول فيه ابن سعيد: "صاعقة من صواعق الهجاء" ويقول ابن عبد الملك المراكشي: "كان شاعراً مفلحاً ذاكرةً للآداب والتواريخ أحد بواقع^(٢) الدهر، بذى اللسان مقذع الأهاجي". ومر بنا في حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدي بعد قفوله من غزوة الأرك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان،

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب ٢/ ٢١٤

وما بعدها وأزهار الرياض ٢/ ٢١١.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

وأُشِدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه وفد على اسمتنصر الموحدى (٦١٠-٦٢٠هـ) بمراكش مادحاً له ومتظلاً من واليه المجريطى على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالى وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفى المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالى واشتد أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها في غير هذا الموضع، وجره هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعماً أنه فرّ في إحدى المواقع مع النصارى قائلاً:

يودُّ بأن لو كان في بطن أمه	جنيئاً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
ثقيلاً ولكن عقله مثل ريشة	تطير بها الأرواح في مهمه دو ^(١) .
تميل بشدقيه إلى الأرض لحية	تظنُّ بها ماء يفرغ من دلو
وقد حدثوا عنه بكل نقيصه	ولكن مثلى لا يروى ولا يروى

وهو تجنُّ على هذا القائد الذي كان مشهوراً في قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو برئ منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التي لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهي مبالغة في

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دو: واسع.

هجاء مقذع كان حريًا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأي أن يلتقي بالوزير الموحد أبي سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقليل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ يَبْنٍ وَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى دَارِ بَبَائِنِ
وَمِنْ زِيَارَةِ أَزْبَابٍ بِلا عَدَدٍ لَا يَمْلِكُونَ حَيَاتِي لَا وَلَا حَيْنِي^(١).
إِنِّي وَجَدْتَهُمْ لَمَّا رَجَوْتَهُمْ كَالرَّيْحِ تَطْلُبُهَا مَا بَيْنَ كَفَيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبًا وغيثًا مدرارًا وممدحًا للشعراء، ولكنها نزع الهجاء في ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعًا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنها أراد أن يقتص منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمَرَاةِ وَجْهِي فَخِلَّتْهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِوِ
إِذَا شِئْتُ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي فَإِنَّهَا مَا قَدْ أَرَدَتْ مِنَ الْهَجْوِ
كَأَنَّ عَلَى الْأَزْزَارِ مِنِّي عَوْرَةً تَنَادِي الْوَرَى غُضُّوا وَلَا تَنْظُرُوا
فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لَمْ أَكُنْ نَحْوِي
مَنْ الرَّائِقِ الْبَاهِي وَلَا الطَّيِّبِ الْخُلُوِ

(١) حيني: هلاكي وموتي.

وفي الحق أنه كانت في ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هي التي دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادي الماجنة المفحشة في كثير من شعره، وكان وشاحاً مجيداً ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجري على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم في عروضها ورويها موشحة ماجنة مكثراً فيها من الفحش. وينتهي المراكشي حديثه عنه بقوله: "ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهاً وثروة خوفاً من لسانه" وبعبارة أخرى خوفاً من هجائه البذيء المقذع.

الشعراء والشعر التعليمي

ذكرنا في كتاب العصر^(١). العباسي الأول أن رقي الحياة العقلية في هذا العصر دفع الشعراء إلى استحدثا فن الشعر التعليمي، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كلية ودمنة عن الفارسية إلى العربية في ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد في الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة في هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة في تاريخ ملوك الفرس وفي الفقه وأحكام الصوم والزكاة. ومن نظم في هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزاري، إذ نظم في علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعي فيه قصيدة في ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم في هذا الفن التعليمي وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعلي بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليفة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين في هذا الفن الجديد - إن لم يكن أولهم السابق إليه - الشاعر يحيى الغزال الذي مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم في فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٠ وما بعدها

الفاحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماءهم مستقصياً محسناً^(١). وملتقى بعده
بتام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبد الله إلى أن توفي في حدود سنة ٢٨٠
ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولايتها
والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام
الأمير عبد الرحمن بن الحكم^(٢)، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخمة^(٣) وفي
ذلك ما يؤكد أنها كانت مفردة في الطول.

وإذا استمررنا في تتبع الشعر التاريخي التعليمي وأراجيزه التقينا بأرجوزة^(٤) ابن عبد
ربه التي سجل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعاً
لأبياته فيها على تلك السنوات وهي في نحو ٤٥٠ بيتاً، وقد استهلها بقوله:

سبحان مَنْ لم تَحْوِهْ أَقْطَارُ ولم تكنْ تدركه الأبصارُ
وَمَنْ عَنَتْ لوجهه الوجوهُ فما له نِدٌّ ولا شبيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامداً له على آلائه التي أسبغها على
الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن
كانت حياته قد تناثرت وعمت الفتن في كل الأنحاء وكثر الثوار في كل مكان، وإذا عبد

(١) نفح الطيب ١/ ٢٨٢.

(٢) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس (طبع القاهرة) ١/ ١٤٤.

(٣) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكّي (نشر دار الكتاب العربي بلبنان) ص ١٧٩.

(٤) انظر الأرجوزة في العقد الفريد ٤/ ٥٠٠ وما بعدها.

الرحمن بغزواته المتوالية سنوياً يعيد إلى الأندلس وحدثها ويقضي قضاء مبرماً على الثوار والمراق ويأخذ في منازل نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يد وهم صاغرون، ونكتفي من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة^(١). السنة الأولى من غزوات الناصر وهي سنة ثلاثمائة، وكان قد أعد جيشاً ضخماً خرج به من قرطبة في السابع من شهر رمضان في تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيان واتجه إلى حصن المتلون وثأثره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمتان وثأثره عبيد الله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلاً له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التي كانت موالية لعمر بن حفصون في جيان ثم في البشرات وافتتحها جميعاً، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون في إقليم البيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفاً. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصناً من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهي فتوح لم يسمع بمثلها - كما يقول ابن حيان - لملك واحد من ملوك الأرض في غزوة واحدة، وقفل منها عائداً إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه في أرجوزته مشيداً بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خائعين:

وَكثَّفَ الأَجْنَادَ والحُشُودَا

وَجَمَعَ العَدَّةَ والعَدِيدَا

بِعَسْكَرٍ يَسْعُرُ من هُمَاتِهِ^(٢).

ثُمَّ انْتَحَى جَيَّانَ فِي غَزَاتِهِ

(١) راجع هذه الغزوة في الجزء الخامس من المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) يسعر: يتقد. حمة: جمع حمام.

فأذعنتُ مَرَّاقَها سِراعا
وأقبلتُ حُصونَها تَداعي
وافتتح الحصونَ حِصْنًا حِصْنًا
وأوسع الناسَ جميعًا أَمْنًا
ثم انتحى من قُورِهِ البيره
وهي بكل آفَةٍ مشهوره
ولم يدع من جنِّها مريدًا^(١).
بها ولا من إنسها عَنيدًا
إلا كساهُ الذَّلَّ والصَّغارا
وعَمَّه وأهله دمارًا
وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ
وقد شفاه الله من عَدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التي ينبغي أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التي ليست لها
مثيل في تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت في أرجوزة من الشعر
التاريخي التعليمي الذي تفتقر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائي
المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة في الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل في نفس
هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله في مدحه للناصر^(٢):

في نصف شَهْرٍ تركت الأرض سَكَانَةً
لما رأوا حَوْمَةَ الشَّاهِينَ فوقَهُمْ
من بعد ما كان فيها الجُورُ قد ماجا
كانوا بَغَاثًا حَوَالِيهَا ودُرَّاجًا^(٣).

(١) مريدًا: خبيثًا شريرا.

(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص ٦٢.

(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها البغاث والدراج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

ويقول في وصف عدله ي رعيته:

أحيا لنا العدل بعد ميته
ورد روح الحياة في جسده

ونلتقي في عر المرابطين بأهم ناظم لشعر التعليمي التاريخي، ونقصد أبا طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبي، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبي الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم سماها "معراج المناقب". وأهم من نظموا بعده في هذا اللون التاريخي من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذي ستأتي ترجمته في الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها "رقم الحلل في نظم الدول" وهي تاريخ شعري للدولة الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشطين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيدين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمرء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مريين بإفريقيا، وطبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضي، ويسوق ابن الخطيب في تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفي كتابه "الإحاطة" اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الرضي وما كان من ثورة الفقهاء وأهل الربض عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه في حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع

لأحد في الثورة عليه عهداً ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيراً إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام^(١):

حتى إذا الدهر عليه احتكما	قام بها ابنه المسمى الحكم
واستشعر الثورة فيها وانقبض	مستوحشاً كالليث أفعى وربض ^(٢) .
حتى إذا فرصته لاحت نفض	فأفحش الوقعة في أهل الربض
وكان جباراً بعيد الهمة	لم يرع من إل بها أو ذمة ^(٣) .

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمي إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهي أكثر من أن تحصى في الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علماً دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة في العلم الذي نظمته مهما شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فيره الشاطبي الذي مر ذكره بين القراء في الفصل الثاني، وقد سماها - كما مر بنا - حرز الأمان ووجه التهاني في القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبة إليه، وعدتها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً، وقد شرحت

(١) الإحاطة ١/ ٤٨٢.

(٢) الليث: الأسد. أفعى: جلس على إتيته ونصب ساقيه وفخذه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

مراراً، شرحها العلم السخاوي وبغره، وظلت المرجع الأساسي للقراء منذ عصر الشاطبي إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطي وقلنا هناك إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سماها: "عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي"، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوئاد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها^(١) من الشهرة والذيع. ودوت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكي لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطأ لمالك وسماه: "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" ويقول ابن حزم - كما مر بنا "لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً" ولعل ذلك ما جعل الشاطبي ينظم قصيدة في خمسمائة بيت تحيط علماً بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسي حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات في العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبي بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله في القراءات^(٢). منظومة باسم "إيضاح المعاني في القراءات الثاماني" ومنظومة ثانية في علم الفرائض (الميراث) باسم: "كنز المفروض في علم الفرائض" ومنظومة ثالثة في علم الأصول باسم: "مهيع الوصول إلى علم الأصول" وله في الفقه المالكي أرجوزة في نحو ١٦٩٠ بيتاً نشرت في باريس منذ القرن الماضي وكانت تدرس في جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيراً ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٧٣/٥.

(٢) انظر في أسماء هذه المنظومات لابن عاصم النفح ١٩/٥.

وأحكامه على نحو ما نجد في رائية^(١) أبي الحسن بن الحصار، وهي اثنان وعشرون بيتاً في بيان المدني والمكي من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكي.

وكان طبعياً أن تشارك الأندلس المشرق في نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما في كتابه "البديع" إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسناً وضم إليها صور البيان الأساسية وهي الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبي الإصبع المصري مائة واثنين وعشرين محسناً. وتأخذ في الظهور منذ علي بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعات^(٢)، وهي منظومات يتضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط في ١٤٥ بيتاً موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسناً من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطي ينظم قصيدة في علمي البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلبي والإربلي في أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسي أسهم في تلك القصائد ابن جابر الوادي أشى المترجم له بين شعراء المديح النبوي، إذ نظم بديعية من بحر البسيط في مائة وسبعة وعشرين بيتاً وجعل موضوعها مديح

(١) راجع الذيل والتكملة للمراكشي: القسم الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٢) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨ وما بعدها.

الرسول صلى الله عليه وسلم وسماها: "الحلة السيرا في مدح خير الورى" واستهلها بقوله:

بَطِيَّةٌ أَنْزَلَ وَيَمُّ سَيِّدِ الْأُمَمِ
وَأَنْثَرُ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرُ أَطِيبَ الْكَلِمِ^(١).

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرعيني، ويقول في مقدمته لها إن ابن جابر اتبع في سرد المحسنات البديعية الخطيب القزويني في كتابيه الإيضاح والتلخيص، ولعل ذلك ما جعله يكتفي فيها بنحو ستين محسنًا. ولعل الأندلس لم تكثر من النظم في علوم كما أكثر من نظم علوم النحو والتصريف واللغة، ويكفي أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائي الجياني المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق، ويُعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا في الأندلس فحسب بل في العالم العربي جميعه، وكان نظم الشعر التعليمي سهلاً عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق الدقائق في النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة صياغة بديعة، وفي مقدمتها نظمه المفصل للزخشي في النحو باسم "المؤصل في نظم المفصل" ومنظومته المطولة "الكافية الشافية" في النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله في الصرف منظومة لامية في أبنية الأفعال باسم "المفتاح أو اللاميات" وهي في مائ وأربعة عشر بيتاً من وزن البسيط، ومنظومة ثانية في ٤٩ بيتاً من وزن الكامل ضمنها الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطي في

(١) طيبة: المدينة. يمم: اقصد.

الجزء الثاني من كتابه المزهري. وله في اللغة منظومة واوية في ١٦٢ بيتاً سماها "تحفة المودود في المقصور والممدود" وهي تتضمن الألفاظ التي تنتهي بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت في القاهرة مع شرح موجز لها، ومنظومة ثانية في ٦٢ بيتاً من وزن البسيط سماها: "الاعتداد في الفرق بين الزاي والصاد" ضمنها الكلمات المتماثلة التي تنتهي بهما. وأهم منظوماته جميعاً الألفية في النحو والصرف وهي أرجوزة في ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارس وإكباب الشيوخ والطلاب عليها في جميع البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أي منظومة أخرى في النحو والصرف واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحاتها وحواشيها مثل شرح الأشموني وحاشية الصبان عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضري عليه. ولحازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤ منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها في حديثنا عنه عما قليل ولأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة في النحو سماها "غاية" الإغراب في علمي التصريف والإعراب " أي النحو، ولم تحظ - كأرجوزته في القراءات - بشيء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التي نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعاً ألفيه ابن مالك. ويذكر ابن حجر في كتابه الدرر أن ابن جابر الوادي آشي نظم كتاب فصيح ثعلب في اللغة.

وكان قد شاع نمط لغوي من وزن الرجز يتضمن كثيراً من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دريد في القرن الرابع بمقصورته التي تقع في نحو مائتين وخمسين بيتاً من الشعر والتي مدح بها

(١) ذكرها أبو حيان في كتابه منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

عبد الله بن محمد ابن ميكال وإلى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء في المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلى في عناية الشعراء بها وفي تخميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته في هذا اللون من الشعر التعليمي اللغوي، ونذكر منهم على بن حريق المخزومي، إذ ذكر المراكشي أن له مقصورة^(١) عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشي أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة^(٢) جعلها في ثلاثة أقسام: الأول في الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثاني في الحديث النبوي: بني الإسلام على خمس، والثالث في الشكوى من الزمان والإخوان وثناء أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتاً أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحاً مفيداً. ولحازم القرطاجني مقصورة نالت حظاً من الشهرة وسنلم بها في حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادي أشي موضوعاً جديداً هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرئ في النفع^(٣) مسمياً لها باسم المقصورة الفريدة، وهي في أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائماً الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التي شاعت في قصائد المدح

(١) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٧٦.

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٣) راجع نفع الطيب ٣٠٦/٧.

النبي، مع تضمينها بعض الحكم الطريفة والإفاضة في سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بمعراجه إلى السماء وقرب جبريل منه، وازدياده قرباً حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولاً هادياً منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ في قوافي أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعراً بارعاً. وحرى بنا أن نخص كلا من أبي طالب عبد الجبار وحازم القرطاجني بكلمة.

أبو^(١) طالب عبد الجبار:

لم تُعَنِّ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبي طالب عبد الجبار، وحقاً عني ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه أكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة في مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعرف بلقب المتنبي، ويضيف أنه كان "أبرع أهل وقته أدباً، وأعجبهم مذهباً، وأكثرهم تفناً في العلوم، وأوسعهم ذرعاً (طاقة) بالإجادة في المنثور والمنظوم". ويذكر أنه كان يسرف في المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتاً في الفصل التالي، ويقول إنه كان قانعاً بما يسد حاجته من العيش، فلم يمدح أميراً ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة. وتدل مقدمته

(١) انظر في ترجمة أبي طالب عبد الجبار الذخيرة ٩١٦/١ - ٩٤٤ والخريدة للعماد الأصبهاني ٢/٢١٠ وما

بعدها والمغرب ٢/٣٧١ وما بعدها.

لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظناً أنه أحد ولاية دولة المرابطين على شرقي الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئاً عن الحقبة التي عاش فيها، غير أنه أرخ في أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧هـ) وأنه يقتفيه ويهتدي به في حكمه، مما جعل العماد الأصبهاني يستنتج في ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أي بعد السنة الأولى من حكم علي، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩هـ) قائلاً عنه:

والمَلِكُ اللهُ الإِلَهِ الحَقُّ

وهو إلى الآن إمام الخَلْقِ

وفي قوله: "إلى الآن" ما يدل على أنه عاش فترة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

والأرجوزة في أربعمائة وخمسين بيتاً، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصداً بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع في أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفاً عيون زهرها وملتقطاً مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر في فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدوها باسم الله الصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ في حمد الله مبتدع السماء والأرض والبرية ابتداع خالق مهيمن منفرد بوحدانيتها منزّه عن قول جهنم بن صفوان وغيره من المجسمة، ويدعو إلى التأمل في ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضاً إلى التأمل في خلق الإنسان وأطواره وما

وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. ويتنقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما في الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أهل الهوى والفرقة العويّة

أف لقول الفئة البصريّة

قولهم واحذر مقال جهّم

واحذر هداك الله ياذا الفهم

من مثبتى صفات ربّ الخلق

وقل بما يقول أهل الحقّ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشدد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشدد به الضجر من جهّم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذي ينقله الجهم الغفير عن الجهم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سنى أو قل أشعري، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

إلا الذي الطوع له مفترض

وكل شيء جوهر أو عرض

وما هو العرض إذ يفسر

فإن فحصت قائلاً ما الجوهر

فالجوهرُ الحاملُ للأعراض
وَالْعَرَضُ المحمولُ كالألوانِ
وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ بِذِي أَعْضَاءٍ
وَحَرَكَاتٍ الْجَزْمُ وَالْإِسْكَانُ

فكل ما في الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض غد هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلابسه ملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة الثالثة في بيان العلم ويوصي بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلاً:

العلمُ علماً أياً مَنْ يَبْحَثُ
عِلْمٌ قَدِيمٌ ثُمَّ عِلْمٌ مُحَدَّثٌ
إِنَّ الْقَدِيمَ عِلْمَ رَبِّ الْعَرْشِ
بَارِي الْبَرِيَّةِ الشَّدِيدِ الْبَطْشِ
وَمُحَدَّثٌ فَذَاكَ عِلْمُ الْخَلْقِ
مَنْ نَاطِقٌ وَغَيْرُ مَا ذِي نُطْقٍ
وَكُلُّ عِلْمٍ مُحَدَّثٍ عِلْمَانِ
عِلْمٌ ضَرْوَرِيٌّ بِلَا بَرَهَانِ
وَبَعْدَهُ فَعِلْمُ الْاِسْتِدْلَالِ
وَالْمُنْطَقُ الْبَاحِثُ عَنْ أَحْوَالِ

فالعلم علمان: علم قديم أزلي خاص بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضروري بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلاً: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. وينعي على النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود في الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جل جلاله عن شريك وأن يكون جسماً له حد وانتهاء. ويتحدث في مقدمة رابعة عن التفكير في ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما في الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعاً يدبره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدل ذلك على ذلك أن رباً فوقه هو الكمال المطلق الذي ليس له نهاية تحدده. وفي مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتدياً بأضواء من الذكر الحكيم منشداً:

كما عَنِ الرَّسُولِ فِي الذِّكْرِ تَلَا	قد خلقَ اللهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا
ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ لِيَبْلُو الْأُمَمَا	أَخْرَجَ مِنْ مَاءٍ دُّخَانًا فَسَمَا
فَكَانَ مِنْهُ جُمْلَةُ الْأَنْسَالِ	وَأَدَمَ صُورَ مَنْ صَلَّصَالِ
فَسَكَنَّا جَنَّاتِ الْعِلْيَاءِ	ثُمَّ بَرَا لَأَدَمَ حَوَاءَ

وهو يشير في الآيات إلى ما جاء في الذكر الحكيم من خلق السموات في مثل قوله تعالى بسورة النازعات: (السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) وقوله عز شأنه في سورة فصلت: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وقوله سبحانه في سورة النازعات: (وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) أي بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد ويقول إن آدم صور من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى في سورة الحجر: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ) وقوله في سورة الرحمن: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ). ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنهما الفردوس. ويستمر في الأرجوزة متحدثًا عن عصيانها لربهما وأكلهما من الشجرة وهبوطهما للأرض ويتحدث عن قتل ابنهما قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلهما وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسال الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتًا، دل فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومتلاهم من خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بني أمية في الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموي في تلك الديار قضاء مبرمًا. ويستقصي أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقًا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

وعطلّوا الثغورَ والجهادا

قد أهملوا البلادَ والعبادا

واشتغلت أذهانهم بالخمير
وبالأغاني وسماع الزمر
وزادهم في الجهل والخذلان
أن ظاهروا عصابة الصلبان

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، وداخلوا طوائف النصارى في الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت في كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبّر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقاً وبيلاً في موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيها وفي استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذ أراد الله نصر الدين
استصرخ الناس ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح في إثر غسق
مستدركا لما تبقى من رمق
وواصل السير إلى الزلاقة
وشاقه ليومها ما شاقه
لله در مثلها من وقعة
قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وثل للشرك هناك عرشه
لم يغن عنه قومه أذفونشه

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ فلباهم كالصبح المضيء في إثر ظلام مطبق، مستدرِّكاً لما بقي في الأندلس من رمق يوشك أن يزهرق ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجباً متلهفاً إلى الزلافة بأُسدٍ وغي والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم الجمعة، وكان يوماً فاصلاً إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وثل عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة في نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم في اختيار الألفاظ والقوافي دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعاني أو تضفي عليها شيئاً من الإبهام. وهي دل - بوضوح - على تعمق أبي طالب في الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعي بتاريخ حكام العرب شرقاً وغرباً منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم^(١) القرطاجني:

مرَّبنا في الفصل الثاني حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسي الأنصاري قاضي قرطاجنة

(١) انظر في حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المعلق ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطي وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٥/٣٨٧ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها من مصادر، ودراسة الدكتور مهدي علام بعنوان "أبو الحسن حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي مع تحقيقها" وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

سنة ٦٠٨ للهجرة، وعنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشب فأخذ يتلقى الآداب والعلوم في بلدته الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقي للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومد رحلاته غرباً إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل إطلاعه على تلخيصه لكتابي الخطابة والشعر لأرسططاليس هو الذي وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره في كتابه منهاج البلغاء. وهاجر في أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحيدي وله فيه أمداح ونال منه صلوات سنية. وأحسن أن سلطان الموحيدين يوشك على نهايته وأن لا أمل في دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبي زكريا الحفصي صاحب تونس، فعرف له فضله وقربه، وتوفي فقر به منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه في دواوينه، واتخذ تونس موطناً له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعاً بين العمل في ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره في مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظاً أنه يتناول في المقاطيع الماثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية في شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة في رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح في أبي زكريا الحفصي وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة في الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول في فاتحتها:

لعلنيك قل إن زرت أفضل مُرسل
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأهم مدائحه مقصورته التي مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام في صنع مختصر شعري للنحو على نحو ما نرى في ميميته النحوية التي نظمها من وزن البسيط وهي في مائتي بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصي لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ في عرض المختصر الشعري للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئاً بتعريف النحو والكلام وتقييمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقاً فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التي مدح بها المستنصر، وهي أرجوزة طويلة بل مسرفة في الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشداً:

لله ما قد هجّت يا يوم النوى
على فؤادي من تباريح الجوى

ويطيل في غزله إلى خمسين بيتاً ناسجاً في أبياته أكثر المعاني التي ألم بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير في نفوسهم هديل الحمام من شجي. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه في مائة

وعشرين بيتاً ذاكراً انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقي، وينشد:

مستنصر بالله منصور بهش مؤيد بعونه على العدا
ملك حكى ملك سليمان الذي لم يتجه لغيره ولا ابتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنة الخلد كما يشبه قناتي المياه اللتين تحملانه من جبل زغان إلى تونس واللّتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هي نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل في وصف جنات أبي فهر والقصبة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سماح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشداً:

بلغت آراب المنى في دولة أولت يدي أسنى الأيادي واللها^(١)
والدهر عيد والليالي عرس^(٢) والدهر أحلام كأحلام الكرى^(٣).

وكانها تهيج تونس بمباهجها في نفسه الذكرى لمرايع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك في نحو

(١) الأيادي: النعم. اللها: العطايا.

(٢) الكرى: النوم.

ثلاثين بيتاً. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثاً في نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التي نهبها
النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصوراً كم نعم فيها مع خلانه
من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى وربي ومروج
وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنها يصف فردوساً مفقوداً
كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نصيف من مرسية بمنزل

ضفاً به الدوح على ماء صفاً^(١).

نقطع دنيانا بوصل الأنس في

مغتبق في روضه ومغتدي^(٢).

وتتناجى بالمنى أنفسنا

حيث تداعي الطير منها وانتجى^(٣).

تقسم الناس بها قسمين من

بين خلى قلبه ومصطبي^(٤).

إذا اجتتنى زهر الجمال وامق

فيها اجتتنى خلوا بها زهر الربى^(٥).

وكم أغانٍ كنظيم الدر في

تلك المغاني قد وشاها من وشى^(٦).

وكم حديث كثير الزهر في

تلك المباني قد حكاها من حكى

(١) نصيف: نقضي الصيف. ضفا الدوح: نما الشجر وكثر.

(٢) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى، مغتدي: مكان الغدو في الصباح.

(٣) انتجى: تناجى.

(٤) خلى: خال من الحب. مصطبي: محب مغرم.

(٥) وامق: محب. خلوا: خلى.

(٦) وشى: زين وزخرف.

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التي رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى في أنس موصول، والناس قسبان محب وقع في شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتني المحب أزهار حبه من النظر أو من القبل يجتني الخلى من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنها لا يقضون أياماً، بل يقضون أعياداً تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم في رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التي كانت تلتقي فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودع تلك الجنان ارتسمت في خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه في فلکها، متساقين فيها كئوس الأنس في حدائق، منتشين فيها بكؤوس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالاً عن لوحة مرسية. ويطيل في وصف حدائقها وأزهار من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخيري ورنجس وياسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغاني الشعب: شعب بوان التي تغني بها المتنبي، ويدعو لها بالسقيا ويندب جدها العائر وما عفا فيها وفي أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنها أراد بها صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنها يتخذ من حبها الذي ضاع رمزاً للأندلس الضائعة. ويلم بمديح المستنصر وكأنها استرد بإكرامه له شيئاً مما ضاع منه. ويتحدث في نحو مائتي بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقي فيها من المتاعب والمشاق

التي احتملها في جلد وصبر، ويفكر في شئون الحياة وفي نفسه وخصاله وتيسيل على
لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

ما أحدثتُ حادثةً لي روعةً ولا اعتَراني جَزَعٌ لما اعتَرَى
والعيشُ طَوْرًا مُشْتَهِيً مُسْتَمَرًّا وتارةً مُسْتَوْبِلٌ وَمُجْتَوَى
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرئ لا فرق بين الشيخ فيه والفتى
قد يُدرك الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ في طَلابها وقد تفوت مَنْ سَعَى
إنَّ احتياطَ المرءِ في أفعاله رأى يُؤدِّيه إلى سُبُلِ اهْدَى

ويطيل في الكلام عمن ضلوا نهج الرشد فكان في ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم
التاريخ الجاهلي من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعاً، وقصة زرقاء اليمامة
وتكذيب قومها لها حين حذرهم أن جيشاً قادمًا ولم يصدقوها فكان في ذلك حتقهم،
وقصة الزباء في حصنها وكانت أُمّ من عقاب في أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد
احتالت على جذيمة ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو
بن عدى، فدس لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمراً فوثقت به ووعداها أن
يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالاً في الجواليق أو
صناديق، وفتحت له الحصن وهي تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل
ولفتها أنها تمشي مثقلة كأنها تحمل حديدًا. ولم تنبه. وخرج الرجال من الجواليق
واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت

الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروي الأسطورة العربية ليين ما حدث فيها من تغرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وئيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وَعَرَّهَا جَدْعٌ قَصِيرٌ أَنْفَهُ فَأَمْنَتَهُ وَهُوَ مَرْهُوبُ الشَّدَا^(١).
وَأَوْقَرَ الْعَيْسَ رَجَالًا وَعَبَا بُوْسًا لَهَا وَأَبُوْسًا فِيهَا عَبَا^(٢).
وارتابَ في مَشْيِ الْجَمَالِ لِحْظَهَا ولم تَحَقِّقْ عِنْدَمَا قَالَتْ: عَسَى^(٣).
وما درتَ ما فوقها حتى غَدَتْ مُقْصَدَةً بِسَهْمِ دَهْيٍ مَا خَبَا^(٤).

ويتحدث عما تروي الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة في الجاهلية، وينصح بالحزم في الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عمن شبوا نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس في ثأر أبيه حجر. ويسوق أخباراً كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحاف وإيقاعه بتغلب في معركة البشر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

(١) الشدا: الحد، شبه قصيراً بالسيف القاطع.

(٢) أوقر العيس: حمل الإبل. عباً: هياً.

(٣) قالت عسى أي أنها شكت ولم تتحقق من شكها وربيتها ولا ظنت بعض الظنون.

(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

إِنَّ ثَوَاءَ الْمَرْءِ فِي أَوْطَانِهِ

عَزَّ وَمَا الْغُرْبَةُ إِلَّا كَالْتَّوَى^(١).

ويذكر طائفة من الجاهلين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنوا إليها حينما ملتاناً، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيراً ماعات دمرته تدميراً. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسد مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بغرساله نبيّ الهدى الذي أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وبفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للشوار، وعم طوفان فتنة انجلى عن ضياع حجوهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، واصبحت لسان الحال تملّ شجوها، وبكى كل ما هنالك وبكت حتى الأنهار بمدمع هام وأنت الوديان وبثت شكواها الثغور والمدن، وانتشرت الأندلس كحبات عقد في حجور نصارى الشمال، واحتوا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من براثن الإسبان منشداً.

ولو سَمَا خَلِيفَةُ اللَّهِ هَا

لَا فَتَكَّهَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَافْتَدَى

فَفِي ضِمَانِ سَعْدِهِ مِنْ فَتَحِهَا

دَيْنٌ عَلَى طَرَفِ الْعَوَالِي يُقْتَضَى^(٢).

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

فقد أشادت ألسنُ الحال به حَيَّ على اسْتِفْتاحها حَيَّ على
 أثأى العدا ما كان مرءوباً بها وهو الذي يُرَجى به رَأْبُ الثَّأْيِ^(١).
 ما زال يُملى المَلَوَانِ نَصْرُهُ وَسَيُفْهَ يَخْتَطُّ ما يُملى المَلَا^(٢).

ويمضي في استصراخه لإنقاذ الندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، ويهتف بهتاف المسلمين في كل أذان: "حَيَّ على" استفتاحها أي أقدم أقدم ويا خيل الله اركبي الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتئماً بها، وهو الذي يُرَجى به لَأْمُ ما انفتق، وإنه لمعود النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يملئها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلاً:

لا تَلْهُ في وجودك الأوَّلِ عن وَجُودِكَ الثَّانِي وَمَنْهَنْهُ مَنْ لَهَا^(٣).

(١) العوالي: الرماح.

(٢) أثأى العدا: أكثر من القتل فيهم والجراحات.. مرءوباً: ملتئماً. رَأْبُ الثَّأْيِ: إصلاح الصدع والفتق.

(٣) المَلَوَانِ: الليل والنهار. المَلَا هنا: الخلق الكريم.

(٤) مَنْهَنْهُ: أزعج.

ويقول إن للنفس وجهين: وجهًا يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجهًا يشدّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسنن السنة والاقتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله في فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصورته وما بذل فيها من جهد في تخير الألفاظ والمعاني، وهي - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تخلق القارئ بروعتها البيانية.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل:

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة، بل أيضًا في كل إقليم. ودائمًا الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هانئ بحبه وتارة شقي محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبتة أحس بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا في عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعًا ماديًا حسيًا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانًا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعني بتصوير متاعه المادي فيه تصويرًا مزريرًا وفرعًا ثانيًا عذريًا عفيفًا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبتة لمعاني الحب والوجد في ذاتها، لا لشيء حسي وراءها، وهو الفرع الذي تمتلئ به إعجابًا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثروا الحب

بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنها أصبح نارا في صدورهم لا يمكن إطفائها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيبهم من العذاب واجدين فيها متاعاً لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائماً الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذري والحب المادي يكتظ بهما الشعر الأندلسي ولأولهما دائماً الغلبة والرجحان، ونشعر كأننا أصبح الناس جميعاً شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء في ذلك أمراء البيت الأموي وحكامه أو أبناء الشعب عرباً وبربراً ومسألة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضي في جوارٍ غاضبته وهجرته^(١):

قُضِبَ من البان ما سَتَ فوق كُثبانٍ أعرَضَني وقد أزمَعَن هجراني
مَلَكَنِي مَلَكٌ من ذَلَّتْ عزائمه للحب ذَلَّ أسيرٍ موثِقٍ عانٍ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجواري، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهن متذللاً. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حباً، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش في الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله^(٢):

إذا ما بدت لي شمسُ النهارِ طالعةٌ ذكَّرتني طروباً

(١) انظر في مقطوعة البيتين الحلة السيرة ١/ ٥٠. والبيان المغرب لابن عذاري ٢/ ٧٩.

(٢) راجع في قصيدة هذه الأبيات الحلة السيرة ١/ ١١٤. والمغرب ١/ ٤٧ والبيان المغرب ٢/ ٨٥.

وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لَهَامًا مَهِيًّا^(١).

عَدَانِي عَنْكَ مَزَارُ الْعَدَا

مَلَأَتْ الْحَزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

سَمَوَتْ إِلَى الشَّرْكِ فِي جَحْفَلٍ

وقد استهل القصيدة بستة أبيات في الغزل بطروب ثم خلص إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلاً يدرع غبار القتال حتى استحالت نصرته وجهه شحوباً ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموي وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروباً في سبيل نصرته الدين الحنيف واستتصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموي في القرنين الثاني والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. ولمؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن^(٢):

بِقَلْبٍ بَيْنَ أَضْلَاعِي مُقِيمٍ

حُرْمَتُكَ مَا عَدَا نَظْرًا مُضِرًّا

مُخَلَّدَةٌ وَقَلْبِي فِي الْجَحِيمِ

فَعَيْنِي مِنْكَ مِنْ جَنَاتِ عَدْنٍ

والبيتان تلاعباً بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منهما غزلاً يعبر عن عاطفة حارة، وللقفاط الهجاء غزلٌ يُروى في ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله^(٣):

(١) لهاما: جيشاً كثيفاً.

(٢) المغرب ١/ ١٣٣.

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٣٠٢ ومرت في الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

يا غزالاً عن لي فابـ ستر قلبي ثم ولي
أنت مني بفؤادي يا منى نفسي أولى

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال في التصوير ورشاقة في التعبير كقوله^(١):

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقاً ورشاً بتعذيب القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله دراً يعودُ من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

والصورة متناسقة تناسقاً بديعاً فاللؤلؤ الأبيض تتخرج الحدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقاً أو ياقوتاً، والبصر يغرق في محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالاً وفتنة، والخصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر^(٢):

عجبت - وقد ودعتها - كيف لم وكيف انثنت بعد الوداع ידי معي

(١) النفح ٣/ ٥٦٤.

(٢) مغرب ١/ ١٨٧.

ويا كَبْدِي الحَرَّى عليها تَقْطَعِي

فيا مُقْلَتِي العَبْرِي عليها اسْكُبِي دَمًا

والبيتان يمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتهما سلسلة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادي وسنفرد له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجياني وقد زج به المستنصر في سجن ببلدته جيان لما رفع له من أنه هجاه، فسجنه ومات في سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحداثق الذي تحدثنا عنه في غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذري في الأندلس، كما يتضح في قوله^(١):

وما الشيطانُ فيها بالمطاع

وطائِعَةُ الوِصالِ عَفَفْتُ عنها

دياجي الليل سافرة القناع

بدت في الليل سافرة فباتت

إلى فتن القلوب بها دواع

وما من لحظة إلا وفيها

لأجرى في العفاف على طباعي

فملكْتُ النهى جمحات شوقى

فيمنعه الكعام من الرضاع^(٢).

وبتُّ بها مبيت السقب يظما

سوى نظير وشم من متاع

كذلك الروض ما فيه للمثلي

(١) أنظر في ترجمة أحمد بن فرج الجياني وشعره الحميدي ص ٩٧ والقلائد ص ٧٩ والبغية ص ١٤٠ والمغرب

٥٦/٢ والمطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٤/٢٣٦.

(٢) السقب: ولد الناقة. الكعام: ما يجعل على فمه لمنع من الرضاع.

ولست من السَّوائِم مُهْمَلَاتٍ

فاتخذ الرِّياض من المراعي^(١).

وابن فرج الجباني يصف لنا جمال صاحبتة الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحبه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفي كل حلقة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصماً بالعفاف المفطور عليه، يرد بعنف جمحات عواطفه وغرائزه، سامياً بنفسه عن عالم الحيوانية والغريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظماً والكعام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبتة النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلة في المراعي ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك في أن هذا التسامي اقترن بالحب والغزل في الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجباني عبر عنه في لوحة بديعة، وكأنها رسمه فيها وجسده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفي وزير الحكم المستنصر^(٢):

فتأملت عقدها هل تنائر

كلمتني فقلت: در سقيط

عقد در من التسم آخر

فازدهاها تبسم فأرتني

(١) السوائِم: الحيوانات المخلاة في المراعي.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر في جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة السيرة

١/ ٢٥٧ - ٢٦٧ والذخيرة ٤/ ٥٨ وما بعدها.

واستعارة الدر للكلام وللشعر قديمة، غير أن المصحفي عرف كيف يحورها ويعرضها عرضاً بديعاً، حتى ظن من حسن كلام صاحبه أنها تلفظ درراً حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وتموج المور وتضطرب اضطراباً شديداً، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: "ملك الثلاث الأنسات عناني" وفيها يقول المستعين^(١):

عجبا يهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي	وأهابُ لَحَظَ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وتملكتُ نفسي ثلاثاً كالدمى	زُهرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
فأبحنُ من قلبي الحمى وتركنني	في عزِّ مُلْكِي كالأسير العاني
لا تعذّلوا ملكاً تذلل للهوى	ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثانٍ

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنا المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك

(١) الذخيرة ١/٤٧.

به ابن عمه المستكفي. وكان المستظهر شاعراً وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله^(١):

غزالٌ براه الله من نورِ عَرشه
لَتَقْطِيعَ أنفاسي وليس من الإنس^(٢).
وهبت له مُلكي وروحي ومُهْجَتِي
ونَفْسِي ولا شيءٌ أعزَّ من النَّفسِ

وكثيرون من أبناء البيت الأموي تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعاراً مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري الذي أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله^(٣):

إذا رُمْتُ قَطَفَ الوَرْدِ ساورني
الصدغُ
بعقربٍ سَحَرٍ في فؤادي له لدغ^(٤).
غزالٌ بجسمي فَتْرَةً من جُفُونِهِ
زيارته أَخْفَى خَفَاءً من السُّهّا
وفي أَدْمَعِي من لونٍ وَجَّتَهُ صَبْغُ
ودون فراغي من محبته الْفَرغُ^(٥).

(١) الذخيرة ١/ ٥٧.

(٢) براه: خلقه.

(٣) الذخيرة ١/ ٤٧١.

(٤) ساوره: وثب عليه.

(٥) السها: نجم خفي. الفرغ هنا: الموت والملاك.

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من خدود صاحبتة ساوره أو وثب عليه ومنعه
عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته في فؤاده. وزعم أنها أعدت دموعه بلون خدودها
الوردية كما أعدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذر
عليه حتى لتصبح كأنها نجم السها الذي تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره،
وكان شعاراً بارعاً وكاتباً مبدعاً، وسترجم له بين الكتاب، ومن غزلياته قوله^(١):

ولما فشا بالدمع من سرٍّ وجدنا إلى كاشحين ما القلوب كواتم^(٢).
أمرنا بامساك الدُّموع جفوننا ليشجى - بما تطوي - عدول ولائم
فظلت دموع العين حيري كأنها خلال ما قينا لآلِ توائم

وتصويره لدموعه ودموع صاحبتة وإمساكها بها تترقق في جفونها ولا تسقط
بالآلى التوائم تصوير بديع.

وتتكاثر سيول الغزل في عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس،
ونجده متداولاً شائعاً على السنة جميع الأمراء والوزراء والشعر والفقهاء، وكأنه توائم
يضمونها جميعاً إلى صدوهم وفي مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين
الكتاب، وكان شاعر صا وله غزليات كثيرة منها قوله^(٣):

(١) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكي) طبع القاهرة ص ١٥٤.

(٢) الكاشحين جمع كاشح: العدو المبغض.

(٣) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكي) طبع دار المعارف ص ٩٢.

وددتُ بأن القلب شقَّ بمُدِيَّةٍ وأدخَلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلِّين غيره إلى مُقتَضَى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أمتُ سكنتُ شغاف القلب في ظلم القبر

وقوله متحولاً بمحبوبه، أو محبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية^(١):

أمنَ عالم الأملاك أنت أم أنسى أبني لي فقد أزرى بتمييزي العي
أرى هيئة إنسيَّة غير أنه إذا أعمل التفكير فالجرم علوي
عدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً نقيس عليه غير أنك مرئي
ولولا وقوع العين في الكون لم نقل سوى أنك العقل الرفيع الحقيقي

فهو لا يدري أحببه إنسي أم ملاك طاهر، ويحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوي، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذي لا يحده مكان حسي. ونلتقي بابن برد الأصغر، وسنخصه أيضاً بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعراً، وله غزل بديع مثل قوله^(٢):

لما بدأ في لازور دى الحرير وقد بهر

(١) طوق الحمامة ص ٢٥.

(٢) المغرب ١/ ٩٠.

كَبَّرْتُ مِنْ فَرَطِ الْجَمَالِ وقلْتُ: ما هذا بَشَرٌ
فأجابني: لا تُنْكِرَنَّ ثَوْبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبي جعفر الخولاني أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية: (١)

بَدْرٌ أَلَمْ وَبَدْرٌ التَّمُّ مُمْتَحِقٌ وَالْأَفْقُ مُحْلُولُكَ الْأَرْجَاءِ مِنْ حَسَدٍ (٢).

أَرَدْتُ تَوْسِيدَهُ خَدِّي وَقَلَّ لَهُ فَقَالَ: كَفُّكَ عِنْدِي أَفْضَلُ الْوَسَدِ
فَبَاتَ فِي حَرَمٍ لَا غَدَرَ يَذْعَرُهُ وَبِتَ ظَمَانٌ لَمْ أَصْدُرْ وَلَمْ أَرِدْ

فكانها بات بجوار صاحبتها في حرم مقدس ملتزماً للعفاف لا يتقع غلة حبه برى منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يرده ولا يصدر عنه، بل يكتفي بتكرار النظر للحدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعاً أخرى مماثلة في العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع في الأندلس - كما مر بنا في الشواهد السابقة، وكما يلي في شواهد مماثلة - هذا الغزل العذري أو الروحي السامي الذي تعد العفة مقومه الأساسي والذي يجري فيه

(١) الذخيرة ٢/ ١٣٦.

(٢) بدر التم: البدر في تمامه واكتماله. ممتحق. مختلف نوره. محلولك: شديد السواد.

هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيته حتى ليشرد لب المحب والمحوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفياً منها - وهي طوع يديه - بنظراته وكأنه في حلم - أو - كما يقول الخولاني - في حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسي العذري أو الروحي النقي تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسباني والفرنسي، وهو يتضح عند الإسبان أشد الوضوح في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦م) وهو يذكر في سطورها الأولى أنه يقصها عن عربي، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضي في قراءتها فنشعر كأنها تجسد في بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحي السامي الأندلسي، وهو يخرج في حبه عن طوره ويصبيه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلاً في إسبانيا مقتحماً في أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملاً في رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هي مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحي الأندلسي عند الإسبان في قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور في القرن الثاني عشر الميلادي، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقفال والقوافي مع الموشحات الأندلسية^(١)، وأيضاً فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسي العفيف في المضمون: في عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام

(١) انظر الدكتور مكي في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.

المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضاً فيما يجري في هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحياناً وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مقاناً^(١):

كشاحية البرد أو كالردا	لمن طلل دارس باللوى
ورسم كجسم براه الهوى	رماد ونوى ككحل العروس
وراح مراحا لسرب المها	غدا موسماً لوفود البلى
من السدر أتي إلى اهتدى	عجبت لطيف خيال سرى
وجوز البحار وسدر المنى	وكيف تجاوز جوز الحجاز
وبحر الدموع وريح النوى	ولم يثنه حر نار الضلوع
وليلتنا بهضاب الحمى	فذكر أيامنا بالعقيق

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صوراً وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه في عين المحب الواله الرداء المعلم أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحاً لبقر الوحش مثل امرئ القيس في مطلع معلقته فقد جعله أيضاً موسماً لوفود البلى، وأيضاً لم يكتف في ذكر

(١) الذخيرة ٢/ ٧٨٨.

المواضع بموضع شجر السدر في حمى صاحبتة، فقد أضاف إليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جو بوادي الحجاز وحبها العذري الملتاع، وصوره مضطرباً في حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تشنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النوى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسي بروح الغزل العذري الظامئ المتلهف أبداً. ويقول محمد بن البين وزير يحيى الوالي على يابرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) في إحدى قصائده^(١):

غَضَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَّمُوهُ خُدُودًا	وَاسْتَوْهَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودًا
وَرَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ مَحْلِهِمْ	فَاسْتَبَدَّلُوا مِنْهُ النُّجُومَ عُقُودًا
وَاسْتَوْدَعُوا حَدَقَ الْمَهَا أَجْفَانَهُمْ	فَسَبَّوْا بِهِنَّ ضَرَاغِمًا وَأَسُودًا
لَمْ يَكْفِ أَنْ سَلَبُوا الْأَسِنَّةَ وَالظُّبَا	حَتَّى اسْتَعَانُوا أَعْيُنًا وَنُهُودًا
وَتَصَافَرُوا بِضَفَائِرٍ أَبَدُوا لَنَا	ضَوْءَ النَّهَارِ بَلِيَّهَا مَعْقُودًا

وهي قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهي مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسي مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما في القطعة من صور طالما كرهه العرب في غزلياتهم، فقالوا إن الحدود مشرقة كالصباح، والقُدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبي الضراغم

(١) الذخيرة ٢/ ٨٠٢ والمغرب ١/ ٣٧٠.

والأسود، وكأنها الأعين والنهود أسنة وظبا سيوف، وكأنها الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقاً أندلسياً جديداً، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفرده له ترجمة مع صاحبتة ولادة.

ونلتقي بابن الحداد الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام في ترجمته^(١). له: "كان قد منى في صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نويرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمن أحبوه".. وكان اسمها الحقيقي جميلة" وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيراً لكلمة "نار" التي أشعلها حبها في قلبه" وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مراراً لعقيدة التثليث المسيحية وللقدس والصلوات في الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفال بعيد فصح في إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكاً بمصباح وعصاً ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - في الحسنات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول^(٢):

تحت غَمَامَاتِ اللَّثَامَاتِ

وَلَمَحُّهَا يُضْرِمُ لَوْعَاتِي

الشمسُ شمسُ الحسنِ من بينهم

وَنَاطِرِي مَخْتَلِسٌ لَمَحُّهَا

(١) الذخيرة ١/ ٦٩١ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ١/ ٧٠٥.

عَلَّقَتْهَا مِنْذُ سَنِيَّاتٍ

وَفِي الْحِشَا نَارٌ نُورِيَّةٌ

بَلْ تَلْتَظِي فِي كُلِّ أَوْقَاتِي

لَا تَنْطَفِي وَقْتًا وَكَمْ رُمْتُهَا

وفي ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات في البيت الأول ما قد يشير على أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائماً في أشعاره لها لا يراها إلا في الكنائس وبين القسس في أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا في صباه كما يقول ابن بسام - أو في بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

وكان في هذا العصر كثيرات من الحرائر والجواري يحسن نظم الشعر، إذ كان الالباب - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا في غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجواري، وكانت تستيقظ في أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية "العبادية"^(١) التي أهداها أميرها مجاهد العامري إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أدبية ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ

تَنَامُ وَمُدْنَفَهَا يَسْهَرُ

(١) انظر في العبادية والخير المذكور عنها نفح الطيب ٤/ ٢٨٣.

فأجابته بديهة بقولها:

سيهلك وَجَدًا وَلَا يَشْعُرُ

لئن دام هذا، وهذا به

وكانت لا تقل عنها إجابة للشعر مع سرعة البديهة "اعتماد"^(١) الملقبة بالرميكية زوجة المعتمد ابنه، وهي إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أن ركب نهر إشبيلية في نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زرد الدرع: فقال المعتمد لابن عمار: أجز.

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدًا

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديته، فقالت فتاة من الغسالات على حافة النهر:

أَيَّ دِرْعٍ لِقَاتِلٍ لَوْ جَمَدُ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذي صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر ابنابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهي أم أولاده النجباء: الراضي وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى

(١) راجع في اعتماد الرميكية النفح ٢١١/٤.

شاكلة الرميكية والعبادية "غاية" المنى "جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت
قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟
قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزي:

سَلْ هَوَى غَايَةِ الْمَنَى

فقالت بديهية:

مَنْ كَسَى جِسْمِي الضَّنَا

سيقول الهوى أنا

وأراني مدللها

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم^(١) الكرم، وكان أبوها
المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبت
— كما يقول ابن سعيد — الفتى المشهور بالسمار، وأنشد لها:

يَنْزَعُ عَنْهَا سَمْعُ كُلِّ مُرَاقِبٍ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سَبِيلٌ لَخُلُوةٍ

وَمَثْوَاهُ مَا بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ

وَيَا عَجَبًا أَشْتَاقُ خُلُوةً مِنْ غَدَا

(١) انظر في غاية المنى القسم الثاني من السفر الثامن للمراكشي ص ٤٨٨ وما بعدها.

(٢) راجع في أم الكرم المغرب ٢٠٢/٢ وما بعدها.

والصورة في البيت الثاني تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضًا نظم الموشحات.

ونمضي إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرصا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التطيلي^(١):

أريقُ ثَغْرِكَ أم بنتُ الزَّراجينِ	وَعَرَفُ نَشْرِكَ أم مسكٌ لِدَارينِ ^(٢) .
جسمٌ بَرَّاهِ الإلهُ حينَ صَوَّرَهُ	من ماءِ لَوْلُؤَةٍ والنَّاسُ من طينِ
وحاشَ لله أنْ يُعْزَى إلى بَشَرٍ	أو أنْ يضافَ حُسْنُ الخَرْدِ العِينِ ^(٣) .
يُديرُ لي مُقَلًّا مَرَضِي بلا سَقَمٍ	يُمِيتُنِي تارَةً فيها وَيُحْيِينِي
كم زَفْرَةٍ تستعيرُ النارُ وَقَدَّتْهَا	ولوعةٌ طَيَّ أضلاعي تناجيني

وهو يقرن ريق صاحبه إلى الخمر ورائحتها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأً لسفن الهند على الخليج العربي كانت تحمل إليه أنواع المسك والطيب، طالما اشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبه ملاكا صوره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة إشادة بجهاها الخلاب الذي لا يقاس به - ولا يمكن أن يقرن به - جمال الخرد العين أو

(١) الديوان ص ٢١١.

(٢) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية الطيبة.

(٣) الخرد جمع خريدة: الحسناء. العين جمع عيناء: واسعة العين الفاتنة.

الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر في حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة وتكتظ أضلاعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة، ولابن عبدون^(١).

وما أَنَسَ لَيْلَتَنَا وَالْعِنا
إلى أن تقوَسَ ظَهْرُ الظلامِ
ومسَّ رداءَ رقيقِ النَّسيمِ
قُ قد مَزَجَ الكلَّ منا بَكلِّ
وأشْمَطَ عارضُه واكْتَهَلَ^(٢).
على عاتقِ الفَجْرِ بعضُ البَلَلِ

وقد صَوَّرَ هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلَّت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خده شيئا. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجوفى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقاً على منكب الفجر مسَّ بعض البَلَل، وهي صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة في وصف صاحبة له^(٣):

غزاليَّةُ الأَلفاظِ رَيمِيَّةُ الطَّلِي
مَدَامِيَّةُ الأَلَمِي حَبَابِيَّةُ الثَّغَرِ^(٤).

(١) الذخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ١/٣٧٥.

(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.

(٣) الديوان ص ٢٤.

(٤) الريم: الطبي خالص البياض. الطلي: العنق المدام: الخمر. الألمي: الشفة تضرب خفيفاً إلى السمرة. الحباب: الفقاقيع على وجه الكأس.

كما اشتبكت زُهرُ النجوم على البدر^(١).

ترنح في موشية ذهبية

فمن لؤلؤ نظم ومن لؤلؤ نثر

تلاقي نسيبي في هواها وأدمعي

رداء عناق مزقته يد الفجر

وقد خلعت ليلاً علينا يد الهوى

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبه مثل الغزال في سحر عيونه والطبي في طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فمبسّم دنّ خري، وأما ثغرها فعلى حفافيه حباب هذا الدنّ المسكر، ومن حولها وشى ثوبها الذهبي يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - في البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبه رداء غريباً، هو رداء العناق، ويأسي لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيداناً بالوداع. ويقول يحيى^(٢). بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

بين العذيب وبين شطيّ بارق^(٣).

بأبي غزال غازلته مقلتي

فأجاني فيها بوعد صادق^(٤).

وسألت منه قبلة تشفى الجوى

(١) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.

(٢) الذخيرة ٢/٦٣٦ والمغرب ٢/٢١.

(٣) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما ينجد.

(٤) الجوى. الوجد.

بَنَّا وَنَحْنُ مِنَ الدُّجَى فِي لُجَّةٍ وَمِنَ النُّجُومِ الزُّهْرُ تَحْتَ سُرَادِقِ
 حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكَرَى زَحَزَحَتْهُ شَيْئًا وَكَانَ مُعَانِقِي^(١).
 بَاعَدَتْهُ عَنْ أَضْلَعِ تَشْتَاقِهِ كَيْلًا يَنَامُ عَلَى وَسَادِ خَافِقِ

وهو يتخيل أنه لقي صاحبه بين موضعين من المواضع التي طالما لقي فيها شعراء الغال العربي محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدت له في الوصال واللقاء، وأنها باتت معه في ليلة تحت سرادق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقده أجفانها دفعه حنوه عليها إلى أن يزحزحها قليلاً عن صدره الذي توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وساد خافق بحبها نابض نبضاً شديداً. ويقول ابن باجة المتفلسف^(٢):

هَمْ رَحَلُوا يَوْمَ الْخَمِيسِ غُدِيَّةً فَوَدَّعَتْهُمْ لَمَّا اسْتَقَلُّوا وَوَدَّعُوا^(٣).
 وَلَمَّا تَوَلَّوْا وَلَّتْ النَّفْسُ إِثْرَهُمْ فَقُلْتُ: ارْجِعِي قَالَتْ إِلَى أَيْنَ أَرْجِعُ
 وَلِي جَسَدٌ مَا فِيهِ لَحْمٌ وَلَا دَمٌ وَلَا هُوَ إِلَّا أَعْظَمُ تَتَقَعَّقُ^(٤).
 وَعَيْنَانِ قَدْ أَعْمَاهُمَا كَثْرَةُ الْبُكَاءِ وَأُذُنٌ عَصَتْ عَذَّالَهَا لَيْسَ تَسْمَعُ

(١) الكرى: النوم.

(٢) الخريدة ٢/ ٣٣٣.

(٣) استقلوا: رحلوا.

(٤) تتققع: تتحرك مع صوت.

وهو يقول إن صاحبه وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحاً فودعوه وودعهم ورحلت نفسه في إثرهم، وعبثاً يدعوها إلى الرجوع وهي تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدي ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظماً فوق أعظم. وحين تتحرك أي حركة تسمع قعقععتها وأصواتها، فقد صار جلداً على عظم كما يقولون، وأبيضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللاتي أظلهن عصر المرابطين ولحقن - في أغلب الظن - عصر الموحدين نزهون وحمدة الغرناطيتان، أما نزهون^(١) فيقول ابن الأبار أحسب أن أباهما محمد بن أحمد الملقب بالقليعي قاضي غرناطة إلى أن توفي سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها في الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومي الذي مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادر مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الكتندي الشاعر الغرناطي دخل يوماً مجلساً كانت تقرأ فيه بعض الشعراء على المخزومي فقال له - وكان أعمى - أجز:

(١) أنظر في نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١/ ١٢١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكرراً والذيل والتكملة للمراكشي (القسم الثاني من السفر الثامن، نشر بنشريفه بالمغرب ص ٤٩٣ والبيغة ص ٥٣٠ والنفع ٤/ ٢٩٥ والأحاطة وانظر ١/ ٤٢٤، ٣/ ٣٤٤ وراجع في أبيتها التكملة رقم ٥١٥.

لو كنت تبصر من تكلمه

فأفحم الأعمى ولم تسعفه بديته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها في سرعة خاطفة.

لغدوت أخرس من خلاخيه

البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح في غلائله

ويروي أنه لقيها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بني إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا في حديثنا عن المخزومي بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألقت به حجراً أخرسه. وأما حمدة^(١) فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقى رباها هي وأختها زينب تربية فاضلة تثقفاً فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحستنا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة في التكملة وفي التحفة ويقول: من أهل مدينة وادي آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتطرفات العفيفات، وفي كتاب المغرب

(١) راجع في ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادري رقم ١٠٠ والتكملة رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ واليل والتكملة للمراكشي ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفح الطيب

أنها حسناء المغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرئ عن ابن سعيد أنها هي وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر في مدينة وادي آش، وهو يجري بين بساتين ورياض، ولما خلعن ثيابهن ونظرت إلى صاحبه لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن في النهر سابحات متلاعبات قالت في محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أسرارِي بوادي	له في الحسن آثارٌ بوادي ^(١) .
فمن نهرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ	ومن روضٍ يرفُّ بكلِّ وادي
ومن بين الظباءِ مَهْأَةٌ إنْسٍ	لها لَبَى وقد سلبتُ فؤادي ^(٢) .
لها لَحْظٌ ترقدهُ لَأْمَرٍ	وذاك الأمرُ يمنعني رُقادي
إذا سَدَلَتْ ذوائبها عليها	رأيت البدرَ في جُنْحِ الدَّآدي ^(٣) .
كَأَنَّ البدر مات له شقيقٌ	فمن حَزْنٍ تَسْرُبُ بالسَّوادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كان صاحبها في منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة في النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورد عبقة بالرياحين، وصاحبها التي خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها في المياه، ولطالما

(١) بوادي الأخيرة: ظاهرة.

(٢) المهأة: بقرة الوحش واسعة العينين.

(٣) الدَّآدي: الليالي الأخيرة في الشهر القمري، وهي حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.

سهرت الليالي تفكر في سحر عينيها، وما هي تسدل أحياناً ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنها ترى قمر صا يطل في جنح الليالي الخالكة أو كأنها مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب^(١).

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنُّوا على أسماعنا كل غارة وقلُّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مُقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والماء والنار

وواضح ما في البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسييل والنار، وهي مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير في الشعر العربي من قديمين ومنه أمثلة كثيرة في الشعر الأندلسي قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية في عصر الموحدين، ويلقانا في صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهي مقامة غزلية، ولذلك تتضمن بعض مقطوعات في الغزل، ومن أروعها قوله^(٢):

أنكرتُ إلا سقامَ طَرْفٍ وأيُّ سيفٍ بلا ذُبابٍ^(٣).

(١) نفح ٢٠٨/٣ وفي المغرب أن الأبيات لأختها حمدة.

(٢) مغرب ٣٤٥/١.

(٣) ذباب السيف: حده القاطع.

من دَمْعِ العين في حِجابٍ

من دَمْعِ عَيْنِي وانتحابي^(١).

إن أنا لاحظته تَوَارَى

أَبْصَرْتُهُ جَدولاً وُورَقاً

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول في الشعر العربي من قديم، ولكن تفرق الدمع في عينيه بالبيت الثاني حتى لتصبح حجاباً بينه وبين رؤية صاحبه تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديماً، وإن كان قد أخرجهما إخراجاً طريفاً. والغزل في الأندلس يتشابك بقوة مع الغزل العربي الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا في غزلية لمتفلسف الأندلس أبي بكر محمد بن طفيل الذي تحدثنا عنه في نشاطها الفلسفي، إذ يستهلها على هذا النمط^(٢):

وَأَسْرَتْ إِلَى وادي العَقِيقِ من

الْحِمَى^(٣).

أَلَمْتُ وَقَدْ نَامَ الرَّقِيبُ وَهَوَّما

وَجَرَّتْ عَلَى تُرْبِ الْمُحَصَّبِ ذَيْلُهَا

فَمَا زَالَ ذَاكَ التُّرْبُ مَهَبًا مَقْسَمًا^(٤).

(١) ورق جمع أوراق: ما لونه رمادي من الحمام.

(٢) مغرب ٨٥ / ٢ والمعجب ص ٣١٦ ونخفة القادم رقم ٤٣.

(٣) هوم: مال رأسه في النعاس. أسرت: سارت ليلاً. وادي العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف ونجد.

(٤) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى.

تَنَاقَلَهُ أَيْدِي التَّجَارِ لَطِيمَةً

وَيَحْمِلُهُ الدَّارِيُّ أَيَّانَ يَمَمًا^(١).

وَلَمَّا رَأَتْ أَنْ لَا ظِلَامَ يُجْنِيهَا

وَأَنْ سَرَاهَا فِيهِ لَنْ يُتَكَنَّهَا^(٢).

أَزَاحَتْ غَمَامَ الْعَصَبِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا

فَأَبْدَتْ شُعَاعًا يُرْجِعُ الصُّبْحَ مَظْلَمًا^(٣).

فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَاهَا

كَشَمْسِ الضُّحَى يَعْشَى بِهَا الطَّرْفُ
سَاهِمًا

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسي لظنناه أمويًا من شعراء نجد العذريين أو عباسيًا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبي تمام متخذين منها رموزًا لإسباغ العذرية والعفاف الملتاع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسي بدوره يتخذ تلك العناصر رموزًا تصور كيف أن جذوة الحب العذري الطاهر لا تزال متقدة في نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادي العقيق ومن مكة المحصب، وجعل التراب الذي يمر عليه ذيل ثوب صاحبتة مسكا، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولمعت في ذهنه ذكرى العطار الذي ذكره الغزلون القدماء مرارًا في مثل قول الشاعر العربي القديم متحدثًا عن ولع صاحبتة بالمسك والتعطر به:

(١) اللطيمة: وعاء المسك. الداري: العطار نسبة إلى دارين: فرضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديمًا المسك من

الهند. يمم: قصد.

(٢) يجنيها: يسترها، سراها: سيرها ليلاً.

(٣) العصب: العصابة على الرأس وطرف الوجه. حر ظاهر.

من المسك راحت في مفارقتها
تجري^(١).

إذا التاجر الداري جاء بفارة

ويفضي إلى الحديث عن جمال صاحبه الذي بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس في الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلمًا بالقياس إلى ضوئها، ولعله في ذلك نظر إلى قول أبي تمام:

بيضاء تسرى في الظلام فيكتسي
نورًا وتمشي في الضياء فيظلم

وما يلبث ابن طفيل أن يلحق في خياله، إذ يتصور جمال صاحبه حجابًا لها يعشى الناظرين فيدعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا أنفًا عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبه حفصة الركونية. وملتقي في مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثرء هو ابن أبي روح، وله يصف ليلة^(٢). قضاها مع صاحبه في متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادي العسل لحلاوته^(٣). كما يقول ابن سعيد:

(١) فارة المسك: وعاءه. الداري: العطار.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضي طبع القاهرة) ص ٥٤.

(٣) المغرب ١ / ٣٢٠ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه الجارية والبساتين النضرة، ونهرها يعرف بوادي العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر في نهاية

عَرَجَ بَوَادِي الْعَسَلِ وَقَفَ عَلَيْهِ وَاسْأَلِ
 عَنْ لَيْلَةٍ قَطَعْتُهَا صُحْبًا بِرَغَمِ الْعُدْلِ
 أَرُشِفَ خَمَرَ الرِّيقِ أَوْ أَقْطِفُ وَرْدَ الْخُجَلِ
 وَقَدْ تَعَانَقْنَا اعْتِنَاقَ الْقُضْبِ فَوْقَ الْجَدُولِ^(١).

وَالشَّمْعُ فِي دِرْعِ الْغَدِيرِ كَعَوَالِي الْأَسْلِ^(٢).

بِتَنَا إِلَى أَنْ حَثَّنَا إِلَى النَّوْيِ بِرْدُ الْحَلِيِّ

وابن أبي روح يتمثل في البيت الأخير من المقطوعة ما جاء في كتاب الأملالي من أن عربية سئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلي. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاها مع صاحبه متعانقين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معاً من زهرات حبهما، وكأنها كانت ليلة من ليالي العرس، فالشموع متقدمة متألئة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدثه الرياح فيه من غصون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة^(٣):

وَوَاعَدْتُهَا وَالشَّمْسُ تَجَنَّحُ لِلنَّوْيِ بِزَوْرَتِهَا لَيْلًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِي

من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.

(١) القضب: الغصون.

(٢) الأسل: الرماح: عواليها: أطرافها القاطعة.

(٣) النفح ١٩٩/٣.

فجاءتُ كما يمشي سنا الصُّبح في
الدُّجى

فعطرتِ الآفاق حولي فأشعرتُ

فتابعتُ بالتقبيل آثارَ سَعِيها

فبِتُّ بها والليلُ قد نام والهوى

أعانقُها طوراً وألثمُ تارةً

ففضتُ عقوداً للتعانق بيننا

وطوراً كما مرَّ النسيمُ على النَّهرِ

بمقدمِها والعرفُ يشعرُ بالزَّهر^(١).

كما يتقصَّى قارئُ أحرفِ السَّطرِ

تنبّه بين الغصنِ والحقفِ والبدر^(٢).

إلى أن دعنا للنوى رايةَ الفجرِ

فيا ليلةَ القدرِ اتركي ساعةَ النَّفْرِ

والمعاني والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذي يحبى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنها استحال الثرى تحت أقدامها طيباً ذكي الرائحة وهو ما يني يقبل مواضع خطوها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنها كانت ليلة القدر الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنتها عن الكون، حتى يؤجل الوداع ولو إلى حين.

(١) العرف: الرائحة العطرة.

(٢) الحقف: الكتيب من الرمل.

ونلتقي بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكماله الأربعين صاحب كتاب زاد
المسافر في شعراء زمانه المتردد ذكره في الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا
بديعاً^(١):

يا حُسْنَهُ والحُسْنَ بعض صفاته	والسَّحَرُ مقصورٌ على حركاته
بَدْرٌ لو أَنَّ البدرَ قيل له: اقترحْ	أَمْلاً لِقَالِ أَكُونُ مِنْ هَالَاتِهِ
صاحبتهُ واللَّيْلُ يُذَكِّي تحته	نَارَيْنِ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ وَجَنَاتِهِ ^(٢) .
وَضَمَمَتُهُ ضَمَّ الْبَخِيلِ لِمَالِهِ	أَخْنُو عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ
أَوْثَقْتُهُ فِي سَاعِدِي كَأَنَّهُ	ظَبْيٌ أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ فَلَتَاتِهِ
وَأَبَى عَفَافِي أَنْ أَقْبَلَ ثَغْرَهُ	وَالْقَلْبُ مَطْوِيٌّ عَلَى جَمَرَاتِهِ
فَأَعْجَبَ لِلْمَتَهَبِ الْجَوَانِحِ غُلَّةً	يَشْكُو الظَّأِ وَالْمَاءُ فِي هَوَاتِهِ ^(٣) .

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جداً خلَّب لبه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن
يكون من هالات جماها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد
في جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمونها إلى صدره ويعف عن تقبيلهما،
وهي طوع يديه، وهو ظامئ غلته. وعلى هذا النحو يردنا غزلون أندلسيون إلى نجد

(١) انظر في ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢/ ٢٦٠ ورايات المبرزين ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة
رقم ٥٢ الإحاطة ٣/ ٣٤٩ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محداد.

(٢) يذكي: يضرم ويوقد.

(٣) هوات جمع لهة: أعلى الحلق.

وغزلها العذري عند مجنون ليلى وأضرابه بمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها البديعة على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. وملتقي في عهد الناصر الموحي (٥٩٥ - ٦١٠هـ) بشاعره أحمد بن شطرية الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه، ومن غزله الطريف^(١):

وَجَلَّ اللَّيْلُ بِغُرِّهِ	سَرَّ الصُّبْحُ بِطُرِّهِ
لَّ فُؤَادٍ مِنْهُ جَمْرُهُ	كَعْبَةٌ لِلْحُسْنِ فِي ك-
اَكِهِ إِذْ حَلَّ شَعْرُهُ ^(٢) .	جاءني كالظَّبْيِ فِي أَشْر-
بعد ما خَلَفَ نَشْرُهُ ^(٣) .	وَمَضَى عَنِّي وَلَكِنْ
	ويقول على بن حريق ^(٤) :
حَتَّى اكْتَسَى بِالْعَسَجِدِ الْوَرِقُ	كَلَّمْتُهُ فاصْفَرَّ مِنْ خَجَلٍ
فابى وقال: أَخَافُ أَحْتَرِقُ	وَسَأَلْتَهُ تَقْيِيلَ وَجَنَّتِهِ
إِنْ الشَّقِيَّ بِرَيْقِهِ شَرِقُ	حَتَّى زَفِيرِي عَاقَ عَنْ أَمَلِي

(١) انظر المغرب ١/ ١٤٠.

(٢) أشراك جمع شرك: حباله الصائد.

(٣) نشره: عطره.

(٤) المغرب ٢/ ٣١٩.

وهو يشبه صفرة الخجل التي كست خد صاحبتة بالعسجد أو الذهب ووجتها بالورق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبتة خشيت لو قبلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقي بريقه شَرِقْ أو غاصَّ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحدين سهل بن مالك الذي مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلاً^(١):

ولما بدا ضوء الصَّباح رأيتها
تنقُضُ رَشَحَ الطَّلِّ عن ناعمِ
صَلَّتْ^(٢).

فقلتُ: أخاف الشمسَ تفضح سِرَّنا
فقلتُ: معاذَ الله تفضحني أختي

وسهل يتصور صاحبتة زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضيء في الصباح ندى العرق، ويخوفها من إذاعة الشمس لسرهما، وتطمئننه، فهي أختها ولن تذيع لها سرّاً. ويقول ابن سعيد^(٣). صاحب كتاب المغرب المبثوث في الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس^(٤):

وهبتُ فؤادي للمباسم والحدق
وحكمتُ في جفني المدامع والأرق
ولم أستطع إلا الوفاء لغادر
ويا ليتني لما وفيت له رفق

(١) رايات المبرزين ص ٨٦.

(٢) الجبين الصلت: الجبين الوضيء المشرق.

(٣) انظر مصادر ترجمة ابن سعيد بين المؤرخين في الفصل الثاني.

(٤) المغرب ١٧٨/٢

ومن أجله قد رُقَّ جسمي صَبَابَةً ويا لَيْتَهُ لما رَأَى عليه رُقٌّ

ومنذ أواسط القرن السابع الهجري - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشعر أن نبع الغزل الذي كان متدفقاً في بلدان الأندلس أخذ يغيض وتغيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنها واحدة إثر أخرى في حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التي ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الرأسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفجع ملبد بالغيوم. وطبيعي أن يعم الغزل في تلك الإمارة غير قليل من التكلفة وأن يصاح كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرها من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شيء من الوجد، ونشعر دائماً عندهم بغير قليل من التصنع وأنهم يبدئون ويعيدون في خواطر الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى في الكلمة التي سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما في قصيدة لابن جزي من وجد قائلاً إنها من الغراميات التي سلك فيها مسلك مجنون ليل، وربما كان أجمل ما فيها قوله: (١).

لعل فؤادي من جَوَاهِ يُفِيقُ

تباعدت لما زادني القُرْبُ لوعةً

وليس إلى وَصْلِ الحبيب طَرِيقُ

ولا سلوة تُرَجَى ولا الصبرُ ممكِنُ

وشوقُ نطاقِ الصبرِ عنه يَضِيقُ

شجونُ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَرَاتِهَا

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب ص ٢٢٥.

فيا غائباً عن ناظريّ أما يرى لشمسك من بعد الغروب شروق

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلي من أصحاب الحب العذري، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتقد في أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل في الغزل من زخارف البديع وكأنها أصبحت هي - لا الغزل ووجد المحب - الغاية في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى في قول ابن جوى^(١):

أَبَحْ لِي يَا رَوْضَ المحاسن نظرةً إلى وَرْدِ ذَاكَ الحَدِّ كُنْتُ لَكَ الفِدَا
وبالله لَا تَبْخُلْ عَلَى بَقْطَفَةٍ فَإِنِّي عهدتُ الروضَ يوصفُ بالنَّدَى

وليس المراد بالندي المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - في الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويموج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له في الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وطلع والجرعاء والعذيب والرقمتين والغزال والريم والقباب والخيام والإبل المودعة. وحقاً هذا كله يطبع به الغزلون الأندلسيون أشعارهم

(١) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

وصلا محكمًا لها بالشعر العذري ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحي متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضا ما عندهما من صفاء التعبير وعوبته، ومن أجمل ما نقرأ له في غزلياته قوله:

هل البان يحكي من معاطفك القدا	أو الورد في توريده يشبه الحدا
لقد أخطأ التشبيه من حسب السها	يقاوم في آفاقه القمر السعدا
وهل حلي ليلي نظير وإن هم	يظنون منها الثغر قد أشبه العقد
هي الغاية القصوى محاسن لم تجد	شبيها لها في الغانيات ولا ندا

وهو يريد أن يقول إن قد ليلي أرشق من قد البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومثل أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذي لا يكاد يبين سناه بالقياس إلى ضوء البدر الذي يملأ الآفاق نوره، وثغرها في بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتألثة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا في أخيلة بديعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها في صور من الاستفهام واقترانها بالحسبان والظن.

ولعله يحسن بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادي، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرمادي^(١) الكندي:

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندي المعروف بالرمادي، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب في زمنه، يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندي في الجاهية والمتنبي والرمادي القرطبي الكنديين. أما لقبه الرمادي فيقول ابن بشكوال في الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هي: "أبو جنيس" ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مر في كنيات وألقاب شعراء آخرين مثل البليئة أي الحوت. وقال ابن سعيد في المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب في الجنوب الغربي للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلاً لكنية: "أبي جنيس" الإسبانية أو الرومانشية ل قيل: "أبو الرماد" لا الرمادي. وقد تتلمذ لأبي على القالي وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمال، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميراً من بني ذي النون الطليطيين. وأخذ يشتهر في الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان في المطمح إنه: شاعت عنه أشعار في دولة الحكم ورجاها سدد إليهم سهاماً فأوغرت عليه الصدور، وسجنه

(١) انظر في ترجمة الرمادي وشعره الجذوة ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبغية ص ٤٧٨ والصلة ص ٦١٣ والمغرب ١/ ٣٩٢ والمطرب لابن دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٧/ ٢٢٥ واليتيمة ٢/ ١٤، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٠/ ٦٢ والذخيرة ١/ ٣٢٢ و٢/ ١٤١ و٣/ ٣٤٦، ٨٢١ و٤/ ١٢٠ وانظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٥٥.

الحكم دهرًا، ثم ردت إليه حرите بعد وفاته، وفي سجنه ألف كتابًا عن الطير ختم كل حديث له في طائر بأبيات في مديح الحكم ولكنها لم تلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمر في جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادي قصيدة يتوجع فيها متألمًا لشاربيها. وفي أشعاره بعض خمریات وبعض غزل في الغلمان ولا ندري أكان ينظم في ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبي نواس وأضرابه من المشاركة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته في السقاة بمثل قوله:

فَتَحَّتِ الْجَنَّةُ مِنْ جَبِيهِ

فَبِتُّ فِي دَعْوَةِ رِضْوَانٍ^(١).

مَرُوءَةٌ فِي الْحَبِّ تَنْهِي بَأْنَ

يُجَاهِرُ اللَّهَ بَعْصِيَانِ

وقوله:

وَمَا بِي فَخَرٌ بِالْفَجُورِ وَإِنَّمَا

نَصِيبُ فُجُورِي الرَّشْفُ وَالشَّفَتَانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنًا. ويقال غنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبي عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شيء من مدائحه لهما، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبي عامر إذ توفي سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجدوة والمغرب واليتيمة للشعالبي تحتفظ جميعًا بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البين في مثل قوله:

هُوَ ظَالِمِي لَكِنْ أَرْقُ عَلَيْهِ

مَنْ أَنْ أَجِيلَ اللَّحْظِ فِي خَدَّيْهِ

(١) جيب الثوب: فتحته العليا.

أَعْفَيْتُ رِقَّةً وَجَنَّتِيهِ مِنْ أَدَى عَيْنِي وَمَا أَعْفَيْتُ مِنْ عَيْنِيهِ

ومع ما يحمل البیتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على حدود صاحبه من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية في غزله، وهي البعد في التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالحدود، ولعله يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذي يلم بصاحبه فتحمر وجنتها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدي في الجذوة من قوله:

غَدًا يَرَحْلُونَ فَيَا يَوْمُ رَسَلْ—	لَكَ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءُ اللَّحَاقِ ^(١) .
وَيَا دَمْعَ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ	وَأَفْرَغْ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَآقِي ^(٢) .
وَيَا نَفْسِي جِئْتُهُمْ مِنْ أَمَامِ	وَقَابِلُهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ
وَيَا هَمَّ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظَلَامًا	وَقَيِّدْهُمْ عَنْ نَوَى وَانْطِلَاقِ
وَيَا لَيْلٍ مِنْ بَعْدِ ذَا إِنْ ظَفِرَتْ	بِالصَّبْحِ فَاقْذِفْ بِهِ فِي وَثَاقِ

فصاحبه سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث في مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم

(١) رسلك: تمهل.

(٢) نجيع: دم.. مؤق العين: طرفها من جهة الأنف، وهو مجرى الدمع.

القاني، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نفسه الحار بالحب وشراره أن يلفح
الركب بلهيه المشتعل حتى لا يستطيع مسيراً، وبالمثل يتجه إلى هموم نفسه مبالغاً في
وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلاقاً، وحتى الليل
يبالغ في وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق.
وكل ذلك إغراق في الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

على كمدى تَهْمِي السحابُ وتَذْرِفُ ومن شَجْنِي تَبْكِي الحمامُ وتهْتَفُ

فالسحاب إنها يذرف دموعه لما يرى من كمده وهمه وضناه، والحمام إنها يبكي وينوح
لما يرى من شجنه وحزنه، ومن طريف صورته الغزلية قوله:

وإذا أراد تنزّها في رَوْضَةٍ أخذَ المرأةَ بكفه فأدارها^(١).

وهي مبالغة واضحة في الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن في رأيه لا تحتاج إلى
روضة. تقضي فيها نزهة تمتع بها نفسها، إذ حسبها أن تنظر في مرآتها فتري أروع روضة،
ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبه بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة
فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادي الكندي كان شاعراً متفنناً، فلا غرو أن يتفنن
في الموشحة الساذجة عند القبري، ويتيح لها - كما مر بنا - تطوراً جديداً بالغ الأهمية.

(١) المرأة: المرأة.

الشريف^(١) الطريق المرواني:

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعشق جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوماً سيفاً وانتهاز فرصة منه، فقتله، وكانت سنة إذ ذاك ست عشرة سنة، فزج به المنصور بن أبي عامر في السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفي قريباً من سنة أربعمائة. ويقول ابن حزم في كتاب الحلة السيرة: "أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس ملاحه شعر وحسن تشبيه". ويقول في جمهرة أنساب العرب: "مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين". ويروون له أشعاراً نظمها في السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنها يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها اشعار كثيرة في الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربي، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتساوير، من ذلك قوله متغزلاً في قافية له مشهورة:

غُصْنٌ يَهْتَزُّ فِي دِعْصٍ نَقَا يَجْتَنِي مِنْهُ فَوَادِي حُرَقَا^(٢).

(١) انظر في ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السيرة ٢٢٠/١ والمغرب ١٩١/١ والحميدي ص ٣٢١ والبنية ص ٤٤٨ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفح الطيب ٥٨٦/٣ وما بعدها والذخيرة ٥٦٣/١ وما بعدها وجمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كثيب. نقا: رملة.

أطلع الحسن لنا من وجهه
ورنا عن طرف ريم أحور
باسم عن عقد در خلته
سال لام الصدغ في صفحته
قمر ليس يرى ممحاً
لحظه سهم لقلبي فوقاً^(١)
سليته لثناه العنقا
سيلان التبر وافي الورق^(٢)

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة في نسق صوتي بلذ الأسماع والألسنة، وحقاً تشبيهه قامة المرأة بالغصن النابت في كثيب نقا أو رملة متداول وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبي أحور، وهي تسدد السهام إلى قلوب المفتونين بها وأيضاً تشبيه الأسنان في اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك رده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويجور فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

ودعت من أهوى أصيلاً ليتني
ووجدت حتى الشمس تشكو
وَجَدَهُ
ذقت الحمام ولا أذوق نواه
والورق تندب شجوها بهواه^(٣)

(١) ريم: ظبي. فوق: سدد.

(٢) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين. الورق: الفضة.

(٣) الورق: الحمام الرمادي اللون.

وعلى الأصائل رقةً من بعده
فكأنها تلقى الذي ألقاه
وغدا النسيم مبلّغا ما بيننا
فلذاك رَقَّ هَوَى وطاب شذاه^(١).
ما الرّوض قد مزجت به أنداءه
سَحَرًا بأطيب من شذا ذكراه
ولذاك أولع بالرياض لأنها
أبداً تذكّرني بمن أهواه

وهو يصور وجده والتياحه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس في وداعها للأفق أصيلاً وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنها تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنها سكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريج العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبه ليفوق شذى أي روض تتفتح أزهاره الندية سحرا، وهو ما يجعله صبّا بالرياض إذ تمثل عناصرها صاحبه له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائماً نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن زيدون وولادة^(٢):

(١) الشذى: رائحة الطيب والمسك.

(٢) انظر في ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ١/ ٣٣٦ وما بعدها والحميدي ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشي ص ١٦٢ والمغرب ١/ ٦٣ والخريدة ٢/ ٤٨ وابن خلكان ١/ ١٣٩ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتي سرح العيون وقام المتون لرسالتيه الهزلية والجدية وكتابنا عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.

(٣) راجع في ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ١/ ٤٢٩ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ في بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين (٣٩٩ - ٤٠٧هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثراء، وعنى أبوه بتربيته إلى أن توفي سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه في شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفي من حب، وقد توفي أبوها سنة ٤١٦ وما توافى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية في قرطبة، ويتولى أبو الحزم جمهور مقاليد الحكم وجعله حكمًا شوريًا ديمقراطيًا من خلال مجلس كان يرجع إليه في سياسته وتدير شئون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله في حاشيته، ودس عليه حوالي سنة ٤٣٠ أنه يشترك في مؤامرة ضد أي الحزم جمهور، وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبو الحزم في السجن، واستعطفه برسالة الجدوية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يصم أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقًا له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيرًا له، ويوفده في عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدبر في سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبي الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطربًا ويرسل إلى المعتضد عباد أمير

والمغرب ١/ ٦٥، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوافي للصفدي ٤/ ٢٥١ ونفح الطيب ٤/ ٢٠٥ وما بعدها.

إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيراً له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيراً لابنه المعتمد إلى أن يلبي نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر في الأندلس، وله مدائح رائعة في أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد والمعتضد عباد، وله أيضاً مراثٍ بديعة. غير أن القطعة الأرجوانية في حياته وشعره هي كلفه بولادة وما نظمها فيها من غزل، وكانت أدبية شاعرة، واتخذت لها مجلساً أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحياناً البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: "كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصير، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة متابها، تخلط ذلك يعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب".

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية في فرنسا اللائي نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف ليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمفلسفة لما يمتزن به من راحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها في الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، هن مثل مجلسها ومنتداهها على نحو ما مر بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطي سير بن أبي بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التطيلي،

وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الركونية في عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللاتني ترجم لهن المقري واللاتني يبلغن أربعاً وعشرين كان لهن مجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهي ثمرة الحرية التي استمتعت بها المرأة في الأندلس والتي أشرنا إليها مراراً. وينبغي أن نفرق دائماً بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتهما في الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قدن في المجتمع الأندلسي نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال "مع طهارة أثواب"، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: "مع علو نصاب، وكرم أنساب" وكذلك كانت مثيلاتهما من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداهما الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظباً على ذلك أياماً وشعر أنها تؤثره، فوقعت في قلبه كما وقع في قلبها، واتصل بينهما الود، ويروي أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقّب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسرِّ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدْرِ لم يطلّع وبالنجم لم يسر

واتصل بينهما اللقاء في حدائق قرطبة، تغمرها نشوة الحب، وارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّق سبيل فيشكو كل صبٍّ بما لَقِيَ
تمرُّ الليالي لا أرى البينَ يَنْقُضي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتَقِي

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبعدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جواربها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ في حقها أو في حق شعرها خطأ كبيراً. ويقال إنها صبت إلى أديب نابغ ثري ممن كانوا يختلفون إلى متدائها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخراً منه كما كتب إليه قصائد مهدداً متوعداً، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعداً محروماً. وغزله فيها - كما صورنا ذلك في كتابنا عنه - يصور ثلاث مراحل: مراحل وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقة والالتئاع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتئس الباكي النادب لحظه. وغزله يعد في الذروة من الغزل العربي وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيها من لوعاته المحرقة الممضة، ومن أروع قصائده الغزلية في صاحبه قافيته التي يستهلها بقوله:

إني ذكُرتُك بالزَّهراءِ مُشتاقاً والأفُقُ طَلَقَ ومَرَأَى الأرضِ قد رَاقاً

وهو يذكر منتداهما في قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين،
وتغمره اللوعة واللهفة على لقاءها ويشرك الرياض التي طالما جاسا معا خلالها وتجولا
بين اشجارها وأزهارها وطيرها ومياهها في أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه،
وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا	وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
حَالَتْ لِعُبْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ	سَوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا	وَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسَلْسِلِهَا	وَالْكُوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُومًا وَغَسْلِينَا ^(١) .

والقصيدة تكتظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو
الذي دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو
يسلوه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمراً طويلاً ولم تتزوج قط، وتوفيت سنة
٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها في تاريخ الشعر العربي وتاريخ المرأة الأندلسية.

ابن الزقاق^(٢) للخمى:

- (١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر في الجنة. الزقوم والغسلين: طعامان من أطعمة أهل النار.
(٢) انظر في ترجمة ابن الزقاق وشعره المغرب ٣٢٣/٢ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها.
والنفح ٣/١٩٩ و ٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديراني (طبع دار الثقافة ببيروت) ومقدمتها له
وما بها من مصادر.

هو أبو الحسن على بن إبراهيم بن عطية اللخمي البلنسي المعروف باسم ابن الزقاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسي المشهور ابن خفاجة، رزق به أبوه في أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين اسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤدناً بمسجدها الكبير. وفي نفح الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيراً جداً وأنه كان صاحب حانوت يكب فيه على صناعة الزقاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلاً يشتغل بالأدب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده في أمير بلنسي ثلاثمائة دينار، فأتى بها إلى أبيه ووضعها في حجره، وقال له: أشتري بها زيتاً، ونظن ظناً أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الزقاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أي صلة بزقاق الخمر وأن هذا الأب أو الجد لقب "زقاقاً" لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديراني محققة ديوانه. وعنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شب لزم دروس ابن السيد البطليوسي وعلى يديه درس العربية والآداب. وفتحت موهبته مبكراً، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء في لدته. وامتح بعض الكبراء من بني عبد العزيز أمراء بلنسية قديماً قبل مولده وبعض القضاء ويحيى بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد على بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلاً ما يمدح أميراً أو كبيراً، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مراراً في شعره من مثل قوله:

أنا من تمتَّه الملوك فلم أعج منها على ذي طارفٍ وتلاد^(١).

فالملوك لزمه كانت تتمنى أن يصوغ لهم شيئاً من مدائحه، وكان يتمتع عليهم لإبلاء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفي الديوان مراثٍ مختلفة وبينها مرثية حارة في سيدة لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لهما وعاطفته الأبوية نحوهما بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفاً إلى النشوة بها النشوة بالخمير، ومن بواكير غزله قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خدرٍ ما لها مغربٌ	أرامة خدرُك أم يثرب ^(٢) .
ذهبت فاستعبر طرقي دماً	مفضض الدمع به مذهب
ناشدتك الله نسيم الصبا	أني استقرت بعدنا زينب
لم تسر إلا بشذى عرفها	أولاً فماذا النفس الطيب ^(٣) .
إيه وإن عذبني حبها	فمن عذاب النفس ما يعذب

(١) أعج من عاج: التفت. تلاد: قديم ضد طارف.

(٢) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرب: المدينة.

(٣) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة.

وتتضح في هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التي أشار إليها أبو الليد الشقندي في بيانه براعة الأندلسيين في الشعر، وهي أن ابن الزقاق يتناول في أشعاره الصور والأخيلة التي تداولها الشعراء قبله مرارًا وتكرارًا حتى غدت كالثوب الخلق البالي، فإذا هو يبت فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغربًا في ذلك أحسن إغراب وأطرافه، على نحو ما يتضح في تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبه في البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة في خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبه؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل في النسيم ذاته بدليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِّ الرِّيحَ عَنْ نَجْدٍ تَحْبِرُكُ أَنَّهَا	مَعْطَرَةُ الْأَنْفَاسِ مَذُ سَكَنْتُ نَجْدًا
وَأَنَّ الْغَضَا وَالسَّدرَ مَذُ جَاوَرَتْهُمَا	بِطَيْبٍ شَذَاها أَشْبَهَا الْبَانَ وَالرَّندَا
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْكُثِيبِ فَأَرْزَمْتُ	إِلَى وَرَجَعَتِ الصَّهِيلَ جِيَادِي ^(١) .
مَا بَيْنَ سَاحَاتٍ لَهُمْ وَمَعَاهِدٍ	سُقِيتُ مِنَ الْعَبَرَاتِ صَوْبَ عَهَادٍ ^(٢) .
وَالْوَرَقُ تَهْتَفُ حَوْلَهُمْ طَرَبًا بِهِمْ	وَبِكُلِّ مَحْنَةٍ تَرْنُمُ شَادِي ^(٣) .

(١) أرزمت: حنت.

(٢) العهد: المطر في أول الشتاء. وصوبه: الساقط منه.

(٣) الورق: الحمام. محنية: منعطف.

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواجه وراء الكثيب وحوله، حتى الإبل جمدت في مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهي لا تريد أن ترحه. ويدعو لساحاتهم ومعاهدهن أن تظل تسقى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنيبه لفراق صواجه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طرباً. وتكثر في غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله في وصف دقة الخصر:

أسائلها أين الوشاح وقد أتت
مُعْطَلَةٌ منه معطرة النَّشْرِ
فَقَالَتْ وَأَوْمَتْ للسَّوار نقلته
إلى مَعْصَمِي لما تقلقل في خَصْرِي
وقوله:

وقفتُ على الربوع ولى حنينٌ
لساكنهنَّ ليس إلى الربوع
ولو أني حننت إلى مغاني
أحبَّائي حنَّتُ إلى ضلوعي
وقوله:

تحاذرُ من عمود الصبح نوراً
مخافة أن يُلِمَّ بنا افتضاح
ولم أرَ قَبْلَهَا واللَّيل داجٍ
صباحاً بات يذعُرُه صباح

والتعبير عن نحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعاً لمحوباته، وتصويره لما جال في نفس صاحبه من خوف بل من دعر حين أخذت تتفلت في الأفق تبشير الصباح، ويعجب لفرع صباح

إنسى من صباح كوني. وقد توفي ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفي للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

أبو جعفر^(١) بن سعيد وحفصة الركونية:

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة في إقليم غرناطة نسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة في نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الرابع الأول من القرن الخامس الهجري استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها في نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة في الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبي جعفر أحمد وزيراً له يدبر معه شئون القلعة، وكان شاعراً وفي ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب هو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهواه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولائها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبي سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيراً أديباً من أهلها يستعين به ووصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

(١) انظر في ترجمة أبي جعفر بن سعيد وشعره المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفح ١٧٣/٤-٢٠٤.

وراجع في ترجمة حفصة وأشعارها المغرب ١٣٨/٢-١٣٩ و١٦٦/٢ والمطرب ص ١٠ والإحاطة

١/٤٩١ وانظر ص ٢٢٠ والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفح ١٧١/٤-١٧٩.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثرأ هي حفصة
الركونية، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها
تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعاً مكانة رفيعة في بلدها، ويبلغ من
مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

يا سيّد الناس يا من	يؤمّل الناس رِفْدَه
أمنّ على بطرسٍ	يكون للدهر عُدّه
تخطّ يَمْناك فيه	الحمد لله وحده

مشيرة بالشر الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب
بخط يده في رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من
شعرها وأنشدته ما زاده إعجاباً، ويبدو أن ابنه عثمان الذي تولى غرناطة بعد ذلك رآها
حينئذ وبهره جمالها. فملا ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبي جعفر،
ولابد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجون، بل حب طهارة
وعفاف على نحو ما عرف عن فتيات الأندلس وسيداتهن من تحرر ومن لقاءات بينهن
وبين الشعراء في قصورهن، وفي الحدائق والرياض، إذ كن أحياناً يمضين فيها بعض
الليالي مع من يهوهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة في بستان بمتنزه
يسمى "حور مؤمل" عبقّة في نفسه حتى ليكتب إليها:

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم	عشية واراناً بحور مؤمل
-----------------------------	------------------------

وقد خفقت من نحو نجد أريجة
إذا نفحت هبت بريا القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثنى
قضب من الريحان من فوق جدول

فهو يدعو لليل الذي نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التي
تحى القلوب أن يسبغ الله دائماً عليه رعايته. وتحييه:

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا
ولكنما أبدت لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا
ولا غرد القمري إلا لما وجد

وكأنها تحدث عن حسد الناس لهما وأنها لن يتركوهما ينعمان بحبهما، ويقطفان من
أزهاره ما يعن لهما وما يمتعان به روحاهما، واتصل بينهما الحب واللقاء فكتبت إليه وقد
استبطات لقاءه:

أزورك أم تزور فإن قلبي
إلى ما تشتهي أبداً يميل
فعجل بالجواب فما جميل
أناذك عن بثينة يا جميل

وهي تشير إلى حب جميل لبثينة حباً عذرياً شاع ذكره في بوادي نجد والحجاز لعصر
بني أمية. وأجابها مصوراً ولعه بها وتوقيره لها:

أجلكم مادام بي نهضة
عن أن تزوروا إن وجدت السبيل

يُزَوِّرُهُ هَبُّ النسيمِ العليلِ

ما الرُّوضُ زَوَّارًا ولكنَّها

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التي ملكت قلب صاحبها وخلبت لبه، وإنما يزوره
الندسيم العليل يستشفى بشده وأريجيه، ويبدو في اشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم
يدع فيه مكانًا لسواه حتى لتشده ملئعة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غيرتها عليه:

ومنك ومن زمانك والمكان

أغار عليك من عيني ومني

إلى يوم القيامة ما كفاني

ولو أني خبأتك في عيوني

فهي تغار عليه غيره لا تماثلها غيره، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيط به من
زمان ومكان، وتقول لو أنها حفظته ووضعته وراء جفونها في عيونها إلى يوم القيامة ما
كفها. وبينما هي تنعم بهذا الحب مع أبي جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب
السلطان في غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقهما المفروش بالورد
والرياحين، وتخشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه في يوم
عيد كاتبة إليه:

سفة والإمام المرتضى

ياذا العلا وابن الحلي

منه بما تهوى القضا

يهنيك عيد قد جرى

طوع الإجابة والرضا

وأفاك من تهواه في

ويمتلئ قلب عثمان على كل من العاشقين مودة وغيظًا، وتزيده الوشايات مودة على مودة وغيظًا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحين في ذلك السود - وكان لون بشرته مائلًا إلى السواد - فأسرّها في نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فقلّ لحريصٍ إذ يراني مقيّدًا بخدمته لا يجعلُ البازُ في القفصِ

ووات عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخا أبي جعفر عبد الرحمن فرّ إلى ابن مردنیش الثائر في شرقي الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبا جعفر فكر في الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقتل صبرًا في ماقلة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكته حفصة طويلاً وندبته ندبًا حارًا ولبستعليه السواد، وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها في قصره معلمة لفتياته، وتظل معززة مكرمة في عاصمة الموحدين إلى أن لبث نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

ابن خاتمة^(١).

(١) انظر في ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ١/ ٢٣٩ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونشير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودرة الحجال لابن القاضي (طبع الرباط) ١/ ٤٠ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص ٧٢ ونفح الطيب في مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجع دراسة عنه للمستشرقة افسبانية سوليداد

هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المريي، ولد في نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفي سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عامًا. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن في نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم في مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقًا في الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوي، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى في أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانهقاد صلوات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتبًا مدة في دواوين المرية ببلدته التي كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يذكر في ترجمته أنه تخلص عن الكتابة، حتى إذا طلب إليه أن يعود عليها أنشد:

تقضي في الكتابة لي زمان^{٩٧} كشأن العبد ينتظر الكتابه

وكتابة العبد التي يشير إليها هي أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسطًا، فإذا أداه صار حرًا، وهو يقول إنني قضيت في الكتابة زمانًا غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل في الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استعفى منها فأعفى، وبذلك ردت إليه حريته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبدًا. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم

خبرت في كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكي (طبع دار المعارف) ص ٩٧.

الأوائل كما يتضح في كتابه: "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذي اجتاحت المرية في عامي ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفي أسبابه. وله في التاريخ الأدبي كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية، وله في اللغة كتاب سماه: "إلحاق العقل بالحسن في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس" وكتاب "إيراد اللال من إنشاد الضوال وإرشاد السؤال". وله في الأدب رسالة صغيرة في "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" وكتاب "راق التحلية في فائق التورية" وليس دراسة في التورية وإنما هو أشعاره الذي صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديان ابن خاتمة في نحو مائتي صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم في المدح والثناء، وقسم في التشبيب والغزل، وقسم في الملح والفكاهات، وقسم في الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو في نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشعر منذ أول قصيدة نقرأها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية في الحب، إنما هي محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنًا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتًا تتحدث عن الحب حديثًا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربي، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نَسِيمَاتُ الصَّبَا مِنْ رَبِّي نَجْدٌ
فَيَنْفَحْنَ عَنْ طَيْبٍ وَيَعْبِقْنَ عَنْ نَدٍّ^(١).
وما ذاك إلا أَنَّهُنَّ يَجْلُنَّ فِي
معاهدنَا بين الأَثْيَالِ والرَّندِ^(٢).
معاهدُ نهواها وتهوى لقاءنا
بها قد مضى حكمُ العَفَافِ عَلَى الْوَدِّ
وفي القُبَّةِ الْبَيْضَاءِ بَيْضَاءٌ لَوْبَدَتْ
لشَمْسِ الضَّحَى يَوْمًا لِحَارَتْ عَنْ
تَطَلُّعٍ عَنْ صُبْحٍ مِنَ الْوَجْهِ نَيْرٍ
وَتَغْرُبُ عَنْ لَيْلٍ مِنَ الشَّعْرِ مُسَوِّدٍ^(٣).

ونسيج الصياغة في الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعاني والصور مكررة
معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقًا جديدًا،
ودائمًا الخد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعقد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط
الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة
صاحبته تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو
من أنبه الشعراء في زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال في كثير من
جوانبه إلى صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان
بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر في

(١) الند: عود عطر الرائحة.

(٢) الأثيالات تصغير الأثلاث: من أشجار البادية. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.

(٣) حارت: رجعت.

جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتُ على حَذَرٍ من الرُّقْبَاءِ	واللَّيْلِ ملْتَفٌ بِفَضْلِ رِداءِ
تَصِلُ الدُّجَى بسوادِ فَرَعٍ فَأَحِمِ	لتزيد ظلماءَ إلى ظُلُماءِ
فَوَشَى بها من وجهها وحليِّها	بَدْرُ الدُّجَى وكواكبُ الجوزاءِ
أَقَسَمْتُ لولا عَفَّةٌ عُدْرِيَّةٌ	وتَقَى علىَّ له رَقِيبٌ رائِي
لَنَقَعْتُ غُلَّةً لَوْ عَتِي بِرُضَائِها	ونَضَحْتُ وَرَدَ خُدودها بيبكائِي

ومع ذلك فغننا نشعر بغير قليل من التكلف في المقطوعة على نحو ما نرى في الشطر الثاني من البيت الثاني، والصور في البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذي مهد به لعفته وتقاه الذي يراقبه في حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد في الغزل. ويخف هذا التكلف في موشحاته بحكم القصر الشديد في شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هليلة النسيج التي تلاحظ بوضوح في كثير من أبيات شعره.

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومثزهاتها، وهي طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتها ومشاهدها دائماً باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفاً بها ما مر بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضاً كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظناً أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزجهم الحاد العنيف الذي ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائماً على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقروناً بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيراً ما يسوقون ذلك في مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر في قسمين متقابلين كما صنعنا في حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما ممتزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنهما معاً. وقد يكون من الطريف أن نلتقي عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأمورية في تلك الديار بمقطوعة له في وصف نخلة ببستان قصره في قرطبة المسمى منية الرصافة، وهي تمضي على هذا النمط^(١):

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عند بلد النخل

(١) الحلة السيرة ١/ ٣٧.

فقلتُ: شَبِيهِي فِي التَّغْرُبِ وَالنَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأْتُ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَيِ مِثْلِي

وكأن هذه النخلة رمز العرب هناك، وكأن هذه القطعة الشعرية أيضًا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث في هذه النخلة الغريبة التي نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون في وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيئتهم ومشاعرهم وأخيلتهم ما بث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد في هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاب لما يستشعره الشاعر الأندلسي من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون في الخمر وخاصة أبا نواس، ومن حاول محاكاته مبكرًا يحى الغزال الذي ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبي نواس تصور مغامرة له في حان من حانات الخمارين وفيها يقول^(١):

ولما أتيت الحانَ ناديتُ رَبَّةً فثابَ خفيفَ الروحِ نحوِ ندائي
فقلتُ أَذْقْنِيهَا فلما أذاقها طرحتُ عليه رَيْطِي وَرِدَائِي^(٢).

(١) الديوان ص ٤٣.

(٢) الريغة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا في الأندلس وحدها بل في كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبي نواس على سبيل الفكاهة في المجالس، ومثل ذلك ما يقال في وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح في قطع مفازة ليلاً^(١):

ومخوفةٌ تنفي مخافتها	نوم الفتى ذي المرة الندب ^(٢) .
للجن في أجوازها لغطٌ	بالليل مثل تنازع الشرب
وترى بها جون النعام إذا	أشرفن كالمهنوءة الجرب ^(٣) .

وهو يصف سرى الليل في فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضي. ويستلهم ما كرره طويلاً ذو الرمة في وصف الفلوات ليلاً وعزيف الجن بها الذي يشبهه كما يقول عباس بن ناصح لغط الشرب، ويشبه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسي في القرن الثالث الهجري

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.

(٢) ذو المرة: القوى الشجاع. الندب: الماضي.

(٣) جون: سود. المهنوءة: الإبل المطلية بالهناء وهو القطران.

وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذي الرمة. ويقول ابن عبد ربه في وصف نهار ممطر^(١):

نهارٌ لاح في سربالٍ ليلٍ فما عُرِفَ الرِّواحُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بعيدٍ رُنُوَ البُكرُ من خَلْفِ السُّتورِ

فالسحب منعقدة في السماء والجو مظلم، ولا يدري ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحاً قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحياناً تتراءى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفي وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلاً واستحياء. ونتقدم في القرن الرابع الهجري ونلتقي بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة في الربيع وأزهاره. وله في وصف حمامة وأنيها محزونة لفراق صاحبها أو هديلها^(٢):

ومُرْنَةٌ والدَّجْنُ يَنْسِجُ فَوْقَهَا بُرْدَيْنِ من طَلٍّ ونَوءٍ بَاكِ^(٣).
مالت على طَيِّ الجناح وإنما جَعَلَتْ أَرِيكَتَهَا قُضِيبَ أَرَاكِ^(٤).
وترنمت لَحْنَيْنِ قد حَلَّتْهُمَا بِغَناءِ مُسْمِعَةٍ وَأَنَّةٍ شَاكِ

(١) الذخيرة ١/ ٧٧٩.

(٢) الذخيرة ٣/ ٣٤٦.

(٣) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء. النوء: المطر.

(٤) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

ففقدت من نفسي لفرط تلّهفي نفس الحياة وقلت من أبكاك

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجاً فوقها
ردائين من طل ومطر تذرفه السحب، وهي محزونة قد مال رأسها على طي الجناح
متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعداً، وشجاها فراق صاحبها فهي تترنم بغناء
ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلفها لرؤية صاحبتة حتى لكأنها يوشك أن
يفقده الحياة. ويبكي من حرق هواه بصاحبتة، ويسأل الحمامة سؤال العارف من
أبكاك؟ فنحن في الهوى سواء. وتكثر أشعارهم في الأزهار، وكثيرون منهم يردون على
ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج في الرد عليه قصيدة يقول
فيها: (١).

أزعمت أن الورد من تفضيله خجل وناحله الفضيلة عانداً
إن كان يستحيي الفضل جماله فحيأؤه فيه جمال زائداً

فهو يجعل خجل الورد لاهمرار وجنته من جوهر حسنه يزيده جمالاً على جمال، فهو
ليس احمراراً ولا خجلاً عارضاً أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونز
الرمادي ضيفاً على صحب له في مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وكان
الوقت شتاء، وقدموا له احتفالاً به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجانة في الجنوب

(١) الحميدي ٢١٢.

الشرقي، فتعجب من وجود الورد في وادي آش شتاء، فقالوا له إنه من بجانة، فأخذ
إلى الصمت ولم يلبث أن لثمها وأنشد^(١).

يا خُدودَ الحُورِ في إِخْجالِها	قد علَّتْها حمرةٌ مكتسبةٌ ^(٢) .
اغتربنا أنْتِ من بَجَّانَةٍ	وأنا مغتربٌ من قُرْطِبه
واجتمعنا عند إِيْوانٍ صَفَا	بالنَّدَى أمْوالُهم مُتَّهَبه
إِنْ لَثَمْتُ لَكَ قَدَّامَهُم	ليس فيه فِعْلَةٌ مُسْتَغْرَبَه
لا جَماعٍ في اغْتِرابٍ بَيْننا	قَبْلَ المِغْتَرَبِ المِغْتَرَبَه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متماثلان في الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلاص عند إخوان صفاء كرام كرما فياضا. وكان للمنصور بن أبي عامر الحاجب ثلاث جوارٍ ساهن بأسماء الأزهار: بهار ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس الجزيري يجعل كلا منهن مخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسبتها بين

(١) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري (تحقيق هنري بريس - طبع الرباط) ص

(٢) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

الأزهار ي مقطوعات^(١). شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق في نفس قصيدته
الفريدة السالفة في ترجمته^(٢):

وَعَمَامٍ هَطِلَ شُؤْبُوبُهُ	نادمَ الروضَ فَغَنَى وَسَقَى ^(٣) .
في ليالٍ ضلَّ ساري نَجْمِهَا	حائراً لا يَسْتَتِينُ الطَّرْقَا
أوقد البرق لها مِصْبَاحَهُ	فانتشي وَجْهَ دُجَاهَا مُشْرِقاً
وشدا الرِّعْدُ حنيناً فجرت	أكؤسُ المِزْنَ عليه غَدَقاً ^(٤) .
وغدتْ تَحْنُو له الشمسُ وقد	ألحفتَه من سَنَاهَا نَمْرَقاً ^(٥) .

وقد بثَّ الشريف الطليق في الغمام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغنٍ وساق في ليلة داجية، أمسى النجم فيها حائراً لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحَه، فاستحال وجهها الداجي المظلم مشرقاً مضيئاً، وأخذ الرعد يشدو ويغني، فجرت أكؤس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأصبح، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهمر ليلاً، فعطفت على

(١) راجع هذه المقطوعات في الذخيرة ٤/ ٤٧ وانظر في ترجمة الجزيري الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣ والصلة ٣٥٠ والمغرب ١/ ٢٢١.

(٢) الحلة السراء ١/ ٢٢٣.

(٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.

(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.

(٥) النمرق: الطنفسة من القطيفة أو الصوف.

الروض وأشفت عليه وكسته من سناها وضوئه طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم في هذا العصر الأموي من أشعار له في الخمر، غير أنها في جملتها تعد محاكاة وتقليدًا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له في الخمر أشعارًا فيها شيء من الطرافة للمكاته الخيالية الخصبة من مثل قوله في نفس القصيدة السالفة:

ثوبَ نورٍ من سَناها يَقَقَا^(١).

سَنَة تُورث عيني أرقًا^(٢).

تَتَقَى من حَظِّه ما يَتَقَى

كشعاع الشمس لاقى الفلقًا^(٣).

ويدُ الساقى المحيى مشرقًا

تركتُ في الحَدِّ منه شَفَقًا

رُبَّ كأسٍ قد كستُ جُنَحَ الدُّجَى

بَتُّ أسقيها رَشًا في طَرَفِه

خَفِيتُ للعين حتى خَلَّتْهَا

أشرقتُ في ناصعٍ من كَفِّه

طلعتُ شمسًا وفُوهُ مَغْرِبًا

فإذا ما غربتُ في فَمِه

(١) الأبيض اليقق: الناصع البياض جنح: ظلام.

(٢) الرشأ: ولد الظبية.

(٣) الفلق: الصباح.

والاستعارات في الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجي ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشاً عيناه ذا بلتان كأن بهما سنة من النوم، وإن فتورها وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد ترى، وكأنها تتوارى من حلف هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقاً لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب في فم الرشأ أو فم صاحبه. وكل ذلك فيه أصداء من خمرات أبي نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقاً وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبه تتحول في الخد منها شفقا. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسي الأرض في الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول^(١):

تبدت لنا الأرض مزهوّة	علينا ببهجة أثوابها
كأن أزهارها أكؤس	حوّتها أنامل شرّابها
كأن الغصون لها أذرّع	تناولها بعض أصحابها
كأن تعانقها بالجَنُوب	تعانقُ خَوْدَ لَأْتِرابها
كأن تَرَقِّقَ أجفانها	بكاهها لفُرقة أحبابها

فالأرض قد ازدهت بأبهج أثوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنها أزهارها تحولت إلى كؤوس في أنامل الشاربين تمدّها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح

(١) ابن الكتاني ص ٤١ والبديع في وصف الربيع ص ١٤ وانظر في ترجمة الفقيه الحميدي ٢٠٦ وبغية الملتبس رقم ٧٦٢.

الجنون تعانق الغصون عناق خود أو شابة فاتنة لأتراها الفاتنات، ويتلفت فيجد الندى على وجنات الأزهار وفي عيونها فيقول إن الدموع تترقق ي أجفانها لفرقة أحبابها. وملتقي بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموي، وله في زيارة دَيْر أيام شبابه مع صحبه في طلب الخمر واللهو: (١).

وَلَرَّبَّ حَانَ قَدْ شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ حَمْرُ الصَّبَا مُزِجَتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ

فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزُّقَاقَ تِكَاءَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَخْشَعًا لِكَبِيرِهِ

يَهْدِي إِلَيْنَا الرَّاحَ كُلُّ مُعَصْفَرٍ كَالْخَشَفِ خَفَرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرِهِ (٢).

وَتَرَنَّمُ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه في حانة دير اصطفت فيها الدنان وأخذوا يعبون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأننا يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغلماں الدير يدورون عليهم بكنوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودق ناقوس الكنيسة في الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتاني المتوفى حوالي سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموي بالأندلس، وقد خص شعر

(١) الديوان ص ١١٥.

(٢) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية.

خفيره: حماه. خفيره: حارسه.

الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعاً تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلم هذا العصر ونالوا شيئاً من الشهرة فيه، وقد بلغوا في الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط في الأندلس لعصر بني أمية - كما قلنا في غير هذا الموضع - نشاطاً عظيماً.

ونمضي إلى عصر أمراء الطوائف وملتقي في أوائله بأبي عبد^(١). الله محمد بن السراج شاعر بني حمود بمالقة في الجنوب الشرقي للأندلس على البحر المتوسط، وكان صبا بمن اسمها حسن الورد وله فيها وفي الورد وفي الطائر المسمى حسوناً ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذُكِرْتُ بِالْوَرْدِ حُسْنَ الْوَرْدِ شَقَّتْهُ	حُسْنًا وَطَيِّبًا وَعَهْدًا غَيْرَ مَضْمُونٍ
هَيْفَاءَ لَوْ بَعْتُ أَيَّامِي لِرَوْيَتِهَا	بِسَاعَةٍ لَمْ أَكُنْ فِيهَا بِمَغْبُونٍ
فَأَشْرَبُ عَلَى ذِكْرِهَا حَمْرًا كَرِيقَتِشْهَا	وَحُصْنِي بِهَوَاهَا حِينَ تَسْقِينِي

فورد الربيع على أغصانه يذكره باسم صاحبه وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صُنُوْ للورد طيباً وحسناً وقصراً إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأساً يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التي نعم فيها بقربها. وكان يزامله في مديح بني حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مقانا وسنخصه بكلمة وملتقي بأبي عامر

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ١ / ٨٧٠ وما بعدها والحميدي ٥٦ والبغية رقم ١٤٤ والمغرب ١ / ٤٣٤.

بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح الذي ألفه للمعتضد
عباد أمير إشبيلية، وله في وصف الخمر^(١):

خمرة ماتت زماناً	بحجابٍ يحْتَوِيها
لبثت في بطنِ أمٍّ	غَيَّبَتْها عن بَنيها
أَلَحَدَتْها الدَّنَّ دَهْرًا	ثم عاد الرُّوحُ فيها
فأنبرى منها سراجٌ	رائقٌ مَن يَحْتَلِيها

وهو يقول إنها ماتت زماناً طويلاً وراء حجاب دنها أو سداده، ويزعم أنها ظلت
بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنيتها من الكتوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق ما
زلت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قدر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها
حين وضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره
في إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن
اثنين وعشرين عاماً، وله كتاب البديع في وصف الربيع الذي تحدثنا عنه في الفصل
الثاني، وهو أحد مصادرنا الموثوقة في الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين في
صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون في
الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة في مائة وستين صفحة، مما نظموه

(١) الذخيرة ٢/١٠٨.

فيها. ولا بن عمار أبيات في الخمر والطبيعة اشتهرت قدم بها مدحة للمعتضد عباد، وهي تمضي على هذا النمط^(١):

وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ الْعِنَانَ عَنِ السُّرَى	أَدِرِ الزُّجَاجَةَ فَالنَّسِيمُ قَدْ أَنْبَرَى
لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مَنَا الْعَنْبَرَا	وَالصُّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ
وَشَيْئًا وَقَلَّده نَدَاهُ الْجَوْهَرَا	وَالرَّوْضُ كَالْحُسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ
صَافٍ أَطَّلَ عَلَى رِداءٍ أَخْضَرَا	رَوْضُ كَانَ النُّهْرَ فِيهِ مَعْصَمٌ

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنها تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنها ثبت في مكانه لا يريم، واسترد الليل المرح الذي قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضياه المشرق، وتبرج الروض في وشيه وجواهره، وكأن النهر الذي يجري فيه معصم صاف متلألئ بمياهه يشرف على بساط بل على رداء سن دسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة في مديح القصيدة ومعانيها مرارًا كقوله السالف في المعتضد:

وَأَلَذَّ فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَّةِ الْكَرَى	أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطَرِ النَّدَى
--	---

(١) الذخيرة ٢/ ٣٨٤ ومغرب ١/ ٣٩١.

وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونمضي إلى عصر المرابطين، ولتقي بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة في الأزهار: النرجس وغيره وفي الخمر ومجالسها، ومن قوله في النارج^(١):

أَجْمَرُ عَلَى الْأَغْصَانِ زَادَتْ نَضَارَةٌ بِهِ أَمْ خَدُودٌ أَبْرَزَتْهَا الْهُوَادِجُ
كُرَاتٌ عَقِيقٍ فِي غُصُونٍ زَبْرَجَدٍ بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ
نَقَبَلَهَا طَوْرًا وَطَوْرًا نَشْمُهَا فَهِنَّ خَدُودٌ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ

وابن سارع لا يدري أيرى على الأغصان جمراً ناضراً أم خدوداً لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هي كرات من عقيق أحمر تتوج غصوناً من زبرجد أخضر، بل هي صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالي أشجارها حتى إذا تناولها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طوراً خدود وطوراً نوافج مسك ذكي الرائحة. ولهم شعر كثير في الفواكه والثمار نكتفي منه بهذا المثال. ولأبي طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي خمرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها^(٢):

وَحَمَارٍ أَنْخَتْ بِهِ مَسِيحِي رَخِيمِ الدَّلِّ ذِي وَتَرٍ فَصِيحٍ^(٣).

(١) الذخيرة ٢/ ٨٤٠ ومغرب ١/ ٤٢٠.

(٢) الذخيرة ١/ ٩١٨ والمغرب ٢/ ٣٧٢.

(٣) رخيم: رقيق.

سَقَانِي ثُمَّ غَنَّا بَصُوتِ
فَدَاوَى مَا بَقَلْبِي مِنْ جُرُوحِ
وَفَضَّ فَمَ الدَّانِ عَلَى اقْتِرَاحِي
فَفَاحَ الْبَيْتُ مِنْهَا طِيبَ رِيحِ
فَقُلْتُ لَهُ لَكُمْ سَنَةٌ تَرَاهَا
فَقَالَ: أَظْنُهَا مِنْ عَهْدِ نُوحِ
وَلَمَّا أَنْ شَدَا النَّاqُوسُ صَوْتَا
دَعَانِي: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الصُّبُوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحي يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه
وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفض له باقتراحه دنا وراء دن، وسأله
عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودق الناقوس، فنبهه إلى الصبح
أو شربها في الصباح. ولابن الزقاق يصف أمسية وقد غربت الشمس وخلفت وراءها
على أفق السماء الغربي الشفق البهيج^(١):

وَعَشِيَّةٌ لَبَسَتْ رِداءَ شَقِيقِ
تَزْهُو بِلَوْنٍ لِلْخُدُودِ أُنِيقِ
أَبَقَتْ بِهَا الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ مِثْلَمَا
أَبْقَى الْحَيَاءُ بَوَجْنَةَ الْمُعْشُوقِ
لَوْ اسْتَطِيعَ شَرِبْتُهَا كَلْفًا بِهَا
وَعَدَلْتُ فِيهَا عَنْ كُتُوسِ رَحِيقِ

وهو يتصور العشيّة كأنها أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداء أو كأنها أكتست
بحمرة الخدود الفاتنة أو كأنها خلفت الشمس المضيئة عليها ما يخلفه الخجل على وجنة

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٢/ ٣٣٤.

المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشية وما بلبس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التي تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكئوس من رحيق الخمر، حتى ليتمنى - لو استطاع - أن يشربها هائئاً بها هناءة ما بعدها هناءة. وابن الزقاق ينتشى دائماً بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقاً وسنخسه بكلمة عما قليل.

ونظّل في عصر الموحدين نلتقي بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابة، وفي مقدمتهم الرصافي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادي الكبير الذي يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلًا^(١):

ومهدّل الشّطين تحسب أنّه	متسايّل من درّة لصفائه
فأءت عليه مع الهجيرة سرحة	صدئت لفيئتها صفيحة مائه ^(٢) .
وتراه أزرق في غلالة سندس	كالدارع استلقى بظل لوائه

فالنهر تتهدل على شطيه أغصان الأشجار، وهو يجري تحتها صافيًا متلألئًا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنها ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهي صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له

(١) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٢/ ٥١٤.

(٢) فاءات سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

مع حافافيه من النباتات والزروع كأنها يرتدي غلالة سندسية، وأيضاً تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلاً بلوائه. والرصافي لا يباري في روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشياً بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول^(١):

وعَشَى رائقٍ منظرُهُ	قد قطعناه على صَرْفِ الشَّمُولِ ^(٢) .
وكانَ الشمس في أثنائِهِ	ألصقتُ بالأرض خَداً للنزولِ
والصبا تَرَفَعُ أذيالَ الربى	ومَحياَ الجوّ كالسَّيفِ الصَّقيلِ
حبّذا منزلُنا مُغْتَبَاً	حيث لا يُطْرَبُنا غيرُ الهديلِ
طائرٌ شادٍ وغصنٌ مُثْنٍ	والدَّجى يَشْرَبُ صَهْبَاءَ الأصيلِ ^(٣) .

وهو يقول إنه ظل في هذه الأمسية يتمتع بشراب الخمر الصافي وبمنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلصق بها خدها إعزازاً ومحبة، ونسيم الصبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثنى على منزلهم واغبتاقهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمله من أنغامه وأشجانه. ويبلور روعته بالمنظر في طائر شاد وغصن مثن، ويخلق خياله، إذ يجعل

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.

(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.

(٣) الصهباء: الخمر.

الدجى يتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل ورحيقه الهنىء. وكانوا كثيراً ما يتنزهون في الأنهار الخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشربة والأخرى ذات المجاديف، وأحياناً كانوا يُجرون فيها سباقاً على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبال قاضي شريش عن أحد هذه السباقات في نهرها قائلاً^(١):

بنفسي هاتيك الزوارق أجريت	كحلبة خيل أولاً ثم ثانياً
وقد كان جيد النهر من قبل عاطلاً	فأمسى بها في ظلمة الليل حالياً
عليها لزهر الشمع زهر كواكب	تخال بها ضمن الغدير عوالياً ^(٢) .
ورب مثار بالجنح وآخر	برجل يحاكي أرنباً خاف بازياً

وهو يقول إن الزوارق أجريت في النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر حالياً بعد أن كان عاطلاً من الحلى والزينة. ويخال الشموع في النهر كأنها رماح مشرعة، بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنها هي أرنب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سفر، وسنخصه بكلمة. وملتقي بأخرة من أيام الموحدين بالهيشم بن أبي الهيثم حافظ

(١) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر في ترجمة ابن لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ١/٣٠٣ والتكملة

ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفي سنة ٥٨٣.

(٢) العوالي: الرماح. زهر جمع أزهر: مشرق مضى.

إشبيلية بل الأندلس جميعها في عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذي الرمة الشاعر الأموي، ومن عجائبه أنه كان يملي على شخص شعراً - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثانٍ موشحة وعلى ثالثٍ زجلاً، وكل ذلك يمليه ارتجالاً دون توقف، وله في فرس أصفر^(١):

أُطْرِفُ فَاثَ طَرْفِي أَمِ شَهَابٌ	هفا كالبرق صَرَّمه التَّهَابُ ^(٢) .
أَعَارَ الصُّبْحُ صَفْحَتَهُ نِقَابًا	فَفَرَّ بِهِ وَصَحَّ لَهُ النَّقَابُ
فَهَمَّهَا حُثَّ خَالَ الصُّبْحِ وَاقِي	ليطلب ما استعار فما يُصَابُ
إِذَا مَا أَنْقَضَ كُلَّ النَّجْمِ عَنْهُ	وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السَّحَابُ

وللأندلسيين شعر كثير في وصف الخيل لأنهم كانوا يحاربون عليها دائماً، وكانوا يعقدون أحياناً بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدواً سريعاً كأنه يباري به الرياح، فيقول أهذا طرف أي حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان السماء، وكأنه برق مضطرم لهيباً. ويظن كأن الصبح أعاره نقاباً أصفر، ففر به، وهو دائماً لا يتوقف كأنه يظن الصبح في إثره يطلب نقابه الذي اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقض

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر في الهيثم وترجمته وشعره المغرب ١/٢٦٣ واختصار القدح المعلى ص ١٥٨ والتكملة ص ٧١٦. توفي سنة ٦٣٠.

(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.

وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضلت السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله^(١):

أَدْرِهَا فَالسَّمَاءُ بَدَتْ عَرُوسًا مَضْمَخَةُ الْمَلَابِسِ بِالْغَوَالِي^(٢).
وَحَدُّ الرُّوضِ خَفَّرَهُ أَصِيلٌ وَجَفْنُ النَّهْرِ كَحَلٍّ بِالظَّلَالِ
وَجِيدُ الْغُصْنِ يُشْرِفُ فِي لَآلٍ تَضِيءُ بِهِنَّ أَكْنَافُ اللَّيَالِي

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسَّماء قد بدت عروسًا مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك في منظر الروض البهيج، وكأنها سكب الأصيل على حد الروض حياء وخفرا فأصفر لونه، بينما كحل جفن النهر بالظلال، وقد أضاءت على جيد الغصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالي المظلمة.

ويلقانا مَرَجُ الْكُحْلِ: محمد بن إدريس الذي نشأ بائعًا متجولاً في الأسواق يتعيش ببيع السمك ثم ترقى به همته إلى الأدب قليلاً قليلاً - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرة يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمر يقول فيها^(٣):

(١) اختصار القدح المعلق ص ١٤ وانظر في ترجمة ابن طلحة أيضاً المغرب ٢/ ٣٦٤ والتحفة رقم ٩٦.

(٢) الغوالي: جمع غالية: المسك.

(٣) مغرب ٢/ ٣٧٣ وانظر في ترجمة مرج الكحل وشعره أيضاً زاد المسافر ص ٢٧ والوافي بالوفيات

٢/ ١٨١ والتكملة ص ٣٤٤ والإحاطة ٢/ ٣٤٣ حمل عنه ديوان شعره وتوفي سنة ٦٣٤.

عَرَجَ بِمَنْعَرَجِ الْكَثِيبِ الْأَعْفَرِ بين الفُراتِ وبين شَطِّ الْكَوْثَرِ^(١).
وَلَتَغْتَبِقْهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ من رَاحَتِي أَحْوَى المَرَاشِفِ أَحْوَرِ^(٢).
وَالرُّوضُ بَيْنَ مُفَضِّضٍ وَمَذْهَبٍ وَالزَّهْرُ بَيْنَ مَدْرَهَمٍ وَمُدَنَرٍ^(٣).
وَالْوُرُقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْثَى وَالشَّمْسُ تَرْفُلُ فِي قَمِيصٍ أَصْفَرٍ^(٤).
مَا أَصْفَرَّ وَجْهَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا إِلَّا لِفَرْقَةٍ حُسْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرِ

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكثيب المشرب بحمرة في تلك الجنة البعيدة بين الفرات والكوثر ل يتمتع هناك بالغبوق أو خمر المساء، وبمناظر الأزهار المفضضة والمذهبة، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكاة تنثى، يثنيها النسيم العليل والشمس تتبختر في قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي المتطبب في خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصبحا يطل على الطبيعة^(٥):

فَقُمْ نَبَاكَرْهَا لِلْأَصْطَبَا حِ

(١) منعرج الكثيب الأعفر: طريق الكثيب المخالط لونه حمرة. الكوثر. نهر بالجنة ولعله يريد دجلة.

(٢) القهوة: الخمر. اغتباقها: شربها في المساء. المرافف: الشفاه.

(٣) المدرمة: الفضية من الدرهم. والمدنرة: الذهبية من الدينار.

(٤) ترفل: تتبختر.

(٥) مغرب ١/ ٢٨٢ وانظر في ترجمة أبي الحجاج وشعره أيضًا اختصار القدح المعلي لابن سعيد ص ١٦١.

والشَّهْبُ تَنَثَّرَ من خَيْطِ الصَّبَاحِ

والْقَضْبُ تَرْقُصُ في أَيْدِي الرِّيحِ

والكَاسُ ذاتُ ابْتِسَامِ

والصُّبْحُ دامي الحَسَامِ

على غناء الحِمَامِ

والظُّلَامُ قَتِيلٌ

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامي لإحدى موشحات أبي الحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا في حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت في أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هي نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى في هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تبشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنائير تنثر في عرس والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح، والحمام يشدو نيغني والخمر في كئوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامي البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حرته القانية تلطخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافي في وصف نهر^(١):

حكى بمحانيه انعطاف الأرقام^(٢).

تبدى خضيباً مثل دامي الصَّوَّارم^(٣).

ونهر كما ذابت سبائك فضة

إذا الشَّقَقُ استولى عليه احراره

(١) أزهار الرياض ٣/ ٢٢٣.

(٢) الأرقام: الأفاعي.

وتحسبه سُنَّتٌ عليه مَفَاضَةٌ
ولإرهابِ هَبَّاتِ الرياحِ النواسمِ^(١)
وتُطلعه في دُكْنَةٍ بعد زُرْقَةٍ
ظلالٌ لأدواحٍ عليه نواسم

وهو يجعل ما في النهر سبائك فضة سائلة، ويشبهه في انعطافاته يمينا ويسارا
بانعطافات الأفاعي، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوره سيفاً دامياً، وسقط عليه الظل
فتصوره درعاً لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتحيل لونه داكناً بعد أن كان أزرق
صافياً. ويقول إبراهيم^(٢). بن سهل الإشبيلي:

الأرض قد لبست رداءً أخضرا
والطلُّ يثرُ في رباها جوهراً
فاحت فخلتُ الزهر كافورا بها
وحسبتُ فيها التُّربَ مسكاً أذفراً^(٣)
وكان سوسنها يصفح وردها
ثغر يقبل منه خذاً أحمرأ

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنها الطل يثر في رباها كل ما في
حجره من جواهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها

(١) خضيباً: ملوناً. الصوارم: السيوف.

(٢) سنت: صبت. مفاضة: درع.

(٣) انظر في ابن سهل وترجمته وشعره المغرب ١/ ٢٦٩ واختصار القدح ص ٧٣ والفوات ١/ ٢٣ والمنهل

الصافي ١/ ٥١ وهو يهدي أسلم في شبابه توفي سنة ٦٤٦. طبع ديوانه محققاً ببيروت.

(٤) أذفرا: عطراً.

مسكا أذفر أو عاطرا، وكأن سوسنها الأبيض الجميل حين يصفاح وردها ثغر يقبل خدا
ياقوتيا. ويقول أبو الوليد^(١) بن الجنان:

هات المدام وقد ناح الحمام على هذا الظلام وجيش الصبح في الطلب
والسحب قد بددت في الأرض تضمه الشمس في ثوب من الذهب
لؤلؤها

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح في إثره، وهو ينسحب
بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن
التقطت كل هذه اللالي؛ ولمتها أو جمعتها في ثوبها الذهبي. ولابن خاتمة في بلبل وردية
اللون تغني في روض مكتظ بالورود والأزهار^(٢):

ووردية الجلباب أعجبها الورد فغنت وما بالغانيات لها عهد
أت وبطاح الأرض تجلى عرائسا وفي كل غصن من أزاهره عقد
وقد أبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة ثغر ومن وردة خد
فغنت غناء الشرب أنشتهم الطلا وحنت حنين الصب باح به الوجد^(٣).

(١) راجع في ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب ٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦.

(٢) الديوان ص ٩٨.

(٣) الطلا: الخمر.

وهو يصور البلب الوردية قد أعجبها ورد الروض وخليها، فتغنت له غناء ساحراً
لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أتت الروض في وقت الربيع، وقد ازدانت
بطاح الأرض حتى لكانها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت
الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - ثغر، ومن وردة - وما أكثر
الورود - خد. وأسكر البلب المنظر الرائع فانتشت وغنت وحتت حين الصب المغرم
الولهان. ولابن زمرك في وصف زهر القرنفل بجبل الفتحة أو جبل طارق^(١):

حكى عَرَفَ مَنْ أهوى وإشراق
خده^(٢).

رعى الله زهراً ينتمي لقرنفل

كما امتنع المحبوب في تيه صده

ومنبته في شاهق متمنع

أعانق فيها القضب شوقاً لقدده^(٣).

أميل إذا الأغصان مالت بروضة

وأهوى أريج الطيب من عرف نده^(٤).

وأهفو لخفاق النسيم إذا سرى

(١) أزهار الرياض ٢/ ٤٠.

(٢) العرف: الشذا وطيب الرائحة.

(٣) القضب: الغصون.

(٤) سرى: سار ليلاً. أريج: فائح. الند: عود طيب الرائحة.

وهو يدعو لزهر القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكي عرف من يهاها وطيبها، ويقول إن منبته في أعالي جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب في صده وتيهه وخيلائه، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان في روضة عانقها شوقاً لعناق محبوبه، ويقول أيضاً إنه يحن إلى خفاق النسيم مساء يظنه من قبل محبوبه، ويهوى أريج الطيب يظنه من أريجه الذكي العطر. وحرى بنا أن نلم إمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلي بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سافر.

عبادة^(١) بن ماء السماء الأنصاري:

هو عبادة بن عبد الله الأنصاري من ذرية سعد بن عبادة الخزرجي أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتماء إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف واضحاً عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدي تلميذ أبي على القالي وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبي عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائز، وسُجِّل اسمه في ديوان الشعراء وأعليت مرتبته فيه وأعلى عطاؤه. وتدور الأيام وتكون فتنة قرطبة التي ظلت نحو عشرين عاماً. ويعتلي عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ٤٠٧ ويدرور

(١) انظر في ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ١/ ٤٦٨ وما بعدها والجذوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبغية رقم ١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ١/ ٤٢٥.

العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح في هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفي مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة في مديح أئمتهم، غير أنهم جميعاً لم يكونوا يستظهرون شيئاً من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهباً فاغتم غماً شديداً، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه في قرطبة معللاً ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً مؤرخاً أديباً إذ كان له كتاب في أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد في المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا في حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذي "نهج لأهل الأندلس طريقتهما - وكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولم يؤخذ إلا عنه". ومر بنا أن مقدم بل معافى القبري - وهو عربي - أول من ابتكرها وأن الرمادي الكندي - وهو أيضاً عربي - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجي الأنصاري فأعطاهما شكلها النهائي. ومر بنا نقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدي عرب تطويراً منهم - كما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء في زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها ويحسن الأداء الموسيقي وبجمال الأخيلة، وله مبهورًا بجمال صاحبتة وجمال أناملها التي شبهها بالعناب:

سقى الله أيامي بقرطبة المنى
سرورًا كرى المنتشى من شرابه
وكم مزجت لي الراح بالريق من
أغرّ يريني الحسن ملء ثيابه
يدي
تلعللني فيه الأمانى بوعدها
وهيهات أن أروى بورد سراه^(١).
سل العنم الادي من السجف دالفا
لتعذيب قلبي هل دمي من خضابه^(٢).

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تسقى سرورًا ترتوي به وتنتشي كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائها ووعددها، غير أنه كان دائمًا سرابًا لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب أناملها البادي من الستر لتعذيب قلبه من دمه، كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل، ويقول:

اجل المدامة فهي خير عروس
تجلو كروب النفس بالتنفيس

(١) الورد: الماء الذي يرده الناس، وقد أضافه إلى السراب تخيلاً.

(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل. السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفا: مقبلاً.

واستغنم اللذات في عهد الصبا وأوانه لا عطر بعد عروس

وهو يتصور المدامة عروسًا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهمومها، ويدعو إلى اغتنامها في عهد الصبا، فهو عهدا، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: "لا عطر بعد عروس" فالعطر إنما تحتاج العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدًا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدخر المثلثات الذهبية المائة التي ضاعت منه بالقة.

عبد^(١) الرحمن بن مقانا :

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا، من قرية القَبْدَاق من قرى أشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئاً عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية في أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء في مدن سواها. وملتقى به في أوائل عصر أمراء الطوائف متردداً على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التَّجِيبِي المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه "جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة". وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا عليه نواهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذي خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخاً أن يكف عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضي فيها بقية حياته معنياً بضیعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغرس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرف ابن بسام بابن مقانا قائلاً: "من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين في عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله" وكأن ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف في أيام الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخاً لا كهلاً.

(١) انظر في ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة ٢/ ٧٨٦ وما بعدها والحميدي ٢٦٠ والبغية رقم ١٠٤٤

وأم قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلاً:

قد بدا لي وَضَحُ الصُّبْحِ المِينِ فاسْقِنِيهَا قبل تَكْبِيرِ الأَذِينِ^(١).
 مَزَّةٌ صَافِيَةٌ مَشْمُولَةٌ عَتَّقَتْ في دَنِّهَا بِضْعَ سِنِينِ^(٢).
 مَعَ فِتْيَانٍ كَرَامٍ نُجِبِ يتهادون رياحين المجون
 وعليهم زاجرٌ من حِلْمِهِم ولديهم قاصرات الطرف عين^(٣).
 وَيُسْقَوْنَ إذا ما شَرِبُوا بأباريقٍ وكأسٍ من مَعِينِ^(٤).

وابن مقانا يترأى له ضوء الصبح في السحر، فيهتف بالساقى أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مزة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتیان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضان البصر فائنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصبوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجومًا ورياضًا وأزهارًا ويبدع خياله بمثل قوله:

(١) الأذنين: نداء الأذان للصلاة.

(٢) مزة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة: باردة.

(٣) قاصرات الطرف: يفضضن من أبصارهن عين جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.

(٤) معين: عين جارية.

ومصاييح الدجى قد أطفئت
والثريا قد علت في أفقها
وانبرى جنح الدجى عن صبحه
وجناح الجو قد بلله
والندى يقطر من نرجسه
كدموع أسبلتهن الجفون^(٣).
في بقايا من سواد الليل جون^(١).
كقضيبي زاهر من ياسمين
كغراب طار عن بيض كنين^(٢).
ماء ورد الصبح للمصطحين
كدموع أسبلتهن الجفون^(٣).

وهو يقول إن مصاييح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى في بقايا من سواد الليل، وتعالى الثريا في السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك الياسمين بدوره على التواري والانطفاء، وأخذ ظلام الليل ينبرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، وورد الصبح بل ماؤه بلل جناح الجو تحية للمصطحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورد وكأنه دموع أسبلتها جفون. وهي صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكدية والشحاذة الأدبية في الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجري فيها من عذوبة وسلاسة وروعة في الموسيقى والتصاوير.

(١) جون: سوداء.

(٢) جنح: ظلام. كنين: مستتر.

(٣) أسبلتهن: أرسلتهن.

علي^(١) بن حصن:

هو أبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيًا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذته وزيرًا له معه، وكان في ابن زيدون شيء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنفس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوها أحيانًا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان في ابن حصن تهور وطيش فزلت قدمه وأدياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفايحًا للدماء قتل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية علي بن حصن قائلًا عنه: "أحد من راش سهام الألفاظ بالسحر الحلال، وشق كرائم المعاني عن أفتن من محاسن ربات الحجال، بين طبع أرق من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر، وأوسع من الدهر". ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا في شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وينوه بروعة تصاويره، ومن قوله في إحدى خرياته المأجنة:

خَضَبَتْ بَنَانٌ مَدِيرَهَا بِشُعَاعِهَا فَعَلَّ الْعَرَاةَ فِي شِفَاهِ الرَّبِّ

(١) انظر في علي بن حصن وترجمته وشعره الذخرية ١٥٨/٢ وما بعدها والحميدي ص ٢٩٦ والبغية ص

والربرب: القطيع من بقر الوحش، يقول إن الخمر خضبت بنان الساقى بشعاعها
كما يخضب بنات العرار الصحراوي شفاه قطعان البقر الوحشي. وهي صورة طريفة
لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يترأى لهم في البقر
الوحشي هناك من جمال. ويقول في خمرية أخرى:

سعة من البلار

إذا بدت لك في قطـ

سب في زجاج نهار

حسبتها شفقا صـ

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تصب لا
في زاج بلوري أو مصوغ من بلور بل في زجاج مصوغ من نهار مضيء. ويخاطب
إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمهامها والشمس جانحة للغروب:

عروس من الحسن منحوتة

كأنك والشمس عند الغروب

لك والشمس أعلاه ياقوته

غدا النهر عقدك والطود تاجـ

فالنهر وما يحف به من أزهار عقد نفيس يتألق في جيد إشبيلية والجبل من ورائها
كأنه تاج معقود على رأسها ترصعه في أعلاه ياقوته الشمس البديعة. ومن قوله في
وصف هديل:

وما هاجني إلا ابنُ ورقاء هاتِفٌ

على فنن بين الجزيرة والنَّهْرِ^(١).

مُفَسِّقٌ طوقَ لازورديَّ كلِّلٍ

مُوشَى الطلَّى أحوى القوادِمَ
والظَّهْرِ^(٢).

أدارَ على الياقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ

وصاغَ على الأجفانِ طوقاً من التَّبرِ^(٣).

حديداً شَبَا المنقارِ داجٍ كأنَّه

شَبَا قَلَمٍ من فِضَّةٍ مَدَّ في حَبْرٍ^(٤).

توسَّدَ من فَرعِ الرَّاكِ أريكةً

ومالَ على طيِّ الجناحِ مع النَّحْرِ^(٥).

ولما رأى دَمْعِي مُراقاً أرابه

بكائيَ فاستَوَلَى على العُصْنِ النَّصْرِ^(٦).

وحثَّ جناحيَّه وصَفَّقَ طائراً

وطارَ بقلبي حيثُ طار ولا أدري^(٧).

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيل الحمام المبعوم وأنه يبكي
وينوح محزوناً لفراق أليفته، وهو يقول في مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقاً

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.

(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلل: صدر. لازوردي: أزرق أو بنفسجي. الطلَّى: أصل العنق.

أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادِم: ريش الجناح الطويل.

(٣) التبر: الذهب.

(٤) شبا: حد، سن.

(٥) أريكة: منصة، مقعد. طي: جانب.

(٦) أرابه: شككه وحيره.

(٧) صفق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة في رسمها رسماً دقيقاً، فطوقه فستقى اللون وصدره لزوردي أو أزرق بنفسجي وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤتي عينيه، ومن حولهما أهذاب ذهبية. وحد منقاره أسود داج كأنه سن قلم من فضة غمس في مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصبة، ومال برأسه محزوناً على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحس الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبتة فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فراه يبكي واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحركهما طائراً، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوي منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن بسام من شعره قوله في وصف سحابة:

بكرت سَحْرَةً فُبَيْلَ الذَّهَابِ تَنْفُضُ الْمِسْكَ عَنْ جَنَاحِ الْغَرَابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديماً ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأقطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفي ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أمية^(١) بن أبي الصلت:

(١) انظر في أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء ٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٥٠١ والتكملة

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشب - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرج على أيديهم طبيباً متفلسفاً وشاعراً بارعاً يثقف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفي أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحباً والدته، وقد تكون الرغبة في التزود من علماء المشرق أو الرغبة في الحج من دواعي تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهديّة بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز الصنهاجي (٤٥٤-٥٠١هـ) إذ كان مقصداً للشعراء لما لجيزهم به من الجوائز السنية، وامتداحه مراراً، وظل في حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم زجوا به في سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة في أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكب عليها بقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهي مبالغة واضحة. وفي كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفي صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه في السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو في سجنه، ويثنى على قصيدتي أرسل بهما إليه في مديح الأفضل بن بدر الجمالي وزير مصر حينئذ (٤٨٧ -

٢٠٣/١ وتحفة القادام ٣ وابن خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب لابن عذاري ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١-٢٧٠ وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص ٨٠ ومراة الجنان لليافعي ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب ٨٣/٤.

٥١٥هـ) وقد أنشد العماء في الخريدة قطعة من مدحة لأية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفي كما ذكرنا. وعاد إلى المهديّة سنة ٥٠٥ في عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩هـ) وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتي ذكرهما وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه علي أمير المهديّة بعده (٥٠٩ - ٥١٥هـ) وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر منهيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعنى فيها بذكر مدائح الأفضل الجمالي وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد في المغرب: "عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التي هي الآن بأيديهم". ويبدو من هذه العبارة أنه لحن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتاباً في الموسيقى أهداه إلى الأمير علي بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه في هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جل قدره عند الحسن بن علي خليفة أبيه كما جل عند أبيه وجده، وظل ينزر هناك منزلة جلييلة إلى أن توفي سنة ٥٢٩. وله مصنفات مختلفة في التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب في المنطق سماه: "تقويم الذهن" وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهي أهم نص عن شعراء مصر في فواتح القرن السادس الهجري، وله أيضاً كتاب الحديث في شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبي وكتاب الملح العصرية في شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد في النهايين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن

العماد في الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهد لها بقوله: "كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحوك، نظيم السلك" وهو موزع بين مديح ورثاء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخیل ومن قوله في الهرمين:

بَعِشْكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا عَلَى طُولِ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ هَرَمِيٍّ مُضَرٍّ
أَنَا فَا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوْ النَّشْرِ^(١).
وَقَدْ وَافِيَا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا كَأَنَّهُمَا ثُدْيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرٍ^(٢).

وفي هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التي ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مسرب من مياه النيل يصب في قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

لِلَّهِ يَوْمِي بِبَرَكَةِ الْحَبَشِ وَالْأَفَقُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالْغَبَشِ
وَالنَّيْلُ تَحْتَ الرِّيَّاحِ مُضْطَرَبٌ كَصَارِمٍ فِي يَمِينِ مَرْتَعَشٍ^(٣).

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السماك: نجم نير.

(٢) النشر: المرتفع من الأرض.

(٣) صارم: سيف.

ونحن في روضة مفوفة
دبج بالنور عطفها ووُشى^(١).
قد نسجتها يد الربيع لنا
فنحن من نسجها على فرش
فعاطني الراح إن تاركها
من سورة الهم غير متعش^(٢).

وهي نزهة ببركة الحبش في يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة في الأبيات بديعة، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف في يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبداً، وهو وصحبه في روضة أنيقة وشيت جوانبها وزينت بالنور، ومد الربيع من تحتهم بساطاً سندسياً. وفي هذا الموكب الرائع الذي ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجمالها يسأل صاحبه أن يناوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم في طوايا نفسه. ويعلن مراراً أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتن في مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قامت تدير المدام كفها
شمس ينير الدجى محياها
للمسك ما فاح من مرأشفها
والبرق ما لاح من ثناياها
غزالة أخجلت سميتها
فلم تشبه بها وحاشاها^(٣).
هبها لها حسنها وبهجتها
فهل لها خدّها وعيناها

(١) مفوفة: مزخرفة.

(٢) سورة: شدة.

(٣) غزالة: يريد صاحبتة، وتسمى بها الشمس.

والأبيات تملك القلوب والأسباع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها في سياقها،
وأيضاً برقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والردف والكثيب
والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبته والشمس، وهب للشمس حسننها
وبهجتها فهل لها خدها الجميل وعيناها الفاتنتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

ابن^(١) خفاجة:

هو أبو اسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة
بجزيرة شقر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت
جزيرة وفي المغرب: أنه "عروس الأندلس المقلدة مننهرها بسلك، المتلفعة من جناتها
بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام". وفي هذه اللجنة الفيحاء نشأ ابن
خفاجة في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب
العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعرياً رفيعاً بأشعار عبد المحسن

(١) انظر في ابن خفاجة وترجمته وشعره الذخيرة ٣/ ٥٤١ وما بعدها والقلائد ص ٢٣١ والمغرب ٢/ ٣٦٧
والمطرب ص ١١١ وابن الأبار في التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ١٧٥ ومعجم الصديقي ص
٥٩ والمطمح ص ٨٦ وبغية الملتمس ص ٢٠٢ وابن خلكان ١/ ٥٦ والخريدة ٢/ ١٤٧ ومقدمة ابن
خلدون (طبع نهضة مصر) ص ١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د. السيد مصطفى غازي (طبع منشأة
المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته في كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة
بدار افمعارف) ص ٤٤٤ وما بعدها وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء الطوائف والمرابطين للدكتور
إحسان عباس ص ٢٠٤ وما بعدها.

الصوري والشريف الرضى ومهيار والمتنبي كما يقول في مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصوري في مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار في ذكره الطعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامي، أما المتنبي فيقول إنه تأثر به في لف الغزل بالحماسة. ويقول أيضًا في مقدمة ديوانه إنه ظل في شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة في شعره، متغنيًا فيه بحب وجداني وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التي نشأ في حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحًا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق بضیعة ورثها عن آبائه، وفي الديوان مقطوعة سينية نظمها في زيارة للمتعتصم بن صمادح دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس في الديوان وراءها مدحة لا في ابن صمادح ولا في غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات في الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكأن هذا العصر كان عبثًا غليظًا على نفسه، كما كان عبثًا غليظًا على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه في الترف والمجون، حتى ضاعت طليطة سنة ٤٧٨. ونظن ظنًا أن هذا الحادث الخطير هو الذي جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل في إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا في الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذي جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء في ديوانه، ولا يلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه في نفس السنة فينتعش الأمل في نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هي الفترة

الثالثة في حياته، وفيها ظل يدبج المدائح في أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلاً
 ذكل - كما يقول في مقدمة ديوانه - بمديح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاية
 المرابطين على شرقي الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفي أخيه تميم وإلى
 غرناطة ثم مرسية بشرقي الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفي على بن
 يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفي أبي بكر بن تيفلويت ممدوح ابن باجة. وفي كل
 هذه المدائح وغيرها في تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أو عطاء، وإنما
 كان - كما قال في مقدمة ديوانه "مصطنعاً، لا متجعاً، ومستميلاً، لا مستنيلاً اكتفاء بما
 في يده من عطايا منان وعوارف جوادٍ وهاب". ونظن ظناً أنه عاش فترة في حياته
 الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاماً، مفكراً في مصيره وفي متاع الحياة
 الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفي هذه الفترة نظم طائفة من شعره في
 العظة والاعتبار والتوبة والابتغال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعنى كما يقول في
 مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره "إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى"
 وعنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر في بعض شعره -
 تقريباً لله ورسوله. وكان في هذه الفترة الرابع من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين
 الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويخر مغشياً
 عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاماً.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره
 واشتهر به وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون الجنان نسبة إلى جنان الأندلس
 وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلل هو نفسه لهذه النزعة في ص ٢٩٠ بديوانه قائلاً:

"إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنه طائر ما هو إلا (إما) لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبله، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادق، وبطاح عريضة وأرض اريضة^(١). فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمراء، فصار قوله فيه عن كلف^(٢) لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع". ومن قوله في وصف روض صباحاً:

وكِأَمَةٍ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا	عن صَفْحَةٍ تَنَدَى مِنَ الْأَزْهَارِ ^(٣) .
فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثُغُورُ أَقَاخِهِ	أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِدْرَارِ ^(٤) .
وَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاخِكِ	وَالطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجُهُ الْأَشْجَارِ
مَتَقَسَّمِ الْأَحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنِ	مِنْ رَدْفٍ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ ^(٥) .

والصور تتراكم في القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها الندية وثغور القاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه

(١) أريضة: كثيرة النبات.

(٢) كلف: هيام.

(٣) كِأَمَةٍ: أكمام وهي جمع كم بكسر الكاف: برعوم الزهرة.

(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة.

(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان: وسطه. قرار: منخفض من الأرض.

الأشجار، وأحاطه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع
برياحينه لقرار. ويقول في وصف عشية:

وَعَشَى أَنَسٍ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةً فِيهِ يَمْهَدُ مَضْجَعِي وَيَدْمُثُ^(١).
خَلَعْتُ عَلَىَّ بِهِ الْأَرَاكَةَ ظِلَّهَا وَالْغُصْنَ يَصْغِي وَالْحَمَامُ يَحْدُثُ^٢
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةً وَالْبَرْقُ يَرْقِي وَالْغَمَامَةُ تَنْفُثُ^(٣).

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة في مقعد ممهد
لطيف، والحمام يحدث والغصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد أصفر
وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشعل البرق كأنها رقى تريد أن ترقبها والغمامة
تنفث كما ينفث الراقي في العقد. ومن قوله في إحدى خمرياته:

وَأَرَاكَةَ ضَرَبْتُ سَاءً فَوْقَنَا تَنْدَى وَأَفْلَاكُ الْكُتُوسِ تَدَارُ^٤
حَقَّتْ بَدْوُحَتِهَا مَجْرَّةً جَدُولٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ نَجُومَهَا الْأَزْهَارُ^٥
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا حَسَنَاءُ شَدَّ بِخَصْرِهَا زَنَارُ^(٦)
زَفَّ الزَّجَاجُ بِهَا عُرُوسَ مُدَامَةٍ تَجَلَّى وَنَوَارُ الْغُصُونِ نِثَارُ^(٧).

(١) يدمث: يمهد ويوطأ بتشديد الطاء.

(٢) تنفث: تنفخ.

(٣) زنار: حزام يشد في الوسط.

(٤) النثار: ما ينثر على العروس في الزفاف من الدراهم والدنانير.

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التي جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكئوس تدار وكأنها النجوم تدار في الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاماً إلى خصرها. وهذا زجاج الكئوس يزف المدامة إلى الشارين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقي به المحبون في هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، وهي ليست كثرة معانٍ إنما هي كثرة تصاوير، وهي ليست عيباً بل هي حسنة وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساساً عميقاً، وهو إحساس تفرد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء جميعاً، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول في أبي بكر بن تيفلويت وإلى سرقسطة:

جَلَّتِ الدُّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ

وَجَلَا الْإِمَارَةَ فِي رَفِيفِ نَضَارَةِ

طَلَعَتْ وَبَيْنَ غَمَامَةٍ مِدْرَارِ

مَتَقَسَّمٌ مَا بَيْنَ شَمْسٍ دُجْنَةٍ

مَتَنَفَّسٌ عَنْ رَوْضَةٍ مِعْطَارِ

أَرَجَ النَّدَى بِذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الري والنضارة، حتى وكأنها أسبغت على الليل الداجي حلة من الأنوار، وما أروع طلعتة كأنها طلعة شمس من دجنة مظلمة تضيء للأبصار، وكأنها يدها غمامة ما تزال تهمني بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره في الندى ليملؤه بأريجها العطر، حتى وكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله في رثاء صديق عزيز:

في كل نادٍ منك رَوْضٌ ثناءً وبكل خدٍّ فيك جدُّولٌ ماءً
ولكل شخصٍ هِزَّةُ الغُصْنِ النَّدَى تحت البُكاءِ ورَنَّةُ المِكَاءِ

وهو يقول - مخاطباً صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنيته وانهار دموعه إلى ما يشبه هزة الغصن الندى ورنة طائر المكاء الصغيرة يبكي أليفته.

ولم تتمثل حتى الآن بشيء من شعر الطبيعة الذي نظمته في الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل في مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مراراً، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة في الديوان بأنه قالها في الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سراه في الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائماً، وكأنها يصف رحلته الطويلة في الحياة، ويلتقي في سراه بجبل ضم شاهق شامخ ويقيم معه حواراً ينطقه فيه بما يدور في نفسه، إذ يقول له: كم آوى إلى واستوطنني من

فتاك ونساک وكم مربى من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وما كان إلا أن طَوَّتهم يَدُ الرَّدى
وَأما خَفَقَ أَيْكِي غيرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ
وطارت بهم رِيحُ النَّوى والنَّوَابِ
فحتى متى أَبْقَى وَيَظْعَنُ صَاحِبُ
ولا نَوْحُ وَرَقِي غيرَ صَرَخَةٍ نَادِبِ
فلسى بما أَبْكى وَسَرَى بما شَجَى
أودَّع منه راحلاً غيرَ آيبِ
وكان على لَيْلِ السَّرى خيرَ صَاحِبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعاً صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شيء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة في الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به متلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد^(١) بن سفر:

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين في المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول

(١) انظر في محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب ٢/ ٢١٢ والرايات ص ١٠٦ والتحفة رقم ٦٦.

ابن سعيد فيه: "شاعر المرية (بشرقي الأندلس) في عصره الذي يغنى ما أنشده من شعره عن الإطنبا في التنبيه على قدره" وأشاد به المقرئ في النفع مراراً بمثل قوله: "الإحسان له عادة" وقوله: "أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا". ويقول ابن سعيد: "أعجب ما قيل في مد نهر إشبيلية وجزره (لتأثره بجزر المحيط الأطلسي ومده) قوله:

جئت الجزيرة والخليج يحفها يشكو إليها كي تجيب حوارهُ
شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحه هزءاً فضم من الحياء إزارهُ

وهو يجعل الخليج شاكياً إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقاً جيب قميصه أو بعبارة أخرى فتحة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيهما يطلب ثاره، وهو يكتفي بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذي كان رابضاً على الدوح هزءاً به، فاستحيى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهو يكتفي بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب في زورق شراعي بنهر، وربما كان أيضاً نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادي الكبير:

لو أبصرت عيناك زورق فتية يبدي لهم بهج السرور مراحهُ
وقد استداروا تحت ظل شراعه كل يمد بكأسٍ راحِ راحهُ
لحسبته خوف العواصف طائراً مد الحنان على بنيهِ جناحهُ

وهو أيضًا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا في زورق مريحين
مسرورين ولم يلبثوا أن يجمعوا في ظل شراعه يتهادون كثوس الخمر وكل منهم يمد بها
لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية
الرياح الشديدة طائر في عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفًا عليهم من
العواصف المباغته. ويقول:

يا من رأى النهر استثار به الصبا خيالاً لإرهاب الغصون الميِّد^(١).
لما رأتها سددت تلقاءه قرنت به خيالاً تروح وتغتدي
وغدت تدرعها ولم تبخل لها شمس الضحى بمسامر من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهب لإرهاب الغصون المتمايلة، ولقيته الغصون
بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهة آتية، وأخذت تلبس النهر دروعاً من ظلالها للقاء
خيال الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كي تحكم تلك الدروع على النهر،
وهو خيال بديع. ويقول في وادي المرية بلدته:

اشرب على شذو الحمام فإنه أشهى إلى من الغريض ومعبد
أتراه أطربه الخليج وقد رأى تصفيقه تحت الغصون الميِّد
وكأنهن رواقص من فوقه وبها من الأزهار شبه مقلد^(٢).

(١) الميِّد: المتمايلة.

وهو يجعل شذو الحمام في سمعه أروع من غناء مغنى مكة والمدينة: الغريض ومعبد
المشهورين في العصر الأموي، ويقول: كأنها أطربه شذو المياه وخريرها تحت الغصون
الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل في ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة
أخيلته وتصاويره.

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد:

بتخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي منذ الجاهلية ألواناً ثلاثة، هي الندب أو النواح لموت ذوي الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبياناً لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة في الشعر الأندلسي، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء والزوجات والإخوة، وملتقي بابن عبد ربه ملتاعاً لفقد ابنين له هصر الموت غصن أكبرهما وهو في ريعان شبابه، أما الثاني فكان صبياً لم يبرح زمن الطفولة، وله فيهما مراث مختلفة، ومن قوله في الشاب ملتاعاً بعد فترة من موته^(١):

بَلَيْتَ عِظَامَكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ	وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ	وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمَّتَهُ	لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْمَلْحَدُ
بِالْيَأْسِ أَسْلَوْا عَنْكَ لَا بِتَجَلُّدِي	هِيَاهُتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلُّدُ

(١) البيمة للثعالبي ٧٦ / ٢.

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غياباً لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قرة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبي اسحق الإلبيري يبكي زوجته^(١):

عَجَّ بِالْمَطَى عَلَى الْيَابِ الْغَامِرِ وَارْبَعٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ نَاطِرِي^(٢).
 وَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ صَدَعَتْهُ صَدْعًا لَمَّا لَهُ مِنْ جَابِرِ
 وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُهُ فِي وُدِّهِ لَقَضَيْتُ يَوْمَ قَضَى وَلَمْ أَسْتَأْخِرِ^(٣).
 وَشَقَقْتُ فِي خِلْبِ الْفَوَادِ ضَرِيحَهُ وَسَقَيْتُهُ أَبَدًا بِهَاءِ مُحَاغِرِي^(٤).

وهو ينادي صاحبه أن يقف الركب على قبر محبوبته وقرأ عليه السلام من ملتان صدعت بفراقها قلبه صدعاً لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن أُلحد معها في قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها في سويداء الفؤاد ضريحاً وسقيته أبداً بدموعي المنهلة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبي الوليد الباجي ابنان مغتربان فندبهما ندباً حاراً بقوله^(٥):

(١) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع دمشق) ص ٧٤.

(٢) عَجَّ: اعطف. الياب: القفر. الغامر: المغمور بالتراب. اربع: قف.

(٣) قضيت هنا: مت.

(٤) خلب الفؤاد: حجاب. محاجر العينين: ما يحيط بهما.

(٥) المغرب ١ / ٤٠٥ وانظر أيضاً في ترجمة أبي الوليد الذخيرة ٢ / ٩٤ ومعجم الأدباء ١١ / ٢٤٦ وابن

رَعَى اللهُ قَبْرَيْنِ اسْتَكَانَا بِلَدَةٍ هُمَا أُسْكِنَاهَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَلْبِ
يَقْرُبُعِينِي أَنْ أَزُورَ ثَرَاهُمَا وَأُلْصِقَ مَكْنُونَ التَّرَائِبِ فِي التُّرْبِ^(١).
وَأَبْكِي - وَأَبْكِي - سَاكِنِيهَا لَعَلَّنِي سَأُنْجِدُ مِنْ صَحْبٍ وَأُسْعِدُ مِنْ
وَمَا سَاعَدْتُ وَرَقَ الْحَمَامِ أَخَا أَسَى سَحْبٍ^(٢).
وَلَا اسْتَعَذَبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَهُمَا كَرَى وَلَا رَوَّحْتُ رِيحُ الصَّبَا عَنْ أَخِي
وَلَا اسْتَعَذَبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَهُمَا كَرَى كَرَبٍ
وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرعى قَبْرِي ابْنِيهِ الَّذِينَ يَسْكُنَانِ فِي السَّوَادِ مِنْ قَلْبِهِ، وَيَقُولُ إِنَّهُ
يَسِرُّ بَزِيَارَةَ قَبْرِيهِمَا وَاحْتِضَانِ ثَرَاهُمَا، وَإِنَّهُ لِيَبْكِي أَمَلًا فَيَمْنُ يَنْجِدُهُ وَيُسَاعِدُهُ فِي بَكَائِهِ،
وَلَكِنْ هِيَاهُ، فَلَا مَنْجِدَ لَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَلَا مِنْ وَرَقِ الْحَمَامِ، وَلَا مَرُوحَ عَنْهُ لَا مِنْ رِيحِ
الصَّبَا وَلَا مِنْ غَيْرِهَا. وَإِنَّهُ يَبِيتُ مَسْهَدًا وَقَدْ زَهَدَ فِي كُلِّ مَتَاعِ الْحَيَاةِ مِنْ بَارِدِ عَذَابِ
وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلي مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب
أسى وحسرات، وفيها يقول^(٣):
أَأَمِنْ إِنْ أَجْزَعُ عَلَيْكَ فَإِنِّي رُزْتُكَ أَحَلَّى مِنْ شَبَابِي وَمِنْ وَفْرِي

خلكان ٣/ ٤٠٨ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

(١) الترائب: عظام الصدر.

(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء

(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلي ص ٧٠.

وإن كنت لا أخشى التراب على
التبر^(١).

برغمي خلّي بين جسمك والثرى

مقرّ الحيا أو هالة القمر البدر

هنيئاً لقبر ضمّ جسمك إنّه

تقدّمّتي إلا مشيت على الإثر^(٢).

إذا جئت عدنا فاطلبينا فقلنا

تأخر بي سعي وأثقلني وزري

ولا تعذّليني إن أقمت فربما

والمرثية تكتظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى في مطلعها أنلو واروا جسد زوجته في صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلي إلى طيفك فدونه سدود من كتائب السهد عيك، كما يقول لها أخبرت إن جيدك أصبح عاطلاً من الحلّى فخذني أدمعي مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محارمتها أو صدفتها عيني ولجتها أو يمها صدري. ويكيي ابن خفاجة ابن أخت له توفي في عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول^(٣):

وأنضح خدي تارة ثم أمسح^(٤).

أرقت أكف الدمع طورا وأسفح

أنته على عهد الشباب تجلح^(٥).

فيا لغريب فاجأته منية

(١) التبر: فتات الزهب.

(٢) عدن: الفردوس.

(٣) لديوان ص ٢٦٧.

(٤) أكف: أكفكف. أسفح: أصب. أنضح: من نصحت العين إذا فارت.

(٥) تجلح: تسرع.

ترى بي - إذا أعولتُ حزناً - حمامةً
وما أتلقى الركب أرجو تحيةً
ترنُّ وطورا أَيْكَةً تترنحُ
توافي له أو رقعةً تتصفحُ
تراه بها عنى هناك وتلمح
فعرّج على مَثوى الحبيب بنظرةٍ

وهو يقول إنه يقضي الليل مسهداً تارة يكفكف دمه وتارة يرله مدراراً، وطورا يفيض فواراً وطورا يمسه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريباً شاباً، بل لقد اختطفه اختطافاً. ويرق له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليهم معهم تحية أو رسالة وينادي كل من حوله أن يعرج على مَثوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلمحه. ويقول أبو عامر بن الحمار الفيلسوف تلميذ ابن باجة في زوجته زينب^(١):

أَزَيْنَبُ إِن ظَعَنْتِ فَإِنَّ ظَهْرًا
بَأَيَّةِ حَجَّةٍ أَسْعَى لِأَنْثَى
أَقْلَكَ سَوْفَ يَرْكَبُهُ الْمُقِيمُ^(٢)
سَوَاكِ وَأَنْتِ هَامِدَةٌ هَشِيمُ
لَقَدْ ضَلَّتْ مَوَاقِعَهَا النُّجُومُ
لَمَّا أَنْ حَلَلْتَ التُّرْبَ قَلْنَا
أَلَا يَا زَهْرَةً ذُبُلْتَ سَرِيعًا
أَضْنَ الْمِزْنَ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ

(١) الرايات ص ١٢٨ وانظر في ترجمته المغرب ١٢٠/٢ ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والوافي ٢/٢٤٢.

(٢) ظهراً: دابة، ويريد النعش أهلك: حملك.

وهو يقول لها إن الدابة التي حملتك إلى المقابر سوف تحملني قريباً، وسأظل وفيًا
لكعلى العهد لا أتزوج بعدك أبدًا. والصورة بديعة في البيت الثالث، فقد تعجب لهذا
النجم الثاقب أن يحل في التراب ومكانه السماء في أعلى عليين، ويعجب أيضًا لهذه
الزهرة العطرة أن تذبل في إبانها وشبابها سريعًا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد
النسيم، وهي أيضًا صورة بديعة.

ويكثر التأين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء
وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون
مناقبهم ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبنوههم عبد الرحمن
الأوسط المؤسس الحقيقي للحضارة العربية في الأندلس على نحو ما مر بنا في غير هذا
الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر^(١) بن حزم:

ويا حَسْرَتَا إِذْ أَظْفَرَ الْمَوْتُ بَعْتَةً	بمن لم يكن إلا به الموت يُظْفَرُ
تداعتْ إِلَى النَّعْشِ السَّحَابُ فَظَلَلَتْ	سريراً عليه السيد المتخيرُ
سَقَى اللَّهُ قَبْرًا بِالنَّخِيلِ غَمَامَةً	تكادُ إِذَا حُلَّتْ عَراها تَفْطَرُ ^(٢) .
كَأَنَّ ثَرَاهُ مَذُّهُ بِهِ سَكَنَ النَّدى	إِذَا لَاعَبَتْهُ الرِّيحُ مِسْكَ وَعَنْبَرُ ^(٣) .

(١) المقتبس (تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ١٢٥.

(٢) حلت عرا الغمامة: هطلت كثيرًا. تفتط: تشقق، كناية عن غزارة المطر.

(٣) الندى: الجود والكرم.

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنها يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه في مسيرته، ويدعو لقبره في النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ثرى القبر مذكسكه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودي زعيم العرب بغرناطة فيؤبنه مقدم بن معافى القبري مبتكر الموشحات بقوله^(١):

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو	وَقَدْ حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسٌ ^(٢) .
لَا اخْضَرَّتِ الْأَرْضُ وَلَا أَوْرَقَ الْ	عُودٌ وَلَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ
بَعْدَ ابْنِ جُودِي الَّذِي لَنْ تَرَى	أَكْرَمَ مِنْهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ
دُمُوعٌ عَيْنِي فِي سَبِيلِ الْأَسَى	عَلَى سَعِيدٍ أَبَدًا حُبْسٌ ^(٣) .

فقد دفن الجود مع سدي ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورد الشجر ولا أشرق الشمس بعد سعيد الذي لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاغا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم في إقليم غرناطة من

(١) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (أنظر الفهرس).

(٢) رمس: قبر.

(٣) حبس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربي من سلالة عربية، كما أشركنا إلى ذلك في حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنات الكفيف يرثى أبا الحزم بن جمهور أمير قرطبة ويهنئ بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد^(١):

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزْءِ الَّذِي فَجَعَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي وَقَعَا
أَبُ كَرِيمٍ غَدَا الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ وَابْنُ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا^(٢).
لِلَّهِ شَمْسٌ ضُحِيَ فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ فَأَعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسَّعْدِ قَدْ طَلَعَا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبي الحزم جمهور ويستبشر بولاية ابنه أبي الوليد، ويقول إن جمهوراً أصبح في الفردوس ونهض ابنه الحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع سريعاً قمر يحمل السعد بعده. ولابن معلى الطرسوني يرثى عالماً من علماء العربية فيما يبدو^(٣):

رُزْءٌ بَكَتْ مِنْهُ الْعَلَا وَمَصَابٌ شَقَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا الْأَحْبَابُ
وطفقت أَلْتَمِسُ الْعِزَّاءَ فَخَانِي نَفْسٌ تَذُوبٌ وَأَمْعٌ تَسَابُ
وتلجلج النَّاعِي بِهِ فَسَأَلْتُهُ عَوْدَ الْحَدِيثِ لَعَلَّهُ يَرْتَابُ

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر في ترجمة ابن الحنات الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدي ٥٣ والصلة ٦٤٠

والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة ٢٩٧/٢ والوافي ١٢٤/٣.

(٢) اضطلع: نهض.

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢.

أَنْعَى إِلَى الإِعْرَابِ مِنْكَ مُعِيدَهُ غَضًّا كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْأَعْرَابُ
 نَاحَتْ بِكَ الْأَقْلَامُ غَايَةَ وَسْعِهَا وَبَكَتْ بِأَبْلَغِ جُهِدِهَا الْآدَابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جلل بكت منه العلا وشقت عليه الأحباب
 جيوبها حزناً، ويقول إنه التمس العزاء فخانتته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج
 الناعي فأمل أن لا يكون النعي صحيحاً. وينعيه إلى العربية التي أعادها غضة ناضرة
 كما نطق بها الأعراب في القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحاً لا ينقطع.
 ونلتقي بابن سوار وسنخصه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تيفلويت المرابطي حاكم
 سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحراً فياضاً وبطلاً مغوراً ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة
 بمثل قوله^(١):

سَلامٌ وَإِلَافٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ عَلَى الْجَسَدِ النَّائِي الَّذِي لَا أُوزَرُهُ
 أَحَقًّا أَبُو بَكْرٍ تَقْضِي فَمَا يَرَى تَرَدُّ جَماهيرُ الْوفودِ سَتُورُهُ^(٢)
 لَنْ أَنْسَتْ تِلْكَ الْقُبُورُ بِقَبْرِهِ لَقَدْ أَوْحِشَتْ أَمْصَارُهُ وَقُصُورُهُ

وابن باجة، وقد يؤس من زيارته لأبي بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاماً وروحاً
 وأراحة ورحمة. وإنه لفى ذهول فيتساءل أحقاً أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يرى ما

(١) المغرب ١١٩/٢.

(٢) تقضي: مات.

كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت ترد الجماهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت
أنسا بقبوره فقد خلفت وحشة في قصوره وأمصاره التي كان يمد عليها سلطانه، وفيه
يقول أيضًا رائيًا مؤبنا باكيا^(١):

يا صَدَى بِالثَّغْرِ جَاوِرُهُ رَمَمَ بِوَرَكْنٍ مِنْ رَمَمٍ^(٢)
صَبَّحَتْكَ الْخَيْلُ غَادِيَّةً وَأَثَارُكَ فَلَمْ تَرَمِ
قَدْ طَوَى ذَا الدَّهْرِ بَزَّةً^(٣) عَنْكَ فَالْبَسَ بَزَّةَ الْكَرَمِ^(٣)

وهو يقول أيها الجثمان الثاوي بثغر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين
جاورتهم، ويلتفت إليه قائلاً: لقد صبحتك الخيل التي تعودت أن تقودها لمنازلة
الأعداء وأثارتك كي تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضه
الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود
المنهل المدرار. ولابن الزقاق مرثية في شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكي فيه شبابه
ومضائه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه
وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبر ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام،

(١) المغرب ١١٩/٢.

(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.

(٣) بزة: شارة.

ويقول لحامله: قفوا نودعه ونقض حقه من المدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه في جوانحنا وأحشائنا، ويهتف ملتاعاً^(١):

أعزّزْ على بَضِيغَمٍ ذي سَطْوَةٍ	أَجَمَاتُهُ بعد الرِّمَاحِ رِجَامٌ ^(٢) .
أعزّزْ على بَزْهَرَةٍ مَطْلُولَةٍ	أَمَسْتُ ولا غَيْرُ الضَّرِيحِ كِمام
إن راح مهجورَ الفَناءِ فطالما	هَجَرْتُ به أرواحَها الأجسامُ
الليلُ بعدك سَرَمَدٌ لا ينقضي	فَنَكُنْنا سَاعَاتِهِ أعوامُ
يا حاملين النَّعْشِ أين جِيادُهُ	يا مُلْبِسِيهِ التُّرْبِ أين اللَّامُ ^(٣) .

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حشرات تلذع حرقها فؤاده لدعا: إنه يعز عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة في عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقاً ذريعاً، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلاً داجباً لا ينقضي أبداً وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنها

(١) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٢/ ٣٣٦.

(٢) أجما: جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف الملتف وهي محبب الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة تنصب على القبر.

(٣) اللام: الدروع.

يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذي تعود أن يراه ممتطياً جواده ممتشقا حسامه
لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن
يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثي الأندلسية
مرثية على بن حزمون للبطل أبي الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد استشهد في بعض
معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيماً، وجعل ابن حزمون مرثيته
موشحة كأنها أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول^(١):

نَضًا لِبَاسَ الزَّرْدِ وخَاضَ مَوْجَ الْفَيْلِقِ^(٢).

وَلَمْ يَرَعْهُ عَدَدُ ذَاكَ الْخَمِيسِ الْأَزْرَقِ^(٣).

وَالْحَوْرُ تَلْتُمُ خَدَّ أَدِيمِهِ الْمَمْزَقِ

وَكَانَ ذَاكَ الْأَسَدُ فِي كُلِّ خَيْلٍ يَلْتَقِي

إِذَا رَأَى الْأَعْلَاجَ وَكَبَرَا ثُمَّ انْبَرَى بِبِاصِعٍ^(٤).

رَأَيْتَهُمْ كَالدَّجَاجِ مَنْفَرَا وَسَطَ الْعَرَا الْوَاسِعِ

(١) المغرب ٢/ ٢١٧.

(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.

(٣) الخميس: جيش الإسبان، ووصفه بالزرقة لزرقة عيونهم.

(٤) يبايع: يجالذ بالسيف ونحوه.

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدرع وخاض دماء الكتيبة
الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعاً ذائداً غير مكترث بأعداد
النصارى من الإسبان لا برماحهم تنوشه، وأخذ يمزقهم شرق ممزق حتى تكاثروا عليه
فخر صريعاً، وحفت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبله وتلثم مواضع الطعنات في
جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يمحقهم محققاً،
وكان إذا نازلهم فروا في غير نظام كأنهم دجاج منفر، متناثرين في كل صوب فزعا
وهلعاً، وكأنما كان قفلاً كبيراً لبلنسية، يصد عن حماها العلوج النصارى منزلاً بهم
صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشترئاً بجهاده الفردوس
ورضوان ربه. وملتقى بمحمد بن عبد الله بن أبي القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار
الغرناطي قائلاً^(١):

قَضَى من بني الفَخَّارِ أَفْضَلَ ما جَدَّ	جَمِيلُ المَساعِي لِلْعَلا جَدُّ شائِدٍ ^(٢) .
أَمْوَلايَ مَنْ لِّلْمَشْكَلاتِ يُبَيِّنُها	فَتَجَلَّوْا عَمَى كُلِّ القُلُوبِ الشَّواهِدِ
وَمَنْ ذا يَحُلُّ المَقْفَلاتِ صِعباًها	وَمَنْ ذا الَّذي يَهْدِي السَّبيلَ لِحائِدٍ ^(٣) .

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.

(٢) قضى: مات. شائد: بان.

(٣) حائد هنا: ضال.

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده في السعي للمعالي وحله لمشكلات النحو مغلقاته، ملحا في ذلك حختي تذلل وتستبين معمياتها وصعابها، وكلما ذلل مسألة معماة أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومسائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشي في رثاء سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة^(١):

كادتْ نجومُ الأفقِ تَسْقُطُ في الثرى	لما شكتْ شمسُ العلاءِ أفولا
لا صَمَتَ إلا وهو نارٌ في الحشا	لا نطقَ إلا ما يعودُ عويلا
ضاقَتْ صدورُ الخلقِ عن أنْ فاسهم	إذ ضمَّ بطنُ الأرضِ إسماعيلًا

وهو يبالغ بمبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم في السماء كادت تسقط في الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارًا في الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنيئا وضاقَت الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو في أصله الصير على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير في حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، وملتقي بآبن شهيد وقد هذه فالج أو شلل،

(١) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.

وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزياً متقبلاً للموت عن رضا
(١):

يقولون قد أودى أبو عامر العلا
هو الموت لم يَصْرِفْ بأسجاع خاطب
أقلُّوا فقدمًا مات آباء عامر (٢).
بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
يحلُّ عرى الجبار في دار ملكه
ويَهْفُو بنفس الشارب المتساكر (٣).

وهو يقول لمن سيكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس — مثل آبائه — جميعاً يلحون عن دنياهم. إنه كأس الموت لا بد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينحيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شباهه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبي طالب المقرئ المشهور في رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة (٤):

الموت حتم والنفوس ودائع
والعيش نوم المنى تضليل

(١) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ١/٣٣٢.

(٢) أودي: مات. أقلُّوا: لا تتكلموا.

(٣) المتساكر: متعاطى السكر والمتظاهر به.

(٤) الذخيرة ١/٨١٤.

لَا يَعْصِمُ الْعَصَاءُ مِنْهُ شَاهِقٌ صَعْبٌ وَلَا الْوَرْدُ السَّبْتِي غِيلٌ^(١).

يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ مَوْمَلًا وَلَهُ رَحِيلٌ لَيْسَ عَنْهُ قَفُولٌ

يَلْهُو وَيَلْعَبُ مَطْمَنًا ذَاهِلًا وَلَهُ رَسِيمٌ نَحْوَهُ وَذَمِيلٌ^(٢).

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة في إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خدع يضلل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوي الجريء في غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مَوْمَلًا آمَلًا كَبَارًا غير مفكر في رحلته الكبرى التي ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنًا ذاهلًا عن حركته المستمرة بين عدو وإطاء نحو الموت. واغتيل بإشيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن اليناقي كان من المعجبين بالأعمى التطيلي وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحز في نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة^(٣):

خَذَا حَدَّثَانِي عَنْ فُلٍّ وَفُلَانٍ لِعَلِيٍّ أَرَى بَاقِيَّ عَلَى الْحَدَثَانِ^(٤).

(١) العصاء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق. الورد السبتي: الأسد الجريء.

(٢) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون السريع.

(٣) الديوان ص ٢٢٤.

(٤) الحدثنان: الليل والنهار.

وعن دول - جُسْن الديار - وأهلها

فَنِينَ، وَصَرَفُ الدهر ليس بفان^(١).

وعن هَرَمِي مصر - الغداة - أُمْتَعَا

بشرخ شبابٍ أم هما هَرِمَان

فالناس والدول جميعاً لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل متعا بشباب حي ناضر أو هما نشأ هرمين عجوزين لم يعرفا شباباً ولا متاعاً بالحياة، ويقول إن كل شيء - حتى في الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب في الجاهلية الذين طحتهم الحروب، ثم يقول:

فَذَلَّتْ رِقَابٌ مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ

إليهم تناهي عز كل مكان

وَأَيُّ قَبِيلٍ لَمْ يَصْدَعْ جَمِيعَهُمْ

بِكُرٍّ مِنَ الْأَرْزَاءِ أَوْ بَعَوَانٍ^(٢).

وَنَبَّهَنِي نَاعٍ مَعَ الصَّبْحِ كُلَّمَا

تَشَاغَلْتُ عَنْهُ عَنِّي وَعَنَانِي

أَغْمَضُ أَجْفَانِي كَأَنِّي نَائِمٌ

وَقَدْ لَجَّتْ الْأَحْشَاءُ فِي الْخَفَقَانِ

أَقُولُ كَأَنِّي لَسْتُ أَحْفَلُ وَانْبَرْتُ

دُمُوعِي فَأَبَدْتُ مَا يُجِنُّ جَنَانِي^(٣).

(١) جسْن: وطن. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

(٢) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.

(٣) الجنان: القلب والعقل.

فكل أعزاء العرب. واراهم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثيل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا في أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يتراءى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتنم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستتره جنانه من الهم والغم والحزن. ويقول ابن الزقاق معزيا^(١):

هُوَ الْقَدَرُ الْمُحْتَوِّمُ إِنْ جَاءَ مُقَدِّمًا فَلَا الْغَابُ مُحْرَسٌ وَلَا اللَّيْثُ وَائِبٌ
تَسَاقُ أَبْيَاتُ النَفُوسِ ذَلِيلَةً إِلَيْهِ وَتُنْقَادُ الْقُرُومُ الْمَصَاعِبُ^(٢).
وَمَا النَّاسُ إِلَّا خَائِصُو غَمْرَةِ الرَّدَى فَطَافَ عَلَى ظَهْرِ التُّرَابِ وَرَاسِبٌ

وهو يقول إن الموت قدر حتمي للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى ورده، ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطاف منهم لا بد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة في صديق مات شابا متعزيا^(٣):

إِذَا ارْتَجَعَتْ أَيْدِي اللَّيَالِي هِبَاتَهَا فغَايَةُ هَاتِيكَ هِبَاتِ نَهَابٍ

(١) الديوان ص ١٠٩.

(٢) القروم المصاعب: السادة العظام.

(٣) الديوان ص ٢١٧.

تَحَبُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلَى وَرِكَابُ^(١).
وَهَلْ مُهْجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ تَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عِقَابُ^(٢).

وهو يقول إن الليالي إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا في كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثياً ومعزياً في ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور^(٣):

مَضَى عِلْمُ الْعِلْمِ الَّذِي بَيَّانُهُ تَبَيَّنَ خَافِيهِ وَبَانَ طَرِيقُهُ
رَجُوعًا إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَحَقُّهُ عَلَيْنَا قَضَى أَنْ لَا تَوَدِّي حُقُوقَهُ
أَعَزَّيْكُمْ فِي الْبُعْدِ عَنْهُ فَإِنِّي أَهْنِيهِ قُرْبًا مِنْ جَوَارِ يَرْوِقُهُ
وَمَا كَانَ فِينَا مِنْهُ إِلَّا مَكَانُهُ وَفِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ كَانَ رَفِيقُهُ

وهو يقول إن علم العلم الذي طالما أوضح خفياته وذل مشكلاته مات، وليس أماننا إلا الصبر على هذه الفجيعة الموحشة: الصبر الجميل الذي دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وإن

(١) تحب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) اختصار القدح المعلى ص ٦٣.

التمسك بعري هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدي لهذا العالم العظيم ما ينبغي من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزيكم فيه فأني أهنته بالجوار الذي يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت في العالم الأعلى الذي صعدت إليه. ويقول ابن زمرك في رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيه وخليله حين توفي لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف^(١):

عزاء أمير المسلمين فإنها	مقادير ربّ الخلق في الخلق يُجربها
هو الموتُ وردّ للخلقة كلّها	أو آخرها تقفو سبيل أو إليها ^(٢) .
وما بيننا حي وما بين آدم	ألا هكذا سوى البرية باريها
وفي موت خير الخلق أكبر أسوة	تصبر أحرار النفوس وتسليها

وهو يعزي ابن الغنى بالله بأن الله قدر الموت على الخلق جميعاً، فالكل لابد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البرية، وفي ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وآن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

(١) أزهار الرياض ١٥٥ / ٢.

(٢) تقفو: تتبع.

محمد^(١) بن سوار:

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني، ولد ونشأ في أشبونة بغربي الأندلس، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد في أمراء الطوائف قالها فيهم "تحبباً لا تكسباً، وعمر مجالسهم بها وفاء لا استجداء" مما يدل على أنه نشأ في يسار ونعمة أغنته في شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلاً إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لستتي ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الأدبار والإقبال، إلى أن وقع في أسر النصارى وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجه غربي طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضي سلا في المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، وردت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله الغمر على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وظل الشاعر يدبج فيه المدائح، وكان القاضي من المقرين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظناً أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفي ابن تاشفين في المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مراثية على قبره، قائلاً:

سدين الذي بنفوسنا نفديه

اسمع أمير المسلمين وناصر الـ

(١) انظر في محمد بن سوار وترجمته وشعره الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من الشعراء للقفطي ٣٥٩ والوافي ١٤٣/٣ وراجع اسرة بني عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.

جُوزِيَتْ خَيْرًا عَنْ رَعِيَّتِكَ الَّتِي
 فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ مَبْرُورَةٌ
 تَصِلُ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مَوْفَقًا
 مَتَوَاضِعًا لِلَّهِ مُظْهِرَ دِينِهِ
 لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يَرْضِيهِ
 تُرْدِي عَدِيدَ الرُّومِ أَوْ تُفْنِيهِ^(١)
 حَكَمَ الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ
 فِي كُلِّ مَا تُخْفِيهِ أَوْ تَبْدِيهِ

وهو يشيد بابن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التي أجلت استرداد الإشبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذي يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته في جهاده المستميت للإشبان وغزواته المتعاقبة واصلًا الجهاد بالجهاد، إعلاء لكلمة الله في تواضع حميد. ويتوفى القاضي على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

الْعَيْشُ بَعْدَكَ يَا عَلِيٌّ نَكَالٌ
 يََا عِصْمَةَ الْفُقَرَاءِ بَلْ يَا مَا هُمْ
 قَدْ كُنْتَ آمَالِي الَّتِي أَنَا طَالِبٌ
 لَا الظِّلُّ ظِلٌّ بَعْدَ فَقْدِكَ يَا أَبَا
 لَا شَيْءَ مِنْهُ سِوَى الْعَنَاءِ يُنَالُ
 هَيْهَاتَ مَا لِلنَّاسِ بَعْدَكَ مَالٌ
 جَهْدِي وَمَتَّ فِهَاتِ الْآمَالُ
 حَسَنٍ وَلَا الْمَاءُ الزَّلَالُ زُلَالٌ

(١) تردي: تهلك.

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلاً بارداً بل أصبح يحموماً، ولم يعد الماء الزلال زلالاً عذباً، بل أصبح مرا لا يساً. وخلف القاضي في القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالي عليه نواله، ووالي ابن سوار مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته في صبي يسمى محمداً لعله كان ابناً لأبي العباس، كما ينشد له أبياتاً في رثاء قاضيين، وربما كانا من بني عشرة. ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبة.

ابن^(١) وهبون:

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بمرسية على البحر المتوسط، وهي من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقي الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفي أن تكون هي التي أنتجت ابن سيدة أكبر لغوي أندلسي صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفراً على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذي دفعه للقراءة في كتب الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلام

(١) انظر في ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة ٢/٤٧٣ والفلاذ ص ٢٤٢ والخريدة ٢/٩٥ والمطرب

١١٨ وبغية الملتبس رقم ١١٠١ والمعجب للمراكشي ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاعر ١/٥١٣.

الشتمري ويختلف إلى حلقتة، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضًا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدم الأعلام قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواه، وظل عنده إلا أيامًا كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عرش إمارته ونفاه إلى أغمات خرج من إشبيلية متجهًا إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقي قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكتبت له - على أيديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد في الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفي أستاذه الأعلام الشتمري سنة ٤٧٦ فبكاه بمرثية حارة استهلها بتأملات عميقة في الحياة والموت منشداً:

نَفْسِي وَجِسْمِي إِنْ وَصَفْتُهُمَا مَعَا	أَلْ يَذُوبُ وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ ^(١) .
لَوْ تَعْلَمُ الْأَجْبَالُ كَيْفَ مَالُهَا	عَلِمَى لِمَا امْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يَرَادُ بِنَا فَلِمَ	تَعَيَّا الْقُلُوبُ وَتَغْلَبُ الْأَهْوَاءُ
طَيْفُ الْمَنَايَا فِي أَسَالِيبِ الْمَنَى	وَعَلَى طَرِيقِ الصَّحَّةِ الْأَدْوَاءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخورات ملساء لا تلبث أن تمسها يد الفناء، وحتى صخورات الجبال لو علمت حقيقة أنها لا بد أن تتداعى يوماً لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إننا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا

(١) خلقاء: مصممة ملساء.

ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطيا ف الموت وأشباحه
تترأى لنا فيما نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدوية والأمراض كأنها تنتظر
الأصحاء. ويستمر في إنشاده:

ولقائه هل عَقَّت الأبناء	ماذا على ابن الموت من إبطاره
في طَبَعه لو صَحَّت الآراء	لَمْ ينكر الإنسان ما هو ثابت
أمواتنا - لو تَشَعَّر - الأحياء	دَفَن يَبْكِي للصحيح وإنما
حيث استقل بها الثرى والماء	ما النفس إلا شُعْلَةٌ سقطت إلى
ومن الخلاص مشقة وعناء	حتى إذا خلصت تعود كما بدت

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفرح من لقائه؟ أهو ابن عاق لأبيه؟ ولماذا
يتنكر الإنسان لما هو ثابت في كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضاً
ثقيلاً يشفى بهم على الموت، وكأنهم هو الخلقون بالبكاء لهم، وفيهم إذن يكون على من
لبوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأمات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما
النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوي إلى الجسد أو بعبارة
أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب
خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس في الدنيا
بقاء وأن الكل إلى فناء مؤبنا الأعلم الشتمري أستاذة تأبيننا رائعاً، وهو - بحق - من
شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول:

هذا اللون من رثاء الدول قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ نجد الأسود بن يعفر يرثى دولة آل محرق في الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخورنق والسدير وسنداد، حيث كانوا يعيشون في ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح بالياً مندثراً. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكهاها الشاعر أبو العباس الأعمى المكي طويلاً. وسينية البحري في إيوان كسري حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفاً بديعاً، وبكى في تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضاري. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجباً أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين في حياتهم إلى الهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لباهم مقتنعاً بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيبهم وبال غاراتهم في مواقع لا تقل عنفاً عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لابد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلاً ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغمات بقرب مراكش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطون وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضي بعد أن لقي مصير أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تترك لمرائها البواسل الذين ينازلون

مجاورهم من نصارى الشمال وينكلون بهم. وأبي أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديباً كاتباً شاعراً، وأحلاً مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالهم، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة في حلب والرشيد في بغداد، وكتب للمعتمد أن يعيش بضع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكها مثله ابن اللبانة، وحرى أن نخص كلا منهما بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلها بكلمة موجزة.

المعتمد^(١) بن عباد:

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة ي الجاهلية رزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ في الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديباً مثقفاً، فكان طبيعياً أن يعني بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشب وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال في بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شلب في الجنوب الغربي للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمى بقصر الشراحيب، وتعرف عليه

(١) انظر في المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السيرة ٥٢/٢ الخريدة للعماد الصبهازي ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة ١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣ والافي ١٨٣/٣ وابن خلكان ٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد.

سريعاً ابن عمار الشلبي، وكان شاباً مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمير والمجون والسماع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه في نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرف سريعاً على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرميك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجملها وبدايتها الشعرية على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهي أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقرمونة في الشمال الشرقي لإشبيلية ولبله وباجة في غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس الزيري الصنهاجي أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشاً بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعاً، وغره ذلك فأفصى إلى لهوه وخميره، وأرسل باديس إليه جيشاً باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحوراً. وتوفي المعتمد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة في العام التالي لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عني ابن بسام في الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدي إليه الجزية صاغراً كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضاً على المتوكل صاحب بطليوس في الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولباهم وكتب لهم معه النصر المؤزر في الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى

اللهو والقصف والانغماس في اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بابن تاشفين ثانية كي يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مزقوها في يد كل منهم مزقة مع ما يستنزفونه من طيباتها في الخمر والمجون. وعبر يوسف الزقاق، واستسلم سريعاً أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم في الزلافة النجدة ضد ابن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جرماً فظيماً وخطئاً كبيراً لا يحق له بعده أن يظل أميراً في موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر ابن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيراً إلى أغمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتماد الرميكية، ولم يلبث أن توفي سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها في منفاه. وطبيعي لشاعر مثله أن يبكي إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الأذان في الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداحهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلة. وكل ذلك المحى وزال، وكأنه كان حلماً واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكي ويظل يبكي ويذرف الدمع مدراراً، منشداً:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبِينَ أَسِيرٌ	سَيِّكِي عَلَيْهِ مَنَبْرٌ وَسَرِيرٌ
وَتَنْدُبُهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا	وَيَنْهَلُ دَمْعٌ بَيْنَهُنَّ غَزِيرٌ
فِيالَيْتِ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً	أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةً وَغَدِيرٌ
بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مَوْرَثَةِ الْعَلَا	تَغْنِي قِيَانٌ أَوْ تَرَنَّ طَيُورٌ

بزاهرها السَّامي الذُّري جاده الحيا تُشيرُ الثريا نحونا ونشيرُ

لقد أصبح غريباً وأسيرا منفيا في المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته ليبكيانه
وتبكي شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم
ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعلا والقيان المغنيات
الجميلات والطيور الصادحت حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأتق في بنيانه.
لقد تحولت كل هذه المباهج التي نعم بها المعتمد في إشبيلية إلى متاعس في أغمت،
وحانت منه التفاته فرأى قمرية تنوح بفننها وأمامها وكر أوعش به حمامتان، وكأنها
تبكي أليفها فقال:

بكتُ أن رأْتُ إلفينَ صَمَّهما وكرُ	مساءً وقد أخنى على إلفها الدهرُ
بكتُ لم تُرقِ دَمْعاً وأسبَلْتُ عَبرَةً	يَقْصُرُ عنها القَطَرُ مَهما هَمي القَطَرُ
وناحتُ وباحتُ واستراحتُ بِسرِّها	وما نطقتُ حَرْفاً يَروحُ به سرُّ
فها لي لا أبكي؟ أم القلبُ صَخْرَةٌ	وكم صَخْرَةٌ في الأرضِ يَجري بها نَهرُ
بكتُ واحداً لم يُشجِّها غيرُ فَقْدِهِ	وأبكي لألافٍ عديدهم كُثرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأَتْ إلفين في وكر، بينما هي فقدت إلفها، فهي
تبكيه بدمع مترقق في جفونها لا يبلغ تعبيره في الحزن والشجا القطر مهما همى وسأل.
ويقول كأنها نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذي فقدته، ويخاطب
نفسه لماذا لا أبكي؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجري به -
الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحداً شجاها وأحزنها فقده، وحرى بي أن أبكي

ألا في وخالني الذين يخطئهم العد. ويمر به سرب قطا فيهيج وجده ويحرك شوقه،
ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشداً:

ألا عصم الله القطا في فراخها فإن فراخي خانها الماء والظل^س

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله في فراخها فلا تصاب بظماً ولا بمسغبة ولا
بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته
لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة^(١):

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني، من دانية على البحر المتوسط، إحدى
المدن الأندلسية التي كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه،
وكانت امرأة صدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونسب أولادها إليها،
وعنيت به وبتربيته، فثقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على
أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيراً عند المعتمد بن عباد، إذ كان
أكثرهم نوالاً، وظل عنده حتى استنزل ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده يتنقل في
البلاد، وزاره بأغامت في منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه "سقيط الدرر ولقيط
الزهر" وتدل نقول ابن سعيد عنه أنه كان في أخبار الشعراء، وحاضر به في المرية

(١) انظر في ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ المغرب ٤٠٩/٢ والمعجب ٢٠٨

والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكملة رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والوافي بالوفيات ٢٩٧

وبغية الملتبس رقم ٢١٣.

بجنوبي الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندري هل عاد إلى زيارة المعتمد في أغمات أو لم يعد، غير أنه لما توفي رثاء رثاء حاراً. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منهما أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش في رعايته حتى توفي في الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلاً رائعاً في الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مراراً وتكراراً، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

تبكي السماء بدمع رائج غادي	على البهاليل من أبناء عبّاد ^(١) .
على الجبال التي هئدت قواعدها	وكانت الأرض منهم ذات أوتاد ^(٢) .
عريسة دخلتها النائبات على	أسود منهم فيها وآساد ^(٣) .
إن يخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا	وقد خلت قبل حمص أرض بغداد ^(٤) .
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ	في ضم رحلك وأجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل وادهم لتسكنه	خف القطين وجف الزرع بالوادي ^(٥) .

(١) رائج غادي: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

(٢) أوتاد: جبال.

(٣) أسود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة: غيل الأسد والآساد.

(٤) حمص: إشبيلية.

بالوادي^(١).

وهو يقول إن السماء تبكي بسحبها على السادة من بني عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيات ضخمة سامة. ويعزى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة في خلع آل عباد بمن خلعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالبين القرى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل وأجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلالهم رحل السكان وجف الزرع بالوادي الذي كان خصباً ممرعاً. ويصور مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن في نهر إشبيلية الكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودعونهم، يقول:

نسيتُ إلا غداةَ النَّهرِ كَوْنَهُمْ	في المنشآت كأمواتٍ الحادِ
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد ^(٢) .
حُطَّ القِنَاعُ فلم تُسَرَّ مَخْدَرُهُ	ومُرِّقَتْ أوجهٌ تمزيقَ أبراد ^(٣) .
حانَ الوداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ	وصارخٍ مِنْ مَفْدَاةٍ وَمِنْ فادي
سارتُ سفائنُهُم والنَّوْحُ يَصْحَبُهَا	كأنها إبلٌ يَحْدُو بها الحادي

(١) خف القطين: رحل السكان.

(٢) العبرين: الشاطئين.

(٣) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.

كم سال في الماء من دَمْعٍ وكم حملتُ تلك القطائعُ من قِطْعَاتِ أَكْبَادٍ^(١).

يقول إنني مهما نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله في السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زبده ولا ترسب في القاع. ويقول إنهن سرن من قصورهن سافرات لحنهن يلطنن ويخمشن وجوههن بأظفارهن لفجيعتهن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضج من في السفن وضج المفدون الملحون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبل السائرة في الصحراء، وكم سال في ماء الوادي الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد في أغمات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب في كل مكان - إلى اليوم - عطفًا على المعتمد وكأنها غسل بدموعه عليه سيئات حكمه من أدائه الجزية للملك النصراني في الشمال ومحاربته لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلافة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يمحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعرًا كبيرًا كان وشاحًا كبيرًا أيضًا، وله موشحات كثيرة

(١) القاطائع مثل المنشآت: السفن.

مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من شاحي الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين في كتابه "دار الطراز".

ابن عبدون^(١) :

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري اليابري، من يابرة غربي بطليوس، عنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلام الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي المتوفى سنة ٤٩٤. وفي الصلة لابن بشكوال أنه كان عالماً بالخبر والأثر ومعاني الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس وكان كاتباً شاعراً مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذاً لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشنترين وأشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشئ في إمارته، ونفاجاً بوفود الشاعر على المعتمد ومدحه، ولم يجد لديه قبولاً لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلده، فربما ظن أنه أرسله عيناً عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يفد بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنوالة وبمودته، إذ اتخذ جليساً ورفيقاً له في زيارته لمدن إمارته، وأسغ عليه من الود حلاًلاً ضافية، جعلته يلهج بمدحه ويقصر شعره عليه،

(١) انظر في ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ١/٣٧٤ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة: ٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشي ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفح في مواضع مختلفة (أنظر الفهرس).

حتى إذا غاضب المرابطين، وقتلهم وقتل هو وابناه: الفضل العباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك في شعره أنه لن يقدمه إلى أمير، وكأنها مات الأمراء جميعاً في شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين الذي ولى إشبيلية بعد استئزال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشي إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولاً بنه لا يدري والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبي بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشي في موضع آخر: "لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك" ثم يعددهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتباً عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجموا له بأشعاره، وخاصة برائيته التي رثى فيها دولة المتوكل ببطلينوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجموا له ينشدونها في ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبي من أدباء القرن السابع الهجري فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزي ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عظماء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: "اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأبين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول

الممتنعة في قُلل الجبال والأسود الخادرة^(١). في الغياض وبالنسور والعقبان والحيات في طول الأعمار^(٢) وهو يستهلها بقوله:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ
أَنَّهُكَ أَنَّهُكَ - لَا آلُوكَ مَوْعِظَةٌ - عن نَوْمَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُّفْرِ^(٣).
مَا لِلَّيَالِي أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَنَا من الليالي وَخَانَتْهَا يَدُ الْغَيْرِ^(٤).
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ منا جراحٌ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ النَّظَرِ
تَسْرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَعْرِبَهُ كَالْأَيِّمِ نَارٍ إِلَى الْجَانِي مِنَ الزَّهْرِ^(٥).

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائماً يرسل فواجعه على المحسوس وما وراء المحسوس، ففيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحاً وصوراً، ويقول إنني لا أقصر في وعظك ونهيك عن الاستئمان إلى الدهر، وهو قد أنشب فيك نابه وظفره. ويدعو الله أن يثيلنا وينقذنا من عثرات الليالي وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ في كل حين تصيبنا في عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه،

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة: الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

(٣) لا آلوك موعظة: لا أقصر في وعظك.

(٤) أقال: تجاوز وصفح، الغير: أحداث الدهر.

(٥) الأيم: الأفعي.

ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنها إن سرت بشيء - وهيها - فلكي تخدعنا به، بل لكي
تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة
السامة المميتة. ويأخذ في العظة بذكر من أدتهم الليالي والأيام من الدول العظيمة
منشداً:

كم دولة وَلِيَتْ بِالنَّصْرِ خِدْمَتَهَا	لم تُبْقَ منها - وَسَلَّ دُنْيَاكَ - من خبر
هَوَتْ بَدَارًا وَفَلَّتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ	وكان غَضَبًا على الأملاك ذا أثر ^(١) .
واسترجعت من بني ساسان ما	ولم تدع لبني يونان من أثر
وهبت	
وأتبعت أختها طَسَمًا وعاد على	عاد وجُرْهُمَ منها ناقض المرر ^(٢) .
ومزقت سباً في كل قاضية	فما التقى رائج منهم بمبتكر ^(٣) .

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت الليالي لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من
حائق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدوني، ولم تلبث أن هدت منه،
وكان سيفاً قاطعاً ساطعاً فثلمته وحطمته. وقد استرجعت من بني ساسان ملوك
الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم

(١) العضب السيف القاطع. أثر: فرندورونق.

(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.

(٣) مبتكر: مبكر في الذهاب ضد رائج: راجع.

يكونوا شيئاً مذكوراً. وبالمثل صنعت بقبيلتي طسم وأختها جديس في اليامة، وكر الدهر على عاد وجرهم نكباته حتى محاهما محوا، ومزقت الليالي سبأ كل ممزق فتفرق أهلها في الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضي ابن عبدون في الحديث عمن أهلكتهم الليالي من أعظم العرب في الجاهلية والإسلام مشيراً معهم إلى كثير من الأحداث في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بني المظفر أمراء بطليوس:

مراحلاً والورى منها على سفر

بنى المظفر والأيام ما برحت

بمثله ليلة في مقبل العمر

سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت

من للأسنة يهديها إلى الثغر^(١).

من للأسرة أو من للأعنة أو

واحسرة الدين والدنيا على عمر

ويح السباح ويح البأس لو سلما

وهو يقول لبني المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالي من الدول والعظماء تلك هي الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء، ويقول: سحقاً وبعدا لليوم الذي زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تعسة من الليالي. ويبيكهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للسباح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه بالأسنة صدور الأعداء.

مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسي، بل الشعر العربي بعامة،
وبدون ريب يعد ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

oboeikandi.com

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

(أ) شعراء الزهد:

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا في متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواعظ وأشعار كثيرة. وشكرهم في أشعار الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوي وعلماء العربية، فضلاً عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضاً كبيراً من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل بلد عربي، وتلقانا منه سيول كثيرة في الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئاً يسيراً وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصرُوا حياتهم - أو شطراً كبيراً منها - على النسك والعبادة. وأول من تذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب^(١) عبد الرحمن العباسي القرطبي المتوفى سنة ٣٤٤ لعهد عبد الرحمن الناصر، ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين في

(١) انظر في أبي وهب وترجمته وشعره المغرب ٥٨/١ والتكملة ص ٧١٨ والنفع ٢٠٧/٣، ٢٢٦.

الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحداً، وكان أكثر دهره مفكراً وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا في حالتي - التي قد تراني
إن تأملت - أحسن الناس حالا
منزلي حيث شئت من مستقر الـ
أرض أسقى من المياه زلالاً^(١).
ليس لي كسوة أخاف عليها
من مغير ولا ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي
ثم أثنى - إذا انقلبت - الشالا

وهو لا يملك منزلاً يقيه البرد وينام فيه ليلاً ولا ثوباً غير الثوب الذي يستر جسده ولا مالا يكتنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئاً يخاف عليه من مغير أو ناه، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا^(٢)، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلط علينا في هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم أمح من قلوبنا الطمع في هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

(١) زلالاً: عذبا.

(٢) أسفرنا: أصبحنا.

تنام وقد أعد لك السهاد
 وتصبح مثل ما تسمى مضيعاً
 وتوقن بالرحيل وليس زاد
 كأنك لست تدري ما المراد
 ولم يك منك في الدنيا اجتهاد
 فكيف يكون من عدم حصاد
 إذا فرطت في تقديم زرع

وهو يقول مخاطباً: كيف تنام وقد هيئ لك سهاد، كي تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دنياك وأنت لم تهين لنفسك زاداً لرحلتك، وتصبح وتمسي لا تدري من أمرك شيئاً فكيف تطمع في الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قصر في رعاية زرعته أن يحصد منه شيئاً. ولتقي في عصر أمراء الطوائف بأبي اسحق الإلييري، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره الطيطل^(١). على بن إسماعيل الفهري القرشي الأشبوني، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعاء المحسنين سمح القريحة، مشاركاً في الحديث والفقه، أمضى في ذلك صدرًا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم في معانيهما أشعاراً رائقة وضروباً من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه

(١) انظر في الطيطل وترجمته وشعره الذخيرة ٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبيغة رقم ١٢١٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي القسم الأول من الجزء الخامس ص ١٩٥.

رَابِطَةٌ^(١) فِي رَقْعَةٍ مِنْ بَسْتَانٍ لَهُ عَلَى بَحِيرَةٍ شَقْبَانٌ عَرَفَتْ بِرَابِطَةِ الطَّيْطَلِ وَلَزِمَ بِهَا الْعِبَادَةَ وَالنَّسِكَ إِلَى أَنْ تَوَفَّى. وَيَقُولُ ابْنُ بَسَامٍ: إِنَّ أَهْلَ أَوَانِهِ كَانُوا يَشْبَهُونَهُ بِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ فِي زَمَانِهِ، وَيَذَكِّرُ إِنَّهُ نَظَّمَ الدَّرَجَةَ الْفَصْلَ فِي الزَّهْدِ، وَمِنْ نَظْمِهِ:

إِذَا سُدَّ بَابُ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ فَدَعَهُ لِأُخْرَى يَنْفَتَحُ لَكَ بِأُهَا
فَإِنَّ جِرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مَلْؤُهُ وَيَكْفِيكَ سَوَاءُ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا^(٢).
وَلَا تَكْ مَبْدَالًا لِعَرَضِكَ وَاجْتِنِبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُهَا

وَهُوَ يُوصِي صَاحِبَهُ بِأَنْ لَا يَيْأَسَ أَبَدًا، فَإِذَا سَدَّ عَنْهُ بَابٌ فِي الرِّزْقِ فَلْيَتَرَكْهُ إِلَى بَابٍ آخَرَ يَنْفَتَحُ لَهُ، وَلْيَكْفِهِ كِفَافُ الْقَوَاتِ فَإِنَّ وَعَاءَ الْبَطْنِ حَسْبُهُ أَنْ يَمْتَلَأَ، وَمَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ لَا يَحْتَاجُهُ الْإِنْسَانُ، وَلْيَغْنِهِ عَنِ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ أَنْ يَجْتَنِبَهَا، حَتَّى لَا يَعْضُرَ نَفْسَهُ لِعِقَابٍ، وَلْيَصْنَعْ عَرَضَهُ وَشَرْفَهُ وَيَجْتَنِبِ الْمَعَاصِيَ حَتَّى لَا تَصِيبَهُ أَيْ عَقُوبَةٌ. وَيَقُولُ:

الْمَوْتُ يَرْعَاكَ كُلَّ حِينٍ فَكَيْفَ لَمْ يَجْهَدْكَ الْمَهَادُ
مَا حَالُ سَفَرٍ بَغِيرِ زَادٍ وَالْأَرْضُ قَفَرٌ وَلَا مَرَادُ^(٣).
فَابْنِ بِهَا لِلتَّقَى بُرُوجًا تَأْمَنُ إِذَا رُوعَ الْعِبَادُ

(١) الرابطة: بيت للعبادة.

(٢) الجراب: وعاء الزاد.

(٣) مراد بفتح الميم: مرعى.

وهو يقول إن جرس الموت يدق في كل حين، فكيف لا تحيي الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر في صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذ التقى والورع عدتك تأمن حين يعصف بك الموت الذي لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنها آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية في ظلمة الليل إلى خرق كثقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبحة ربها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

وولد في عصر الطوائف سنة ٤٤٠ بكار^(١) بن داود المرواني، ولحق عصر المرابطين وعاش فيه فترة غير قصيرة، مولده في شنترة من بلدان أشبونة بغربي الأندلس، درس في قرطبة ثم استوطن أشبونة. ويروي ابن سعيد عن أبي عمرو بن الإمام صاحب سفظ اللآلي في أخبار شعراء عصره المتوفى بعد سنة ٥٥٠ أنه لقيه وكان غاية في الزهد مطرَحاً لنفسه واستشهد في جهاد العدو، ويقول إنه استنشد من شعره فأنشده:

ثَقُّ بِالذِّي سَوَّاءُكَ مِنْ	عَدَمٍ فَإِنَّكَ مِنْ عَدَمٍ
وَأَنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ قَرٍّ	عِ السَّنِّ مِنْ فَرَطِ النَّدَمِ
وَأَحْذَرْ - وَقَيْتَ - مِنَ الْوَرَى	وَاصْحَبْهُمْ أَعْمَى أَصَمٍ
قَدْ كُنْتُ فِي تَيْهِ إِلَى	أَنْ لَاحَ لِي أَهْدَى عَلَمٍ
فَاقْتَدْتُ نَحْوَ ضِيَائِهِ	حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الظُّلَمِ

(١) راجع في بكار وترجمته وشعره المغرب ١/ ٤١٥ والنفح ٣/ ٣٣٤.

وهو يقول: ضع ثقتك في الله الذي ساواك وخلقك من عدم، وفكر في نفسك وما ينبغي أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادماً على ما فرطت في جنب خالقك. وأحذر الناس وأصحابهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان في تيه ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضياءه. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف^(١) المنصفي، من قرية المنصف من قرى بلنسية في شرقي الأندلس، ويقول المقري: كان صالحاً وله رحلة حج فيها، ومال إلى علم التصوف، وله أشعار حملت عنه، منها قوله:

قالت لي النفس: أتاكَ الرَّدَى وأنت في بحر الخطايا مقيم^(٢).
هلا اتخذت الزاد قلت: اقْصِرِي هل يُحْمَلُ الزاد لدار الكريم

فنفسه قالت له: أتاكَ الموت وأنت غارق في الذنوب فهلا اتخذت زاداً للمعاد؟ فقال لها إن الزاد لا يحمل لدار الجواد الكريم. ومن طريف ما قيل حينئذ في الزهد والدعوة إلى العمل الصالح قول الفيلسوف أبي بكر بن طفيل^(٣):

يا باكيًا فُرْقَةً الْأَحْبَابِ عَنْ شَحْطٍ هلا بكيت فراق الروح للبدن^(٤).

(١) انظر في أبي الحجاج المنصفي وترجمته وشعره المغرب ٢/ ٣٥٤ والتحفة رقم ٣٧ والنفع ٣/ ٣٣٦.

(٢) الردي: الموت.

(٣) المعجب للمراكشي ص ٣١٣.

نورٌ تردَّدَ في طينٍ إلى أجلٍ فانحار عُلُواً وخالى الطينَ للكفنِ
ياشداً ما افترقا من بعدما اعتلَقا أظنُّها هُدْنَةٌ كانت على دَخْنٍ^(١).
إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيالها صَفْقَةٌ تَمَّتْ على غَبْنٍ^(٢).

وهو يقول لمن يبكي على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكي لفراقهم ولا تبكي لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنها كانت الروح نوراً تردد وقتاً في طين الجسد، ثم تسامي عنه علواً وخلاه للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجهما طول الحياة، وكأنها كانت بينهما هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعهما وامتزاجهما إن لم يكن في رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحي وكون منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه في غزوة الأرك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم في الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر هؤلاء الهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردها، وتساوي عنده الفريقان وقال: لكل مذهب^(٣). ومن كبار الزهاد حينئذ أبو

(١) شحط: بعد.

(٢) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.

(٣) الغبن في البيع: الوكس والخسارة.

(٤) المعجب للمراكشي ص ٣١٣.

عمران^(١). موسى بن عمران المارثلي وهو من مارثلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن البار في التكملة: كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله في ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر في الزهد والتخويف، كان ملازمًا لمسجده بإشبيلية، توفي سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقول ولا أفعل	وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي	وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا أومل طول البقا	وأغفل الموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنا	منادي الرحيل ألا فارحوا
كأن بي وشيكا إلى مضرعي	يساق بنعشي ولا أمهل

وهو يتلوم نفسه فكم ينوي الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدجر، وكم ينصح نفسه أن ترعوي ولا تنتصح، وكم يؤمل في البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادي الرحيل، مع أنه قريباً سيرحل، ويحمل في نعشه ولا يمهل.

(١) انظر في ترجمة أبي عمران المارثلي المغرب ١/ ٤٠٦ والنسخ ٣/ ٢٢٥، ٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧ وتحفة القادم رقم ٥٨ والغصون اليبانة ص ١٣٥.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب
شعر الزهد الذي كان يجري على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق في مجراها الذي بدأت
مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجني^(١):

لم يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الحَيَاةَ إِقَامَةً	أَنَّ الحَيَاةَ تَنْقُلُ وَتَرْحُلُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ	دُنْيَاهُ مَرْحَلَةً وَيَدْنُو الْمَنْهَلُ
يَحْظَى السَّعِيدُ بِهِ بِطُولِ سَعَادَةٍ	وَإِخْوَانُ الشَّقَاوَةِ لِلشَّقَاوَةِ يَنْقُلُ
لَا تَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا اسْتَدْبَرَتْهُ	وَلْتَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا تَسْتَقْبِلُ

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال،
في كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل
إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن
يبكي المرء إشفاقاً على ما خلف منها وراء ظهره وحقه أن يبكي إشفاقاً على ما يستقبله
في آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة متشبهاً بعفو الله
ورحمته في أول قصيدة بديوانه:

لَقَدْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ أَبْوَابَ عَفْوِهِ	لِمَنْ رَجَعَ الذِّكْرَى وَأَقْبَلَ خَاشِئًا
إِلَهِي لَا تَفْضَحْ عَوَارًا سَرَّتَهُ	فَمَا لِي مَأْمُولٌ سِوَاكَ إِلَهِيَا ^(٢) .

(١) الديوان ص ٩٧.

هَلَكْتُ رَدِّي إِنْ لَمْ أَنْلُ مِنْكَ رَحْمَةً تَبَعْدُ رَوْعَاتِي وَتُدْنِي أَمَانِيَا
لَعَلَّ الَّذِي قَامَ الْوُجُودُ بِجُودِهِ يُعِيدُ بِحَسَنِ اللَّطْفِ حَالِي حَالِيًا^(١).

وهو يقول إن الله - جل شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشعًا منيبًا، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حاليًا مزدانًا. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشداً^(٢):

إِلَهِي بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالْمَسْعَى وَجِّعْ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا^(٣).
وببالموقف المشهود - يا رب - في إِذَا مَا أَسْأَلَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدَّمَاعَا
مَنِي وَأَنْجِ دُعَائِي فِيكَ يَا خَيْرَ مَنْ
وبالمصطفى والصَّحْبِ عَجَلْ إِقَالَتِي يُدْعَى^(٤).
صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ جَنَابُهُ أَقْلُ عَثْرَتِي يَا مَأْمُلِي وَأَجْبِرِ الصَّدْعَا^(٥).

(١) العوار: العيب.

(٢) حاليًا: مزدانًا.

(٣) أزهار الرياض ١ / ٢٧١.

(٤) جمع: المزدلفة.

(٥) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح والإعفاء.

وهو يتوسل إلى الله بمقدساته: بيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة في الحج
وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبموقفهم في منى متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى
الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه
ولاذ بعنابه، وإنه ليستغيث به ضارعا إليه أن يُقبله من عثرته ويجبر الصدع أو الشق
الين في أعماله. وحرى بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيري.

أبو اسحق^(٢) الإلبيري:

هو أبو اسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، من أهل حصن العقاب
بالقرب من البيرة، ولزم في نشأته فقيها ومحدثا ابن أبي زمنين المتخلق بأخلاق
الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجموا له إنه كان من البكائين الورعين
الخاصين، ويقول ابن الأبار في التكملة إن أبا اسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على
أنه جلس مجلسه لإفادة الطلاب في البيرة. وخربت سريعا في عهد زاوي بن زيري الذي
اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة،
وهاجر إليها أبو اسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه
ظل بها يروي لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبي زمنين. ونرى أبا الحسن على بن محمد

(١) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.

(٢) أنظر في أبي اسحق وترجمته وشعره الحميدي في الجذوة والضبي في البغية ص ٢١٠ والتكملة لابن الأبار
(البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ٢/ ١٣٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان فيمديريد
غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

بن توبة حين يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا اسحق كاتباً له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي أيرها، مما يدل على حسن منزله عند القاضي وأنه ظل كاتباً له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغيلة اليهودي وزير الأمير باديس لتسلطه - مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود - على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمراً من باديس بنفى أبي اسحق من غرناطة إلى البيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه في العقاب. وتوفي إسماعيل بن النغيلة، وخلفه في وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضج الناسن وكان أبو اسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى في أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، ورددها الناس في الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألمناها في حديثنا عن المهجاء، وكان أبو اسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبى نداء ربه في نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو اسحق عن أستاذه ابن أبي زمين مصنفاته في الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضاً مصنفاته في الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حمله عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد في نفسه مبكراً، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها في نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: "كان من أهل العلم والعلم شاعراً مجوداً وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد" ويقول ابن سعيد: "له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها" وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر متنوعة تمس القلوب بما

تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنها يستمد من نبع حماسي يتدفق في عذوبة.
والديوان يستهل بتائية في مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تفتُّ فؤادك الأيام فتًا وتنحتُ جسمك الساعات نحتًا
وتدعوك المنون دُعاء صدق ألا يا صاح: أنت أريد أننا

ويمضي أبو اسحق في القصيدة بهذه الصياغة والمعاني التي تؤثر في الأفتدة تأثيرًا يملك على قارئه وسامعه كل شيء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعافل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق في نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوي، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا بهال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسروقتًا، ويجبها الإنسان مع أنه مسجون فيها هل يحب أحد سجنه، ولا يغره طعامه فيها فستأكله حطامًا، وكل يوم يشهد فيها دفينًا، وهو لم يخلق ليعمرها، إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به في آخره، وينصحه أن يلزم قرع باب الله فسيفتح له يومًا، وينشد:

فلو بكتِ الدما عيناك خوفًا لذنبك لم أقل لك قد أمتنا
ومن لك بالأمان وأنت عبدٌ أمرت فما اتئمرت ولا أطعنا
وتشفق للمصر على المعاصي وترحمه، ونفسك ما رحمتنا

تَقَرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ في بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصي ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجب عجاب أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفي قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعاملينا بكل قسوة ودون أي شفقة، وفرض على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوبتك وبغضك أشد البغض. ودائماً ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة: خمسة وثلاثون بيتاً ختمها جميعاً بكلمة النار وفيها يقول:

ويل لأهل النار في النار ماذا يقاسون من النار
تنقذ من غيظ فتغلي بهم كمرجل يغلي على النار

ويستمر قائلاً: لا تقبل التوبة في النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المهل فيها، ويطعم الزقوم، وتتدافع سيول النار في القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبي اسحق المعافاة والعتق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتاً ختمها جميعاً بلفظ الجلالة على هذا النحو:

فَرَّ مِنْ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ	يَا أَيُّهَا الْمَغْتَرُّ بِاللَّهِ
فَقَدْ نَجَا مَنْ لَا ذِيَّ بِاللَّهِ	وَلَذَّ بِهِ وَاسْأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَحَبَّذَا مِنْ قَامَ لِلَّهِ	وَقُمَّ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ
تُكْسَى بِهَا نُورًا مِنْ اللَّهِ	وَاتْلُ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً
فَعَزَّ وَجْهَ ذَلَّ لِلَّهِ	وَعَفَّرَ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فر من عقابه إلى ثوابه والجلأ إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجد في آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، ومرغ وجهك في العفر ووجه الأرض ساجداً لربك متذللاً له، فعز وجهه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضي القصيدة بهذه الروعة في الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضيء جوانبه، وتنزل منه منزلاً محكماً.

(ب) شعراء التصوف:

ألمنا في الفصل الأول بنشأة التصوف في الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع في عقيدته بين التصوف على طريقة ذي النون المصري كما يقول ابن الفرضي وبين آراء المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية^(١).

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع

وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مر بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبي عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتنة في كثير من الصدور وظل لها أنصار في عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مر في غير هذا الموضع - إسماعيل الرعيني.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفي استظهر في وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر^(١) أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري الأصولي المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبي الذي روى عنه تأليفه "إنه كان متكلمًا دقيق النظر عارفًا بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة". ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة البيرة كان دائرًا عليه مع زهده ووعره، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بالبيرة حتى خربتها قبيلة صنهاجة في عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسنلم بها في الفصل التالي، وينشد له ابن بسام:

شربت بكأس الحب من جواهر الحب رحيقًا بكف العقل في روضة الحب
وخامر ماء الروح فاهتزت القوى قوي النفس شوقًا وارتياحًا إلى الرب

مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(١) انظر في أبي عمر أحمد بن عيسى الإلبيري وترجمته وشعره الذخيرة ١/ ٨٤٧ وما بعدها والمغرب ٢/ ٩٥ والصلة رقم ٨٩ وقد أسن تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبي واشتهر بالعلم والفضل، تفوى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

ونادى حِيثَا بِالْأَيْنِ حَنِينَهَا

إلهي إلهي مَنْ لِعَبْدِكَ بِالْقُرْبِ

وخاطبه وحيًا إليه ملكيه:

سأُكشِفُ - يا عَبْدِي لَعَيْنِكَ - عن

حُجْبِي

فأعلن بالتسبيح: مثلك لم أجد

تعاليتَ عن كَفِّ يَكافِيكَ أوْصَحَب

وهو يقول إنه شرب في روضة الحب الإلهي رحيقًا مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقًا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأن في ندائه - متلهفًا على قربهِ من ربه، وتجلي له الله رافعًا ما بينه وبين عبده من حجبهِ، فسبح بحمده منزلها له عن أن يكون له كفاء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) - (أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً). والتصوف في الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سني، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذي يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفي. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال في مثل قوله:

يا مُحَدِّثًا لِلْكَلِّ كُنْتَ وَلَمْ تَزَلْ

وكذاك رَبِّي لَا يَزَالُ بِلَا مَكَانٍ

وقوله:

جَلَّتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ، جَلَالُهُ

قَدْ جَلَّ عَنْ تَحْدِيدِ كَيْفٍ وَمَنْ وَمَا

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحده مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علو كبيراً.

ويذكر آسين بلاسيوس - ويتابعه بالنشيا - أن مدينة المرية على البحر المتوس في الجنوب الشرقي للأندلس أصبحت في القرن الخامس الهجري - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزاً مهماً من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيري الصوفي وأبو العباس بن العريف^(١)، وما ذكرناه آنفاً عن أحمد بن عيسى الإلبيري المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حرف عند بلاسيوس، فأصبح محمداً بدلاً من أحمد، ونفس لقبه الإلبيري يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من البيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مر بنا، وكان من أصحاب التصوف السني بشهادة أشعاره وتلميذه أبي المطرف الشعبي. أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقاً غير أنه لم يمكن من أصحاب التصوف الفلسفي على نحو ما سيتضح في ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره في إشبيلية ابن^(٢). برجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى سنة ٥٣٦

(١) انظر في ذلك بالنشيا ص ٣٢٩ وما بعدها كتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفتازاني (طبع دار الكتاب اللبناني) ص ٧٦.

(٢) أنظر في ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاعر في الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدرآباد) ١٣/٤.

وفيه يوقل ابن الأبار: "كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة وله تأليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى" وله في التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم^(١). أحمد بن قسى، ويقول ابن حجر في لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف في المريّة، وعاد إلى مونه في مارتلة بقرب باجة في غربي الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين في أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ثار عليهم مع مريديه وغلب على شلب ولبلة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل في طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر غليه - كما ينسب إلى ابن برجن - تحريفهما لمعاني النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع النعلين وشرحه فيما بعد ابن عربي. وكان تصوفه هو وابن برجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفاً سنياً، إذ لم ينسب إليهم جميعاً مترجموهم كلاماً في وحدة الوجود. وفي رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. ومن اعتنقها حينئذ أبو عبد الله الشوذى الإشبيلي الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية في دولة الموحدين، ثم خلاص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود^(٢)، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقي المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: "كان فقيهاً مشاوراً غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تأليف منها شرح الإرشاد

(١) راجع في ابن قسى لسان الميزان ١/ ٢٤٧ وبالنشيا ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٢) انظر في الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١-٧٥.

في علم الكلام لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، وكتاب في مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول في غير بلد، وكان يعتنق رأي استاذة في وحدة^(١) الوجود.

ونلتقي بمحيي الدين بن عربي، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر في إثره ابن سبعين^(٢). عبد الحق العكي المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب في بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر في أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر في كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعباد، وتصادف أن أرسل فردريك الثاني صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملاً منهم في الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماماً واسعاً، وأكب حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له في التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيقوا عليه اخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماءؤها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما

(١) راجع في ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (أنظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ١١٠٦/٣.

(٢) انظر في ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١ والبداية والنهاية ١٣/٢٦١ ولسان الميزان ٣/٣٩٢ والنفح ٢/١٩٦ واعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي ٥/٣٢٦ وشذرات الذهب ٥/٣٢٩ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفتازاني.

يبدو - في مصر، فغادرها في أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفي سنة ٦٦٩ وبها عقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبي ندى محمد الأول (٦٥٤-٧٠٢هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبد العارف وسماء صاحب الفوات: "ما لا بد للعارف منه" وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات في آداب السلوك والرياضيات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التي يصور فيها معاني الفقر الصوفي وآدابه، وله رسائل في علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعه فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتمنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطاً بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء في كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس في الكون سواه، وفي ذلك يقول في كتابه الإحاطة:

فإنه شاخصٌ في أنقص الصورِ	من كان يبصر شأن الله في الصورِ
لأنه جملةٌ من بعضها وطرى	بل شأنه كونه، بل كونه كنهه
إيه فلم قلت لي: ذا النفع في الضرر	إيه فأبصرني إيه فأبصره

والأبيات تحمل فكرته، فالله ترى صورته في كل شيء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما في الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثة في الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء في عصره وبعد عصره يريدون عليه ردوداً عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظهراً وباطناً وأنه ينبغي أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. وممن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششتري الصوفي المعروف، وسنرى في ترجمتنا له أنه ينفصل عنه في اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنها بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعاً في الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة - وخاصة في الأندلس والمغرب - تعتنق التصوف السني.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد^(١) الرندي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفري المولود برندة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكراً وتجول في بلدان المغرب، وأقام في سلا على المحيط سنوات طويلة ملازماً للشيخ الزاهد الصوفي ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحول عنه إلى فاس فاختر فيها إماماً وخطيباً لجامع القرويين، ويقول صاحب نفح الطيب إنه كان صوفياً على طريقة الشاذلية، وهي من طرق التصوف السني، وفي الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندري. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندي كان شاذلياً أن أهم

(١) انظر في بن عباد الرندي الإحاطة ٣/ ٢٥٢.

مصنفاته شرحه كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري، وهي أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أشربت منازع التصوف السني، وينعكس ذلك عنده في بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهي جميعاً إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره في الكتاب وحدها بل أيضاً على ما يمثّلها في ديوانه: "الصيب والجهام والماضي والكهام". وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أسداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجري في كل بلد وكل دار. وحرى بنا أن نقف قليلاً عند ابن العريف وابن عربي والششتري.

ابن^(١) العريف:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بنموسى الصنهاجي الأندلسي، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ بها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن اكريم - مثل أترابه - في صباه، وعكف في شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ في التفسير والحديث

(١) انظر في ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبغية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصدي في ١٤ والمغرب ٢/ ٢١١ والنفع ٣/ ٢٢٩ و ٤/ ٣٣١ وراجع كتاب دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكي (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة أنسي بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.

النبي والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب في المرية ثم في سرقسطة، وولى الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: "كانت له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجمع القراءات واهتمام بطرقها وحملتها". وأكب على قراءة كتب التصوف، وغذا هو يصبح صوفيًا كبيرًا، ولا يكتفي بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب^(١)، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: "محاسن المجالس" وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفي نفس السنة نشر عنه دراسة في مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها في أعماله المختارة، وعنى الدكتور الطاهر مكي بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه "محاسن المجالس" ويحلله تحليلًا دقيقًا ملاحظًا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد في كل ما عدا الله ومحبه، بما في ذلك الزهد في المنازل الصوفية العشرة، وهي المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد في شيء، لأن الصوفي لا يتعلق إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيًا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء في تحقيق شيء، ولا شوق إلى أي شيء، إذ الصوفي لا يرجو ولا يشاقق إلا ربه. ولا شكر إذ الصوفي لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفي هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أي شيء سواه، يقول: "إما عين الحقيقة عند

(١) ذكر المقرئ من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

القوم أن يكون الصوفي قائماً بإقامة الحق له، محساً بمحبته له، ناظراً بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت". وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفي الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أي شيء من فكر أو جسم سوى الفناء في الله، وهو بكل ذلك صوفي سني، ومن الخطأ الظن بأن في تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفي قوله:

أَذْنِي إِلَى النَّفْسِ مِنْ وَهْمِي وَمِنْ نَفْسِي	سَلُّوْا عَنِ الشَّوْقِ مَنْ أَهْوَى فَيَأْتِيَهُمْ
لَحْظِي وَسَمْعِي وَنُطْقِي إِذْ هُمْ أَنْسَى	مَازَلْتُ - مَذْ سَكَنُوا قَلْبِي - أَصُونُ
	لَهُمْ
عَنْ مُشْكِلٍ مِنْ سَوَالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسٍ	فَمَنْ رَسُولِي إِلَى قَلْبِي لِيَسْأَلَهُمْ
صَخْرًا لَجَادَ بِهَاءٍ مِنْهُ مُنْبِجِسٍ ^(١)	حَلُّوْا الْفَوَادَ، فَمَا أُنْدَى! وَلَوْ وَطِئُوا
فَكَيْفَ قَرُّوا عَلَى أَذْكَى مِنَ الْقَبَسِ ^(٢)	وَفِي الْحَشَا نَزَلُوا وَالْوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَهُمْ فَنَسَى	لَأَنْهَضَنَّ إِلَى حَشْرِي بِحَبِّهِمْ

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما في قلبه من صوابته وحبه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو

(١) منبجس: منفجر.

(٢) قرؤا: سكنوا واستراحوا.

وطثوا صخرًا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا في حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم -
والوهم يجرحهم - أن يسكنوا في ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا
بعهدهم وحبهم لا ينساهما أبدًا، ويقول:

قَفَا وَقْفَةً بَيْنَ الْمُحْصَبِ وَالْحِمَى نُصَافِحُ بِأَجْفَانِ الْعَيُونِ الْمَغَانِيَا^(١).
وَلَا تَنْسِيَا أَنْ تَسْأَلَا سَمَرَ الْهُوَى مَتَى بَاتَ مِنْ سَمَرِ الْأَسْنَةِ عَارِيَا^(٢).
فَعَهْدِي بِهِ وَالْمَاءُ يَنْسَابُ فَوْقَهُ سَمَاءٌ وَمَاءُ الْوَرْدِ يَنْسَابُ وَاوِيَا
أَقَامَ عَلَى أَطْلَاهُمْ ضَوْءٌ بَارِقٌ مَنْ الْحَسَنَ لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ سَالِيَا
وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوه القدسية: بالمحصب في منى والحمى
المكي ليصافح ببصره المعاني والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذي تعرى من
سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجري من
تحتة والنفوس معلقة بما في الأطلال من ضياء الحسن الذي لا يستطيع أحد أن يسלוه.
ويقول:

تَمْشِي وَالْعَيُونُ لَهُ سَوَامٌ وَفِي كُلِّ النَّفُوسِ إِلَيْهِ حَاجَةٌ^(٣).
وَقَدْ مُلِئَتْ غَلَائِلُهُ شُعَاعًا كَمَا مُلِئَتْ مِنَ الْخَمْرِ الزُّجَاجَةُ^(٤).

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغاني: المنازل.

(٢) السمر: شجر الطلح.

(٣) سوام: شاخصة ومتطلعة.

(٤) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدمًا لغة الحب الإنساني كما استخدمها في الأبيات السابقة، فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعًا مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلائله الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح في الرسول الكريم سننشد منها أطرافًا. وقد توفي سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن^(١) عربي:

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن عربي الطائي، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة تحظى بشيء من الثراء، وانتقل به أبوه في صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الاهري في الفقه، كما درس الحديث النبوي على شيوخه والآداب على معلميه وكتب لبعض الولاة، وتزوج بمريم بنت محمد بن عبدون الباجي، وكانت صالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة ثيرين، في مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارثلي الذي مر ذكره بين الزهاد وأبو العباس العرياني المتصوف، ولزم نونة "فاطمة بنت ابن المثنى" الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول في الأرض، وهو في نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية "مواقع النجوم" ثم رحل إلى المغرب واستقر في فاس مدة سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة في نواحي المغرب في مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفي فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها

(١) انظر في ابن عربي التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان الاعتدال للذهبي ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢ والكتاب التذكاري لمحيى الدين بن عربي في ذكره المئوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة المصرية) وابن عربي: حياته ومذهبه لأسين بلاسيوس ترممة الدكتور عبد الرحمن بدوي (طبع القاهرة) وبالنشيا ص ٣٧١ وما بعدها.

صنف كتابه: "الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان للخالق". وفي سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح في الأحاديث النبوية للترمذي، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربي حين رآها ونظم فيها ديوانه "ترجمان الأشواق" متخذاً منها ومن غزله فيها رمزاً لحبه الرباني ومواجهه الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: "الدرة الفاخرة" في تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبي مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول في البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجاد له فقهاؤها فيما يفهم في أقواله من فكر وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبي حماه منهم. ويتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكافوس ملك قونية، ويؤلف مصنفه: "مشاهد الأسرار" و"رسالة الأنوار". وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقي بشهاب الدين السهرودي الصوفي السني، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحاً على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعاني الصوفية التي تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفي به سلطانها الظاهر غازي، ويؤلف كتابه: "الحكمة الإلهامية". وفي سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية" وأذاع ديواناً له، وظل مشغولاً بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربي مكثراً من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمئة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفث به الروح القدس في الروح ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته في وحدة الوجود، وهي التي ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إاء عباراتها العلماء من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطناً سوى ظاهرها وتأولها، ومنهم من قال بمروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: "إن الحق المنزه (أي الله) هو الخلق المشبه" و "إن العالم صورة الله وهوية الله". وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافاً له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه ويأمر في السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات^(١). ويمكن أن تؤول العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببهما أنه إنما يريد أن الله المنزه عن الشبه بالخلق يتجلى فيهم كما يتجلى في العالم بتكوينه له وخلقه. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التي إن أخذت على ظاهرها ظن به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذي السالف صحيح مسلم وصحيح البخاري، وأجاز له السلفي في الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزي في بغداد وابن عساكر في دمشق، وهم جميعاً من كبار المحدثين في عصره سوى شيوخ

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (طبع دار المنار) ١/ ١٧٦.

كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة في عقيدته: شعبة وحدة الوجود تتراءى شعبة ثانية كبيرة هي شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكراً في ديوانه: "ترجمان الأشواق" ومن يقرأه حسب ظاهره يظن أنه غزل صب عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين لدين إمام مقام إبراهيم في الحرم المكي، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراشفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذري على شاكلة قوله:

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ	عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي
بِأَبِي طِفْلَةٍ لَعُوبٍ تَهَادِي	مِنْ بَنَاتِ الْخُدُورِ بَيْنَ الْغَوَانِي
طَلَعَتْ فِي الْعِيَانِ شَمْسًا فَلَمَّا	أَفَلَّتْ أَشْرَقَتْ بِأَفْقِ جَنَانِي
بِأَبِي ثُمَّ بِيْ غَزَالٍ رَيْبٍ	يَرْتَعِي بَيْنَ أَضْلُعِي فِي أَمَانِ

فهو محب موجه الفؤاد أو هو مريض مرضاً لا يرجى له منه شفاء لما وقع في قلبه من حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التي رآها تتبختر بين الغواني الجميلات. وحين رآها ظنها شمساً فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفدي بروحه هذا الغزال المصون الذي يرعى بين أضلعه في قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصبابة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتاع ما يزال ابن

عربي يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هي نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير في الديوان منشداً:

كلُّ ما أذكرُهُ منْ طَلَلٍ	أو ربوعٍ أو مَغَانٍ كلُّ ما
أو نساءٍ كاعِباتٍ نَهَدٍ	طالعاتٍ كشموسٍ أودَمِي
صفةٌ قُدْسِيَّةٌ علَوِيَّةٌ	أعلمتُ أنْ لصدقي قَدَمًا
فاصْرِفِ الخاطرَ عن ظاهِرها	واطلبِ الباطنَ حتَّى تَعْلَمَها

وهو لا يذكر في القصيدة الطلول والربوع والمغاني أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضاً: نجداً وتهامة والسحب تبكي والزهر يتسم المواضع النجدية مثل الحاجز وورق الحمام وأنينها والبروق والرمود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنقا والربى والرياض والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزاً لبيان حبه الرباني وأسراره وأنواره في فؤاده، وهو حب يتسع به حتى يشمل أصحاب الديانات جميعاً، إذ يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبانٍ
وبيتٍ لأوثانٍ وكعبة طائفٍ	وألواح توراةٍ ومصحف قرآنٍ
أدين بدين الحب أني توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

فدينه الحب الذي يسع جميع الديانات السماوية والوثنية، ولعل هذه الشطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلاً عن أن يكون دينها المحبزة وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجهما في شعره كقوله في إحدى موشحاته:

والبُعْدُ قد حيرَه

يقول والوَجْدُ أضناه

الفَرْدُ قد خيرَه

وهيِّم العَبْدُ والواحد

والإِعْلَانُ في العالمين

في البَوَّاحِ والكتمان والسرِّ

وفي الحق أنه كان صوفياً كبيراً، وقد لبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششتري^(١):

هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري، ولد بقرية ششتر من عمل مدينة وادي آش في إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوده، وعنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكي، حتى نعت بالفقيه

(١) انظر في الششتري وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفح الطيب ٢/ ١٨٥، ٢٠٥ والإحاطة ٤/ ٢٠٥ وعنوان الدراية للغبريني ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتنبكتي والرسائل الكبرى لابن عباد الرندي (طبع فاس) ص ١٩٧ وراجع في أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. علي النشار (طبع الإسكندرية).

وعروس الفقهاء. وأخذ يكب في شبابه على دراسة التصوف ولقاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثل كثيراً من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم في السياحة والتجول في البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولاً فترة غير قليلة، تلمذ في أثنائها لأبي مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفياً سنياً، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - في البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششتري فاعتنقها. ولقى ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبي مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسر إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلي. وظل طويلاً معجباً بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه في بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل في طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانة الصوفية (يريد رقعتهم البالية) وحملت في يدك بنديراً (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل في السوق ثلاثة أيام يغني بخواطر المتصوفة منشداً:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغني^(١).
اش على من الناس واش على الناس مني

(١) مكناس: مدينة بالمغرب بينما بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرف فيها على الشيخ أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبي العباس المرسى وحمل عنهما طريقتهما، وبذلك يعترف في بعض أزجاله قائلاً: "شيوخى هم الشاذلية" وحج مراراً وكان كلما حج طوف في العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقي ابن إسرائيل تلميذ ابن عربي في الشام سنة ٦٥٠ كما لقي أصحاب عمر السهروردي البغدادي المتصوف السنى المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفي أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفى بقرىها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاؤه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه في موشحاته وأزجاله مثنياً منوهاً سبياً في أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبي مدين المغربي الصوفية السنية، وانتقل منها في مصر إلى طريقة أبي الحسن الشاذلي الصوفية السنية، فهو صفى سنى، وفيه يقول الغبريني: "الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد، من الفقراء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية" ونوه به ابن عباد الرندي الشاذلي في رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالباً منا الزيادة لا الحُسنى بفكرٍ رمى سَهْماً فعَدَى به عَدْناً^(١).

(١) احسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

إذ نقل عنه التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج نعتة له بقوله: "الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يقرأ عليه القرآن والسنن، عارفاً بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق". ويقول المقرئ فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجربين وبركة لابسى الخرقة الصوفية.. كان مجوداً للقرآن قائماً عليه عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال في الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنف كتباً مختلفة، منها: "العروة الوثقى" و"المقاليد الوجدية في الأسرار الصوفية" و"الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة" و"المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية". ومن شعره قوله:

فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر

فغبت بها عن عالم الخلق والأمر

ونزهت من أعنى عن الوصل

والهجر

أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى

فأبصر أمراً جلّ عن ضابط الحصر

فكانت له الألفاظ سترًا على ستر

لقد تهت عجباً بالتجرد والفقر

وجاءت لقلبي نفحة قدسية

وصلت لمن لم انفصل عنه لحظة

وما الوصف إلا دونه غير أنني

وذلك مثل الصوت أيقظ نائمًا

فقلت له الأسماء تبغي بيانه

وهو يتيه عجباً وزهوراً بالاجتهاد في العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهيمه أي شيء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلت إلى رضوان الله ومحبتة، ويستدرك فإنه غنى عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشيبي وغزلي إلا بعض ما أشعر به، وكأني مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجلب ويعظم عن الحصر، وحتى أسماؤه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنها الألفاظ تضيف دونه حجاباً إلى حجاب، وله في إحدى موشحاته:

خلعتُ عذراً عشقي في غرامي وهمتُ وقد حلا عندي هيامي

بمن أهوى وكاسات المدام

مذهبي دنى لائمي دغني الهوى فني

ببدلي في الهوى روى ومالي عشقتُ فما لعدالي ومالي

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم في غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه، لا يستحي ولا يخجل، إذ جمع به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشي بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو ليس شرباً عادياً بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دونه مذهباً له حتى يبهج روحه وقلبه بهذا الحب الرباني الذي بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعدال اللائمين وماله. وقد

اندفع في فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دن قدسي عظيم. ومن قوله في موشحة ثانية:

يا حبيبي بحياتك	بحياتك يا حبيبي
رق لي وانظر لحالي	أنت أدري بالذي بي
أنت دائي ودوائي	فتلطف يا طيبي

وهي كلمات تكاد تطير من الفم طيراناً لحقتها وعذوبتها وسلاستها. ولهذه السلاسة والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله في حلقات المتصوفة من شاذلية وغير شاذلية، ونوه بها جميعاً مترجموه، يقول الغبريني: "شعره في غاية الانطباع والملاحه، وتواشيحه ونظمه الزجلي في غاية الحسن" ويقول ابن عباد الرندي: "في موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة".

(ج) شعراء المدائح النبوية:

طبيعي أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم في ذلك مثل الشعراء في جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم في تقواه ونسكه وروعه وامثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذي أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع،

وفرضوا على أمراء الطوائف المتنازعين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خائعين. وهو ما جعل غير شاعر أندلسي يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة في نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجري حتى أصبح المديح النبوي غرضاً كبيراً من أغراض الشعر الأندلسي، ونحن نجده في هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ وله في مخاطبة مكة مهبط الوحي النبوي ورسولها الكريم شعر^(١) طريف، وبالمثل نجده على لسان أبي عبد الله بن أبي الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان^(٢) في مقتل الحسين بكر بلاء. ويسوق المقرئ في الجزء الأخير من كتابه نفح الطيب لابن العريف الصوفي أشعاراً نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: "مطالع الأنوار ومنابع الأسرار" ومن قوله في إحداها^(٣):

يُحِبُّكَ قُرْبَةً نَحْوَ الْإِلَهِ

وَحَقَّقَكَ يَا مُحَمَّدٌ إِنَّ قَلْبِي

فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طَيْبِ الْمِيَاهِ

جَرَتْ أَمْوَاهُ حُبِّكَ فِي فُؤَادِي

فهو محب وإله للرسول عليه السلام، يستمر قائلاً إنه نال به في دنياه فرحة وسروراً، وسينال به في آخره جاهاً ونعيماً إذ يحب محبوب الإله وصفيه، ويتذلل له في بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذاً وملجئاً.

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٢ وما بعدها.

(٢) فهرست ابن خبير ٤٢١.

(٣) انظر في هذه القصيدة وتاليتها نفح الطيب ٤٩٧/٧.

ويختتم المقرئ اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بصلاة الله على النبي الهادي العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي	ما لاذت الأرواحُ بالأجسادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا أَسْوَدَ الدُّجَى	فكسًا مَحْيَاً الْأَفُقِ بُرْدَ حَدَادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا أَتَبَلَجَ السَّنَا	فابيضُ وَجْهٍ الْأَرْضِ بَعْدَ سَوَادِ

ويظل يدعو الله أن يصلي على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصه بالنور والإرشاد وختم النبوة كتابه الهادي. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرئ من مديح نبوي فكرة الحقيقة المحمدية التي وجدوت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما رده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول في المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفيًا سنيًا. وملتقى بأبي الحسن بن لبال وتشوقه^(١) الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره^(٢) أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأييد الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة^(٣) في مئات من الأبيات في مديح الرسول. وملتقى بمعاصره أبي زيد الفازازي وسنخسه بكلمة.

(١) المطرب ص ٩٠.

(٢) المغرب ٢/ ٢٦٠.

(٣) سهاها الدرة السنية في المعالم السنية. انظر التكملة ص ٣٢٥.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة في حجر النصارى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوي إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوي الشريف واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل في الفصل التالي مع الترجمة لابن الجنان المتوفى في عشر الخمسين وستمائة، وقد أنشد له المقرئ في الجزء السابع من نفح الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس^(١)، بديع جعل شطره الخامس: "صلوا عليه وسلموا تسليماً" وفيه عرض عرضاً رائعاً سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم^(٢) بن سهل الإشبيلي، وكان يهودياً كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلي المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن في بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعراً ماهراً، وله ديوان طبع مرارصاً، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقاً إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرئ منظومة^(٣) نبوية بديعة لعله استلهم فيها خممس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذي تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقي الحامي إلى ذاك الحمى

فمتى أقضيه غراماً مغرمًا

(١) نفح الطيب ٤٣٢/٧.

(٢) انظر في ابن سهل مصادره في ص ٣٠٦ ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

(٣) النفح ٤٤٥/٧.

ومتى أعانقه صعيداً مكرماً

صَلُّوا عليه وسلموا تسليماً

بضمير كل موحد ملثوماً

ولأبي الحسن الرعيني الإشييلي المتوفي سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان ربانيتان^(١). ولحازم القرطاجني المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي مدحتان^(٢) نبويتان بني أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبني الثانية بنفس النظام: شطر له وشطر من لامية امرئ القيس: "ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي". ويلقانا في كتاب الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية^(٣) لغير شاعر مثل ابن الصائغ وأبي جعفر بن جزي، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجني الثانية.

وكان قد أصبح تقليداً في غرناطة أن يحتفل بالمولد النبوي احتفالاً رسمياً كل عام وأن تلقى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، ولللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهي مسجلة في ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفع الطيب، ودائماً يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينتهي المولدية غالباً بمديح السلطان الذي أقيم الاحتفال النبوي في عهده، ومن تصويره لحنيه الملتاع إلى الاكتحال برؤية القبر الطاهر قوله:

(١) الذيل والتكملة للمراكشي القسم الأول من الجزء الخامس ص ٣٦٤.

(٢) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.

(٣) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩، ٢٥١، ٣٠٣.

إذا أنت شافهت الديار بطيبة
وجئت بها القبر المقدس واللحدا
فنب عن بعيد الدار في ذلك الحمى
وأذر به دمعا وعفر به خدا

وكان يعاصره ابن جابر الأندلسي وسنخسه بكلمة، وعاصرها ابن خاتمة وفي ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرئ لابن زمرك مولديات له في الجزء الثاني من أزهار الرياض، ومن قوله في إحداها مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيب الله خاتم رسله
وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان
وأنت لهذا الكون علة كونه
ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان
ولولاك للأفلاك لم تجل نيرا
ولا قلدت لبائن بشهبان

وواضح أنه يقتبس من البوصيري وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور في الأفلاك، ولولاه ما سطعت في لبائها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن نتوقف قليلاً بإزاء أبي زيد الفازازي وابن جابر الوادي آشي.

أبوزيد^(١). الفازازي:

(١) انظر في ترجمة أبي زيد الفازازي التكملة رقم ١٦٤١ والإحاطة ٣/ ٥١٧ ونفح الطيب للمقرئ ٥٠٧/٧ وما بعدها.

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي سعيد بن يخلفتن، ولد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكب على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوي وروايته والفقه واصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسأل ينبوع الشعر متدفقاً على لسانه، وعمل في الدواوين الحكومية، وحظي بمكانة رفيعة عند أبي اسحق وإلى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة بمراكش (٥٩٢-٦٠٩هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠هـ) وعمل بدواوين عمه أبي العلاء إدريس في ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودي بأبي العلاء - وهو في الأندلس - خليفة للموحدين بمراكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبا زيد للعمل في دواوين مراكش ولباه راضياً، ولم تكد تمضي بضعة أشهر حتى لى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب في ترجمته إنه كان فاضلاً سنياً شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزماً بذلك مع كره له وحرصاً على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضاً عن أبي زيد إنه كان آية الله في سرعة البديهة وارتجال النظم والنثر وفور مادة وموالة استعمال. وله في الزهد عملان: عمل طبع بدار إحياء الكتب العربية في القاهرة باسم "القصائد العشرية في النصائح الدينية والحكم الوعظية" ولعلها هي التي سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: "المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شائعة إلى مناهج السالكين المستبقيين، نظمها متبركاً بعبادتهم، متيمناً بأغراضهم وإشاراتهم، قابضاً عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم..". والمعشرات قصائد تشتمل كل منها

على عشرة أبيات فأكثر، منظومة على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمته في العبادة والنسك وسماه: "المعشرات الحية" وافتتحها بقوله: "النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على ألسنة الزاهبين وجداء، الذائبين كمداء، نظم من نسج على منوالهم" وله يناجي ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددت الكف في كل شدة	ومنك وجدت اللطف في كل نائب
فحقق رجائي فيك يا رب واكفني	شمت عدو أو إساءة صاحب
وكم كربة نجيتني من غمارها	وكانت شجا بين الحشا والترائب
فيا منجي المضطر عند دعائه	أغثني فقد سدت على مذهبني

وسمى مجموعته في المدائح النبوية "الوسائل المتقبلة" وأضاف: "والآثار المسلمة المقبلة مودعة في العشرية النوية" نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعددها لما يستقبله من مدهش الأحوال، وفرغ خواطره لها على توالي القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - ولي القبول للتوبة، والمنان بتوسيع هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغرفته "ولعل هذه المجموعة هي نفسها المطبوعة في دار إحياء الكتب العربية باسم "الوسائل المتقبلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم". وهي خمسمات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والخمسمات قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله في الخمسمات النونية عن رسول الله:

بدا قمرًا مَسْرَاهُ شَرْقٌ وَمَغْرَبٌ
وخصت بِمَثْوَاهُ المدينةُ يثربُ
وكان له في سُدَّةِ النورِ مَضْرِبٌ
نجي لربِّ العالمينِ مقَرَّبٌ^(١).

حيبٌ فيدنو كلَّ حينٍ وَيُسْتَدْنِي

من العالمِ الأعلى وما هو منهم
شبيهٌ بهم في الوصفِ زاكٌ لديهم
رحيمٌ بكلِّ الخلقِ دانٌ إليهم
نصيحٌ لأهل الأرض حانٌ عليهم

اضاء لهم صَبْحًا وصابَ لهم مُزْنًا^(٢).

وهو يقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم قمر اصطضاءت بأشعة نوره المشارق والمغرب، وخصت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل في السماء، حين صعد إليها بمراحه، عند سدره المنتهى، نجيا لرب العالمين مقربا إليه حبيبا، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم في الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصيح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضيء الوجود صبحا وينسكب عليه غيثا غدقا. ولأبي زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أنشد منها المقرئ في النوح شذورا، من ذلك قوله في الرسول:

تقدّم كلّ العالمين إلى مدى
تظلّ به الأوهام ظالعةً حَسْرَى^(٣).

(١) سدة النور: يريد بها سدره المنتهى المذكورة في سورة النجم وأن عندها الجنة التي تأوى إليها أرواح الشهداء والملائكة.

(٢) المزن: السحاب الغدق الممطر.

(٣) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

وعَفَى رُسُومَ الكافرين وأَهْلَهَا
فَلا قَيْصَرَ من بَعْدَ ذاكَ ولا كِسْرَى
وَحُصَّ بِتَشْرِيفٍ على النَّاسِ كُلِّهِمْ
بَنورِ سماءٍ نَاقِلُوهُ عَنِ الإِسْراءِ
تَرَقَّى إلى السَّبْعِ الطَّباقِ تَرَقِّياً
وَبُورِكَ في السَّارِي وَبُورِكَ في المَسْرَى
فَسَبَّحانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بَعْبُدُهُ

وهو يقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم تقدم عند ربه إلى مدى لا يستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مهما صعدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، فلا كسرى إذ سلبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سلبت الجوهرتان المتلائتان في تاجه: مصر والشام. وخصه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدرة المنتهى يناجي ربه، فسبحان الذي أسرى بعبدته. مردداً بذلك ما جاء في أول سورة الإسراء. ويقول بورك في الرسول الساري وفي المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد في مديحه النبوي معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التي ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائماً يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مراراً على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردوا في بحر هلاك ما بعده هلاك.

ابن^(١). جابر الأندلسي:

(١) انظر في ابن جابر وترجمته وشعره نكت الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣/ ٣٣٠ الدرر الكامنة لابن حجر

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن جابر الهواري، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبي العيش في العربية ومحمد بن سعيد الرندي في الفقه وأبي عبد الله الزواوي في الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي، فان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجا وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه في سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلغلًا شاليها حتى ماردين^(١)، إذ يذكر ابن بطوطة في رحلته عن سلطان ماردين ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضًا في الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحًا فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً في حلب وتوفي بالبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم في المديح النبوي، وله فيه ديوان سماه "العقدين في مدح سيد الكونين" وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة في الشعر التعليمي إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهي قصائد في المديح النبوي، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحلبي - بردة البوصيري الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحياناً لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة في رحلته أبو جعفر الغرناطي، واشتهرت باسم بديعية العميان

٤/٢٩٤ وشذرات الذهب ٦/٢٦٨ ونفح الطيب ٢/٦٦٤-٦٩٠، ٧/٣٠٢-٣٧٠.

(١) ماردين: قرية بتركيا الآن.

وقد سماها: "الحلة السيرا"^(١) في مدح خير الورى " وفي النفع طائفة بيرة من نبوياته، منها مقصورة في نحو ثلاثائة بيت نقتطف منها قوله:

يَهْدِي بِهِ مَنْ فِي دُجَى اللَّيْلِ مَشَى	إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُصْبِحٌ هَدَى
فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هَدَى	إِنْ تَحَسَّبِ الرَّسُلَ سَاءَ قَدْ بَدَتْ
فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَدْرٌ بَدَا	وَإِنْ يَكُونُوا أَنْجَمًا فِي فَلَكٍ
مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصَّبَا أَوْ ارْتَدَى	أَحْسَنُ أَخْلَاقًا مِنَ الرَّوْضِ إِذَا
وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مَنَى فِدَا	تَقْدِيهِ نَفْسِي مِنْ شَفِيعٍ لِلْوَرَى

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمنها في تضاعيف المديح النبوي كثيرا من الخواطر والحكم، وفصل القول في شمائل الرسول ومعجراته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعدته وذخره لربه. وأنشد له المقرئ مدحة من غرر مدائحه للرسول ورى فيها بسور القرآن الرقيم، ويقول المقرئ: لو لم يكن له في مديحه سواها لكفى، وهي تمضي على هذا النحو:

حَقَّ الثَّنَاءُ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْبَقَرَةِ	فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبَرَهُ
رَجَالُهُمُ وَالنِّسَاءُ اسْتَوْضَحُوا خَبَرَهُ	فِي آلِ عَمْرَانَ قَدْ مَّا شَاعَ مَبْعَثُهُ

(١) السيرا: المخططة خطوطاً بديعة.

من مد للناس من نِعْمَاهُ مائدةً
عَمَّتْ فليست على الأنعام مُقْتَصَرَهُ
أَعْرَافُ نِعْمَاهُ ما حلَّ الرِّجَاءُ بها
إلا وأنفالُ ذاك الجودِ مُبْتَدَرَهُ

والطريف أنه يحكم وضع اسم السورة في مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاماً رائعاً على نحو ما نرى من ذكره في هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء في السورة، والأنعام اسم السورة وهي الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهي في البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهي العطايا. واطردت هذه الدقة في استظهار أسماء السور الكريمة في جميع أبيات القصيدة. ويهدي في نهايتها أزكى صلواته للرسول وعترته وصحابته، وخصوصاً عشرة منهم، ويسميهـم، كما يهدي أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتي الرسول صلى الله عليه وسلم ولابنته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول أنه سيظل يهدي كل من ساهم مدائحه. وله قصيدة مطولة في فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علم منهم في أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائماً عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقاً غزيراً.

هـ

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشاخنة في عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا في مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسددونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعدائهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يقدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهاز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن برشتر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتي لاردة وسرقسطة ركني الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلاً بشعاً، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفزعه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول^(١):

ولقد رمانا المشركون بأسهم	لم تخطِ لكن شأنها الإصماء ^(٢) .
كم موضع غنموه لم يرحم به	طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من أمه	فله إليها ضجة وبغاء ^(٣) .

(١) الروض المعطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

(٢) الإصماء: القتلى.

(٣) بغاء: نشدان.

فوق التراب وفرشه البيداء

ولرب مولود أبوه مجدل

قد أبرزوها ما لها استخفاء

ومصونة في خدرها محجوبة

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصبح بها، ولقد هتكت الحرم ونهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد روع سرب الله وفل غربه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استشارتهم هذه النكبة وأقضت مضاجعهم الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهزني ترب المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه في شبابه، فكتب إليه يستصرخه^(١)، ليرأب الصدع ويداوي الجروح، ونظم أشعاراً يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويعضل الداء من مثل قوله^(٢):

طَرَقَ النَّوَامُ سَمْعَ أَزَلٍ^(٣).

بَيْتَ الشَّرِّ فَلَا يَسْتَرِلُ

كُلُّ مَا رَزَّ سِوَى الدِّينِ قُلُّ

فَتَبُوا وَاخْشَوْشُوا وَاحْزَلُّوا

وَرِيَا حِثْمَ غَيْمٍ أَيْلٍ^(٤).

بَدَأَ صَعَقَ الْأَرْضَ نَشْءٌ وَطَلَّ

(١) الذخيرة ٢/ ٨٩.

(٢) الذخيرة ٢/ ٨٩.

(٣) سمع أزل: ذئب فاتك.

(٤) غيم أيل: غيم ممطر مطرا شديداً.

يَدُنَا العُلَيَا، وَهَمْ - وَيَكْ - شَلُّ
فَلَمْ اسْتَرْعَى الْأَعَزَّ الْأَذْلَ^(١).
عَجَبُ الْأَيَامِ لَيْثٌ صُمْلُ
ذَغَرَّتْهُ نَعِجَةٌ إِذْ تَصِلُ^(٢).

وهو يصرخ في كل أندلسي أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صك مسامع النوام ذئب فاتك. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواطف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتهبة، فيقول إننا كثرة غالبية ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دهى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تفرع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسداً ضارياً بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزني وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضباً لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورمانديين ونكلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغلسوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وبدلاً من

(١) شل: يريد قلة.

(٢) صمل: شديد الخلق. تصل: تصبح بصوت لين رقيق.

أن ينتهز الفرصة التي أمكنته من عدوه أنزله ببلده في قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومداخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح ملكاً عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمه الاستيلاء على طليطلة حتى يرد الدين الذي في عنقه لبني ذي النون! يقول ابن الخطيب: "وسكناه بطليطلة وإطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى لها^(١)". ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادي الحجارة إلى طليطلة وشتمرية، وكان لذلك زلزلة ضخمة في نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرص الأندلسيين على الأخذ بالتأثر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضباً وموجدة، وفيها يقول^(٢):

طَلِيطْلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرَ مِنْهَا	حَاها إِنَّ ذَا نَبَأٍ كَبِيرٍ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِلًا لِلدِّينِ صَعْبًا	فَذَلَّه - كَمَا شَاءَ - الْقَدِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاةً	قَدْ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الْأُمُورُ
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ أَيِّ قَلْبٍ	عَلَى هَذَا يَقْرُؤُ وَلَا يَطِيرُ؟!
أُذِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ كَانَتْ	مَصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا الْقُصُورُ ^(٣) .

(١) أعمال الأعلام ٢/ ٣٣٠.

(٢) نفح الطيب ٤/ ٤٨٣ وما بعدها.

(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.

والنزعة الدينية قوية في القصيدة، إذ كانت حرب الشمالين فعلاً حرباً صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهب أبناؤه لحميته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أماءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضاً للعرض الذي طالما سلت السيوف من أجله وأذيت الختوف، فقد أمتهنت النساء العفيفات ربات القصور الحسان ذوات الجمال، وتحولن إلى خادومات في بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يغلي لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خذوا ثأر الديانة وانصروها	فقد حامت على القتلى النُورُ
ولا تهنوا وسلوا كلَّ عَضْبٍ	تهاب مضارباً منه النُحور ^(١) .
وموتوا كلُّكم فالموت أولى	بكم من أن تجاروا أو تخوروا ^(٢) .
ونرجو أن يتيح الله نصرًا	عليهم إنه نعم النصيرُ

(١) العضب: السيف القاطع.

(٢) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار: ضعف ووهن.

وهو يقول للأندلسيين جميعاً ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيبوهم وبال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إيجارتهم وحمايتهم لكم فإن في ذلك هواناً لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسي أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يجبر العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتاً لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبي محمد عبد الله العسال، ومر بنا آنفاً شعره حين استولى العدو على بربشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظناً أنه نظم في نجدتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كي ينقذوها من أيدي القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استلوى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة في أقصى الشمال لأمرائها من بني هود لاستبسالهم المستمر في حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زين له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدي بني هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة ٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كتنده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى تطيلة وطرسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفي سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهاز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جيان واتخذ وزيراً له أبا جعفر الوقشي أحد رجالات الأندلس النابهين وكان شاعراً، وما زال يقنع ابن همشك

بالدخول في طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بنعبد المؤمن في عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله في طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه في إحداها^(١) يستصرخه لجهاد النصارى في الأندلس ورد كيدهم في نحورهم، وفيها يقول:

فَأُبْصِرَ شَمْلَ الْمُشْرِكِينَ طَرِيدًا^(٢).

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُمَدُّ لِي الْمَدَى

تغادرهم للمُرْهَفَاتِ حَصِيدًا^(٣).

وهل -بعد- يَقْضِي فِي النَّصَارَى
بُنْصَرَةً

يُعِيدُ عَمِيدَ الْكَافِرِينَ عَمِيدًا^(٤).

ويغزو أبو يعقوب في "شَنْتَ يَاقُبِ"

فَيُتْرَكُهُمْ فَوْقَ الصَّعِيدِ هُجُودًا^(٥).

وَيُلْقَى عَلَى إِفْرِنْجِهِمْ عَبَاءُ كُلِّ كَلٍّ

ركوعًا على وَجْهِ الْفَلَا وَسُجُودًا

يغادرهم جَرْحَى وَقَتْلَى مَبْرَحًا

والوقشي يتمنى أن يُمدَّ له في عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدحورين مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصدا بقيادة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلاً بهم الهلاك والدمار حتى "شنت ياقوب" في

(١) انظر القصيدة في نفح الطيب ٤ / ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) يمد لي المدى: تطول حياتي.

(٣) المرهفات: السيوف حصيدًا: محصودين كالزراع المحصود.

(٤) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملهم، وبعמיד الثانية قتيلاً وأصل معناها القتل بالعمود.

(٥) ككل: وقعة مبيرة. الصعيد: وجه الأرض. هجودًا: موتى كأنهم نائمون.

جليقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة، وقد أصبح عميدهم أو ملكهم قتيلاً إثر مواقع
تمزقهم تمزيقاً، حتى لتملاً الأرض بهم جرحى وقتلى كبوا على جباههم، وكأنهم راعون
على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرحون مصرعون. ويمضي قائلاً:

ويفتكُّ من أيدي الطُّغاة نواعماً تبدلن من نظم الحُجُول قيوداً^(١).
وأقبلن في خُشنِ المسُوح وطالما سَحَبْنَ من الوُشي الرقيق بُرودا
وغبرَ منهنَّ الترابُ ترائباً وخدَدَ منهنَّ الهجيرُ خدوداً^(٢).
فحقَّ لدمعي أن يفيضَ لأزرقٍ تملَّكها دُعْجُض المدامع سُوداً^(٣).
ويالهفَ نفسي من معاصم طفلةٍ تجاوزَ بالقَدِّ الأليم نهوداً^(٤).

والوقشي يستثير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين
وفتياتهم الحسنات إذ تبدلن من زيتتهن وحلى خلاخيلهن أغلال القيود، بل يا للذل
فقد ألبسوهن مسموح النصارى الصوفية الخشنة بعد أن عشن يلبسن الثياب الحريرية
الموشاة الرقيقة، بل يا للهول لقد صرن خادماً يلطخ التراب مواضع القلائد النفسية

(١) الحُجُول: الخلاخيل.

(٢) غبر: لطح بالغبار. الترائب جمع تريبة: موضع القلادة في أعلى الصدر. خدد: أنجل. الهجير: اشتداد
الحر.

(٣) يريد بالأزرق الإسباني لزرقة عينيه. دعج جمع أدعج: شديد السواد.

(٤) معاصم جمع معصم: موضع السوار في يد المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة الناعمة. القد:
سير من جلد.

في صدورهن، وقد غاضت من خدودهن النضرة من العمل الشاق في لفح الهاجرة بعد أن كن ربات بيوت وفتيات قصور مخدومات تحف بهن الفخامة والجلال. ويقول الوقشي حق لدمعي أن يسيل مدراراً لأولئك الحسان ذوات العيون النجلاء الدعج اللائي نشأن في الحلية والنعيم، فقد بدلت الأساور والحلي الذهبية في معاصمهن أقداً أو سيورا من جلد، فيا للعار! ويا للإسلام! ويا للعروبة.

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن أمير الوحدين الأثر العميق في نفسه، فدخل الأندلس في سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف فارس شاكبي السلاح، وسحق النصارى في غير موقعة واسترد كثيراً من ديار الأندلس والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلفه ابنه يعقوب المنصور فمزق جموعهم في موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كتب فهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ لعهد ابنه الناصر. وثارت الأندلس على الموحدين، وتفككت بلدانها وتحارب أمراؤها، مما آذن سريعاً بضياح الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى القشتاليون على مدينة ماردة في الغرب شرقي بطليوس، وفي السنة التالية يستولى صاحب برشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حبات العقد ودرره أن تنفرط واحدة في إثر أخرى، وتسقط في سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى في حجر القشتاليين، وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها وذوي البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماسهم من العلماء أمثال القاضي أبي الربيع الكلاعي الذي استشهد وهو ينازل العدو منازل ضارية. ولم يلبث

ملك أراجون أن حاصر بلنسية أشهراً متعاقبة، وشدد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤمن، ولم يبق إلا الموت جوعاً أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبي الحملات يستصرخ حكام المغرب لإغاثة ونجدة بلدته مرسلًا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التي أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية فقي يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة فجهز أسطولاً من ثماني عشرة سفينة محملة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق في إيصال المؤن إلى المحاصرين، واضطر إلى إنزالها في ثغر دانية جنوبي بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرًا طوالاً حتى نفذت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم في صدر سنة ٦٣٦ وكان ذلك رزءًا أليماً وخطبًا جسيمًا، مما جعل كثيرين من شرقي الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقري لشاعر وجه بها إلى أبي زكريا الحفصي أمير تونس، يقول فيها^(١):

واجْعَلْ طَوَاغِيَتَ الصَّلِيبِ فِدَاءَهَا

واعْقِدْ بَأْرُشِيَّةَ النِّجَاةِ رِشَاءَهَا^(٢).

نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ فَلَبَّ نِدَاءَهَا

رِشْ أَيْهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمِ جَنَاحَهَا

(١) نفح الطيب ٤/٤٧٩.

(٢) رش من راش: أنبت الريش. أرشية جمع رشاء: الحبل.

إِيَّاهُ بَلَنْسِيَّةٌ وَفِي ذِكْرِكَ مَا
يُمَرِّى الشُّؤْنَ دِمَاءَهَا لَا مَاءَهَا^(١).
بَأَبِي مَآذِنَ كَالطُّلُولِ دَوَارِسَ
نَسَخْتُ نَوَاقِيسَ الصَّلِيبِ نِدَاءَهَا
هَبُّوا لَهَا يَا مَعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ
أَنَ الْهُبُوبُ وَأَحْرَزُوا عَلَيَّاهَا

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبي زكريا أن يرش جناح الأندلس المهيض ويعقد حبلها وخيوطها بحبال النحاة وما يرسل إليها منالجيش الحرارة. ويكي بلنسية وما دهاها، مما يفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدراسة بروحه، ويتحسر على ندائها: "الله أكبر" الذي نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط في أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شقر جنوبي بلنسية: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة في الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياغا شديدا آملا في استردادها من حملة الصليب بمثل قوله^(٢):

قَدْ عَادَ قَلْبِي مِنْ شَرْقِ أَنْدَلَسٍ
وَدُونَ شُقْرٍ وَدُونَ زُرْقَتِهِ
عِيدُ اسَى فَتَهُ وَمَا فَتَرُ^(٣).
أَزْرَقُ يَحْكِي قَنَاهُ أَوْ أَشْقَرُ

(١) يمرى من أمرى الناقة: أدر لبنها.

(٢) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي للدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) ص ٢٣٢.

(٣) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من المموم. فتر: سكن.

سأله الواردون فاستبحر^(١).

أناب مما جناه واستغفر^(٢).

بها على الروم لم نزل نخبّر

الروم حرب لنا وهم وشل

إننا لنرجو للدهر فياة من

ونرقب الكرة التي أبدا

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلاً قلبه مما حدث له ولموطنه "شقر" أسى وغما فتنه تفتيتاً، ولم – ولن – يفتر أو يسكن، وأين شقر؟ وأين نهراً بزرقة وحلله السندسية؟ لقد استولى عليه شقر من الروم زرق العيون مثل زرقة قناته، ويقول: يا للعجب! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر مما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالباً الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرة على الروم والنصر الذي وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيان شرقي قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقي دانية سنة ٦٤٤. وغشيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرندي في نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن^(١) الأبار:

(١) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.

(٢) فياة: رجعة.

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، كان أبوه من جلة القراء، من أهل حصن أندلس من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطناً له ومستقراً، وبها رزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكب على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ يلبثهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيه لعصره أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، وكان ابن الأبار يعجب به إعجاباً يملأ عليه نفسه، وهو الذي وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذ الكلاعي صفيّاً له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسي في دواوين الحكام، ولم يلبث وإلى الموحدين على مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذ كاتباً له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبد الرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبو جميل زيان بن مردنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتباً له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعي ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندباً حاراً. وما يلبث صاحب برشلونة أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد

(١) انظر في ابن الأبار عنوان الدراية للغبريني ص ١٨٣ واختصار القدر المعلق لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ٦/٢٨٣ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/٤٥٠ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقري ٣/٢٠٥ وما بعدها ونفح الطيب ٤/٤٥٧ وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٥/٢٩٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاي الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه "الحلة السيرة" وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين.

لطلب الغوث والمعونة، فهجز له أسطولاً محملاً بالمؤن والأسلحة كما مر بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلم أهلها ما حمله كما مر بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية في صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائماً كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسي لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنها زاهد ابن الأبار في المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبو زكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أو شارة الدولة، وهي توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسي، فرأى الأمير أبو زكريا أن تكتب بالخط المشرقي وأن يختص بكتابتها أحمد بن إبراهيم الغساني، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسي، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفي أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعادة إلى الكتابة في ديوانه ورفعته إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفر الناس منه، ويقول ابن خلدون: "كان فيه أنفة وبأو (عظمة) وضيق خلق" فأود له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه في مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قتل سنة ٦٥٨ مظلوماً مأسوفاً عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار في الذروة من مؤرخي الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو في مقدمة من مكثوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس

وأعلامها النابهن بفضل كتبه النفيسة، وهي: التكملة في مجلدين - المعجم في أصحاب القاضي الصدفي المتوفى سنة ٥١٤هـ - الحلة السيرة في مجلدين وتشتمل على تراجم الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفه القادم في شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرًا مجيدًا، وحين حدثت وقعة أنيثة أظلمت الدنيا في عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعي، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدمًا أمام الصفوف زاحفًا إلى الأعداء مرغبًا في قتالهم منادياً فيمن يهزمون: أعن اللجنة تفرون؟ وظل يعمل السيف في الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعائها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية في قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ	تَقَدَّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ ^(١)
مَضَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُدَمَا كَأَنَّمَا	يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ ^(٢)
مَوَاقِفُ أَبْرَارٍ قَضَوْا مِنْ جِهَادِهِمْ	حَقُوقًا عَلَيْهِمْ كَالْفُرُوضِ اللَّوَاظِمِ
أَيَّتُ لَهَا تَحْتَ الظَّلَامِ كَأَنَّنِي	رَمَى نِصَالٍ أَوْ لِدِيغٍ أَرَاقِمِ ^(٣)

(١) تقد: تشقق. القنا: الرماح. الصوارم: السيوف.

(٢) قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة في مقدم الجناح.

فوا أَسْفَى لِلدِّينِ أَعْضَلَ دَاوَّةُ وَأَيَّأَسَ مِنْ آسٍ لَمَسْرَاهُ حَاسِمٌ^(١).

وهو يهيب بكل مسلم أن يلم بتلك الأشلاء الطاهرة التي قطعتها ومزقتها رماح
النصارى وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد في سبيل الله مسرعين، كأنهم طير
وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداء المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة
وشهادتها لتحز في نفسه، بل لكانما رمى منها بنصال تنزف الدم من فؤاده، أو كأنه لديغ
حيات ما تزال سمومها تسرى في شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف في الأندلس فكأنما
أنزل النصارى به داء عضالاً، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفاً أنه
حين قدم مع وفد بلنسية على أبي زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها
لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محظي ومحروم، وولع
الناس بحفظها ولع بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرئ في أزهار
الرياض إنها من "غرر القصائد الطنانية" ويقول في النسخ: إنها "قصيدة فريدة فضحت
من باراها، وكبا^(٢) دونها من جاراها" وفيها يستغيث:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسًا^(٣).
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرًا لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسًا^(٤).

(١) نصال جمع نصل: حد السيف. الأرقام: الحيات.

(٢) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طبيب.

(٣) كبا: تعثر.

(٤) درس: أخلق وتقادم عهده.

وفي بَلَنَسِيَةٍ مِنْهَا وَقُرْطَبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ ما يَنْزِفُ النَّفْسَا
يا لِلْمَساجِدِ عادتُ لِلْعَدَا بَيْعًا وللنِّداءِ غدا أَثناءَها جَرَسًا^(١).
طَهَّرَ بِلادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ ولا طَهارةَ ما لم نَغْسِلِ النَّجَسَا
واملاً - هنيئًا لك التأييدُ - ساحتها جَرَدًا سَلاهبَ أَوْ خَطِيئَةً دُعَسًا^(٢).

وهو يقول لأبي زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حظها وأصبح أهلها جزراً لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلسية لما يروع النفوس ويخنق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراساً لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغي أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتمحها محواً، واملاً الأرض وساحتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه. حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمؤن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسي المرافق له لإغاثة بلسية المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصاراً لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت في أيديهم المدينة.

(١) جزراً: قطعاً وذبائح. جدها: حظها.

(٢) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرساً أي للنواقيس.

(٣) جرداً: خيلاً سابقة. سلاهـب: عادية. خطية: رماحاً. دعسا: طاعة.

أبو^(١) البقاء الرندي:

هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكني كنية مشهورة بأبي البقاء وكنية أخرى بأبي الطيب، ومسقط رأسه رنده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفها وديان، مما جعلها - كما في الغرب - تعمم بالسحاب وتوشح بالأنهار العذاب، وقد رزق أبوه بن سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشي بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلي الذي ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطن الدباج أبا القاسم بن الجدد نزيل تونس. ولم يتلمذ لهذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضًا لابن الفخار الشريشي ولابن زرقون الغرناطي. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على أنهم في طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك في جانبين عنده هما التأليف ونظم الشعر، أما التأليف فله فيه كتاب: "روضة الأنس ونزهة النفس" ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا في الفصل اثنائي أن له أيضًا كتاب الوافي في نظم القوافي، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها في محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها في الإخلال والسرقة والضرورة،

(١) انظر في ترجمة أبي البقاء وشعره بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي ص ١٣٦ وما بعدها والأحاطة لابن الخطيب ٣/ ٣٦٠ ونفح الطيب للمقري ٤/ ٤٨٦ وما بعدها وأزهار الرياض ١/ ٤٧ وما بعدها ومجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ٦/ ٢١١ وكتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص ٤٣٣ - ٤٦٠.

ورابعها في حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهي صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب في علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشي - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية "فقيهاً فرضياً حافظاً" أي محدثاً ويقول إنه كان متفنناً في معارف جليلة.

ويقول المراكشي إنه "كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ومثوره" وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه، ويذكر أن له في النثر مقامات بديعة في أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظماً ونثراً مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفاً في زمنه. وقد طارت شهرة أبي البقاء الرندي شرقاً وغرباً لقصيدته النونية التي نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى في يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما في حيز كل منها من مدن ومعقل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزناً لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضاً مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى في أيدٍ لا ترحم، أيدٍ استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالاً من العذاب لا تطاق. وكأنها ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصره إخوانهم في الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التي دالت، وكأنها يتأثر في هذا الجزء من قصيدته بآبن عبدون آملاً أن تدول دولة النصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التي نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، ويهتف:

دَهَى الْجَزِيرَةَ أَمْرًا لَا عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلَانٌ^(١).
 فَاسْأَلْ بِلَنْسِيَّةَ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةِ وَأَيْنَ شَاطِئَةِ أَمِ أَيْنَ جَيَّانٍ
 وَأَيْنَ قُرْطَبَةَ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ
 وَأَيْنَ حِمَصٍ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزْهِ وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانٌ^(٢).
 قَوَاعِدُ كَنْ أَرْكَانِ الْبِلَادِ فَمَا عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
 إِنْ الْمَسَاجِدَ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوْقِيسٌ وَصُلْبَانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجل عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتنهد في كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال في أيدي المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرًا:

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ
 وَحَامِلِينَ سَيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنهَا فِي ظِلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ^(٣).

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. ثهلان: جبل ينجد.

(٢) حمص: إشبيلية.

وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ
لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطان
فقد سَرى بحديث القوم رُكبانُ
مذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ

وهو يصيح في فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرفهة أن يسارعوا
لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين في ديارهم يعيشون في دعة وعزة
وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم
وحدهم بل تصيب أيضًا الحنيفة البيضاء في الصميم، فما هذا التقاطع والتنازع وأنتم
إخوان في الدين أخوة أقوى من أخوة ذوي الرحم، إذ ليست أخوة دم بل أخوة روح
وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعًا:

يا مَنْ لَذَّةِ قومٍ بعدَ عزِّهم
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم
أحال حالهم كُفْرٌ وطغيانُ
واليومَ هم في بلاد الكفر عبْدانُ
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
يا رَبَّ أمَّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما
كأنَّها هي ياقوتٌ ومرجانُ
وطفلة مثل حُسن الشمس إذ طلعتْ
كما تفرَّقَ أرواحٌ وأبدانُ
يَقودُها العِلْجُ للمكروه مُكرَهَةً
والعين باكيةٌ والقلبُ حَزنانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا في الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكاً وأمراء، فأصبحوا عبيداً، وإنهم ليكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شيء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. ويا للهول فكم من طفل فرقوا بينه وبين أمه كما يفرق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وفلذة كبدها أبداً، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كإنما هي ياقوت ومرجان يرغمها إسباني جاف غليظ على المكروه البغيض، وهي محزونة تذرف الدمع مدراراً.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتاً تندب بها البلاد التي سقطت في أيدي النصارى الشماليين بعد وفاة أبي البقاء الرندي سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبه لذلك المقري في نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدي الناس منها يادات ندبت فيها مدن الأندلس التي ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائياً في تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة في سمائها ثمانية قرون طوال.

الفصل الخامس

النشر وكتابه

١

الرسائل الديوانية:

كان طبيعياً أن يعني عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس بديوان الرسائل، كما عني به خلفاء أسرته الأمويين في دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة في ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبي حوثر، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد^(١). بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضي، وأسندها إلى حجاج^(٢). المغيلي، وفطيس بن سليمان وفي كتاب الحلة السيرة أن راتبه كان خمسمائة^(٣). دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونظمها الإدارية التي استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر

(١) انظر في محمد بن أمية وأبيه وتوليها الكتابة المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكي - طبع لبنان) ص

٣١ والمغرب ١ / ٧١.

(٢) راجع في تولى المغيلي وفطيس الكتابة للحكم الربضي المغرب ١ / ٤٤.

(٣) انظر الحلة السيرة لابن الأبار (تحقيق د. مؤنس) ٢ / ٣٧٣.

ابن حيان كتابه، ويسميه أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالي - عبد^(١) الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفي سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن^(٢) سعيد الزجالي، حتى إذا توفي سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله^(٣) بن محمد بن أمية، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - في عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه في الكتابة أثناء مرضه قومس^(٤) بن أنتينان النصراني وكان بليغاً بصيراً بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استن في أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه في ذلك جميع الكتاب في ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة في الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد^(٥). بن محمد بن سعيد الزجالي مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد^(٦) الله بن محمد بن أبي عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد^(٧) الله بن محمد بن عبد الله الزجالي، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن ...

(١) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيرة ١/ ١٣٥.

(٢) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/ ٣٣٠.

(٣) المقتبس ص ٣١ والحلة السيرة ٢/ ٣٧٣.

(٤) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشني ص ١١٠.

(٥) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ١/ ٣٣١.

(٦) راجع في ابن أبي عبدة الحلة السيرة ١/ ١٤٦.

(٧) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد^(١) الملك بن جهور فعبد الحلي بسيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه.. عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع^(٢)، مما يدل على تأخر استخدامه في الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فطيس إلى عبد^(٣) الرحمن بن عبد الله الزجاجي سنة ٣٢٩ حتى إذا كلفه في سنة ٢٤٥ بكتابة منشور^(٤) - على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع - يقرأ في المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع في عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبي عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على السنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن^(٥) برد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبي عامر وابنيه وفي زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠-٤٠٧هـ) ثم لبني

(١) راجع في ابن جهور وغيره من كتاب عبد الرحمن الناصر. فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.

(٢) المقتبس ٤٣٨/٥.

(٣) المقتبس ٤٧١/٥.

(٤) المقتبس ٢٥/٥.

(٥) انظر في ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١ والمغرب ٨٦/١ والحميدي ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

حمود بعده، وتوفي سنة ٤١٨ وقد نيف على الثمانين، وله من رسالة^(١) ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يرر فيها قتله لصهره ابن القطاع:

"إنا أخذناه من الحضيض الأوهده، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد، ورفعنا خسيسته، وأتمنا نقيصته.. فلا أقر لنا بحق، ولا قابل إحساننا بصدق، ولا عامل رعتنا برفق، ولا تناول خدمتنا بحذق، بل أعلن بالمعاصي ونبد عهودنا، وخالف سبلنا، وكدر على الناس صفونا".

وينتهي عصر الدولة الأموية، وندخل في عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسي الحاد بينهم والتنافس الأدبي الحاد بين الأدباء من كتاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام في جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسهم جميع كتابهم في كل ما يكتبونه عنهم، التمسهم أحمد^(٢) بن عباس كاتب زهير أمير المرية على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسهم محمد بن أحمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسهم أبو عامر^(٣) التاكرني كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبي عامر الأصغر أميرها بعدهما، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب معن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرهما أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على

(١) الذخيرة ١/١٢١.

(٢) راجع في أحمد بن عباس الذخيرة ١/٦٤٣ والمغرب ٢/٢٠٥ والإحاطة (طبع عنان) ١/٢٦٧.

(٣) انظر في التاكرني الذخيرة ٣/٢٢٦ والمغرب ١/٣٣٢ والحميدي ٥٦ وإعتاب الكتاب ٢٠١. وتاكرنا

كانت قصبة رندة.

أميري دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب النابيين في هذا العصر أبو المطرف^(١) بن مثنى كاتب المأمون بن ذي النون أمير طليطلة (٤٢٩-٤٦٧هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨-٤٧٥هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه في الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجي، ومنهم أيضًا ابن المعلم^(٢) كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد^(٣). ابن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصاري الشمال، وفيها يقول: ^(٤).

"لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعضل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها^(٥) واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال.. ولم يزل دابها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفى

(١) راجع في ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٢) راجع في ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

(٣) انظر في ابن أيمن الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب ٣٦٦/١.

(٤) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٥) الكلب: شدة الحرص والمعاناة، والاستشراء: تفاقم الاعتداء.

الطريف والتلاد، واضطربت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أَسْتَهْمَ وشفارهم^(١)، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطوا هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملة النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم؟! ألا حامي لما استبيح من حمى الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرش الدين من ثل^(٢)، وعزه من ذل!".

وتمضي الرسالة بهذا الاستصراخ المتقد حمية للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضيهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من فقهاء الأندلس، فخف بجنوده وعبر بهم المجاز خفافا وثقالاً رجالاً وركباً، وأنزل بهم وبمن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلافة التي سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقاً، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مزقاً بينهم، فجمع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) وممن كتب له أبو القاسم بن الجند وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أيمن المار. وكثر

(١) الشفار. جمع شفرة: حد السيف.

(٢) ثل: هدم.

ولادة المرابطين في الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتباً بليغاً وممن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة أبو الحسن علي^(١) بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر وإلى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرت ترجمته مع مرثيته المشهورة لدولة بني الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولاً لسير بن أبي بكر - كما ذكرنا - ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو من مر في ترجمته.

وتخلف دولة الموحدين في الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتاب حكامها ويبدأ بكتاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد^(٢) بن عطية وهو مراكشي وأبو القاسم القالمي من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبي، وفي مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعاً مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش^(٣) والقالمي إلى أن توفي فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد^(٤) الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي المريى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلي ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفي مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ٢/١١٦.

(٢) المعج ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور في مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر في كتاب يعقوب المعجب ص ٣٣٨ وراجع في أبي عبد الله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢ وزاد

المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

الناصر والثالثة عن يعقوب، وهي في وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم في موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول^(١):

"فلما صارت البلاد كأن لم تغن، والمعافل كأن لم تب، وعلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياء ولكن في عداد الأموات، صوبنا على طليطلة قاعدة الصفر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العبر أفواجا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبا وإدلاجا".

وكان أبو عبد الله محمد^(٢) بن يخلفتن الفازازي القرطبي يعمل في ديوان قرطبة وعين قاضيا في مدينة مرسية، واستدعى للنهوض بالكتابة في ديوان المستنصر حين توفي ابن عياش، وظل قائما عليه في عهد العادل (٦٢١-٦٢٤) وتوفيا معا في سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤-٦٢٩هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسي بجيان وقضى على ثورته وكان يكتب له حينئذ أكبويد^(٣). عبد الرحمن بن يخلفتن المترجم له في الفصل الماضي أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراكش ولم يكد يمضي بها عدة أشهر - كما مر بنا في ترجمته - حتى توفي سنة ٦٢٧.

(١) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) راجع في محمد بن يخلفتن المعجب ص ٣٩١، ٤٠٦ والتكملة رقم ٢١٣٥.

(٣) راجع في عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب ٢/ ١١٢-١١٣.

وكان يكتب لولاة الموحدين في الأندلس كتاب بارعون ويكفي أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن وإلى غرناطة عبد الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هرودس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم في مقاومة الأرجونيين في الشرق والقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبي عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومد سلطانه على مقالة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجي وابن صاحب الرد وابن الجد وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مراراً واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التي ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولاً تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين في تونس رجاء أن يمدوا له يد العون ضد ملك ألبون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى في حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل ثائر ممن سميناهم اتخذ كاتباً بليغاً، فالبياضي كتب له أبو يحيى^(١). بن هشام القرطبي وأحببت ثورته سريعاً، واعتنق النصرانية مذموماً مدحوراً، وكتب

(١) انظر في أبي يحيى بن هشام المغرب ١/ ٧٤ واختصار القدح المعلى ص ٨٩ وصبح الأعشى ٧/ ٣١ حيث

احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

لابن هود أبو جعفر^(١) أحمد بن طلحة وابن الجنان^(٢). وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجي ابن^(٣). البناء الإشبيلي، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب^(٤). الجياني وأبو عبد الله^(٥). ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذي ترجمنا له في الفصل الماضي.

ومن الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم^(٦). كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١-٧٠١هـ) وكتب ابن الحكيم أيضًا لابنه محمد (٧٠١-٧٠٨هـ) ومن كتاب بني الأحمر النابهين في القرن الثامن الهجري ابن الجياب^(٧). ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زمر، ومرت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنه كتبهم في القرن التاسع الهجري أبو عبد الله^(٨). الشران محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلاً لتتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابهين هم: البزلياني وأبو

(١) راجع في أبي جعفر المغرب ١٦٤ / ٢ والقدح ١١٤.

(٢) راجع في ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود صبح الأعشى ٣٤ / ٧.

(٣) انظر في نب البناء القدح ص ١١٨.

(٤) راجع في ابن خطاب الجياني القدح ص ٢٢.

(٥) انظر في أبي عبد الله بن الخيال القدح ص ٦٦.

(٦) أزهار الرياض ٢ / ٢٤٠ والإحاطة ٢ / ٤٤٤.

(٧) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.

(٨) انظر في الشران أزهار الرياض ١ / ١٣٣.

محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن عميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البزلياني^(١):

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني المالقي، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم في عصر أمراء الطوائف لبني زيري المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوي حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حبوس بن ماكس بن زيري، وطمحت نفس البزلياني للعمل في الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيساً لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه "ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها" وإنه تقلب في البلاد وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد في غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعاً لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأي أبيه، وخوفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بني جهور في قرطبة، فيقع بين فكي أسدين يعضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفضاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاظم الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما

(١) راجع في ترجمة البزلياني ورسائله الذخيرة ١/ ٦٢٤ والمغرب ١/ ٤٤١.

ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى في استغوائه له وإنه أشار إليه بهربه من أبيه ودبره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقر في نفسه من أنه هو الذي أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظناً أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل في دواينه، وهو يبيت له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنحائه على أمراء الطوائف باللوم - في رسائله - منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحربهم بعضهم لبعض واستعانتهم في ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا حراهم في صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريباً على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزني يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعول عليه في العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده^(١)، فكان طبيعياً أن يفتك بالبزلياني، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أئداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبي أمير سرقسطة: وفيها يقول:

"اتصل بي ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور^(٢)) الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧-٤٢٥هـ) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣-٤٣٦هـ) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطررتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قلقي، وكثر على المسلمين شفتي، في أن يظاً أعداؤهم بلادهم، ويوتوا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدي - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين

(١) المغرب ٢٣٩/١ وما بعدها.

(٢) انظر في تلقيب المنصور الأصغر بهذا اللقب الذخيرة ١/١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٥.

لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأدينا بالمشركون، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة أمض^(١)، والحيرة أرمض^(٢)، والفتنة أشد، والمحنة أهدأ، والأعمال أحبط، والأحوال أسقط، والأوزار أثقل، والمضار أشمل، والله يعيذنا من البوائق^(٣)، ويسلك بنا أجمل الطرائق.. وأنت يا سيدي للمسلمين الحصن الحصين، والسبب المتين، والنصيح المأمون، فاجر في جمع كلمتهم والمرامة دون حوزتهم^(٤)."

والبزلياني يصرخ في يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة في أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم في حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضاً فحسب لك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حوزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوت في العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة في

(١) أمض: أكثر ألماً.

(٢) أرمض: أوجع.

(٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية.

(٤) الحوزة: الحمى.

فلاة ولا حياة لمن تنادي. ويصرخ البزلياني في رسالة ثانية وجه بها إلى (المنصور الأصغر أمير بلنسية الذي ذكره في الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

"اتصل بي ما جزعت له من لزومك مع الموفق مجاهد ومن تبعكما من معاقدكما لمقاتلة المظفر أبي بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠هـ) ومنازلته ومقارعتة واستجاشة^(١). كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمتنعوا بهم ذمارا، وتقضوا بإخراجهم (مكم) أوطارا^(٢)، وتدرکوا بأيديهم أوتارا^(٣). ولم يخف عليك ما يتسبب بالفتن، من البلوى والمحن.. باخترام^(٤). الرجال، وإيتام الأطفال، وإرمال^(٥). النساء، وإحلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعتساف^(٦) الأهوال، وإخلاء الأوطان، وإجلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة، فأما إذا انساق العدو إلينا، وتطرق علينا، وضرى^(٧) على أموال المسلمين ودمائهم، وجروا على قتل رجالهم وسبى نسائهم، وبانت له العورات، وتحققت عندهم الاختلافات، أحدوا رحاهم^(٨)،

(١) استجاشة هنا: استعانة.

(٢) أوطارا جمع وطر: مأرب.

(٣) أوتار جمع وتر: ثأر.

(٤) اخترام هنا: قتل أو موت.

(٥) أرملت المرأة: مات زوجها.

(٦) اعتساف: ركوب.

(٧) ضرى: اجتراً.

(٨) الرحي هنا: رحي الحرب.

واستمدوا من وراهم، ولم يكن للمسلمين بهم بعد يد^(١)، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بد، والله يحميها من الغير^(٢)، ويكفيها سوء القدر".

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضي مع مجاهد في حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعنيين في قتال أهلها المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموها لهما حماهما وأن يحققوا لهما آمالهما ويدركوا لهما آثارهما غير مراعين في أهل دينهما حقاً، إذ تقتل الرجال وتيتم الأطفال وترمل النساء وتنهب الأموال وتخلو الأوطان ويجلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجراً على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له في البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمداً فيها النصارى من ورائه في أوروبا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم في نزاهم ولا قدرة، واضطروا اضطراباً إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعاً هباء، وبدلاً من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياح البلاد جازاه المعتضد الباغي منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد^(٣) بن عبد البر:

(١) يد هنا: طاقة، قوة.

(٢) غير الهر: أحداثه وتقلباته.

(٣) انظر في ترجمة أبي محمد ورسائله الذخيرة ٣/ ١٢٥ وما بعدها والمغرب ٢/ ٤٠٢ والقلائد ١٨١ والصلة

رقم ٦٠٦ وبغية الملتبس رقم ٩٦٥ وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والخريدة ٢/ ١٦٦، ٣/ ٤٥٩.

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي، وقد عني به أبوه، فخرجه على يده في أجمل صورة علمية للشباب الأندلسي في عصره، وتفتحت فيه مبكراً نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه "حل من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حبائله وحباله" وأصبح من كتاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التي جعلت ابن زيدون يغص - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه في حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكاً للدماء، فأخذ في اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخف إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوفاً بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: "وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل في الدول كالبدور يترك منزلاً إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ في قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يرو له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ هـ - ٤٦٧ هـ) وكأنه سحب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيساً لديوانه وكتابه، وظل يعمل فيه، حتى توفي سنة ٤٥٨ هـ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن

دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفى. وقد أورد ابن بسام لأبي محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زف ابنته إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية، وفيها يقول:

"أنفذت الهدية (العروس).. وأنا أسأل الله في متوجهها ومنقلبها الرعاية الموصولة بك، والكفاية المعهودة منك، حتى يفع^(١) عليها ظلك، ويوئها^(٢) مثنوى الحفاوة محلك، ويحميها حوزك ومكانك، ويؤويها عزك وسلطانك، ثم حسبي عليها كرمك وكنفك^(٣)، وخليفتي عليها برك ولطفك.. وإنك - والله يبقيك ويعليك، ويشد^(٤) قبضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - ذخر الأدب، وعتاد الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وفلذة الكبد، فارقتها عن شدة ضنانه، وأسلمتها بعد طول صيانة، ومازفت إلا إلى كريم يحملها محمل الأمانة، ويقضي فيها حق الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملئها ومنشئها، وهو حكم الله الواجب، وقدره الغالب، وستته المشروعة، ومشيتته المتبوعة".

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظمى، فإن النورمانديين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوروبا لحرب المسلمين في الأندلس، مكونين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واخترقت

(١) يفع: ينبسط.

(٢) يئوها: ينزلها.

(٣) الكنف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوى ويحكم.

الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وشقة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم يستطيع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة برشتر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوماً، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوات والمؤونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعاً وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وزر لا يماثله وزر، وقد شرکه فيه أمراء الطوائف جميعاً، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن برشتر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلتين: علة صمت الققهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقية وخوفاً منهم، والعلة الثانية، وهي الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التنابد والتنافر، ويسميهـم "أمراء الفرقة الهمل" ويعجب أن لا تنبههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفاً واحداً ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهـم إليه حفر الخنادق حول مدنهـم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهـم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنها أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل برشتر، وسرعان ما أجيل السيف في النصارى المعتدين واستؤصلوا أجمعين وردت برشتر إلى المسلمين فغسلوها من رجس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صداً الإفك^(١). وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وزع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة برشتر الذخيرة ٣/ ١٧٩.

إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعاً هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بربشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام:

"من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الأمة، إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاية المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين". والمنشور كان طويلاً مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولاً، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربشتر من الأهوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيراً مستنفرًا بما يوجع القلوب سماعه من انتهاك النساء والدين:

"إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأيت منا العيون - من انتهاك النعم المدخرات، وهتك ستر الحرم المحجبات، والبنات المخدرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الختوف، وأثخنهم الجراح، وعبثت بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والعويل والنواح.. ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق، ولا الأخ يلبي أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدني بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولا المرضعة تلوى (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها.. وقد سيقت النساء والولدان، ما بين عارية وعريان، ومشیخة الرجال مقرنين في الجبال، مصفدين

في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة^(١). بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضاً من شيعه الرحمن، والكفر يضحك وينكي^(٢)، والدين ينوح ويكي، فيا ويلاه! وياذلاه! وياكرباه! ويا قرآنه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جزعاً، وتقطعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجفت أجفانكم رقادها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعفة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان".

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخامدة حمية للدين الحنيف وما حرق من مساجده وصوامعه وما مزق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرمتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عري وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أوثروا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن ما دهى بربشت إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابد ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسراً:

"ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم^(٣)، ولا ذل لنا حزب،

(١) مطبقة: مغطاة.

(٢) ينكي: يقهر.

(٣) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

ولا فل لنا غرب، ولا روع لنا سرب، ولا كدر لنا شرب^(١)، ولكننا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذر الحذر! فإنه رأس النظر، من بركان تطاير منه شرر ملتهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلما يؤمن من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبهوا قبل أن تنبهوا، وقتلوه في أطرافهم قبل أن يقتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم".

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجموا العدو في بربشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه بيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حرياً بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقته كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبوبكر^(٢) بن القصيرة:

(١) الشرب: مورد الماء.

(٢) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢/٢٣٩ والمغرب ١/٣٥٠ والقلائد ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة ٢/٥١٦ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافي ٣/١٢٨ والخريدة ٣/٣٨٣ والذيل والتكملة ٦/٢٢٧ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكي لها.

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الولي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرف حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منهما بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه في الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدّد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكي يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذي حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولباه ولبي المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمراؤهم: المعتمد وغيرهم - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولاً على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعاً ما عدا سرقسطة في الشمال إذ تركها لبنى هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتها ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيراً إلى أغمات كما مر بنا في غير هذا الموضع. وطبيعي أن يتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ في سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كي يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفي، ويبدو أنه كان يعجب بابن

القصيرة والرسائل التي حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائماً على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفاً - بكثير من الرسائل التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التي فصل فيها القول في هزيمة ألفونس بالزلاقة، وكان جيشه قد دمر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها ويشركون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة في الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

"وقد علم ما كنا - قبل - مع عدو الله أذ فونش قصمه الله - من تطأطؤنا واستعلائه، وتقامئنا وانتخائه^(١)، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به فناءً، إلى أن سنى^(٢) الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين - أيده الله - ما سنى، وأدنى من نأى دياره وشحط^(٣) مزاره ما أدنى.. ثم أجاز - على برك الله وعونه - يريش^(٤) ويبري، وسار قدماً^(٥) يخلق ويفري^(٦) واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية (بالقرب من ماردة شرقي بطليوس)

(١) تقامؤ: تصاغرو وتذلل. انتخاء: تعاظم.

(٢) سنى: فتح.

(٣) شحط: بعد.

(٤) يريش ويبري: يضر وينفع.

(٥) قدماً: مسرعاً.

(٦) يخلق ويفري: يقرر الأمر ويمضيه.

- حرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك فقصد بمحتشده إليها في جيوش تملأ الفضاء، وتسد الهاء، وتمنع ان تقع على ما تحت راياته ذكاء^(١)، قد تحصنوا بالحديد من قروهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم وإقدامهم، ودعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحمله نفجه^(٢) وتهوره على السلوك في مدرج سيولنا، ودنونا إليه بمحلاتنا، وأطللنا عليه براياتنا، وتنادى المسلمون بشعارهم^(٣) المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنه بالظهور والوفور، وتواقف قليلاً الجمعان، وتجاول مليا^(٤) الفريقان، ثم صدق أمير المسلمين، وناصر الدين - أيده الله - الحملة، وصدى في جمع لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداء الله أن ولوا الأدبار، واتبعتهم خيل المسلمين تقتلهم في كل غور ونجد^(٥)، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالي^(٦) ونقد^(٧)، ولم يخلص منهم على أيدي المتبعين - أجرهم الله - إلا من سيلتهمه البعد، ويأتي على حشاشته^(٧) الجهد.. ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله على هول المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان أذفونش - لعنه الله -

(١) ذكاء: الشمس.

(٢) نفجه: فخره بها ليس عنده.

(٣) شعارهم: الله أكبر.

(٤) مليا: زمنا غير قليل.

(٥) الغور: المنخفض من الأرض. النجد: المرتفع منها.

(٦) الكالي: المؤجل. النقد: الحال، يقصد القتل السريع والقتل المؤجل مشيراً بذلك إلى أسراهم.

(٧) الحشاشة: بقية الروح.

لم يمت تحت السيوف بددا^(١)، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً، ونحمد الله على ما يسر من هذا الفتح الجليل وسناه، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاده".

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلافة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف في مقدمتها باستخذائه^(٢) أمام ألفونس وتصاغره وشعوره بالمدلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنوياً من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله لإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف في غفلة يعمهون. وقبض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلع أظفار ألفونس ورد كيده في نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة في رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

"استهد الله يهدك، واستهن بالله يعنك، وتول القضاء الذي ولاكه الله بجذ وحزم، وجلد وعزم، وأمض القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه، ولا تبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً وكلهم آخرًا مذ

(١) بددا: قطعاً.

(٢) الاستخذاء: الخضوع والذل.

صرت قاضيًا سامعون منك، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق".

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضي فوقه وفوق الرعية جميعًا، ويقول إنه ليس لجماعة المرابطين في الأندلس من أولى العقد والحل والحق في أي اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولاً ثم المرابطون جميعًا مذكور قاضي الجماعة في قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف في القضاء الإسلامي، نجده في كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضي فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكي مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة في المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة في ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان علي بن يوسف، وكان في زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالي وأن لا يعصوا له أمرًا قائلًا:

"إنه النائب عنا في تديركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوضنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر في دقه وجله^(١)، وقله وكثره^(٢).. وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمضاه، ولا نمضي ما وقعه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاه كائنًا ما كان إلا أن يتولاه، ولا

(١) دقه: دقيقه. جلّه: كبيره.

(٢) قلّه: قليله. كثره: كثيره.

نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعمّا في جناننا^(١) يترجم، وعلى ما يوافقنا يسدى ويلحم^(٢)."

وفي رأينا أن هذه قسوة في معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصي ولاته بمعاملتها بالعدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوهم إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم في الرعية. وتخلوا بعض السطور في رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشي يقول عنه: "كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إثارة جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفو من غير استدعاء". وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحياناً رسائل المسجوعة.

(١) الجنان: العقل.

(٢) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.

ابن أبي الخصال^(١):

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشقوري المعروف بابن أبي الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفرغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربي مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفناً في العلوم مستبحراً في الآداب واللغات، عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه "كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسن العشرة، واسع المبرة، من أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تأليف حسان" منها كتاب "سراج الأدب" وكتاب "ظل الغمامة وطوق الحماسة" في مناقب من خصه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحله بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محسناً، وله قصيدة طويلة في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم صيهاها "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب". وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة،

(١) انظر في ترجمة ابن أبي الخصال ورسائل الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥ والصلة رقم ١١٨٧ والبغية رقم ٢٨٢ والمطرب ١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦، ٤٢٠ ومعجم الصدي ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢ والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢، ٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤ وراجع أربع رسائل ديوانية له في وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكي. وفي معهد المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال.

ويقول صاحب المعجب "له ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه" ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع في خمس ملجعات.

ويم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المريبطي وإلى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحياناً قيادة الجيوش التي تنازل نصارى الشمال، وولاه في سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها في السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحم بعد يوسف إلى ابنه على ولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محامياً عنها ومدافعاً حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنها ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبي الخصال ظل كاتباً له حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل في ديوانه بمراكش، وسرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل في هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها في كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو محتاز بإشبيلية في جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشاً في تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طليطلة رجحنا أن يكون ابن أبي الخصال رافقه في جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضي قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه في هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثيرة، وعين أخاه أبا مروان معه في الديوان، وما زالا يكتبان عن

على، وهو راض عنهما كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون في الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، وألقى الجمعان عند قلعة قليرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: "وبلغ ذلك على بن يوسف فغاضه، وأمر بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) في بلنسية بالخزي، فكتب ابن أبي الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزي"^(١) وأفحش أبو مروان عليهم في رسالته بقوله في بعض فصولها: "أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيحكم الناقد"^(٢)، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد، لقد آن أن نوسعكم عقاباً وأن لا تلثوا"^(٣) على وجه نقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونظهر الجزيرة من رحضائكم"^(٤) وهي مبالغة في الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد في الأندلس، مما أحق على بن يوسف، فأخر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبي الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استغفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش" وأخوه إنما توفي سنة ٥٣٩ مما يدل - في رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنها ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧

(١) راجع قسماً من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكي (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) الناقد: الصيرفي الذي يميز النقد الحق من الزائف.

(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على وجوهكم.

(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.

على الأرجح، وربما عملاً فيه بعد وفاته إلى أن توفي أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفي سنة ٥٤٠.

ولأبي عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثري للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك في غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما في سنة ٥٠٧، وهي موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشماليين وفي فاتحتها يقول:

"كتابنا - أعزكم الله - بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفر حظوظكم من حسناه، من حضرة مراکش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسة بين يدي حركتنا يمن الله فاتحتها وعقباها، وقد قرعنا الظنايب^(١)، وأشرعنا الأنابيب^(٢)، وضممرنا اليعاسيب^(٣)، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حمية، في نصر دين الإسلام، ومنع جانبه أن يضام، أو يناله من عدوه اهتضام^(٤)، ونحن وإن كنا قد بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد، ما يربى على الحصى والتعداد، فإننا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رب العالمين، في كتابه المبين (قل ما يعبؤ

(١) قرع الظنايب: كناية عن الإسراع للحرب.

(٢) الأنابيب: الرماح.

(٣) اليعاسيب: الخيل.

(٤) اهتضام: ظلم.

بكم ربي لولا دعاؤكم) أن استنفر الدعاء، واستفتح أبواب السماء، بخالص الشاء، من أنفع الأشياء، وأنجح الدواء، فيما أعضل^(١) من الأدواء".

وكانت هذه السنة حقًا من السنوات التي أبلى فيها المرابطون بلاءً عظيمًا في قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلي بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزلين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانًا ينتصرون في بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفي أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة في غرناطة - إلى الملك النصراني ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم في أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشًا كثيفًا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما في طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقًا إقليم البشرات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائداً إلى موطنه^(٢). وكان قد ظل في هذه الحملة نحو سنة يعيث في الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب

(١) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.

(٢) انظري هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ١١٤/١، والحلل الموشية ٧٥ وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ترجمة عنان ص ١٤٦.

بل أيضًا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عوارث البلاد ويبدلون له كل عون. وكان يزيد في غضبهم شيء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة وقرطبة في تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له في حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين المسلمين "وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم"^(١) ووعدته على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبي الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبي الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

"وفد إلينا، وورد علينا، الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد بن رشد، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلاًها الله - وجلاه، ووصف من حالها ما أضخنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور في معرضها بأبلغ مقال.. ولن نألو^(٢). جهداً مبذولاً، وجداً حفيلاً، وعزماً لا نايياً ولا كليلاً^(٣)، فيما ندرأ ونفدع، ونذود عن حوزة^(٤) الملة ونمنع، وندأب لذلك الدأب الحثيث^(٥)، تتبع القديم فيه بالحديث، وننصب

(١) الإحاطة ١/ ١١٩-١٢٠.

(٢) نألو جهداً: نقصر في جهد.

(٣) كليلاً: ضعيفاً.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

له النصب الذي ليس حبله السحيل^(١) ولا النكيث^(٢)، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهم، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتم الأهم، وجهد الكفاية مادهم حادث وألم، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهتبالنا^(٣)، ومن أكد مؤكدات أشغالنا، وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر، حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه فلا تكونوا في ريب منه، والله تعالى يعيننا على ما نحن بصدد، ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من أوده^(٤)، بحوله وطوله، وعدله وفضله".

وفعلًا نفذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر في رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميمًا عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رذمير. وإذا كان المرابطون قصرُوا - أو أخذ عليهم شيء من التقصير - في مواجهة ابن رذمير فإنهم طالما أبوا في منازل النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث في موقعة أقليمش التي انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصروع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبي الخصال الديوانية أنه كان كاتبًا مجيدًا يحسن انتخاب الكلم في نسق محكم من السجع الرصين.

(١) السحيل: المقتول على قوة واحدة فتلا خفيفًا.

(٢) النكيث: المنقوض المشعث، ضد المقتول.

(٣) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.

(٤) أوده: أعوجاجه.

ابن عميرة المخزومي^(١) :

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي من سلالة خالد بن الوليد، ولد سنة ٥٨٢ بجزيرة شقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناءها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتاباً حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشب أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفقهها وقاضيهها أبي الربيع الكلاعي، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقي شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة في طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتي شيخها أبي عمر الشاطبي وقاضيهها أبي الخطاب بن واجب إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصاري، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفى في علم الأصول للغزالي وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكراً إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته

(١) انظر في ابن عميرة و ترجمته و رسائله معجم أصحاب الصدي ص ١٦٣ و تحفة القادِم رقم ٩٢ اختصار القدح المعلي ص ٤٢ والمغرب ٢/ ٣٦٣ وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٧٢ وعنوان الدراية للغبريني ص ١٧٨ والإحاطة ١/ ١٧٣ ونفع الطيب ١/ ٢٧٢ وصبح الأعشى ٦/ ٥٣٤، ٧/ ٣٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ٨/ ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٩/ ٣٠١، ١٠/ ٣٠٦ وراجع كتاب "أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره" لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحفظ الخزانة العامة في الرباط بمخطوطتين من رسائله.

ليكون شاعرًا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبي عبد الله بن أبي حفص الموحي حاكم بلنسية حوالي سنة ٦٠٧ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه في سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوطين إمام العربية بالأندلس في عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبي عبد الله بن أبي حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبي زيد رزيان بن أبي الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل في ديوان رزيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحس من رزيان شيئًا من الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة شقر، وكان سلطان ابن هود أمير مرسية قد اتسع، فكتب له في سنة ٦٢٩ وعينه ابن هود قاضيًا في شاطبة، جامعًا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلكبيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نسه وعن أهل شاطبة في الأندلس للمستنصر العباسي معبيعة الناس فيها أيضًا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسي استكمالًا لثورته على الموحدين وما يدعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين علمه في الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتبًا له، وقتل ابن خطاب. وكان ملك أرجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقي الخليفة الموحي الرشيد في مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته:

"مراكش" وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلاً، إذ عينه الرشيد قاضياً في سلا والرباط. وتوفي الرشيد سنة ٦٤٠ فأقره أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبي زكريا الحفصي، ويبدو أنه إنما أغره بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفي سنة ٦٤٦ تحول إلى أبي زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبي زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفي سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء في قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشاراً وأنيساً، وغمره بأفضاله إلى أن توفي سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعي أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبي زيد الموحدي، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الثائر عيله وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدي، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبي زيد الموحدي أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدي سنة ٦٢٠ يستأذنه في وفود أمير نصراني عليه من أراجون يسمى: "بلاسكو أرطال" كان وصياً على ملكها خايمي، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستقبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيما بعد عوناً لحاكم بلنسية في حروبه ضد ملك أراجون. وصور ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ في رسالته، وقد احتفظ القلقشندي في الجزء السادس من صبح الأعشى بشطر كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

"كان له في البلاد الأرغونية زعامة في شأوها"^(١) برز، ولغايتها أحرز، وكان قد كفل صاحب أراجون في الزمان المتقدم دار أمرها عليه، وألقى زمامها إليه. ثم إنه حط من رتبته، وتأكدت المبالغة في نكبته.. والظاهر من حنقه على أهل أراجون وشدة عدواته لهم، وما تأكد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وقت فتنة معهم ووجد ما يؤمله من إحسان الأمر العالي - أيده الله - فينتهي من نكايتهم والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى درك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفرسانه وكلهم - في حبله - حاطب"^(٢)، ولإنجاده - متى أمكنه - خاطب".

وكان أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درساً من التجاء ألفونس القشتالي إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفر منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ في إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفي أخوه وأصبح ملكاً على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغي أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعداه وهما أن يصبح العدو صديقاً فما بالك إذا كان العدو محارباً لك، ولكن هكذا قدر لبلنسية أن يحكمها غر ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد في كنفه "بلاسكو"

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب في حبله إذا أعانه ونصره.

الأرجوني عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلاً شديداً.

ونقف قليلاً عند البيعة للخليفة العباسي المستنصر التي أشرنا إليها والتي كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه ولياً للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

"الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً، وأرسل السماء مدراراً، وسخر ليلاً ونهاراً، وقدر آجالاً وأعماراً، وخلق الخلق أطواراً، وجعل لهم إرادة واختياراً، وأوجد لهم تفكيراً واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً، نحمده حمد من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاهة واغتراراً، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً، السامي فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقداراً، وعز جازاً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلة وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائتماراً. فجزى الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً، ورسولاً اجتباه اختصاصاً وإيثاراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختباراً، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، صلاة نوالها إعلاناً وغساراً، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً".

وواضح أن ابن عميرة التزم في سجع هذه القطعة التي استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقاً وغرباً حتى لنجد الرسالة يختار لها أحياناً حرف بعينه،

وكان الحريري قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم في إحداهما السين وفي الثانية الشين، فأخذ الحصكفي وبعض الكتاب في الشرق يحاكيه في هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب في الأندلس يحاكيه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب في عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزي كما ذكر ذلك ابن عبد الملك في ترجمته له بكتابه "الذيل والتكملة"، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازي وتعقيب على كتاب التبيان في البلاغة لابن الزمكاني، ومنها كتاب في تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان^(١) الدين بن الخطيب:

أكبر كتاب غرناطة والأندلس في أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعين بدواوين غرناطة عند أمرائها بني الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعنى أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها في زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ في مديح السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣-٧٥٥) وهو أهم سلاطين بني الأحمر في القرن الثامن الهجري، ويعد مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفة وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب في النثر والنظم

(١) انظر في ترجمة لسان الدين التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصبح الأعشى للقلقشندي ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٢ وأزهار الرياض ١٨٦ وما بعدها والجزءين الخامس والسادس من نفح الطيب وكتاب الاستقصا للسلاوي (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤ وفي مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام القسم الثاني (طبع الرباط) ص ٢٦١ وما بعدها وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٣ ولسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة في أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة في معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (طبع افسكندرية) وكتابه في التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعري: الصيب والجهم (طبع الجزائر).

وسائر العلوم الأدبية، وعنى بالأديب الشاب، وما زال يعمل معه حتى توفي سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رياسة ديوان الكتاب بعده، وتوفي السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغني بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعته إلى مرتبة الوزارة. ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبي عنان المريني بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال في بلاد المغرب واستقر بمدينة سلا زمناً، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليد الحكم، ولقبه بذي الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقائقه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المريني بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرك وقاضي غرناطة أبو الحسن النباهي ودسوا عليه عند الغني بالله أنه يخرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر في كتابه: "روضة التعريف" من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورفع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المريني فأبى تسليمه مبرئاً له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور في فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغني بالله - أبو سالم المريني سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن ابن الخطيب السجن إرضاء للغني بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه في مجلس السلطان أبي سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها في منصفه "روضة التعريف" تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخاً له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفاتهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله،

ودس إليه في السجن من قتلوه خنقاً، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضمرت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، وورى التراب. وعجب الناس في فاس وفي غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدوه من هنات ابن زمرك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفاً فضلاً عن أن يكون متصوفاً فلسفياً كما حاول ابن زمرك أن ينعته بذلك كذباً عليه وافتراء، وإنما كان كاتباً موسوعياً كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب في التصوف كتابه "روضة التعريف" لشيوع التصوف في زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفاً حقاً لهجر الدنيا وعاش في زاوية - أو ضرب في الأرض - ناسكاً مثل ابن عربي وابن سبعين الششتري. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شيء والتصوف الحقيقي شيء آخر، وفيه يقول المقري: "هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها" ويقول ابن خلدون في وصف براعته الأدبية: "كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يهتدي فيها بمثل هداه". ومما قيل فيه: "كاتب الأرض إلى يوم العرض". وله - بجانب ديوانه: الصيب والجهم - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا في المغرب ومالقة في الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان في وصف البلدان وصف فيهما بلدان الأندلس والمغرب هما: "خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف" في وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و "معيان الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار" في وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه

الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك في موضع آخر. ونقف قليلاً عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بني مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولاً أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين في هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل في الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحبته، ويذكر المكان الذي كتبت فيه الرسالة ثم يأخذ في بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جواباً عن كتاب وصل منه مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون في كتابه التعريف والقلقشندي في صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

"الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلاف، وجب لحقها الجازم وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحية والأكناف، فامتزاجنا بعلائها المنيف وولائها الشريف كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم كما تأرجت الرياض بالأفواف"^(١)، لما زارها الغمام الوكاف"^(٢)، ودعاؤنا بطول

(١) الأفواف: الزهر.

(٢) الوكاف: المدرار.

بقائها واتصال علائها يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة فواضلها العميمة لا تحصره الحدود ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف".

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت في هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتاً بديعة، وبدعها لا يأتي من انتخاب الفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتي أيضاً من أسجاعها الطويلة التي يتلافى طولها بما يجري في تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى في تقابل السجعتين: "فخرها الشائع" و "عزها الذائع" في السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين في السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: "لحقها الجازم، وفرضها اللازم". وبنفس النمط تيقى "المنيف والشريف" في السجعة الخامسة، و "الكريم والعميم في السجعة السادسة". ويكثر ذلك في الرسالة طلباً لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسماع لذة موسيقية، وهي لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات في السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاویر، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومباني فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثنائهم عطر كشذي الرياض في الأزهار غب الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك في نعت الخليفة نفسه وآبائه الأمجاد، وامتد نعتة نحو أربعة عشر سطرًا، ثم ذكر الغنى بالله مع طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسيمات الأسحار، وأطال في التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال في وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره

مطريًا مثنياً، ثم يأخذ في وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم في جيان وكانت قد سقطت في أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

"وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكرسي الملك، ومجنبة^(١) الوسطى من السلك، غاب الأسود، وجحر الحيات السود.. ولما أكثبنا^(٢) جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم^(٣) بزهر النجوم قد دار دائره، والليل من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غدائره.. ولما فشا سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أصحر^(٤) إليهم من الفرسان، وسبق إلى حومة الميدان، حتى أجحروهم^(٥) في البلد، وسلوبهم لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت^(٦) السهام فيه غمامًا، وطارت كأسراب الحمام تهدي حمامًا^(٧)، وأضحت القنا قصداً^(٨)، بعد أن كانت شهاباً رصداً".

(١) مجنبه واسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة في العقد.

(٢) أكثبنا: قاربنا.

(٣) المرقوم: الموسوم والمنقوش.

(٤) أصحر: برز.

(٥) أجحر: أدخل.

(٦) صاب: انصب.

(٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.

والقطعة زاخرة بالجناسات والتصاوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس
ولساكنيها النار وبئس القرار. وقد دنوا منها في أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع
بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث
الصباح أن أخذ يذيع أسرارهِ بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على
الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا في جحورهم فراراً من
الموت الزؤام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التي
كانت تحميهم، وخروا صرعي مجلدين.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس في زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن
سلطانيه أبي الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم متوسلين إليه
بالشفاعة في تحقيق أمانيتهم الدنيوية في النصر على الأعداء وأمانيتهم الأخروية في
الغفران والرضوان، مع تصوير جهادهما الدائب في نصرته الإسلام والذب عن حياضه
في الأندلس. ويفيض المقرئ بكتابه نفح الطيب في الحديث عن شيوخه وتلاميذه
وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حسن أداء وروعة بيان.

الرسائل الشخصية:

طبيعي أن يعني الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناح وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام في الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التي صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً^(١):

"كنت قد نشأت في معقل من العفا^(٢) والوفر، محدقاً بسور من الأمن والستر، حتى أرسل إلى سلطان الفقر، رسولاً من نوب الدهر، يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأبيت من ذلك عله، فغزاني بكتائب من النوائب، تسير تحت ألوية المصائب، تبرق بسيوف الرزايا، وتشهر أسنة المنايا، يرمون عن قسى الأوجال، ويضربون طبول الذعر وسوء الحال، بأيدي باطشة لا تكل، وبصائر ثابتة لا تمل".

والرسالة مبنية على السجع، مبالغ في التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلات بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التنميق في الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ٦٢ / ١.

(٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

المهجري على نحو ما أخذ يحدث في الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد الأكبر، وملتقى بأخرة من العصر الأموي بابن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولاً شديداً، ونسوق له قطعة من رسالة أطنب فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكراً معتذراً عن الإلزام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول^(١):

"قد كان أقل حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غضاً، وأثر عليه المدح بضاً"^(٢)، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثل أمير، شيء غلب صبر الأثقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرف القدر، والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح^(٣) وقاتل، وصبر يغيض^(٤)، ودمع يفيض، لعجوز بخراء^(٥)، سهكة درداء^(٦)، تدعي قرطبة:

عجوز لعمر الصبا فانيه لها في الحشا صورة الغانيه

(١) الذخيرة ١/ ٢٠٧.

(٢) بضاً: ناضراً.

(٣) برح: عذاب.

(٤) يغيض: يغيب.

(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.

(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درداء: ساقطة الأسنان.

طاب لي الموت على هواها، ولذ عندي سقى دمي لثراها". وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال^(١):

"واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتاً، وظل اللواء كميّاً^(٢)، واستبدل من نقر الكرّان^(٣) قرع الطبول، ومن نغم القيان شجا الصهيل، ومن وجبه^(٤) المعازف لجب الخيول، يمشي في الهجير^(٥)، ويسرى^(٦) في الزمهرير، ويحن إلى الأذان والتكبير، في خطة إبليس، ومصدق النواقيس".

وسنترجم لابن شهيد في مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضي إلى عصر أمراء الخطوائف ومن أوائل من نلقاه في هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب معن بن صمّاح أمير المرية، وقد أطل ابن بسام في ذكر تجميداته، وذكر طائفة من رسائله في العتاب والاستزارة وله رسالة في ذم صديق، ويقول ابن سعيد في المغرب إنها من أبدع ما قيل في ذم مؤاخ، ومن قوله فيها^(٧):

(١) الذخيرة ١/ ٢٢٧.

(٢) الكميت من الخيل: الشقر ضارباً إلى السواد.

(٣) الكرّان: العود.

(٤) وجبة: صوت.

(٥) الهجير: القيظ وسط النهار.

(٦) يسري: يسير ليلاً. الزمهرير: البرد الشديد.

(٧) الذخيرة ١/ ٥٠٤ والمغرب ١/ ٨٩.

"خليت عنه يدي، وخلدت قللاه خلدي، بيض الأنوق"^(١) من رفده أمكن، وصفا المشقر"^(٢) من خلده ألين، نزر النوال، رث المقال، أحاديث وعده لا تعود بنفع، ولا هي من غرب ولا نبع"^(٣)، على وجهه من التعيس قفل ضاع مفتاحه، وليل مات صباحه، غنى من الجهل، مفلس من العقل، تتضاءل النعم لديه، وتقبح محاسن الإحسان إليه، غربال حديث غذا وعى سراً قطر منه، كبد الزمان عليه قاسية، ونعم الله له ناسية، قصير عمر الوفاء للإخوان، عون عليهم مع الزمان، مرب لأطفال الإحن، محي لأموات الدمن"^(٤)، رقدت ملء عيني في فرش القلى"^(٥) له وشربت زلال"^(٦) ماء العزاء عنه".

ولابن برد رسالة وجه بها إلى أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥-٤٦١هـ) جعل موضوعها مجلساً للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتجاوز في أيها أجمل في صورته وأعقب في رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحرته معللاً لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس

(١) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.

(٢) المشقر: حصن في البحرين اشتهر صفاه أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق.

(٣) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام.

(٤) الدمن: جمع دمنة: الحقد.

(٥) القلى: الكراهية.

(٦) الماء الزلال: العذب الصافي السلس.

من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيري، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول^(١):

"والذي مهد لي حجر الثرى، وأرضعني ثدي الحيا^(٢)، لقد جئت بالشهادة أوضح من لبة^(٣) الصباح، وأسطق من لسان المصباح، ولقد كنت أسر من التعبد له والضعف به، والسف على تعاقب الموت دون لقائه. ما أنحل جسمي، ومكن سقمي، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى، فقد خف ثقل البلوى".

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار^(٤) والخيري، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعاً على أنها أعطت للورد قيادها وملكته أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمر لسوابقه، وهي لذلك تلتزم له بالسمع والطاقة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمله في أن يكون وزيراً لابن جمهور مفضلاً له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكها غير كاتب، ومن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبجها كتاب الدواوين الوزراء والشعراء وينمقونها صوراً مختلفة من التنيق، ومن روى له كثيراً من رسائله

(١) الذخيرة ١٢٧/٢.

(٢) الحيا: المطر.

(٣) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(٤) زهر البهاء أصفر ويشبه زهر النرجس.

الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة في الشفاعات والوسائل والمودة وفي التهئة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب في فتى له استشهد في قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول^(١):

"كتبت عن قلب يقشعر، ونفس بين ضلوعها لا تستقر، لخبر الرزء الهاجم، والنبأ الشنيع الكالم.. فيا لها حسرة ما أنكاها^(٢) للنفوس، وجمرة ما أذكاها^(٣) في القلوب. وروعة ما أفتها للأعضاء، ولوعة ما أحرها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدموا

ولقد خرج من بيته مجاهداً، وعن حمى الدين ذائداً، فوقع أجره على الله.. وأنت الطود الموفى^(٤) على كل هضبة، المعلى على كل فرحة وكربة. والله - يا سيدي - في نفسك العزيمة أن يكون فيها كامن رزء^(٥) يقدح، أو أن يوهن منها باطن أسى يفدح".

وكان يعاصر أبا محمد ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له في غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفي إحداها يقول مهنتاً بعض العمال بخلاصه من نكبته^(٦):

(١) الذخيرة ٣/ ٢١٩.

(٢) ما أنكاها: ما أنكاها أي ما أشد جرحها وألمها.

(٣) ما أذكاها: ما أحرها.

(٤) الموفى: المشرف.

(٥) رزء: مصيبة.

(٦) الذخيرة ١/ ٥٨٤.

"كتابي عن نفسٍ قد أشرق وجه صباحها، وهبت رياح ارتياحها، بها طلع علينا من البشائر السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك، بإساءتها إليك، كل منتسبٍ إلى فضل، متسم باسم نبل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضيء به وتتجمل، وسخت منك بخلى جيدها الذي يحق به أن تبخل.. وقد صادفت منك الإبريز^(١) الذي لا يزيده السبك إلا تمحيصاً، والمبرز الذي لا يعقبه تحول الأحوال نكوصاً، تتلقى الخطوب بصدرٍ وساع^(٢)، وصبرٍ منفسح الباع، وتسبر^(٣). الدهر بمسبارهِ، وتعرف من مكنونه حقيقة إيراده وإصدارهِ".

ونلتقي بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخسه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضاً أبو عمر^(٤). الباجي المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البهار وجه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفاً إليه آملاً أن تكون له الخطوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول^(٥).

"أطال الله بقاء المقتدر مولاي وسيدي ومعلّى حالي ومقيم أودي^(٦)، وأعاذني من خيبة العناء، وعصمني معه من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بي عدوا من الرياض

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٢) وساع: متسع.

(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.

(٤) انظر ترجمة الباجي في القلائد ١٠٢ والذخيرة ١٨٦/٢ والخريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.

(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.

(٦) أودي: أعوجاجي.

يناصبني^(١)، وحاسداً من النواوير يراقبني، وقد علم الورد موقع إمارتي، وغنى بلطيف
إيمائي عن عبارتي.. وقد أتيت في أواني، وحضرت وغاب أقراني، ولم أخل من خدمتك
رتبتي ومكاني.. فهل لمولاي أن يحسن إلى صنيعاً، ويكرم النور جميعاً، ويدنيني فأرقى
إلى أختي الثريا سريعاً، في مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغت الحسن عليه والطيب
ضرائبه^(٢)، وجهك بدره، وغرتك فجره، وأخلاقك زهره، وثناؤك دره وعطره".

والباجي يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصوراً بلسانه مطامحه في التقدم
عند المقتدر في مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر
حسداي^(٣) - وكان يهودياً وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر
لسان النرجس^(٤).

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية
البديعة ابن الحداد الذي مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء في العصر، وتنم رسائله عن
أنه كان مثقفاً ثقافة واسعة بالآداب العربية وما يطوي فيها من أعلام وأمثال وأشعار،
وبعلوم الأوائل وما يطوي فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله في الشكر
والإخاء^(٥):

(١) يناصبني: يفاديني.

(٢) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.

(٣) راجع ترجمته في القلائد ١٨٣ والذخيرة ٤٥٧/٣ والخريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

(٤) الذخيرة ٤٧٠/٣.

(٥) الذخيرة ٧٠٤/١.

"يا سيدي الذي هو قسيم ذاتي إن تحققت الذوات والنحائر^(١)، وشقيق نفسي إن تبينت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاء الفرقدين^(٢) في تدبير السعدين. بيننا من التحام المقة^(٣)، واستحكام الثقة، ما أربأ^(٤) به عن تضمين الصحائف، ولو قدت من السوالف^(٥)، وأنزله عن اشتغال المداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسي النقاء، ووفاءنا فلكي البقاء، ولا تضمن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابي هذا إثر إتحافك لي بكتابين كالنيرين، فإن كان القمر ويوح^(٦)، لإنارة اللوح، فهذان، لجلاء الأذهان".

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين^(٧) سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوي الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة في الشفاعة لشخص يسمى بالزرزير مستغلاً اتفاق اسمه مع اسم طائر الزرزور على هذا النمط^(٨):

(١) النحائر: الطبائع.

(٢) الفرقدان: نجمان قريبان من القطب.

(٣) المقة: المحبة.

(٤) أربأ به: أنزله.

(٥) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.

(٦) النيران: الشمس والقمر يوح: اللوح: الهواء بين السماء والأرض.

(٧) انظر ترجمته في الذخيرة ١/ ٨٢١ والمغرب ١/ ١١٦ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والخريدة ٢/ ٤٨٤

ومعجم الأدباء ١١/ ١٨١.

(٨) الذخيرة ٢/ ٣٤٧.

"يصل بالكتاب - وصل الله علوك، وكبت عدوك - شخص من الطيور يعرف بالزرزير أقام لدينا أيام التحسير^(١)، وزمان التبغ بالشكير^(٢). فلما وافى ريشه، ونبت بأفراحه عشوشه، أزمع عنا قطوعا^(٣). وعلى ذلك الأفق اللدن تدليا ووقوعا، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرا^(٤) وعلى تلك الغصون حبا وثمرًا، وأنت بجميل تأتيك، وكرم معاليك، تصنع له هنالك وكونا^(٥)، وتستمتع من نغم سشكره على ذلك أغاريد ولحونا، دون أن يلتقط في فنائك حبة، أو يسترط^(٦) من مائك نغبة^(٧)".

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لما فيها من دعابة مستملحة، إذ صور سراج ما كان فيه هذا الشخص من ضيق جعله لتمس منه الشفاعة لصاحبه بالزروزور حين ينحسر عنه ريشه العتيق ولا يبقى له إلا الريش القصير، حتى إذا كثر ريشه صمم على القطوع أو الرحيل آملا أن ينزل على أفق هذا الجواد ويجد عنده منزلا وحبًا وثمرًا وكونًا أو عشوشًا يأوى إليها متغنياً بالثناء عليه. وينصحه أن لا يجد في فنائه حبة يلتقطها ولا جرعة ماء تبل ريقه. وممن حاول محاكاة سراج بن عبد الملك في

(١) التحسير: سقوط الريش العتيق.

(٢) الشكير: صغار الريش. التبغ: الاكتفاء.

(٣) قطوعا: طيرانا.

(٤) معمرا: منزلا.

(٥) وكونا جمع وكن: عش الطائر.

(٦) يسترط: يبتلع.

(٧) نغبة: جرعة.

هذه الدعابة الطريفة أبو بكر عبد^(١) العزيز بن القبطورنة كاتب على بن يوسف بن تاشفين المتوفى حوالي سنة ٥٢٠ للهجر، ومن قوله في رسالته^(٢):

"يصل بكاتبى - وصل الله سعودك - من الطير نطاق، من غير ذوات الأطواق"^(٣).
مهده العذارى الحجور، وألحفته الشعور، وربته بين الترائب والنحور، وعللته بالرضاب^(٤)، وسقته بأفواهما العذاب، أقام عندنا زمانا، لا يتألف إلا رندا^(٥). أو بانا، يتدرج في البساتين، يتطلب العنب المنتقى والتين، فذكرت له يوما والحديث ذو شجون، أرضك الميثاء^(٦). ذات الشجر والعيون، فصفق جناحا، واهتز ارتياحا، وسألني إلى مجدك كتابا فأنلته ما ابتغى، وقلت: سلم أخا الببغا، وبلغت المدى، وجنبت من حزة المدى^(٧) وأخذ الكتاب بمنقار، وصفق بريش الجناحين سرورا وطار، وأنت بسيادتك تبسط له في بساتينك، وتفرش له من وردك وياسمينك".

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجد، وسنخسه بكلمة، وعاصرها ابن عبدون الشاعر الفذ الذي ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل في دواوين المتوكل

(١) راجع ترجمته في الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب ٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.

(٢) الذخيرة ٧٥٨/٢.

(٣) ذوات الأطواق: الحمام.

(٤) الرضاب: الريق المرشوف والعسل.

(٥) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر يشبه به الحسان في الطول واللين.

(٦) الميثاء: اللينة الطيبة.

(٧) المدى، جمع مدية: السكين.

ببطلْيوس ثم في دواوين المِرابطين، وله رسائل يخطب فيها ود أبي القاسم بن الجَد، وفي إحداها يقول^(١):

"إن تعذر لقاء، فقد انتشر ثناء، وامتألت الأرض منه والسماء، ووصف عز الأوصاف وغلبها، وهز الأعطاف وجذبها، وذكر ملأ الآذان حلياً، والآفا رِيّاً^(٢). والآفواه أَرِيّاً، ونبل جلت مطالعه دياجي الأوهام، وروت مواقعه صوادي^(٣). الأوهام.. والله دهر أطلعك أفقه، ووقت وسعك طلقه^(٤). ما أكرم طبيعته، وأضخم دسيعته^(٥). وأعقب في الآناف شميمه، وأرق على الأنفاس نسيمه.. وأنا أخطب إلى عمادي - أدام الله عزته - مدته عقيلة^(٦). وأجعل رحمي^(٧): الأدب والنسب وسيلة، وأبذل من تحلية حمدي وشكري مهرا، وأبني لها بين سحري ونحري^(٨). قصرا.. والله - جلا وعلا - يعينني على فرضه أؤديه، وقرضه أفضيه".

وللأعمى التطيلي الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: "إني أبيت ظمآن، ولا أبيت خزيان،

(١) الذخيرة ٢ / ٦٧٠.

(٢) رِيّا: شذى.

(٣) صوادي: عطاش.

(٤) طلقه: شوطه.

(٥) دسيعته: طبيعته وشميمه.

(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.

(٧) رحم: قرابة.

(٨) السحر: الرئة. النحر: أعلى الصدر.

وأحتمل الحرمان، ولا أحتمل الهوان^(١). وكان يعاصره ويعاصر ابن الجدي ابن خفاجة شاعر الطبيعة المبدع الذي مرت ترجمته، وكما كان يبدع في وصفها شعراً كان يبدع في وصفها نثراً، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غب مطراً^(٢):

"لما أكب الغمام إكباً، لم أجد معه إغباً^(٣)، واتصل المطر اتصالاً، لم ألف معه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشمس تحط نقابها، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تحلت، وقد تجلت، ذهبت في لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوى للتفرج أرضاً، وننشر أرضاً، وترددنا بتلك الأباطح نتهادى^(٤). تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقوانها، وللنسيم، أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشى، على بساط وشى، وأجلنا النظر في نهر صافي لجين^(٥) الماء، كأنه مجرة السماء، مؤتلق جوهر الحباب^(٦)، كأنه من ثغور الأحباب. وحضرنا مسمع^(٧) يجري مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهوها، ويغني لها مقترحها ومناها:

يحرك - حين يشدو - ساكناتٍ ويبتعث الطبائع للسكون"

(١) الذخيرة ٧٢٩/٢.

(٢) الذخيرة ٥٤٣/٣.

(٣) إغباً: انقطاعاً.

(٤) نتهادى: نتمايل.

(٥) اللجين: الفضة.

(٦) الحباك الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.

(٧) مسمع: مغن.

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل في التهادي وفي العتاب وفي الشفاعة، وفي التهاني وفي التعازي، وهي مبنوثة بترجمته في الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله^(١):

"قمر فضل سار إلى سراره"^(٢)، ووسطى عقد أخذ في انتشاره، وصباح جذل^(٣). أسرع في انطوائه، ومصباح أمل عجل بانطفائه، فقبحاً لدنيا قصفته أنضر ما كان غصنا، وكسفته أقمر^(٤). ما كان حسنا. وصار مفقوداً، كأن لم يكن مشهوداً، ومنشوداً^(٥). كأن لم يكن موجوداً. وقد وجدت لذلك وجداً لا يسعه الصدر، ولا يقاومه الصبر، وأواراً^(٦) لا تطويه أحناء الضلوع، ولا تطفئه أحساء^(٧) الدموع. وكأن كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألم ثم تولى، وغمام أظل ثم تجلى".

ومن معاصري ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبي الخصال أهم الكتاب في دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدوم وتعازي في وزير وبنت وأخ

(١) الذخيرة ٣/ ٥٥٧.

(٢) السرار: آخر ليلة في الشهر.

(٣) جذل: سرور.

(٤) أقمر: أضوأ.

(٥) منشوداً: مطلوباً.

(٦) الأوار: حر النار.

(٧) أحساء هنا: ينابيع.

وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جذب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله في ذخيرته، من بينها رسالتان وجه بهما إلى ابن بسام ردًا على رسالة كان أرسلها إليه في طلب بعض شعره ونثره ليضمه الذخيرة، وهو في أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه في تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سقط المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه في الطلب فاضطر أن يليه بقليل من شعره قائلاً إنه يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه التفت الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضي في تصويرها قائلاً^(١):

"إني خططت والنوم مغازل، والقر منازل، والرياح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج^(٢)، فطوراً تسدده سنانا، وتارة تحركه لسانا، وآونة تطويه حبابة^(٣)، وأخرى تنشره ذؤابة، وتقيمه إبرة هب، وتعطفه برة ذهب، أو حمة^(٤). عقرب، وتقوسه حاجب فتاة، ذات غمزات، وتستل روحه من ذباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد أو مسخته حديق^(٥). جراد.. فلا حظ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، والليل زنجي^(٦). الأديم تبرى^(٧). النجوم، قد جللنا ساجه^(٨). وأغرقتنا أمواجه، ولو

(١) الذخيرة ٣/ ٧٩٢.

(٢) يريد الحجاج الثقفي وفتكاته بأعدائه.

(٣) حبابة: فقاعة الماء.

(٤) البرة: الحلقة توضع في أنف البعير، وبها شبه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.

(٥) أذن جواد أي مستعرضاً مثلها. حديق جراد أي ضئيلاً كنقطة مداد.

(٦) زنجي الأديم: أسود الجلد.

نظرت فيه الزرقاء^(٣). لاكتحلت، أو خضبت به الشبية لما نصلت^(٤)، والكلب قد صافح
خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنب^(٥). والتوى التواء الحاب^(٦). واستدار استدارة
الحباب، وجلده الجليد، وضربه الضريب^(٧). وصعد أنفاسه الصعيد^(٨). فحماه مباح، ولا
هرير ولا نباح، والنار كالصديق أو كالحرقيق^(٩). كلاهما عنقاء مغرب^(١٠). أو نجم
مغرب".

والرسالة وصف شعري بديع لهذه الليلة من ليالي الشتاء الباردة بردًا شديدًا في
الأندلس والرياح تصقف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطة، وقد
يضيء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أو برة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان
أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبي
الخصال في وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستم صورة
بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مد عليه اثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنب بيته

(١) تربي: ذهبي.

(٢) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد السواد.

(٣) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(٤) نصلت: بهتت.

(٥) الطنب: الحبال تشدها الخيمة والخباء.

(٦) الحباب بالضم: الأفعى. وبالفتح: فقايع الماء.

(٧) الضريب: الثلج.

(٨) الصعيد: وجه الأرض.

(٩) الرحيق: الصافي من الخمر والشراب.

(١٠) عنقاء مغرب: طائر خرافي.

والتف ذنبه على خيشومه أو خرطوميه، وتقرفص وتكوم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحشو الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجف ريقه في حلقة فلا هريز ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافي المسمى عنقاء مغرب.

ونمضي في عصر الموحدين، ونلتقي فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ المار ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهنئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول^(١):

"حسن الأيام وجمالها، ومآل الآمال وثمالها"^(٢)، وبصر المعارف وسمعها، وواحد الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بورك في والد وما ولد:

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

.. نفع الحق به علله، ونقع غلله^(٣).. عمادي الأكرم، وملاذي الذي أنفخ من حده في ضرر^(٤)، وأحل من الاختصاص به محل الحزم، تخيرت علاه ومن أخصب تخير وما كنت إلا كالغريب ارتاد الجوار، والمحلى انتقى المعصم حين صاغ السوار.. والله - تعالى - يديم مدة قاضي الجماعة الأسرى^(٥)، وكلم حمده أسير من الأمثال وأسرى^(٦). ونعم الله

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.

(٢) ثمالها: ملجأها.

(٣) نقع غلله: شفاه.

(٤) ضرر: وقود النار.

(٥) السرى: الأشرف.

(٦) أسرى: أسير.

سبحانه عليه تترى، وما يره من نعمة إلا هي أكبر من الأخرى". والتورية واضحة بين السرى واسرى، وهي تكثر في نصر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخصه بكلمة، ولأبي عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفي استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول^(١):

"يا له حادثاً، جمع قديماً من الكروب وحادثاً، ومصاباً، جرع أوصاباً، وأضحى كل به مصاباً، لا جرم أني شربت من كأسه مستفطعها، وشرقت^(٢). بها وبدمعي الذي أرفض^(٣). معها، فغالت خلدي، وغالبت جلدي، حتى غبت عني، ولم أدر بالآمي التي تعني. وبكيت حتى خشيت البكاء أن يعشيني^(٤)، وغشيت^(٥) إذ غشيني^(٦) من ذلك اليم^(٧) ما غشيني، وظللت لقي^(٨). أينما شاء الترح يلقيني، فتارة يفيني، وتارة يبقيني.. ويا ليت شعري إذ افادوا الماء طهارة زائدة بغسل جلاله، هل حنطوه بغير ثنائه أو كفنوه في

(١) أسرى: أسير ليلاً.

(٢) بقية السفر الرابع المار آنفاً ص ١١٥.

(٣) شرقت: غصصت.

(٤) أرفض: تفرق وتبدد.

(٥) يعشيني: يعميني البكاء.

(٦) غشيت: أغمى على.

(٧) غشيني: غطاني وحواني.

(٨) اليم: البحر يريد بحر الحزن.

(٩) لقي: مطروحاً مهملاً.

غير خلاله، ويا ليت شعري إذ استقل به نعشه الأشرف، ترفرف عليه الملائكة ويظله الرفرف، هل رأوا قبله حمل الأطواد^(١)، على الأعواد، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب، ولم أثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغرباً لأنوار شمسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصفيح ضريح الحب والولوع.. وهب الله لكم في مصابكم صبراً على قدره، وسكب ديم مغفرته على مثنوى فقيدكم وقبره".

وأخذ الكتاب في الأندلس منذ القرن السابع الهجري على لسان أبي المطرف بن عميرة الذي ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون في كتاباتهم بإلماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبي المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسراً^(٢):

" بالله أي نحو ننحو، أو مسطور نثبت أو نمحو، وقد حذف الأصل والزائد، وذهبت الصلة والعائد.. وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، والمثلث أوردى الفصيح.. ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض".

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالاً واسعاً في التورية عما أراد من تصوير بؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم في حجر نصارى افسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابي الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضاً وأشار معهما إلى

(١) الأطواد: الجبال.

(٢) الإحاطة ١/ ١٧٣.

تغلب المسيحي على العربي بكلمتي المثلث والفصيح موريا بهما عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البدل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإلماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التي يحاكون بها تملحاً أبا العلاء المعري في نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه في كتابينا عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع في الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعب بها الكتاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشاركة من ذلك منذ الحريري صاحب المقامات، إذ كان يلتزم في بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة وكثر مثل ذلك عند المشاركة كما كثر أن يلتزم حرف بعينه في كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنان إذ التزم في عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحاً، فلاحاً^(١). والتزم في رسالة له العين في جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشي إنها "شاعت في الأندلس، وتنقلت شرقاً وغرباً" وراجعها أبو الحسين الرعيني برسالة مماثلة، ورد عليه ابن الجنان أيضاً برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعيني برسالة نونية ملتزماً النون في جميع كلماتها^(٢). ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائماً من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع

(١) الإحاطة ٢/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) انظر في هذه الرسائل المراكشي (تحقيق د. إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

العناية دائماً بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلاً في كتابات الكتاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطين وفي مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه في كتابه "التعريف" وفي إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلاً^(١):

"لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية والعارفة الوارفة^(٢)، واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب فضلاً عن الكواكب إشارة وإيحاء.. وبين قدومك لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه وأجرت سحب دمعي دمنه^(٣). فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي".

وكانت بينهما مودة وثيقة، وأن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل اشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبي عبد الرحمن بن طاهر وأبي القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

(١) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٣) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

حبیب^(١):

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبي بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: "كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلاً طلق"^(٢) العمر، لسد طريق الصباح، وغبر في وجوه الرياح، إذ توفي ابن اثنتين وعشرين سنة" وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفي شاباً معتبطاً بغير علة قريباً من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنة. وله كتاب البديع في وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة في الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال في فاتحته:

"فصل الربيع أرج وأبهج، وأنس، وأنفس، وأبدع، وأرفع، من أن أحد حسن ذاته، وأعد بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسماته الشائقة، وآلائه الفائقة، لم يعن بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد".

وقد جمع حبيب في كتابه أروع ما للأندلسيين في وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبي الوليد بن جهور وما بثه من حوار

(١) انظر في ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤ / ٢ والجدوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص

٢١٩ والمغرب ١ / ٢٥٠ وراجع كتابه: "البديع في وصف الربيع بتحقيق هنري بيريس طبع الرباط سنة

١٩٤٠. وطبع في السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيان.

(٢) طلق: شوط.

فيها بين خمسة نواوير هي الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهداً أو وثيقة بذلك على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلاً البهار على الود مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها في رسالته، يقول:

"أول من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد في تفضيل الورد) وعان الخُطاب، نواوير فصل الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن، وصحابته في الزمن، ولما قرأته أنكرت ما فيه، وبنت على هدم مبانيه، ونقض معانيه، وعرفت الورد بما عليه، فيما نسب إليه.. وكتبت إلى الأقحوان والخيري الأصفر كتاباً قالت فيه: لا ندري لأي شيء أوجبت الأزهار تقديمه، بما غيره أشكل له وأحق به وهو نور البهار، البادي فضله بدو النهار، والذي لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء، مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حورها، وأفضل تشبيه للورد، بنضرة الخد، عند من تشيع فيه، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كل منول عون، وليس الخد حاسة، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد"

واستمر حبيب في هذه الرسالة طويلاً، وختمها بمبايعة الأزهار للبهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

"لما خلق الربيع من أخلاقك الغر، وسرق زهره من شيمك الزهر، حسن في كل عين منظره، وطاب في كل سمع خبره، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يحتويه من النور الذي كسا الأرض خللا، لا يرى الناظر في أنثائها خللا، فكأنها نجوم نشرت على الثرى، وقد ملئت مسكا وعنبرا، إن تنسمتها فأرجة، أو توسمتها فبهجة، تروق العيون أجناسها، وتحبى النفوس أنفاسها.. فأوجد لي سبيلا^(١) إلى إعمال بصرى فيها، لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها، فالنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد، ومن أجمها^(٢) فهو السديد الرشيد".

وواضح في الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتبه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به في منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

"قد علم سيدي أن بمرآه يكمل جذلي، ويدنو أمني، وقد حللت محلا عنى الجو بتحسينه، وانفرد الربيع بتحسينه، فكساه حلا^(٣) من الأنوار، بها ينجلي صدأ البصائر والأبصار، فمن مكوم^(٤). يعبق مسكه، ولا يمنعه مسكه، ومن باد يروق مجتلاه، ويفوق مجتباهه، في مرآه ورياه^(٥)، فتفضل بالخفوف^(٦). نحوى لنجدد من الأنس مغاني^(٧).

(١) أجمها: أراحها.

(٢) مكوم: أي زهر مستور في كمه.

(٣) الخفوف: الإسراع.

(٤) مغاني: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

درست، ونفك من السرور معاني أشكلت وألبست^(١). ونشكر للربيع، ما أرانا من البديع".

والرسالة كسابقتها جمال صياغة وحسن أداء، وهي تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة في أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه "البديع" متنقلاً بين مشاهده وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن^(٢) الدباغ:

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ بسرقسطة، وعمل بدوانينها وقربه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥هـ) حتى أصبح من وزرائه، وأحسن منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل بالمعتمد بن عباد في إشبيلية، فأجزل قراه، وخصه بحظ من دنياه، وجعله مكان سره ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان بياطرة. وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه في وزارة المعتمد، وبلغه أنه قدح فيه بمجلس المعتمد، وخشى مغبة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن موطأ الكنف في العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبي عبد الله بن

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهمت.

(٢) انظر في ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٣/ ٢٥١ والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٢/ ٤٤٠ والخريدة (قسم شعراء المغرب الأندلس - طبع الدار التونسية) ٣/ ٣٨٧.

أيمن، واشتعلت بينهما نار ملاً الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان السماء - كما يقول ابن بسام - ارتفاعها، فكر راجعاً إلى سر قسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيء الظنون، فنبأ به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفتس، وربما دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف النابيين، وفيه يقول ابن بسام: "فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على نبه". ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها غرر ودرر، وأكثرها في ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله في بعض رسائله:

"كتابي وعندي من الدهر ما يهد أيسره الرواسي، ويفتت الحجر القاسي.. ومن أقلها قلب محاسني مساوي، وأوليائي أعادي، وقصدي بالبغيضة من جهة المقة^(١)، واعتمادي بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غير على حتى شرابي، وأوحشني حتى ثيابي، فها أنا أتهم عياني، وأستريب من بياني، وأجني الإساءة من غرس إحساني.. وما أصنع؟ وقد أبي القضاء إلا أن أفضي عمري في بوس ولا أنفك من نحوس.. لست أشكو إلا زماني وقعوده بجدي^(٢). وقبيح آثاره عندي، يخصني بمزية حرمان، ويتوخاني بفضلة عدوان، ويجعلني نصب سعيه، وغرض رمي، ومان أذايته وبغيه.. ما أجد إلا من يثلب، ولا أمر إلا بمن يتجهم ويقطب.. وسبحان من جعل الدنيا دار كرب ومحنة، لكل ذي لب

(١) المقة: المحبة.

(٢) جدى: حظى.

وفطنة، ومقام تنعم وترف، لكل ذي خسة ونطف^(١).. وما أظن أن لدجى حالي انبلاجًا،
ولا لكربة نفسي انفراجًا، ولا إخال غمرات الهم تنجلي، ولا مدد النحوس تنقضي،
ومن كانت له من الدنيا حظوة يصطفئها، ومكانة يستقر فيها، فليس لي منها إلا أن أرى
كيف تنقسم رتبها وتتناوب، وتتنازع نعمها وتتجاذب، وتغتتم فوائدها وتتناهب، حتى
كأنني جئت على العدد زائدًا، ولم أكن عند القسمة شاهدًا، وما أقول هذا قول ساخط،
ولا أياس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليل في أنه، واستعاث المتوجع
إلى رنة^(٢). وخفف عن المصدور نفث^(٣). ونفس من وجد المكروب بث^(٤)."

وهو يطيل في مثل ذلك صادرًا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنها سيول الكلام العذب
تفد عليه من كل صوب، وهو يختار أسلس الألفاظ وأحلاها في الجريان على الألسنة
ومصافحة السماع والقلوب، مما يصور براعة دبية حقيقية، إذ يمتع دائمًا بألفاظه ومعانيه
الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنة:

"قد كنت - أعزك الله - متمنيًا لهذه الأيام، كما يتمنى في المحل^(٥) صوب الغمام،
ومتنظرًا لظهورك فيها، كانتظار النفس أعذب أمانيتها، ولما أطلعت طلائعها السعود،
واستمر بك الارتقاء والصعود، قلت لنفسي بشراك، أسعفك الدهر بمناك، وسرك ي

(١) نطف: عيب.

(٢) رنة: صيحة.

(٣) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره المريض.

(٤) البث: ما يبثه المركوب والمخزون تخفيفًا عنه.

(٥) المحل: الجذب.

بعض أعزتك وأرضاك، وأذننى في الإصغاء، إلى ما يطراً من الأنباء، وكلما قيل فرع^(١).
من الجاه ذروة، واستجد من العز كسوة، سرت العزة في خلدي^(٢)، وطالت^(٣). على
النوب يدي"

وهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ في رسائل ابن الدباغ معجيين، ونأسى لمصيره،
وكان حرياً بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الألفطس أن
يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيقبله من أوضار تشاؤمه وعشرات
بؤسه بما يسدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبدل قنوطه من معاصريه رجاء
ويأسه منهم أملاً وخوفه ثقة واطمئناناً، غير أن أحداً منهم لم يحاول إنقاذه من محتته، بل
جميعهم تركوه يتجرع غصص الضيم والحرمان في غير شفقة ولا رأفة.

أبو^(٤) عبد الرحمن بن طاهر:

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة
مرسية في شرقي الأندلس، وهو بيت كان ينتمي إلى قبيلة قيس بن عيلان في الجزيرة،
وكان يعتز بقيسيته وعرويته. ولما انتشرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدي أمراء

(١) فرع: علا.

(٢) الخلد: البال والفكر.

(٣) طالت: غلبت وتفوقت.

(٤) انظر في ترجمة أبي عبد الرحمن بين طاره الذخيرة ٣/ ٢٤-١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢/ ٢٤٧ وبغية

الملتص رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠ والحلة السراء ٢/ ١١٦ والذيل والتكملة للمراكشي ٥/ ٥٩٠

والخريدة ٣/ ٣٦٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه في بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رزق بابنه أبي عبد الرحمن محمد حوالي سنة ٤٢٠ للهجرة، وشب فأعان أباه في حكمه إلى أن توفي سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارِع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف في بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سماه "سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر" وترجم له في الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جواداً ممدحاً، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذي مرت ترجمته بين الشعراء أيام خوله، فرحب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنهار، إذ عرف في مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيراً ومستشاراً للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زين له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يغريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعد له جيشاً جراراً لفتحها، وفي طريقه إليها اتخذ قائداً لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزج به في سجن بحصن قريب من مرسية يسمى "منت أقوط" وسولت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتد ويستقل بمرسية، فسلط عليه قائده عبد الرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبو بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبعجلاً معزراً، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور في

حربه - بأسره، وافتدى واطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومد له في البقاء إلى أن توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التي امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاماً أمضى منها فترة معاوناً لأبيه في حكم مرسية وفترة ثانية في حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلاً ثم فترة طويلة ببلنسية معزراً موقراً. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يثنى ويشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أو يعزى أو يهني، وقد اهتز هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر في الشمال الشرقي لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزلوا بهم مذبحاً - كما مر بنا - تقشعر لهوها الأبدان وسبوا منهم خمسة آلاف من الناء والعذارى وباعوهم في الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحبت، وأخذ يكتب لأقرانه كي يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله في وصف هذا الحادث المروع:

"خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآملا والهمم، وأسلم من الذلة والقلّة إلى ما قصم، فما شئت من دمع مسفوح مراق، ونفسٍ مترددة بين لهاة وتراق"^(١)، وأسى قد قرع حصيات القلوب فرضها"^(٢)، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقضها"^(٣). ويقول من رسالة أخرى مستنفرًا للجهاد:

(١) التراقي: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: أقصى سقف الحلق.

(٢) رضىها: دقها.

(٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.

"ليندب الإسلام نادب، ولييك له شاهد وغائب، فقد طفئ مصباحه، ووطئ ساحه، وقص جناحه، وهيض^(١). عضده، وغيض ثمده^(٢)، إلى الله نفع، وإليه نضرع، في طارق الخطب ومنتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشف الكروب، وناصر المحروب".

وحين ردت إليه حريته وأطلق من معتقله بفضل وساطة أبي بكر بن عبد العزيز الوزير بيلنسية واستجاب إلى رغبته في المقام عنده كتب وهو في طريقه إليه رسالة يقول في فصل منها:

"كتابي وقد طفل^(٣) العشى، وسال بنا إليك المطى^(٤)، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونغتفر للزمان ما قد اساء، ونرد ساحة الأمن، ونشكر عظيم ذلك المن، فهذه النفس أنت مقلها^(٥)، وفي برد ظلك يكون مقلها^(٦)، فله مجدك وما تأتیه، ولازلت للوفاء تحييه وتحويه".

وكانت في ابن طاهر دعابة لم تفارقه حتى في أيام محنته بالاعتقال، وله في ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نواذر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروي منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوماً في

(١) هيض: تحطم.

(٢) غيض ثمده: جف ماؤه القليل.

(٣) طفل العشى: مال للغروب العشى وهو آخر النهار.

(٤) المطى: الإبل.

(٥) مقلها: منحيها أي عما كانت فيه من اعتقال.

(٦) مقلها: مكان راحتها.

اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملق معه ويتصنع، فقال له ابن طاهر: خلاصي بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتني في لحيتك لتخلصت ولم يرني أحد. وكتب إليه رجل يتزهد، وأطال الوعظ وردد، وهو يعرف أنه على الضد من وعظه، فأجابه:

"ورد كتابك فوعظ وذكر، ونصح فبصر، ونبه من سنة الغفلة، واغترار المهلة، وحذر من يوم الندامة، وبعث يوم القيامة، فيرحمك الله من هاد، وخائف معادس، ومبتغي إرشاد، وداع إلى صلاح وسداد، لقد حركت أنفسا قاسية، وهزرت جندلة راسية، ومعولك دونها ناب، لا يؤثر فيها بظفر ولا ناب".

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر في خفة ورشاقة وعدوبة، وفي الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: "أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدرية، وتوسعس^(١) معه الليالي البدرية".

أبو^(٢) القاسم بن الجد:

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري، من أسرة بني الجد، من بيوتات لبلبة غربي إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفي كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكب في نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلعب بين أقرانه في إشبيلية، فاختره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضي حين ولاه مدينة

(١) تعسس: تظلم.

(٢) انظر في ترجمة أبي القاسم بن الجد الذخيرة ٢/ ٢٨٥، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للمراكشي ٦/ ٣٢٦ والمغرب ١/ ٣٤١ والخريدة ٣/ ٣٩٣ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ص ١٨٥.

الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، وظل معه حين ولاه مدينة رندة غربي مالقة إلى أن استنزل منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلدته: لبللة فولوه خطة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان بمراكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف، بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه في هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفي ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجد رياسة الديوان بمراكش إلى أن توفي سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: "قريع"^(١) وقتنا، وواحد عصرنا، ممن استمرى^(٢) أخلاف النظم والنثر، فدرت له بالبيان أو بالسحر.. ورويدك حتى ترى الصبح كيف يسفر، وثبج^(٣) البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر^(٤). وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين: ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

(١) قريع: سيد.

(٢) استمرى أخلاف النظم: احتلب ضرعه.

(٣) ثبج البحر: وسطه.

(٤) فهر: قبيلة قرشية.

"لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المتى، في خلس الكرى. وما ظنك بي وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن خيالي نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خدع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلاً، حتى أشفى بلقائك غليلاً.. ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاء بر فما تحيفت (تنقصت) ودادي، ولا ارتشفت مدادي، ولا غاضت (نقصت) كلامي، ولا أحفت (استأصلت) أقلامي، وفي الكتاب بلغة الوطر، ويستدل على العين بالأثر.. وإن فرغت للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلت صديقاً، وبللت ريقاً، وأسديت يداً، وشفيت صدى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضاً، وليالك أسحاراً، ومساعيك أنواراً".

ويبدو أنه كتب لابن القصير هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما اسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنييه أن يستدعيه صديقه للعمل معه في ذلك الديوان، ولا تخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو رد عيه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعاني ومع حسن الأداء. ولا نلبث أن نقرأ له رسالة في وصف مطر بعد جذب شديد، وفيها يقول:

"لما استرابت حياض الوهاد، بعهود العهد^(١)، وتأهبت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمند^(٢). النقع المثار، وتعطلت الأنوار، من حلى

(١) العهد: المطر.

(٢) إثمند: كحل. النقع: الغبار.

الديمة المدرار، أرسل الله تعالى بين يدي رحمته ريحاً بليلة الجناح، سريعة الإلقاح، فنظمت عقود السحاب، نظم السحاب^(١)، ولم تلبث أن أنهتك رواقها^(٢)، وانبتك^(٣). وشيخاً نطاقها، وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق، غداة الفراق، فاستغربت^(٤) الرياض ضحكا ببكائها، واهتزت رفات^(٥) النبات طرباً لتغريد مكائها^(٦)، فيا برد موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص ريبها إلى غلل النفوس الصواد^(٧)، كأنها استعارت أنفاس الأحباب، أو ترشفت رضاباً^(٨) من الشنايا العذاب، أو تحملت ماء الوصال، أو سرت على أنداء الأسحار وريحان الآصال. فالحمد لله على ذلك ما انسكب قطر، وانصدع فجر، وتوقد قبس، وتردد نفس".

ولعل صوت ابن الجدا تضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلايب بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد في تصاوير متتابعة، فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوته:

(١) السحاب: القلادة من الأزهار.

(٢) الرواق: مقدم البيت.

(٣) انبتك: انقطع.

(٤) استغرب في الضحك: بالغ فيه.

(٥) رفات: حطام.

(٦) المكاء: طائر له تغريد حسن.

(٧) ريبها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة: شدة العطش الصوادي. العطشي.

(٨) الرضاب: الرياق المرشوف.

"إن كانت المداخلة بيننا لم يفتح لها باب، ولا علقت بها أسباب، ولا رمى لنا في محصبها^(١) جمار، ولا عطف بنا نحو كعبتها اعتمار، فقد جمعتنا في معرف^(٢) المعرفة معارف، وضممتنا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجت^(٣) بيننا من أواصر الأدب أنساب، وضربت علينا في مدارج الطلب قباب، ولا غرو من تداني القلوب على تنائي الديار، وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار^(٤)، فربما ألف تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن الشام وساكن العراق. على أي لا أدعى رتبك في فنون العلم والآداب، ومن يضاهي محل الفرقد^(٥)، بمنبت الغرقد، لكني وإن لم أعد في رعيك، فعندي من بضائع الكلم ما ينفق في سوقك، بقيت حلية للدهر فائق، وغرة في وجد الزمن رائقة".

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان في أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله يعارض أبا الحسين بن سراج في رقعته التي مرت بنا والتي شفع فيها عند بعض ذوي الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيراً له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش والعش والسكير والتحسير، وعلى غرار رقعة ابن سراج يقول في رقعته:

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.

(٢) المعرفة: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسى.

(٥) الفرقدك النجم القطبي: الغرقد شجر قصير فروعه شائكة.

"لئن سمي بالزريزير، لقد صغر للتكبير، ولما طار ببلاد الغرب ووقع، وزقا في أكنافها وصقع"^(١)، وعاین ما تتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون، والمتون، ولم يجد بها قرارًا، أزمع عنها فرارًا. واستخفه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار، حيث يكتسي ريشه حريرًا، ويحتشي جوفه بريرًا^(٢)، ويحتشي قراحًا نميرًا^(٣)، فخده إليك، نازلًا لديك، مائلًا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذباب في الروضة الغناء. ولن يعدم في جنابك حبا نثيرًا، وخصبًا كثيرًا، وعشا وثيرًا^(٤)".

والدعاة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام في ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهر، واسرى من النسيم وأسير" لما يشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب.

سهل^(٥) بن مالك:

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثناء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي: "كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننًا

(١) زقا: صاح. صقع: ذهب في كل وجه.

(٢) البرير: ثمر الأراك.

(٣) يحتشي: يتجرع. قراحًا نميرًا: ماء صافياً زاكياً.

(٤) وثيرًا: وطيبًا.

(٥) انظر في ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص

٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع) ص ١٠١

والإحاطة ٤/ ٢٧٧.

في العلوم وبراعة في المتشور والمنظوم، محدثاً مجوداً للقرآن متقدماً في العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتباً مجيد النظم في معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير" ويقول ابن سعيد في القدح المعلى: "لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع في العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال"، وصنف في العربية كتاباً مفيداً رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفي في الأصول للغزالي.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعاً على النادرة ظريفاً خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يتحمله فغربه عن غرناطة بلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفي ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بني نصر أبو بني الأحمر في غرناطة فعاد إليها، وظل في جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفي سنة ٦٣٩ للهجرة عن سن عالية ورثاه تلميذه ابن الجنان رثاء حاراً.

وكان سهل شاعراً كما كان ناثراً، ونثره يبد شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفي سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا في عينيه وكأنها طعن في كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بني يعزيم - وقد حخر في نفسه الجزع وعضها الوجع - تعزية ملتان أضرمت اللوعة ناراً في فؤاده، وفيها يقول:

"لا أقول كفى ولا استشعر صبراً، وقد اسكن نور العلم قبراً، بل أغرق الأجفان
 بهائها، وأستوهب الأشجان غمرة^(١). غمائها، وأتهالك تهالك المجنون، وأستجير من
 الحياة بريب المنون، وأنافر السلو منافرة اليقين لوساوس الظنون. وهو الخطب الذي
 نفى الجهود^(٢)، وألزم أعين الثقلين أن تجود، وبه أعظم الدهر المصاب، وفيه أخطأ سهم
 المنية حين أصاب، والدهر يسترجع ما وهب، كان الصفر^(٣). أو الذهب، ولا غرو أن
 دهم^(٤). الرزء، يؤود^(٥). الفلك الدائر منه الجزء.. وإنا لله لفظة أوليها، وأتباعها زفرة
 تليها، ولقد بحثت الأيام عن حتفها بظلفها، وسعت على قدمها إلى رغم أنفها، حين
 أتلفت الواحد يزن مائة ألفها، فمن لبث الوصل ولرعى الوسائل^(٦)؟ وإلى من يلجأ في
 مشكلات المسائل؟ ومن المجيب إذا لم يكن المستول بأعلم من السائل؟ اللهم صبرنا
 على فقد الأنس بالعلم، وأدلنا^(٧) من خفوف الوله بوقار الحلم، وأخلفه في بنيه وعامة
 أهليه بشبيه، ما أوليته في جوارك المقدس وتوليه".

(١) غمرة غمائها: شدة شدائدها.

(٢) الجهود: النوم.

(٣) الصفر: النحاس.

(٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة.

(٥) يؤود: يثقل ويجهد.

(٦) الوسائل: الصلات.

(٧) أدلنا: انصرنا.

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذي نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق. لسهل يعزيه عن محتته بنفيه إلى مرسية وغربته، فرد عليه برسالة يقول فيها:

"أنا أستوهب لك أيها الشيخ الأخ الجليل عافيةً لا تغفوا^(١) بألسن الحساد، ولا تقفوا^(٢) موادها أعين السعاة البغاة الذين مالمهم مقعد إلا بالمرصاد، وأثنى على كرم طباعك بوصول رسالتك التي طلعت على ليلي البهيم^(٣) صباحاً، وأدارت على من التسلى والتعزي أقداحاً.. ويعلم الله أيها العلم علماً وفيهما، أني لولا مخاطبتك ومثالك^(٤) لمت أسفاً وغماً، ولست - عافاك الله - بذي سجن ولا قيود، ولكن معاشرة من لا يشاكل عقبة كؤود^(٥)، ولعلها نوب تمحص، وسبك يصفى به الإنسان ويستخلص، وقد شكونا لو أن الشكاة تسمع، ودعونا لو أن الدعاء - عند من لا يقبله ينفع".

وسهل يومئ في أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفي عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفي مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التي أثلجت صدره وفتحت له من التسلى والتعزي أبواباً كانت مغلقة، فخففت

(١) تغفوا: تنطمس.

(٢) تقفوا هنا: تحيط بها.

(٣) البهيم: المظلم.

(٤) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

(٥) كؤود: صعبة.

من أسفه وغمه. ويقول المراكشي عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمة
حصيف الرأي وجيهاً مبروراً معظمًا عند الخاصة والعامة.

الرسائل الأدبية:

مما تميز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصبة، وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسائله في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التي تتخذ الجهاد والاسنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفي كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة في كل ذلك، وخاصة ع موقعتي بربشتر سنة ٤٥٦ والزلافة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعاً لها، وألمنا فيما اسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحيب وأبي عمر الباجي، ومر بنا أن لابن الجدد رسالة بارعة في وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبي الخصال رسالة في وصف ليلة شديدة البرد نوه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة في وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة في وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري وكان شاعراً يتصعلك في شعره على طريقة الأدبانية أصحاب الكدية ممن يصفون في أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ظنك وفقر وإقلال طلبا للنوال،

وكان له ابن رحل إلى غربي الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمداً من رسالته الترييع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولاً في ترجمته له^(١). ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة في وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحياً شيئاً من هزله^(٢)، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوابع والزوابع وما فيها من سخرية وأيضاً بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذي ألمنا به طائفة من رسائله في الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبي الحسين سراج بن عبد الملك في الشفاعة التي بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلاً في وفسه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - في الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع في الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرى بكل جانب من هذه الجوانب أن تجمع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

(١) الذخيرة ١/٥٤٩.

(٢) الذخيرة ١/٦٤٥ وما بعدها.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد:

ابن شهيد^(١) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، فهو من أصل عربي، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيراً للأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذي الوزارتين ومر بنا في الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له في سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيراً للمنصور بن أبي عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفاً منها إلى ثرائه الموروث عن أبيه ثراء واسعاً، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشاراً وجليساً. ونقل سكنه إلى جواره. وكان قد رزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ في نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطاً بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عند نهم للأدب والمعارف، يقول في فواتح رسالة: التوابع والزوابع: "كنت أيام كتاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبوا إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لي عرق الفهم، ودر لي شريان العلم.. قطعنت ثغرة البيان داركاً، وأعلقت رجل طيره أشراكاً، فانتالت لي العجائب وانهاالت على الرغائب". ويضيف إلى ذلك في إحدى

(١) انظر في ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢ والجذوة ١٢٤ المطمح ١٦ والذخيرة ١/١٩١-٣٣٦، ٤٣٧ والبنية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢ ومعجم الأدباء ٢/٢١٨ وابن خلكان ١/١١٦ والوافي للصفدي ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب زكي بالقاهرة وشارل بلا في بيروت وللأخير محاضرات عنه بجامعة عمان.

رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أداب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق في النعيم وفي تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفي منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفي سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه وانهمك في الشرب والزندقة والطعن في الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التي قضت على الدولة الأموية ودمرت فيها قرطبة وأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة في نفس ابن شهيد فقد اندكت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بني أبي عامر، ولما رأى في أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبعلى كئوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأني له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه في الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يطبق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: "غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يقصر عن ارتكاب قبيحة" ويقول ابن بسام: "كان بقرطبة في رفته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته وأحط الناس في هوى نفسه وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالقه". وكان الشعر قد انثال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبي، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترا به من الشباب القرطبيين المتأدين أمثال ابن حزم وابن عمه

أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة للخليفة المستعين الأموي (٤٠٠-٤٠٧هـ) ويشكو له ممن يتهمون به بسرقة الشعر كذباً وبهتاناً. وفكك بالمستعين قائده على بن حمود الحسنى واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبي جعفر اللمائي، وفكك بابن حمود غلمانته سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضي وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزج به في غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبي العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبي بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذي كانت ترعاه أسرة بني ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالي بني حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالي بني أمية، وأيضاً ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينهما مناقضات نظماً ونثراً استمرت طويلاً. ولم يكن يؤذيه شيء مثل اتهامه بالسرقة في شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (في كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقة في نثره، فكتب إليه محققاً رسالة عنيفة، قال فيها: "لأقطعن جبالك هاجراً، ولأتركن ليلك ساهراً". ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموي خليفة في سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحس ابن شهيد أن الدنيا تبسّم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوماً، إذ

خلف المستكفي الأموي المستظهر، وعادت المهوم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة في ديوانه، ونظن أنه زار حيثنذ مجاهدًا أحد فتيان العامريين الصقالبة وكان قد أسس له إمارة في دانية بشرقي الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه أزور عنه فيما يبدو لاختلاف مسلكهما في الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشيء من اللهو، بل على العكس كان منصرفًا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيره ابن فتح وابن الفرضي ظلا يغلقان أبوابه في وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموي هو الخليفة المعتد وظل بعيدًا عنها يتنقل في الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامري أصبح أميرًا على بلنسية منذ سنة ٤١٧ فتراسلا مرارًا، وألح عليه المؤتمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجع لها وتوجع في أسى مرير. ويقربه الخليفة المعتد ويتخذة جلسيًا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفي سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبي - من فتيان بني عامر - قرطبة ومعه وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقذعًا. ويصاب في أواخر هذه السنة بفالج ويقاسي منه لمدة سبعة أشهر أهوالًا ثقلاً حتى ليفكر في الانتحار كما ذكر في بعض شعره، ويلبي اعي ربه في جمادي الأولى سنة ٤٢٦، وصلى عليه - وأقام مراسم

دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكثر البكاء والعيول على قبره وتنشد مرثاة متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهي حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: "إذا تأملت، وكيف يجري في البلاغة رسنه، قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه.. وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه، وأبقاها في الناس خالدة بعده" وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح: "عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق من در البيان وجمانه" وقال فيه ابن بسام: "نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام، نظم كما استق الدر على لنحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور". وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من اشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسي دررا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها من مخاطبة ابن شهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبي محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب في اسمه توفي سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدي في الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول:

"يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذي خاطبه أبو عامر بن شهيد برسالة التوابع والزوابع التي سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم". وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد في الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء في كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت في هذه السنة على الأقل أو بعدها في إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة ألقت قبل هذا التاريخ.

والتابع في الرسالة الجنى والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر في صدرها لصديقه أبي بكر بن حزم أنه ارتج عليه ذات يوم في شعر كان ينظمه، فترأى له تابعه من الجن على فرس أدهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نمير من قبيلة أشجع في الجن، وكأن في الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع في الإنس، وتحادثنا حيناً، ثم علمه أبياتاً إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما ارتج عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل توا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقي معه توابع الشعر والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجو فالجو والدو (الفلاة) فالدو حتى لمح ابن شهيد أرضاً لا كأرض الإنس متفرعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقي صاحب امرئ القيس "وأمال التابع عنان الجواد إلى واد من الأودية به دوح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلاً: "يا عتيبة بن نوفل، بسقط اللوى فحامل (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دارة جلجل (أيضاً في المعلقة) إلا ما

عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف أجازتك له؟ فظهر لهما فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحيا صاحبك أهذا فتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأي جمرة (يشيد بابن شهيد) يا عتيبة، فقال لابن شهيد: أنشد، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تحضر (تثبت) طولاً عنا، وكر فاستقبلنا بالصعدة (القناة) هازلها، ثم ركزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشد، فهم إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيفة (النكول) ثم اشتدت قوى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس معجباً به، ثم قال له: أذهب فقد أجزتك وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب لقاء صاحب طرفه، فقطع معه وادي عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غيضة. ويصف ابن شهيد الغيضة وأشجارها ولقائه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفه، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصبح عنتر معجباً بقصيدته، ويحيزه، ويغيب عنه. ويلتقي ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يثرب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويحيزه. ويترك تابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسي. ويلتقي بصاحب أبي تمام، وينشده ابن شهيد أشعاراً مختلفة له منها مراثيه للوزير حسان بن مالك. ويلتقي بتابع البحري، ويتناشدان الشعر ويحيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبي نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادي الجن منازل مماثلة لمنازل أبي نواس في دنيا الإنس، فهذا دير حنة الذي كان كثيراً ما يختلف إليه، ويشق سمع ابن شهيد قرع النواقيس، ويجتاب مع تابعه

أديارًا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دير عظيم تعبق روائحه وتفوح نوافحه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دير حنة، ويسأله ابن شهيد هل صرنا بذات الأكيراح (ساحة يخرج إليها الرهبان في أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويحييه: نعم، وتقبل نحوهما الرهايين وفي أوساطهم الزنانير المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللحي، وقالوا لصاحبه ما بغيتك؟ فقال حسين الدنان تابع أبي نواس، فقالوا إنه في شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفت دنانه وحوها غزلانه، وفي فرجته شيخ طويل الوجه واللحية افترش أصغاث (أخلاط) زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طاس خمر كبير، فصاح به زهير: حياك الله ابا الإحسان، فأجاب بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: أقرع أذن نشوته. بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبي نواس وسأله أشجعي كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعي، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قراحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه من حاله، وأنشده قصيدة أبي نواس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربًا، وسأله تابع أبي نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقص ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شيء لم نلهمه نحن وقبل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد من تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع أبي الطيب المتنبي، ولقيه فارسًا على فرس بيضاء كأنه قضيب على كتيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء، فحياه زهير،

فأحسن الرد ناظرًا من مقلة شوساء مضمومة أجفانها استعلاءً قد ملئت تيتها وعجبًا، واستنشد ابن شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شوط العمر فلا بد أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيختصر (يموت شابًا) بين قريحة كالجمر وهمة تضع أخمصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبي يقرأ في صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرًا بعد لقائه بالمتنبي أن يلقاه بتوابع الكتاب - ويسميهـم الخطباء - وركضا الجواد طاعنين في مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرج دهمان وإذا بناد عظيم جميعهم، والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع جاحظ العين اليمني على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيراً عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتية، فقال ابن شهيد: بأبي هو ليس رغبتى سواء وغير صاحب عبد الحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذي إلى جنبه. وعرف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مغري بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلاً إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصة أسلوب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده فرسان الكلام. ويسوق حملة عنيفة على كتاب زمنه مستخدماً أسلوبهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة في الحلواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلاية، ويستحسنانها قائلين إن لسجعه موضعاً من القلب ومكاناً من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكران له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه من أشدهما في الطعن والإجحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف

شخصية أبي محمد، إذ تكني بهذه الكنية لزمه غير واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذي ذكر في مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطاناً يجري على لسانه ما يخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكمياط الذي مر بنا في حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقه، وأما أبو القاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبو القاسم الإفليلي، ويهتف صاحباً الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنف الناقة بن معمر، وينهض لهما جنى أشمط (دب الشيب في شعره) ربعة ورام الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالع (يتعارج) في مشيته كاسراً لطرفه، وزاويًا لأنفه. وكان الإفليلي قد تصدر في قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم في معاني الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفي في خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حسن البيان البلاغة. ويتهم تابعه أنف الناقة ابن شهيد بنقص إطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلي بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلاً إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثلاً، فيصف له برغوثةً وثعلباً وصفاً رائعاً. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زبدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العقم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتلئ زبدة الحقب غيظاً، فيضرب الرض برجله، فتفرج عن هوةٍ يغيب فيها. ويشد غيظ أنف الناقة تابع الإفليلي، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعاراً بديعة متحديةً له، وتصيح فتیان الجن إعجاباً واستحساناً، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتبع الإفليلي

في دروسه لزلة قد تمر به في شعره أو نثره، فيهدف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجني إن الشيوخ قد تزل أحلامهم في الندرة، ويقول ان شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحباً الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفض الجمع، والكل ممتلئ إعجاباً به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام في باب التوابع والزوابع، ومد فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسي، وهي طرفة بديعة النسق في الصياغة والرونق في العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفواً.

وأضاف ابن شهيد في الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلقائه لتوابع الكتاب والشعراء باباً تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصر فيه، ويعرض لبعض المعاني ومن تداولوها، ويتمثل له جنى يسمى فاتك بن الصقعب ويتحاور معه ويجري على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحداً فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبي، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجاباً واستحساناً. وكان بقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبى، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره البديعة وبهرته، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجد أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حيثئذ أقسم أن لا يعرض له أبداً، وشهد له بعراقته في الكلام، وكأنها ألقمه حجراً بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

ويتبع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حمر الجن وبعض بغالهم وتعرضت لابن شهيد الأتان تحكمه في شعرين للحمار وبغل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدمت إليه بغلة شهباء عليها جلها (غطاؤها الصائن لها) وبرقعها، وأنشدته الشعرين ففضل شعر البغل وقال: كان أنف الناقة أجدر منى بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفني؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطت لثامها، إذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدها، فتباكيا طويلا، وأخذا في ذكر أيامهما، وسألته: ما فعل الأربة بعدها؟ أهم لا يزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتنكرت الخلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحاولا عن العهد، ونسوا أيام الود. وكانت بقربهم إوزة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعامة، يسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنىصا عليها، فمرة تسبح ومرة تطير، ومرة تنغمس في الماء ومرة تخرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ورפרفت بمجدافيهـا (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جاثية (قائمة على مؤرختها) كصدر المركب، ثم سأله ماذا يحسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنها أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لا يحسنهما، ويطيل الحوار معها واصفصا لها بالحمق وأنها في حاجة إلى عقل التجربة إذ عدت العقل الطبيعي، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجييه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظري حيثنذ في الأدب. وكأن الإوزة بذلك تأخذ صفة الإفليلي بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب

الذين كان الإفيلي يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفيلي فيها بأنه هو الذي به ابن شهيد عرض، وجعله الغرض، وكأنها أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به في بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض في الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب النابيين مقارنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائماً ويجيزونه، محاولاً بذلك أن يسقط نقد الإفيلي له. ثم أخذ يعرض جانباً من تداول المعاني بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذ الإفيلي في انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعاني التي يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر في الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشراً سوياً، وتشكل له في الشطر الثاني على صورة بعض الحيوانات والطير مستمداً في ذلك كله من قصص الجن عند العرب. وقرن كثير من الباحثين^(١). هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبي العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذي تأثر بأبي العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقاً الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنهما بعد ذلك تتباينان في موضوعيهما، فرحلة أبي العلاء تدور على عقيدة إسلامية هي عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غفر لهم من الشعراء واللغويين في الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة في الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد -

(١) راجع بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسي للدكتور

كما مرت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب في عصرهم الجاهلي الوثني من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنهما لا يلتقيان أي التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحدهما في الأخرى. وذكرنا من قديم في كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ثم في كتابنا "المقامة" أن الذي أوحى إلى ابن شهيد برحلته في أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه في مقامته الإبلسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعاراً جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجريز، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جريز، ولم يلبث إبليس أن قال له: "ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أملت على جريز هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعت الأرض. وفي نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان في مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة في ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان في مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقي تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد ابن يسمه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف ائع للماء يهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبلسية لبديع الزمان هي التي ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد في كتابي الجذوة للحميدي والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس في عصره وقبل

عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن برد^(١) الأصغر:

ابن برد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبي حفص أحمد بن برد الأكبر الذي ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب سليمان المستعين الأموي وللاُمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام في الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلاً إنه "أسمع الصمَّ بياناً، واستنزل العصم إبداعاً واستحساناً" ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجابة منذ نعومة أظفاره، فعنى بتربيته وتخريجه في الأدب نثره وشعره، وفي ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه "سر الأدب وسبك الذهب": "وكان جدي أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإني وافقت أول معالجاتي لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسني مصاييح من وصاياها فيها، ووطأ لي مراكب من دلائله إليها، وضرب لي صوى (أعلاماً) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعاً". ويقول ابن بسام إن بني برد ينتمون إلى بني شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك في جانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفي بكاه - كما أسلفنا

(١) انظر في ترجمة ابن برد الأصغر الجذوة للحميدي: ١٠٧ والمطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤ والمغرب

٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة ٤٨٦/١-٥٣٥ وأخبار متفرقة عنه في ٣٥٨/١، ٧٧١،

٧٨٧ وراجع رسالته في تفضيل الورد على سائر الأزهار في ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

— بكاء حاراً. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموي في سنة ٤١٤ ابن شهيد وزيراً كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليكي كتب للخليفة المستكفي بعد ابن برد في نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر في الأشهر التي تولاها ثم كتب فترة للمستكفي بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حياً حتى توفي بسر قسطة عن ثمانين عاماً سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة في الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبي أميرها وهبته لقصاده أموالاً عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه في جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه في عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف في شئونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله في دواوين الخلفيتين الأمويين: المستظهر والمستكفي. ومن المؤكد أنه ل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلبي أمير دانية (٤١٢-٤٣٤هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حن إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه عليه قصيدة كي يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبي الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومرت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه

يؤثر المقام بالمرية عند أميرها معن بن صمادح (٤٣٢-٤٤٣هـ) الذي عرف له فضله، فاتخذته وزيراً له، وغليه قدم ابن برد كتابه: "سر الأدب وسبك الذهب" وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخرجه كما مر بنا، وأثنى ثناء غامراً على معن بن صمادح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمن الكتاب رسائل السلطانية والإخوانية وطرز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته في ظل هذا الأمير، ويقول الحميدي في الجذوة إنه رآه في المرية مراراً بعد الأربعين وأربعمئة، ولا ندري هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صمادح (٤٤٣-٤٨٤هـ) أو أن القدر لم يمهل حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فغنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلاً:

"كان أبو حفص بن برد الصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفتفيها بسحره، وأقام من أودها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره". وأتبع ذلك بفصول من تجميعاته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره في النسيب وغيره، وألحق أديب بترجمته في الذخيرة من قديم ثلاثاً من رسائله الأدبية في: السيف والقلم، والنخلة، وأهب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائع العقم (التي لا مثل لها) المستنزلة للعصم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرى أن نلم بها في إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم:

كتب ابن برد هذه الرسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معا فهما مثل جوادين سبقا في حلبة أو غصنين نُسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، غير أنهما جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدل والخصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال. وبدأ القلم فقال:

(ن وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ) فجَلَّ من مُقْسَم وعَزَّ من قَسَم، لقد أخذت الفضل بِرُمَّتِهِ، وَقُدَّتْ الفخر بِأَزْمَتِهِ. فقال السيف: عُدْنَا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أَسِرَّ ولكن أَعْلِنُ، قيمة كل امرئ ما يُحْسِنُ، إن عاتقا حَمَلَ نِجَادِي (حمائل سيفي) لسعيد، وإن عَضَّدَا بات وسادي لسديد، أفصح والبطل قد خَرَسَ، وابتسم والأجل قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أَبْلَجُ (مضئ) والباطل جَلَجَجُ (أعرج) أَجْلِبُ الغنى من ضُرُوعِهِ، وَأَجْتَنِي الندى (الجود) من فُرُوعِهِ، وهل أنا إلا قُطْبُ تدور عليه الدول، وجوادٌ شَأُوهُ (شَوَّطُهُ) يدرك الأمل، شفيح كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يا لله! استنتت الفصال (أولاد النوق) حتى القَرَعَى^(١)، وربَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدَةِ^(٢). لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة، وانتفاضا بجناح كسيرة، أُمْسَتَعَرَبَ (دخيل في العرب) والفلسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستئنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عَدَّتْ حاكتهما أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخيل. والراعدة: السحابة. والصلف: قلة المطر أي أنها مَنُوعٌ مع كثرة ما تحمل من المطر.

الملوك لتبادر إلى دَرْكِى، وللتحاسد في ملكي، وللتوارثي على النسب، والتغالي في على الحسب، فَتَكَلَّلْنِي (فتتوجني) المرجان، وَتُنْعِلْنِي الْعِقيان^(١)، وتلحفني بحمائل كخمائل. فقال القلم: أَسْتَعِذْ بِقَالِهِ مِنْ خَطْلٍ أُرْعِيَتْ فِيهِ سَوَامِك (إيلك) وَزَلَلِ افْتَتَحَتْ بِهِ كَلَامِكَ، إِنْ اِزْدَرَأَكَ بِتَمَكَّنٍ وَجَدَانِي، وَبَخْسٍ أَثْمَانِي، لِنَقْصٍ فِي طِبَاعِكَ، وَقِصْرٍ فِي بَاعِكَ، لَا وَإِنْ الذَّهَبُ مَعْدَنُهُ فِي الْعَفْرِ (التراب) وَهُوَ أَنْفُسُ الْجَوَاهِرِ، وَالنَّارُ مَكْمَنُهَا فِي الْحَجَرِ، وَهِيَ إِحْدَى الْعُنَاصِرِ، وَإِنْ الْمَاءُ - وَهُوَ الْحَيَاةُ - أَكْثَرُ الْمَعَايِشِ وَجِدَانًا، وَأَقْلَهَا أَثْمَانًا، وَقَلَمًا تُلْقَى الْأَعْلَاقُ النَّفِيسَةُ إِلَّا فِي الْأَمَكْنَةِ الْخَسِيسَةِ. فقال السيف: جَعَّحَعَةً زَحَى لَا يَتْبَعُهَا طِخْنٌ (دقيق) وَجَلَجَةً رَعْدٌ لَا يَلِيهَا مُزْنٌ، وَجَهَ لُئِيمٌ، وَجَسَمٌ سَقِيمٌ، وَدُمُوعٌ سِجَامٌ، كَأَنَّهُنَّ سُخَامٌ (فحم) فَهَبٌ مِنْ نَوْمِكَ، وَأَفْطَرٌ مِنْ صَوْمِكَ، إِنْ لَوْ انْتَضَيْتَ (سُلِلْتَ) وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَمْ يَنْظُرْ وَقْتُ تَجَلِّيْهَا^(٢). أَوِ السُّنُونُ مَجْدِيَّةٌ أَيْقَنَ بِالْحَيَاةِ (بِالغَيْثِ) رَاعِيَهَا. أَكْرَعُ (أَشْرَبُ) يَوْمَ الْوَعَى فِي لَبَّةِ الْبَطْلِ (أَعْلَى صَدْرِهِ) فَأَعُودُ كَالْخَدِّ كَسَى صَبَغَ الْخَجَلِ".

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَشْنِ أَحَدُهُمَا كَهَامَا (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلين إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرق آراؤنا وقد جمعنا الله ي المألف الكريم، وقال القلم إن مما نبرم به عَقْدُنَا، وَنَنْظِمُ عَقْدُنَا إِنْ حَالَتْ حَالٌ، وَكَانَ لِلدَّهْرِ انْتِقَالٌ، أَنْ نَخْطُ كِتَابًا مُصَيِّبًا، يَكُونُ لَنَا مَنَابَا وَعَلِينَا رَقِيْبًا، فَقَدْ يَدْبُ الدَّهْرُ بِعَقَارِبِهِ، بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَقَارِبِهِ، وَاخْتَارَ الْقَلَمُ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ شِعْرًا، لِأَنَّهُ شَدُوُّ الْحَادِي، وَزَادُ

(١) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

(٢) يشير إلى كثرة الغبار في الحرب حين تسلل السيوف وتكر الخيل.

الرائح والغادي. وسجله في قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر في تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين في لساني الخصمين المتناظرين، إذ مازال يؤلف لكل منهما حججا ^{يدلى} بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعي أن لا ننقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجتزأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد في توليد الأفكار والبراهين وفي صوغ الكلام وحوكه حياكة نمرج بالعدوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

(ب) رسالة النخلة:

هي رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه في العام الفارط على كتمانها ل^{رطب} نخلة، وهي ^{تعد} بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من ^{جناها} قليلاً، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه في العام المقبل إن شاء الله يكون غل^{تكم} وعتادا نفيسا لكم وذخرا حبسًا عليكم، ويمضي ابن ^{برد} قائلاً له:

"رسمنا تلك ^{العدة} في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها ^{حفظه} خواطرننا، أما أنت ^{فهل}ت عليها التراب، وأسلمتها إلى يد ^{البلى}، حتى إذا أخذت النخلة ^{زخر}فها وأز^{ينت} زيتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر ^{صبغها}، وأحكمت الشمس ^{نصبجها}، جنيتها على حين نام ^{السمار}، وغفلت الجارة ^{والجار}، وأبت بها إياه الأسد بفريسته.. ولما رأينا طائع ^{الرطب} في الأسواق، والجنى من بواكير النخيل على الأطباق، هزت جوانحنا ذكرى

العِدَّة، وقلقل أحشاءنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمَتِكَ^(١)، وجعلنا نسرع طمعا في لقائك".

ويذكر ابن بُرد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى محلَّته لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا في جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَر المشهورة على الخليج العربي بتمرها عن مثلها، ولا آوت قماريُّ (حَمَام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرد:

"قال الفتى يا لإخواني في الخيبة أنا ساكنٌ في المحلة التي مَنَّبَتْ هذه النخلة في ساحتها وقد صَرَمَهَا (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرَمِها أَمْنَحُهَا نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتْ الطيرُ وهي على سَعَفِها ما أوصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زَفَرَاتِي، رمتني بأفراد من رُطْبِها أَحَلَّى من شفاة العَدَارِي، وأنا اليوم أبكى رَبْعًا خاليا".

ويتجه ان برد بالحديث إلى صاحبه قائلاً: ما هذا الخيانة للعهد، ويسأله شيئاً مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصروا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئاً من كلام العرب في النخل وبدء نباته والبلح وتلَوْنَ حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولِّد عَقِيم جوده، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "نعمت العمة لكم النَّخْلَةُ" ويقول: "ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختتم الرسالة بقوله: "نستغفر الله ونسأله أن

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحبة أو حق.

يبدلنا من بخلك نوالا، وبمطلق إعجالا". وهي رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة في التعبير.

(ج) رسالة أهب الشاء:

سَمي ابن برد هذه الرسالة: "البديعة في تفضيل أهب (جلود) الشاء على ما يُفترش من الوطاء" وهو فيها يردُّ على من لأمه على استخدام أهب (جلود) الشاء في الجلوس شتاء وصيفا دون وطئ الفرش ورافها من قطع البسط والسجاجيد والحشايا. وهو في فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرفه بركة التواضع وينفِّره من الكبر، ويطلب في المقدم، ثم يقول للأئمة:

"عَبْتَنِي - أعزَّك الله - بارتخاص الأشياء في الشراء، وقلت لم تؤثر ذلك إلا للؤم الخليفة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفس الحريص إلى الرخيص.. وسأفسح للكلام ميداناً، وأنثر عليك من الألفاظ مُرجانا، وأعاطيك من سلاف (خمر) المعاني أَكْوَاباً، وأُشْمَك من روض البيان أساً.. جَلَّ ماله عبَّ وفيه قلت ورددت، وبه أبدأت وأعدت، من إثاري في الصيف والشتاء أهب (جلود) الشاء، ومُراوحتي منها في البرد والحر، بين البطن والظهر. وأى بساط مثلها أدل على التواضع وأعرب عن القناعة وأدفاً في السبرة (الغداة الباردة) وألين في المس وأخف في الحمل وأمكن للنقلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلف التبتين ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خياط ينازلك في السوم (الثلث) ويحجلك أمام القوم، وينتج جبينك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذلل التكرار عليه،

وهو متبجّج^(١) (متمكن) في دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتُشمت العدو بنفسك، وتبدي ما كان مستورا من حالك، وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوجنة، إن قلبتها لظهورها شتوت على وثارة^(٢)، أو صرفتها لبطونها ضفت في لدونة^(٣).

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها في الأضحية تقربا إلى ربه وطلبا لكریم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المئونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه في تنزيله ذبحا عظيما. ويقول لصاحبه إن الصوف زي النسك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرفق والأرخص والأوفق. ويختتم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائبه أن لا يستقبل بالذم من يفتريها مغتبطا بها، إذ لا يفتريها إلا الشيوخ الجلة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

"لا تجد مفترشا لها إلا شيخا رائعا الوسامة، أبيض الشعر، أنس إخوانه، وحلس (ملازم) أسطوانه^(٤)، قد حفظ المسائل وملا من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفديه الجارات والجيران، ويتنافس في حضوره أيام الزفاف، ويختص بصدور المجالس وطيبات الصحف، أو معلما.. قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقطع أكبادها، يقعد عنده الوراقون، ويتحاكم إليه في الخطوط

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطئ الناعم.

(٢) يريد أنه عالم يلزم عمودا في المسجد يلقي محاضراته عنده ويتحلق حوله الطلاب لشهرته.

الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قَلَنَسَاتُهُ^(١)، ووالى الزيارة بِمَنَسَاتِهِ^(٢)، وسار مُهَيَّنًا^(٣) بتسبيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشَّ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك".

والرسالة تصور قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه في استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهي تدل على فضيلتي التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. ومما يميزها دفع فروتها في الشتاء القارس، وليونتها في المسِّ وخفتها في الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هي لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أو السجادة في أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجئ إنجازَه لما يراود منه من تبطين أو ترقيع، ويظل صاحب الحشية أو السجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقاً من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد في ذلك متعة له. وهي صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد يثره لما يعمه من نقاء في اللفظ وصفاء وعدوبة.

(١) قلنسات: جمع قلنسوة.

(٢) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعي يهش بها على غنمه.

(٣) مهيناً: هامساً.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية:

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل في الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا في حياته، أولهما تبادله في شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي واتصال هذا الحب بينهما فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغالته إحدى جواربها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعاً. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلاً، وكَلَفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُتَنَدَاها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثاني الذي كان له تأثير في حياته، هو سخط أي الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزج به في غياهب السجون مما جعله يستعطفه مراراً إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبي الوليد، وفي استعطافه كتب رسالته الجدية، وجرى بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعاً: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة^(١) الهزلية:

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في حبها متهمًا به ساخراً منه سخريات لاذعة، وما يمضي القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي سخر فيها من كاتب معاصر له

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها في كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها في كتاب: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون في ترجمته بالفصل الماضي.

يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدور، وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صوراً ساخرة من الجمال وصوراً أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة وفي العلوم كيمياء وغير كيمياء وفي الحيوان والجماد وفي الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عرباً وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه في رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا في طريقة عرضه لأسماء الرجال بها فحسب، بل أيضاً بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر الأبيات وجلب الأشتار، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنشورة، وتجرد لذلك ابن نباتة في شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

"أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلظه، العاثر في ذيل اعتراه، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب (الضوء).. وإنك راسلتنى مستهدياً من صلتى ما صفرت (خلت) منه أيدي أمثالك، مرسلًا خليلتك مرتادة وقد أعذرت (جهدت) في السفارة لك، وما قصرت في النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه (مادته) قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك (باراك في الحسن) فغضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت

عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنّزت، وكسرى حمل غاشيتك (مظلتك) وقيصّر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك".

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالاً وأعلاماً تاريخيين عديدين، مدعياً أن جميعهم تصرّفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجذيمة الملك العربي الجاهلي. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بواران فيه وفي حسنه، وكلّيبا إنما حمى حمّاه بعزته، ومهلها أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْك بن السُّلَكة العداء الجاهلي غنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظه، والمهلب القائد الأموي إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعدهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذي أقام البراهين ووضع القوانين وحدّ ماهية الأشياء وبيّن الكيفية والكمية وناظر في الجوهر والعرض وفرّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معدداً صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيئ الإجابة الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، متتن الأنفاس، كلامه متممة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتباط به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سقر، وأين هو من ولادة؟ إن

الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتتوعده بسوء المصير حتى كأنها يطلب حَتْفَه، ويقول له على لسانها مقارناً في سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابغ الشباب الأفاذا.

"النارُ، ولا العارُ، والمنية، ولا الدنية، والحرّة تجوعُ ولا تأكل بثدييها، وما كنت لا تحظى المسك إلى الرماد، فغنما يتيمّم من لم يجد ماءً.. ولعلك إنما غرك من علمت صَبَوْتِي إليه وشهدت مُسَاعَفَتِي له من أقمار العصر، ورِيحانِ مصر، الذين هم الكواكب علوّهم، والريّاض طيب شيم.. ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالو شَيْظَة (التتوء) في العظم منهم. وإن كنت إنما عَطَّتْ أَرْدَانَكَ (أَكْمَامَكَ) وجَرَرْتَ سِرْوَالَكَ، واختَلَّتْ في مِشْيَتِكَ، وحذفت فضول حِيتِكَ، وأصلحت شارتك، ومططت حاجبك، ورققت خطّ عِذارِكَ، واستأنفت عقد إزارِكَ، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا في الاعتداد منهم، فظننت عَجْزاً، وأخطأت الغرض".

وتنضي ولادة قائلة لابن عبدوس في سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرْدِيَه وحَلَّتَه مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقرطين اللذين أهدتهما إلى الكعبة، وقلده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل في الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكّت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خَلْتَان سيّتان: كأردأ التمر وسوء كَيْلِه وهل يقترن عليها به إلا ما اقترن على عامر بن الطفيل الذي دعا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فاقرنت غُدّه في رقبته بموته ميتة ذليلة في بيت سلُولِيّة. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرًا دقيقًا فلا يكلف نفسه ما لا تستطيعه،

حتى لا يكون مثله مثل الكلبة بَرَّاقِش التي غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلَّتْهم، وضرَبَ العرب بها المثل في الشُّوم، فقالوا "دَلَّتْ على أهلها بَرَّاقِش". ويختم ابن زيدون الرسالة قائلاً على لسانها: "قد أعذرتُ إن أغْنَيْتُ شَيْئاً، وأسَمَعْتُ لو ناديتُ حَيًّا، وإن بادرتُ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يُؤيسنك من مخدرة
قَوْلٌ تغلظه وإن جرحاً^(١).

فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه بعثت من يزعجك إلى الخضراء (الريف) دفعا ويستحثك نحوها وكزاً (ضرباً) وصفعاً، فإذا صرت إليها عبثت أكأروها (فلأحوها) بك، وتسَلَطَ نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك".

وبدون ريب بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح في يده كلُّ عَبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حالق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو في كل ذلك يزدرى عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيئته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق في السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامي وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربي، وكأنه هو الذي نفث فيهم كل ما

(١) البيت لبشار.

امتازوا به. واستكثر في الرسالة من الأمثال ومن نشر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضًا بالألفاظ الجارحة الموجعة المملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة^(١) الجديدة:

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به في غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عيه عند جهور من اشتراكه ضده في مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبج له هذه الرسالة الرائعة مستهلاً لها بقوله:

"يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاك الله ماضي حَذِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتني - أعزك الله - لباسَ إنعامك، وعطَّلتني من حَلِي إيناسِك، وأظمأتني إلى برود (بارد) إسعافِك، ونَفَضْتُ بي كفَّ حياطتك (رعايتك) وغضضت عني طَرْفَ حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك، وأَحَسَّ الجهادُ باستنادي إليك، فلا عَزَوَ قد يَغْصُ بالماء شاربه، ويَقْتُل الدواءَ المستشفَى به، ويؤْتِي الحَذِرُ من مَأْمَنِهِ.. وإني لأَتَجَلَّدُ وأُرى الشَّامِتِينَ أَنِي لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ، فأقول: هل أنا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاها سِوَارُها، وَجَبِينُ

(١) انظر في هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدي لها في كتابه: "تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون".

عَضَّهُ إِكْلِيلَهُ، ومَشَرَفِي الصِّقَّة بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ، وَسَمَّهَرِي^(١). عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفَهُ..
وهذه النكبة سحابة صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ، وَلَنْ يَرِيَنِي - مِنْ سَيْدِي - أَنْ أَبْطَأَ سَيْبَهُ
(عَطَاؤُهُ).. فَأَبْطَأَ الدَّلَاءُ فَيَضًا أَمْلَوْهَا، وَأَثْقَلَ السَّحَابُ مَشْيًا أَحْفَلَهَا (أَمْلَوْهَا) وَأَنْفَعُ
الْحَيَا (الغَيْثُ) مَا صَادَفَ جَدْبًا، وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلًا".

وابن زيدون - في مطلع رسالته - يسترحم جهور صا مستعطفًا، فطالما أثنى عليه
وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابًا أليًا. ويتجلد للنكبة، ويحاول
أن يسرى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدمها سوارها أو جبين عضه تاجه أو سيف ركزه
صاقله في الأرض أو رمح سواه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف
ستنجلي ويعود غلى سماء الود الصَّخْو والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومديحه
أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضا أغزرها وأثقل السحاب مسيرة في السماء أملؤها، وأنفع
الغيث ما صادف أرضا مجدبة، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهبون من
ذنبه مخاطبًا جهورًا بقوله:

"لَيْتَ شِعْرِي مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعَهُ عَفْوُكَ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ
حِلْمُكَ.. وَمَا أَرَانِي إِلَّا أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ فَأَيُّتِ وَاسْتَكْبَرْتُ، وَقَالَ لِي نُوحٌ: أَرْكَبْ
مَعَنَا فَقُلْتُ: (سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)، وَأُمِرْتُ بِنَاءِ الصَّرْحِ (لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى
إِلَهِ مُوسَى) وَعَكَفْتُ عَلَى الْعَجَلِ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ، وَتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ، وَشَرِبْتُ
مِنْ مَاءِ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُنُودُ طَالُوتَ، وَعَاهَدْتُ قَرِيشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ،
وَانْخَذَلْتُ بِثَلَاثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَجِئْتُ

(١) المشرقي: السيف. السمهوري: الرمح.

الإفك على السيدة عائشة الصّديّقة، وأنفّت من إمارة أسامة، ومزّقت الأديم^(١) الذي باركت يدُ الله عليه، وضحيّت بالأشمط^(٢)، ورجمت الكعبة^(٣).

وهو يقول كأنني اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلناً عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه في السفينة فكان من المغرقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بني إسرائيل حين عبدوا العجل^(٤) وحين اعتدوا في يوم السبت فصادوا فيه، أو جريرة عاقر ناقة صالح (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوت الذي حرّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة^(٥)..... من تعهدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبي بن سلول حين انخدل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أحد^(٦)، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول في بني قريظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا في حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابي الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رجم الحجاج للكعبة، إلى عظام أخرى ذكرها لا يعدّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشاء بنميم، ويشهد الله أنه ما غش جهورا

(١) بشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

(٣) راجع الكعبة الحجاج في حرّيه لابن الزبير.

ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح في عداد خاصته مما سَوَّلَ لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم ونهائمهم الدنيئة، يقول:

"كيف لا تتضرَّم جَوَانِحُ الأكفاء (النُّظَرَاء) حَسَدًا لي على الخصوص بك، وتتقطَّع أنفاسُ النُّظَرَاء منافسةً في الكرامة عليك؟ وكيف وقد زانني رَسْمُ خدمتك، وزهاني وَسْمُ نِعْمَتِكَ، وأَبْلَيْتُ البلاءَ الجميل في سباطك (صَفَّكَ) وقمتُ المقامَ المحمودَ على بساطك.. وهل لَيْسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتَهُ بفضائلك، وتقلَّدتِ الجوزاءُ إِلَّا عِقْدًا فصلَّته بمآثرِكَ، واستَمَلَى الربيعُ إِلَّا ثناءً ملأته بمحاسنك، وبَثَّ المسكُ إِلَّا حديثًا أذعته في محامدك؟. ما يومٌ حلِمةٌ بِسَرٍّ. ولم أَكْسِك سَلِيبًا، ولا حَلَيْتِكَ عَطْلًا، ولا وَسَمْتِكَ غُفْلًا بل وجدتُ أَجْرًا وَجِصًّا فَيَنْيْتُ، ومكانَ القولِ ذا سَعَةٍ فَقُلْتُ. حاشَ لك أن أَعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذَّبالَةِ المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بك، وبِي فِيك، أُولَى".

وهو يقول لجمهور إنه من الطبيعي أن تضطرم جوانح النضرء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتي منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل في صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خلع مدائح المضيئة بفضائلك، وعقود ثنائي المنظومة بدرر مآثرِكَ، ولكأنما عطر الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حلِمة بسر أي أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سلبيا أو عاريا فكساه ولا عطلا غير مزدان فحلاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد أجرا وجِصا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجمهور أن أعدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل:

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً) وأيضاً حاش لجمهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعَزُّ على ابن زيدون نفسه فيقول إنه لن يصبر على الذل والهون، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُخْفَى في أي مكان ينزل به فأينما توجه ورد أعذب منهل وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبى على أهله. وكأنه يلّمح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهداً نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أي وطن كما لا يؤثر على أبي الحزم جمهور أي أمير، يأخذ في استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

"إن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، والليب يحن إلى وطنه حين النجيب (البعير) إلى عطنه (مبركه) والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله (داياته) ولا ينسى بلداً فيها مراضعه. هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك، ومنافستي في الحظ من قربك، واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع (دناءة) والغنى من سواك عناء، والبدل منك عوز (فاقة) والعوض لقاء (خسة). وما هذه البراءة ممن يتولأك؟ والميل عمن لا يميل عنك، وهلاً كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك".

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجمهور: "هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، ليتأتى لك الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل من طرقاته". والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية في عهود الرسل وفي الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حل كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة

الحسّ وصفاء الذوق في انتخاب ذلك كله وفي اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقاً بديعاً. ولكثرة ما في الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدي، وسمى شرحن "تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون" ووضح من كلمة المتون التي اختارها اسماً لكتابه أنه شعرٌ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهي - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسي.

رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها:

ابن غرسية^(١). هو أبو عامر أحمد بن غرسية، كان من أبناء نصارى البشكنس في شمالي إسبانيا، سبى صغيراً - كما يقول ابن سعيد - وأدبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط شرقي الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦هـ) وكان مجاهد من فتیان المنصور بن أبي عامر الصقابة الذين دان لهم شرقي الأندلس في أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسي في العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر في مقاله عن

(١) انظر في ابن غرسية ورسائله الذخيرة ٣/ ٧٠٤ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٢/ ٤٠٦ وبحث لجولدتسيهر عن "الشعوبية عند مسلمي الأندلس في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١-٦٢٠ (طبع ليبزج) وتاريخ الأدب الأندلس عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٥/ ١٤١ والمجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولدتسيهر المذكور. وراجع في أبي جعفر أحمد بن الجزار الذي كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٢/ ٣٥٥-٣٥٦.

الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان في خدمة المعتصم ابن صَاحح التجيبي أمير المرية (٤٤٢-٤٨٤هـ)*. وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبي عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صَاحح كما ظن جولد تسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبي جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصنيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذي أنشده ابن سعيد في ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خطاب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتباً له لتركه مدح مجاهد (الصقلي أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صَاحح التجيبي (العربي) الذي كان أميراً للمرية في حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ وهو معن بن صَاحح مؤسس دولة الصمادحية بالمرية (٤٣٢-٤٤٣هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل في الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فقرها قوله:

"سلام عليك ذا الرُّوى المَرُوى الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمين^(١)،
 بزهد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما أجاؤك إلى الخبط في الآل^(٢)، مه، مه^(٣).
 من أحوجك إلى ركوب المهمة^(٤) وإذا يمت بطن تبالة تتباله، وصرت ضغثاً على
 إبالة^(٥).. وأحسبك أن أزرّيت، وبهذا الجيل النجيب (يقصد مجاهد أو الصقالبة)

(١) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهي بجوار المرية. أرش هنا: اقليم.

(٢) الآل الأولى: الأهل والصل. والثانية: السراب.

(٣) مه: كَفَّ.

(٤) المهمة: الفلاة.

(٥) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير على أصل السرة الصمادحية التجيبيية اليمنية. ضغث على إبالة: مثل

ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْبُ ليسوا بعرب، ذوي يَنْقُ جُرْب، بل هم
 القياصرة الأكاسرة، بِهِمْ لَا رُعاة شُويْهَاتٍ وَلَا بِهِمْ^(١)، شُغِلُوا بِالْمَازِيِّ وَالْمُرَّانِ، عَنِ رَعَى
 الْبُعْرَانِ^(٢)، وَبِجَلْبِ الْعِزِّ عَنْ حَلْبِ الْمَعَزِّ، جَبَابِرَةٌ قِيَاصِرَةٌ، صُقُورَةٌ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ شُقُورَةٌ،
 صُقُورَةٌ الْخُرْسَانِ^(٣)، لَكِنْهُمْ خَطْبَةٌ بِالْخُرْصَانِ، أُرُومَةٌ رُومِيَّةٌ وَجَرِثُومَةٌ صُفْرِيَّةٌ.. فَلَا
 تَهَاجِرُ بَنِي هَاجِرٍ، وَأَنْتُمْ أَرْقَاؤُنَا وَعَبْدَتُنَا، وَعَتَقَاؤُنَا وَحَفْدَتُنَا، مَنْنًا عَلَيْكُمْ بِالْعِتْقِ،
 وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ رَبْقِ (كرب) الرِّقِّ، وَأَلْحَقْنَاكُمْ بِالْأَحْرَارِ فَغَمَطْتُمْ النِّعْمَةَ، فَصَفَعْنَاكُمْ
 صَفْعًا، يَشَارِكُ سَفْعًا، وَاضْطَرَّكُمْ إِلَى سُكْنَى الْحِجَازِ وَأَلْجَأَكُمْ إِلَى ذَاتِ الْمَجَازِ^(٤). وَإِذَا
 قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ، وَأَخَذْتَ فِي اتِّسَاقٍ، وَقُرِعَتِ الظَّنَائِبُ، وَأُشْرِعَتِ الْأَنْيَابُ،
 وَقَلَّصَتِ الشُّفَاهُ، وَفُغِرَ الْهُدَانُ فَاهُ، وَوَلَّى قَفَاهُ، أَلْفَيْتَهُمْ ذِمَّةَ النَّاسِ^(٥) عِنْدَ أَحْمَرَارِ الْبَاسِ،
 الطَّعْنَُ بِالْأَسْلِ، أَحْلَى عَنْدهُمْ مِنَ الْعَسَلِ، تَزْدَانُ بِهِمُ الْمُحَافِلُ وَالْجَحَافِلُ، كَوَاكِبُ
 الْمَوَاكِبِ، قِيُولٌ عَلَى خِيُولٍ، كَأَنَّهُمْ فَيُولٌ، نَجُومُ الرَّجْمِ مِنَ الْعِجْمِ، ضِرَاطُ الْأَجْمِ،

بضرب للبلية فوق البلية.

(١) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بهم: بضم الباء

فرسان حرب، وبفتحها صغار الغنم.

(٢) الماذي: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعير.

(٣) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة

لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أي الرماح.

(٤) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبي إسماعيل أصل العرب عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لطمًا على

الوجوه. ذات المجاز: سوق في الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٥) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنايب وأشرعت الأنابيب. الهدان:

الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

تَبَجِّحَتْ عَنْهُمْ سَارَةَ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ، رَبَّةُ الْإِيَاةِ^(١).. دَوَّخُوا الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ،
 فَاسْتَوْتُونَا مِنَ الْمَجْدِ الذَّرْوَةِ وَالْغَرْبِ غَنُّوا بِالْإِسْتَبْرَقِ (الحرير) عَنِ الْبَتِّ (الكساء)
 الْمَجْمُوعِ مِنَ النَّعِيجَاتِ طَعَامَهُمُ الْحَنِيدَ (اللحم المشوى) لَا أَهْبِيدَ (الحنظل) بُسْلَ
 (شجعان) لَا حُرَّاسَ مُسْلٍ (جريد النخل) وَلَا غَرَّاسُ فُسْلٍ (صغار النخل).. فَكَفَّ
 أَيْهَا الشَّانِ، فَلَهُمَّ عَظِيمُ الشَّانِ وَالْيَدُ الطَّوْلَى إِذْ تَخْلَصُوكُمْ مِنْ يَدِ الْخُبْشَانِ.. رَسَخَتْ فِي
 الْمَجْدِ أَصُولُنَا وَفُرُوعُنَا، وَمَنْ يَطُولُنَا، وَكُلُّ الْوَرَى قَدْ شَمَلَهُ فَضْلُنَا وَطَوَّلُنَا^(٢)، ذُووِ
 الْأَرَاءِ الْفَلَسْفِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْمُنْطَقِيَّةِ حَمَلَةَ الْأَسْتَرَلُومِيَّةِ وَالْجُومَطَرِيَّةِ، وَالْعَلَمَةِ
 بِالْأَرْتَمَاطِيَّةِ وَأُنُولُوطِيَّةِ وَالْقَوْمَةِ بِالْمُوسِيقَى وَالْبُوطِيَّةِ^(٣)، وَالنَّهْضَةِ بِعُلُومِ الشَّرَائِعِ
 وَالطَّبَائِعِ، وَالْمَهَرَةِ فِي عُلُومِ الْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانِ، مَا شَتَّتْ مِنْ تَدْقِيقٍ، وَتَحْقِيقٍ، حَبَسُوا
 أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ لَا عَلَى وَصْفِ النَّاقَةِ الْفَدْنِيَّةِ (الضخمة).. فَلَا فخر
 مَعَشرَ الْعُرْبَانِ الْغُرْبَانِ، بِالْقَدِيمِ الْمَرَى الْأَدِيمِ^(٤)، لَكِنِ الْفَخْرُ بَابِنِ عَمَّنَا (يريد الرسول
 صلى الله عليه وسلم)، الَّذِي بِالْبَرَكَةِ عَمَّنَا، الْإِسْمَاعِيلِي الْحَسْبِ، الْإِبْرَاهِيمِي النَّسَبِ

(١) الْجَنَاحُفَلُ: الْجِيُوشُ الضَّخْمَةُ. قُيُولٌ: جَمْعُ قِيلٍ: مَلِكٌ. الرِّجْمُ: الشَّهْبُ: يَتَسَاقَطُونَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِثْلَهَا.

الْأَجْمُ: جَمْعُ أَجْمَةٍ غَيْلِ الْأَسَدِ وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْمُلْتَفَّةُ. تَبَجَّحَتْ عَنْهُمْ: وَلَدَتْهُمْ فِي عِزَّةٍ وَسَارَةٍ زَوْجَةِ النَّبِيِّ
 إِبْرَاهِيمَ أُمِّ اسْحَقَ. الْإِيَاةُ هُنَا: الْحَسَنُ.

(٢) الْغَابُ: الْكَاهِلُ يَرِيدُ مَا دُونَ الذَّرْوَةِ. الشَّانُ الْأَوَّلَى: الشَّانِي: الْمُبْغِضُ الْحَاقِدُ. الطَّوْلَى: سَابِغَةُ النِّعَمِ.
 وَيُشِيرُ: بِالْخُبْشَانِ إِلَى حُكْمِهِمُ الْيَمَنَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. يَطُولُنَا: يَفُوقُنَا. الطَّوْلُ: الْفَضْلُ.

(٣) الْأَسْتَرَلُومِيَّةُ: عِلْمُ الْفَلَكَ. الْجُومَطَرِيَّةُ: الْهَنْدَسَةُ. الْأَرْتَمَاطِيَّةُ: الرِّيَاضَةُ. أُنُولُوطِيَّةُ: الْفِيَّاسُ
 الْمُنْطَقِي. الْبُوطِيَّةُ: الشَّعْرُ.

(٤) الْمَفْرِي الْأَدِيمُ: الْمَمْرُوقُ جِلْدُهُ.

الذي به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من الغواية والعماية، ولا غَرَوُ أن كان منكم جِبْرَه وسِبْرَه، ففي الرَّغَامِ يُلْقَى تَبْرَه^(١). وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

"لله مما قد برا صفوة^١ وصفوة الخلق^٢ بنو هاشم

وصفوة الصوة^٣ من بينهم محمد^٤ النور^٥ أبو القاسم

بهذا النبي الأمي^٦ أفاخر^٧ من يفخر، وأكثر جميع^٨ من تقدم وتأخر، المنيف^٩ (الرفيع) الطرفين، الشريف السلفين^{١٠}، المتلقي بالرسالة، والمتقي للأداء والدلالة، أصلى^{١١} عليه عدد الرمل^{١٢}، ومدد التمل^{١٣}، وكذلك أصلى^{١٤} على واصل جناحه، سيوفه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام^{١٥}."

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبي جعفر بن الجزار الذي يقف قريضه وشعره على نزلة بجاية والمرية بإقليم اليمن في شرقي الأندلس مختصاً به عرب السرة الصمادحية أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلي ذي الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ في التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، ويمم وجهه نحو تباله اليمنية، فتباً له لقد اصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن يزري ابن الجزا على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به وبقومه الصهب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوي نوق جرب^{١٦}. ويضم إليهم العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام

(١) الغواية والعماية: الضلال. جِبْرَه وسِبْرَه: حسنه وبهاؤه. الرَّغَام: التراب. التبر. فئات الذهب.

ولا غارسوا زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغل ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية، وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطيل في الحديث عن فروسية العجم وبطولتهم في الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهي وربات الأقرات أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الخنظل ولا الضب، وسكناتهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأم العجم سارة ويتغنى بجمالها وكمالها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن غرسية في كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية في القرن الثاني والثالث بالعصر العباسي، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحناها في كتاب العصر العباسي الأول - أنهم كانوا في الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقيصرة؟ وأين هم من علوم الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون في ذلك عن بغض للإسلام، ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد في الدين الخفيف. وشعوبية ابن غرسية في رسالته لا تقترن بالإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبي ذميم يعلن في نهاية رسالته تمجيده للرسول صلى الله عليه وسلم ولصاحبه.

وليس بين أيدينا في الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة لابن غرسية، وحقا هناك كتاب **صُنّف** قبلها **سُمّي**: "الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة". ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية في الأندلس كانت نزعة فردية، ولم تتحول - كما تحولت في القرنين الثاني والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية **تُشعلها** حتى انطفأت، بل لقد أطفأها في هو نفسه في نهاية رسالته إذ أعلن تمسه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية، كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا في حديثنا عن تاريخ الأدب العربي بالعصر العباسي الثاني وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا **حمية** للعرب والعروبة. وفي الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن **من** الله القروي، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود **تدبج** في القرن السادس الهجري، منها رد لابن أبي الخصال باسم: "خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق". وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبي يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبي الحجاج يوسف البلوي المتوفى سنة ٦٠٤ إذ **سجّله** في موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبي يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبي جعفر^(١). أحمد بن الدودين البلسي، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسبب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كل مثلبة للعرب في رسالة ابن غرسية إلى محمدا لهم وكل محمدا للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

"اُخْصَأَ أَيُّهَا الْجُهُولُ المارق، والمردوُّلُ المنافق، ثكلتك أمك، حَبَّرْتَ بِحَبْرِكَ لذهاب خبرك، وَمَشَقَّتْ^(٢) في قرطاسك لمَشَقِّ رأسك، وما حقيقة جوابك على خَطَلِ خطابك إِلَّا سَلْبُكَ عن إهابك (جلدك) وَصَلْبُكَ على بابك، وَأَقْسَمَ بيارئ النَّسَمِ، وناشر الأُمَمِ من رُفَاتِ الرَّمَمِ.. لأُخْلِدَنَّ سَمَرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تَحْتَرِمَ بَزَنَارِكَ^(٣) وتلحق بأذيارك، مَالِك، وَمَقَرَّ آلِكَ، أَسْرَتِكَ الْأَرْدَلِينَ، وَعِزَّتِكَ الْأَنْدَلِينَ الصُّهْبِ (الحمَر) أَكَلَةَ الْحَيْفِ.. وأما فخرك برَبَّةِ الْإِيَاةِ (سارة) فياليتها حين ولدتك ثَكَلَتْكُمْ، فلقد سَرَبَلْتُمُوهَا عارا مجددا، وعصبتكم بها شَنَارًا (عارا) مَخْلَدًا، حين خَتَمْتُمْ^(٤) عن الكفاح، حَذَرَ الصَّوَارِمِ والرَّمَاكِ، فأسلمتم لَعْدَاتِهَا، من بَنَاتِهَا، كل طِفْلَةٍ رَدَّاحٍ^(٥)، جَائِلَةِ الْوِشَاحِ^(٦)،

(١) انظر في ترجمة ابن الدودين ورسائله الذخيرة ٣/٧٠٣ وما بعدها وراجع ترجمته في المغرب ٢/٣٢٢ ورسائله في مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى في أوساطهم تمييزاً لهم.

(٤) ختم: جببتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

ذات ثَغْرٍ كالأقاح، وَغُرَّةٌ كالصباح.. ووصفك قومك بأن ليسوا حَفَرَةً أَكْرَ^(١)، ولا حَفَزَةً عَكَرَ^(٢)، الله أَجَلُ الْأَكْرِ أَنْ يَحْفَرُوهَا، والعَكَرُ أَنْ يَحْفَزُوهَا، لكنهم حَفَرَةً جَحْشَان، وحَفَرَةً كهوفٍ وَغَيْرَان^(٣)، اتخذوها مَحَبًّا من قبائل الْعُرْبَان، وَمَلَجَأً من وَقَعِ الصَّوَارِمِ وَالْمُرَانِ، فَعَلَ الْخِزَانِ^(٤) واليرابيع والجُرْذَان. وأما وصفك قومك أنهم مُجَدٌّ، نُجْدٌ، فهيهات تلك صفات قومنا العرب أولى اللِّسَنِ والبيان والإسهاب في الصواب، والحكمة وفصل الخطاب، أُنْدِيتَهُم عِرَاضُ المنيَّةِ، وَأُرْدِيتَهُم بِيضُ المشرفية، وَلَبِثُوسُهُم مِضَاعِفَةُ المَازِيَةِ^(٥)، مجالسهم السُّرُوجُ، وريحانهم الوَشِيحُ^(٦)، مُنَاهِمٌ، تعجيل مَنَاهِمِهِمْ، أَسْوَدُ الْأَغْيَالِ^(٧)، حُمَاةُ الْأَشْبَالِ".

والرسالة الثانية عند ابن بسام في الرد على ابن غرسية رسالة^(٨) أبي الطيب عبد المنعم بن من الله القروى، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث في شرقها إلى أن توفي سنة ٤٩٣، وكان أديباً شاعراً، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستشارته، وكتب نقضا لها رسالة

(١) أَكْرَ: حَفَرَ.

(٢) عَكَرَ: إِبَلَ.

(٣) جَحْشَان: جمع جَحْشٍ. غَيْرَان: جمع غَارٍ.

(٤) الصَّوَارِمِ: السيوف. المُرَان: الرماح. الْخِزَان: أولاد الأَرَانِب. الْجُرْذَان: الفئران.

(٥) المشرفية: السيوف. المَازِيَةِ: الدروع.

(٦) الوَشِيح: الرماح.

(٧) الْأَغْيَال: جمع غِيلٍ: بيت الأسد.

(٨) انظر في ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة ٣/ ٧٢٢-٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر في رسالته المجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات لهرون.

سأها "حديثه البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية" وهي تمتد في الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له في مطالعها:

"أخبرني عنك أما كانت للعرب يصدُّ تشكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرَتْ نقيصتك؟ أما رفعت خسيستك؟ ألم تُربِّك فينا وليدا؟ ألم تتخذك بها تليدا؟^(١) ألم تُعَنِّ بتخريجك وتدرِّجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسلقتك^(٢) عقب اللكنة، حتى إذا اشتدَّ كاهلك، وقوى ساعدك، كفرت نعمتها لديك، ونثرت عصمتها من بين يديك.. وهات أرنا مفاخرك نرك مسأخرك، أنت صاحب الشَّهْبِ الصُّهْبِ أين أنت عن السُّمْرِ القُمْرِ^(٣)، البيض غُرًّا وِصفاحا^(٤)، الدُّعج عيونًا ورماحا، البلج^(٥) وجوها وسماحا؟ سعروا (أوقدوا) عليكم نار الحرب، بتلك الأينق الجرب، فكسروا أكاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحماءهم^(٦). وأخذوا نار صولتهم، ومحو آثار دولتهم، وطهروا الأرض المقدسة من أنجاسكم والمسجد الأقصى من أرجاسكم. ويحك بم أثرت (فضلت) وبمن كاثر (فخرت) أما استحييت مما انتحيت؟ هل هل كانت العرب إلا كنز عزٍّ وذخر فخر، وخبيئة ذخرها الله إلى الوقت

(١) تليدا هنا: مقبلا.

(٢) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.

(٣) القمر جمع أقمر: المشرق الوجه.

(٤) الصفاح: السيوف.

(٥) البلج: المشرقون.

(٦) أحماء: جمع حمى.

المحتوم ليختار منها صَفِيَّةً، وميَّزها ليميز منها حَفِيَّةً. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتة وَطَأَتُهُ، فسيحة خُطُوتُهُ، شديدة سَطُوتُهُ، لَبَقًا بتصرف القَنَاةِ بِنَائِهِ، بصيرا بمهيج الدارعين سنانه.. أليس شعاركم: الهرب، الهرب، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يَدْبَحُونَ البرَّ ذبحا، وَيَسْبَحُونَ البحر سَبَحا، حتى طَرَقَكم طارقُهم^(١) في هذا الطَّرَفِ، ورشقكم راشِقُهم في هذا الهدف، وملكوا أرضكم بساحتها، وأحاطوا بها من ناحيتها، سلبوها بأقطارها وحلبوها من أشطارها".

ويطيل ابن من الله في الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسياتهم، وما يزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى في العلوم. وبنوه بعلم العرب في الفلك والطب وبراعتهم في الغناء والموسيقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذي به بَزَّت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيهِ. والرد الثالث الذي ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب^(٢) لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا في الرسائل السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم في الصميم.

ومثل هذه الردود في الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة^(٣) أبي يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غثيث (لا خير فيه) أبق وقاح لثيم

(١) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.

(٢) انظر الذخيرة ٣/ ٧٤٦.

(٣) راجع في أبي يحيى بن مسعدة ورسائله المجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات لعبد السلام هرون.

الجدود. وبعد قَرع صَفاه، وصَفَع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًّا لهم أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشويه ويشوي العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهمهم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية يهودج سيدتها، إذ العلوم التي ذكرها إنما هي علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهمهم على موسيقاهم التي يندبون بها في نواحهم ويقصفون عليها في أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم في القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغرة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن في العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويناظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة في ختام الرسالة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية في الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسي، وكأنها شيء عارض أو كأنها حجر ألقي في بحر لجي للعروبة، فلم تترك أثرًا وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي كثرة تدل - دلالة بينة - على تعمق نزعة العروبة في الأندلس وأن

الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائماً بقوة، أما ما نقرؤه أحياناً عن عالم أندلسي أو أديب هناك من أنه كان شعوبياً فإنما كان يوصف غالباً بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ:

(أ) رسائل نبوية:

للأندلسيين كتابات كثيرة في مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم، على شاکلة كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صور فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطار فبثوا شكواهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمّنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ في تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجدل المتوفى سنة ٥١٥ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة

نبوية كتبها على لسان صديق صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقاً إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملاً في شفاعته، والحشر في عداد زممرته وجماعته، وفيها يقول ابن الجدي: (١)

"صلوات الله على خاتم الرُّسل وناهج السُّبل، وناسخ جميع الملل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُربى على عدد النجوم، ويُرَى بالمسك المختوم، ويقتضى باتصاله رضا الحى القيوم.. ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيتني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوارحي التهاباً، وأوسع جوارحي اضطراباً، وأشعر أمل عوداً إلى محلك المعظم وإياباً، وكيف لا أحن إلى قربك، وأتهالك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، وكيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعي، وإليك مفزعى يوم الداعي، فلا تنس لى - يا رسول الله - عيادي بك ولياذي، واذكرنى في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلك الممدود، ومقامك المحمود".

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرم في قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملى بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرم شوقه من جديد لينعم بزيارته آملاً أن يكون له حظ في شفاعته صفى الرحمن وحبيبه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسته أن لابن السيد البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالمثل ذكر ابن

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجدي في الذخيرة ٢/ ٢٨٦.

خير أن لابن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلاً إلى قبر الرسول ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزماني (المقعدين) آملاً في شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وبركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخسه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن^(١) الجياني على بن محمد الأنصاري الذي تولى القضاء ببعض نواحي إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفي سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول^(٢):

"إلى سَيِّدِ المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذي جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِداً وطهوراً، وكان - ولم يزل - منتقلاً من صلب آدم نُوراً.. المصطفى المختار الذي انشق له القمر، ودان له الأسود والأحمر، ولاح النور الإلهي من قَسَمَاتِهِ، وعَرَفَهُ الكهنة والأخبار قبل كونه بِسْمَاتِهِ، بُشِّرَى الكليم^(٣) الميمون النقيبة^(٤) والطلیعة، المشير إلى الأصنام فخرتْ صريعة.. من العبد المذنب الذي ثَبَّتَهُ الأقدار، وعاقه الفلك المدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثُول في معاهدك التي هي لِصَادِي الأمثل أَنْقَعُ

(١) انظر في ترجمة أبي الحسن الجياني الذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشي ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقيبة: الطبع والسجية.

ديمة^(١).. كتبتُه، وأنا أتنفّس الصُّعداء^(٢)، وأناجى بل أغِطُ أهل زيارتك السعداء، وللزَّفات تصعدُ وانحدار، وللعبرات تردّد في الجفن وانهمار، وكيف ألدُّ حياة ولم أعبر لزيارتك سَبَسَبًا^(٣) ولا لِحَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك برهانًا ولا حُجَّة، لألثَم مواطئ سَعَى فيها بالوحي الرُّوح الأمين، وتخطّى عرصات^(٤) سيّد المرسلين كيف لي أن أمرّغ الحَدَّ في عَير ثراها، أو أبلغ الجَدَّ^(٥) الأعظم عندما أراها، اللهم ياربَّ أنجِد عبدك المسئى وأعنه على أداء الفريضة، وطيب قلبه بانتشاق ريح طيبة^(٦)، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه في كرمك إلى إخفاق وخيبة".

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجياني طائفة من المعجزات النبوية. ويقف على باب الروضة الشريفة مسترحماً لذنبه شفيح المذنبين يوم الهول الأكبر الذي تغذى بحبه طفلاً وشاباً وكهلاً، وإنه ليأمل في اللقاء بحبيبه، وفي فؤاده لوعة لا تنطفئ وفي عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طيب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

(١) صادي: عطشان. ديمة: سحابة هائلة.

(٢) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفساً ممتداً.

(٣) السبَسَب: الفلاة.

(٤) عرصات: ساحاتها.

(٥) الجد: الحظ.

(٦) طيبة: المدينة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليلة وبطليوس في حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل على شفاعته تضرعاً إليه كي ينصر المسلمين في الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان^(١). للسان الدين بن الخطيب كتبها إلى الرسول عليه السلام على لساني سلطاني الأندلس أبي الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣-٧٥٥هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥-٧٩٣هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذي أضنى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويفخر بأن جده سعد بن عبادة كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلالقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهي طويلة، ويفتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج بقوله:

"إلى رسول الحق، إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، والحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصص السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء.. نبي الهدى الذي ختم به الرسالة ربّه، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حبه، الشفيع المشفع يوم العرض، المحمود في ملأ السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذي بهر سناه، من الأنوار من عنصر نوره مستمدة،

(١) انظر في الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان) ٥٢٧/٤ وما بعدها، وراجع في الرسالة الأولى صبح الأعشى

والآثارُ تَخْلُقُ^(١) وآثارُهُ مستجدةٌ، مَنْ طُوِيَ بِسَاطِ الْوَحْيِ لَفَقْدِهِ، وَسُدَّ بَابُ الرِّسَالَةِ والنُّبُوَّةِ مِنْ بَعْدِهِ".

وهذه القطعة الرائعة في تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب في فكرة الحقيقة المحمدية التي رَدَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت في الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور في الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب في هذا التمجيد متحدثاً عن معجزات الرسول، قائلاً إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبي الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاذه لحملة الصليب وما يلقي في هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقرة الطاهرة، يقول:

"عاقنتني عن زيارتك العوائقُ إذْ أصبحتُ بينَ عدوٍّ تتكاثفُ أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عندَ الظهيرةِ عَجَاجُهُ"^(٢)، في طائفة من المؤمنين بك ووطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، واستعذبوا في مَرْضَاةِ الله تعالى ومَرْضَاتِكَ بوسهم، يطرون من هيعة^(٣) إلى أخرى، ويتلفتون والمخاوفُ يَمْنَى وَيُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعاً كجموع قيصر وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة

(١) تخلق: تبلى.

(٢) عجاجة: غباره.

(٣) هيعة: صيحة.

الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العُلْيَا، فيأله من سَرَبٍ مَرُوعٍ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصِيْبَةٌ حُمْرِ الحَوَاصِلِ^(١)، تخفق فوق أَوْكَارِهَا أَجْنَحَةُ المناصِلِ^(٢)، والصليب قد تَطَّيَّ ومَدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وُعد به الشهداء تعتقده القلوبُ حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أَبْلَيْنَا العُدْرَ، وأعلمنا في سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْرَ^(٣)، وأَرْغَمْنَا الكُفْرَ".

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التي كان يبذلها مسلموا الأندلس جهاد حملة الصليب، وقد جاءوهم - كالذرِّ عند انتشاره - من شمالي إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هي العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكر أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا ما دَقَّتْ أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها سنة ٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهاد الطغاة البغاة. وكانت توجَّه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامي رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه في

(١) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع الطيران.

(٢) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٣) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت في الأندلس لبعد الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند ابن الجنان.

ابن^(١) الجنان:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية في شرقي الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: "كان محمد راوية ضابطاً، كاتباً بليغاً وشاعراً بارعاً" ويقول الغبريني: "كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيهاً وكاتباً بارعاً وأديباً". وكان مفرطاً في القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالي مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبى دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبى نداء ربه في عشر الخميس وستائة.

وكان ابن الجنان شاعراً مبدعاً كما كان كاتباً محسناً، ويقول ابن الخطيب "له في الزهد ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم بدائع، ونظم في المواعظ للمذكّرين كثيراً" وأنشد المقرئ له في الجزء السابع كثيراً من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثاً عن

(١) انظر في ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية للغبريني

٢١٣ ونفح الطيب ٧/٤١٥ وما بعدها.

شئائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين
الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرئ خمسا نبويا طريفا يستهله على هذا
النحو:

الله زاد محمداً كريماً وَحَبَاهُ فَضْلاً مِنْ لَدُنْهِ عَظِيماً
واختصه في المرسلين كريماً ذَا رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ويضيف إلى هذا الدور في الخمس نحو ثلاثين دوراً، والخمسين يسيل سلاسة
وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: "صلوا عليه وسلموا تسليماً". ولا تقل روعة عن مدائح
ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ
بها المقرئ كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:
"السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التي لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ"^(١). والبركةُ التي أولها
الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرة الرِّسالةِ العائمةِ الدعوةِ والنبوةِ، المؤيدةِ بالعِصمةِ
والأيدِ والقوةِ، ومَثَابَةِ الْبِرِّ والتقوى، فهي لقلوب الطيبين صَفَاً ومَرَوَةً^(٢) مقرّ الأنوار
المحمدية، والبركات السَّرْمَدِيَّةِ، أَمْتَعَ اللهُ الْإِسْلَامَ والمسلمين بحراسةِ أضوائها،

(١) تريم: تبرح.

(٢) السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج وفروضه والتشبيه واضح.

وَكَلَاءَةٍ^(١). ظِلَالُهَا الْعَلِيَّةُ وَأَفْيَائُهَا^(٢)، وَأَقْرَعَيْنَ عَبْدَهَا بَلْثَمَ ثَرَاهَا، وَالْأَنْخِرَاطَ فِي سِلْكٍ مَنْ يَرَاهَا. السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَحْمَدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ سَلَامٍ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْكَ يَدَ الْغَرِيقِ، وَيَرْجُو الْإِنْقَازَ بِبِرْكَتِكَ مِنْ نَكْدِ الْمَضِيقِ، وَيَتَقَطَّعُ أَسْفَاً وَيَتَنَفَّسُ صُعْدًا^(٣) كُلَّمَا أَزْدَلَقَ^(٤) إِلَيْكَ فَرِيقٌ، وَعَمَرَتْ نَحْوُكَ طَرِيقٌ، وَلَا يَفْتَرُ صَلَاةً عَلَيْكَ لَهُ لِسَانٌ وَلَا يَجْفُ رِيقٌ: كَتَبْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ رَحَلَ الْمَجْدُونَ وَأَقَمْتُ، وَاسْتَقَامَ الْمُسْتَعْدُونَ وَمَا اسْتَقَمْتُ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ ثَمِّ ثَرَاكَ النَّبَوِيِّ، وَلَمَحَ سَنَاكَ الْمُحَمَّدِيُّ مَفَاوِزُ وَكُلَّمَا رُمْتُ الْمَتَابَ رُدِدْتُ، وَكُلَّمَا يَمَّمْتُ الْبَابَ صُدِدْتُ.. وَحَقَّقَ وَهُوَ الْحَقُّ الْأَكِيدَ وَالْقَسَمَ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ الْمُقْسَمُ مَا يَرِيدُ، مَا وَخَدْتُ^(٥) إِلَيْكَ رِكَابًا، إِلَّا وَلَلْقَبِ إِنْثَرَاهَا، وَالثَّهَابَ، وَلِلدَّمْعِ بَعْدَهَا سَحٌّ وَانْسِكَابَ، وَيَالَيْتَنِي مِمَّنْ يَزُورُكَ مَعَهَا وَلَوْ عَلَى الْوَجْتَيْنِ، وَيَحْيِيكَ بَيْنَ رَكْبِهَا وَلَوْ عَلَى الْمُقْلَتَيْنِ.. ثُمَّ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكَ يَا سَيِّدَ الْخَلْقِ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَمَنْ طَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مُثْوَاهَ وَقَدَسَهُ، وَبَنَاهُ عَلَى التَّقْوَى وَالرِّضْوَانِ وَأَسَّسَهُ، وَآتَاهُ مِنْ كُلِّ فَضْلِ نَبَوِي أَعْلَاهُ وَأَسْنَاهُ وَأَنْفَسَهُ.. كَتَبَهُ عَبْدُكَ الْمُسْتَمْسِكُ بِعُرْوَتِكَ الْوُثْقَى، اللَّائِذُ بِحَرَمِكَ الْأَمْتَعِ الْأَوْقَى، الْمَتَأَخِّرُ جِسْمًا الْمَتَقَدِّمُ نَطْقًا، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا وَرَحْمَةً اللَّهُ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ".

(١) كَلَاءَةٌ: حَفَظَ.

(٢) أَفْيَائُهَا: ظِلَالُهَا.

(٣) يَتَنَفَّسُ صُعْدًا: يَتَنَفَّسُ مَعَ مَشَقَّةٍ وَوَجَعٍ.

(٤) أَزْدَلَقَ: دَنَا وَاقْرَبَ.

(٥) وَخَدْتُ: أَسْرَعْتُ.

والرسالة تموج بالعدوبة في اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواعج الشوق المضطرم في صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسي ولثم ثراه العطر والإمام بفنائنه السنّي وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسرون في قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذي أرسله الله نوراً وضياء للعالمين. ويفضي ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فككا ولا لحاقاً بالقوافل المتجهة إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. ويزرف الدمع مدراراً، ويتمنى لو زار الرسول صلى الله عليه وسلم لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدي. وروى المقرئ له موعظة بديعة في فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبرى والدلالات الواضحة الغرر، ويتلو المقرئ هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث في نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف عزّهم الصبر، يقول: "وهل يسوغ الصبر الجميل في فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له في السموات السبع النحيب والعويل، وانقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة منادياً في الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملهب في الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعياً:

"اللهم اسقنا من حوضه المورود، وشرفنا بلوائه المعقود، وشفّعه فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحد، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابه الرّكع السّجود، واجعلنا معهم في الجنة دار السلام ودار الخلود".

وبهذه اللغة الصافية التي تموج بالركة والعذوبة والتي تلذ الألسنة حين تنطق بها والأسماع حين تنصت إليها كان ابن الجنان يتمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ:

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفهية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة في المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جلة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابتهم في كتابه البيان والتبيين، وكثير هم الأندلسيون الذين تذكّر في تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة الأموية بالأندلس ووعاظها منذ بن سعيد، وسنخصه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذي يبعث الحياة في الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون في المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا في الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفي الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة السيول التي تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا في ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستئزال الغيث، وبينما

الخطباء يلحون بالدعاء كان الناس يكثرون من الضجيج والابتهاال، وتشملهم رحمة الله فتعتقد السحب وتُبرق وتُرعد ويهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبي وهب العباسي المعاصر لمندر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح في عصر أمراء الطوائف، ونلتقي فيه بمواعظ كتابية تحبّر فيها رسائل بديعة. وهي رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحي والشوق إلى اللقاء الرباني والانقطاع إلى النسك والعبادة للحي القيوم عن كل متاع دنيوي. ونحسن كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفي على نحو ما يلقانا في رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيري سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه^(١):

"هَيَّا تَكَ يَدُ الْقُدْرَةِ هَيْئَةً رُوحَانِيَّةً، وَأَحْيَاكَ رُوحَ الْقُدُسِ حَيَاةً إِلَهِيَّةً، وَأَلْبَسْتُكَ الشَّرِيعَةَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَرَاسَتْكَ الطَّبِيعَةُ بِرِيشِ النُّهَى"^(٢)، حتى تطير مع الروحانيين في مجال الصّديقين إلى منازل المقرّبين، فتذوق بَرْدَ عَيْشِ النِّعَمِ، وتلذّ بالنظر إلى وَجْهِ الْقَيُّومِ، وتشتاق إلى لقاءِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.. وإنَّ اللهَ يَا أَخِي عِبَادًا أَقَامَ أَرْوَاحَهُمْ بِقَيُّومِيَّتِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَمَشَتْ بِأَقْدَامِ الصَّدَقِ إِلَى الْحَقِّ، فَدَنَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَلَى جَلَالِهِ، فِي اتِّسَاعِ كَمَالِهِ، فَضَعُفَتْ لِكِبَرِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ بِالْإِسْلَامِ وَنَطَقَتْ بِالْإِيمَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِالْقُرْآنِ، وَعَلَّمَهَا فَفَازَتْ بِالْحِكْمَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَدَانَتْ لَهُ

(١) راجع في النص الذخيرة ١/ ٨٤٧ وما بعدها.

(٢) النهي: العقل.

بالحنيفية، فأواها إلى كنفه، ونعمها بطرائف تحفه، وأطلع لها السر، وأكمل لها البر، فحييت بقربه، وشربت بكأس حبه".

والنزعة الصوفية ماثلة في الرسالة، وهي تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف في زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أشربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربي والششتري، ومرت لهم في الفصل الماضي ترجمات تعرف بمنزعتهم الصوفي وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكي أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: "ملقى السبيل" وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبي الخصال الذي ترجمنا له في هذا الفصل أول من حاول محاكاته في هذا الاتجاه^(١)، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبي القاسم السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسَمي معارضته له باسم: "حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل"^(٢) وعارضه سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى شهيداً سنة ٦٣٤ باسم "مفاوضة القلب العليل ومناظرة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء في ملقى السبيل"^(٣) وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبي العلاء في وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. وملتقي في عصر المرابطين بأبي بكر الطرطوشي وسنخصه بكلمة.

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٣/ ٤٧٩ وصحفت فيها لفظة "ملقى".

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي بقية السفر الرابع ص ٨٦.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد في رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزي ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسي يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبي المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشي: "له فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي" وله قوله من عظة^(١).

"يا أَعْمَى الهوى غابَ عنك وَصَحَّ النهار، طالتْ غيبتُك عنا فأَيَّ يومٍ تكون في الزَّوَار، العمرُ قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالْمُنَى والتَّعْلِيل، أين الإخوان والأتراب، طاحوا^(٢) والله وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرَّد إذ نَعَبَ الغراب وفجأت الفجيجةُ فما لَدَّ النومُ ولا ساغ الشراب".

وكان نبعا فياضا في الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به الناس. ونلتقي بكثير من المواعظ في دولة بني الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ في دولتهم ابن الزيات الكلاعي المالقي المتوفى سنة ٧٢٨ وله في الوعظ كتاب "شذور الذهب في ضروب الخطب"، وروى له لسان الدين بترجمته في الإحاطة عظة ألغى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نُصِحْتُم لو كنتم تعقلون، وهديتُم لو كنتم تعلمون، ونُصِرْتُم لو كنتم تبصرون، وذكرْتُم لو كنتم تذكرون، وظهرت لكم حقيقة نُشْرِكُم^(٣)، وبرزت لكم خبيئة حَشْرِكُم،

(١) كتاب أبي المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

(٢) طاحوا: هلكوا.

(٣) نشركم: بعثكم.

فَلِمَ تَرْكُضُونَ فِي طَلَقٍ^(١) غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سَيْفٌ مسلول، وحكمٌ عزم غير مفلول^(٢)، فكيف بكم يوم يُؤْخَذُ كُلُّ بَذْنِهِ، وَيُخْبَرُ بِجَمِيعِ كَسْبِهِ، ويفرَّق بينه وبين صحبه، ويعدم نُصْرَةَ جُزْبِهِ، وَيُشْغَلُ بِهِمْ وَكَرْبِهِ، عن صَدِيقِهِ وتَرْبِهِ^(٣).

ويسترسل في مثل هذا الوعظ البسيط الذي ينزل عن اللسان لخبثته ولعذوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدحمون عليه لسماح مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلاً عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

منذر بن سعيد البلوطي^(٣):

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع في نواحي قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبز فيها أقرانه بقرطبة، وفي سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابوري كتابه الإشراف المؤلف في

(١) طلق: شوط.

(٢) مفلول: مثلوم الحد.

(٣) انظر في ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدي ٣١٩ وابن الفريسي رقم ١٤٥٢ والبغية رقم ١٣٥٦

والجذوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم الأدباء ١٩/١٤٧ وإنباه الرواة ٣/٢٢٥ وأزهار الرياض ٢/٢٧٢

ونفح الطيب (أنظر الفهرس).

اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضًا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبي العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى في اللغة والفقه والحديث. وأهم من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهري وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالاته، مع أنه كان قاضيا في بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيًا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوي تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهري في نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذي استقر عليه العمل في الأندلس. وثقف في رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهري، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهري دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفي سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر في قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذي جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبي على القالي العالم اللغوي المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوّت شهرته في الأندلس، فسأله أن يلقي خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهيأ للناصر من توطيد الحكم في بلده، فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وأزّج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

"أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، فافقهوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت،

وللمبطل كذبت.. وإنى أذكركم بأيام الله عندكم وتلافية لكم بخلافته أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم".

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التي كانت عمت آفاق الأندلس، وفصل القول في انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهد من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفته وابن عم نبيهم الناصر، ويختتم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جنانه، وأعجب به الناصر إعجاباً شديداً، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع في مدينته الزهراء التي بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضي القضاة في الأندلس جميعاً، وظل على ذلك في حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفي سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى في بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها ما وسعه التأنق على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله في خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتداً منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: (تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) ثم قال: ولا تقولوا: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر في ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى:

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.

(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ومضى منذر يدعو إلى الزهد في الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب في ذلك حتى تأثر المستمعون وضجوا بالبكاء، ودعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغضبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: "أحكام القرآن" وكان شاعراً، أما العظات فلعل واعظاً في وطنه لم يبلغ فيها مبلغه في زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة في الأندلس تحمل وعظاً كثيراً، ومن عظاته قوله:

"حتى متى وإلى متى أعْظُ غَيْرِي وَلَا أَتَعْظُ وَأَزْجُرُهُ وَلَا أَزْدَجِرُ، أدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَدِلِّينَ، وَأَبْقَى مُقِيمًا مَعَ الْحَائِرِينَ، كَلَّا إِنْ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) اللَّهُمَّ فَرِّغْنِي لِمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَلَا تَشْغَلْنِي بِمَا تَكَفَّلْتَ لِي بِهِ، وَلَا تَحْرِمْنِي وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَلَا تَعَذِّبْنِي وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ".

أبو^(١) بكر الطرطوشي:

هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الطرطوشي الأندلسي ولد في سنة ٤٥١ بطرطوشة في أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبي رندقة، ويبدو أنها كنية شهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبي الوليد الباجي بسرقسطة، أحد

(١) انظر في ترجمة الطرطوشي ومواعظه الصلة ٥١٧ وبغية الملتبس رقم ٢٩٥ والمغرب ٢/ ٤٢٤ وابن خلكان ٤/ ٢٦٢ والديباج المذهب ٢٧٦ وعبر الذهبي ٤/ ٤٨ وأزهار الرياض ٣/ ١٦٢ والشذرات ٤/ ٦٢ وحسن المحاضرة ١/ ١٩٢.

كبار المالكية في أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جِلَّة الشيوخ في البلدين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثغر الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠. وكان ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين (٤٨٧-٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

"إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتٍ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدكٍ بمثل ما صار إليك فاتَّق الله فيما خَوَّلَكَ من هذه الأُمَّة، فإن الله - عز وجل - سائلُك عن النَّقير^(١) والقَطْمير والفتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مُلْك الدنيا بحذافيرها فسخرَ له الإنسَ والجنَّ والشياطينَ والطيرَ والوحشَ والبهائمَ، وسخرَ له الريحَ تجري بأمره رخاءً^(٢). حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فما عدَّ ذلك نعمة كما عدتُموها، ولا حَسَبها كرامة كما حسبتُموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجل، فقال: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) فافتح الباب، وسهِّل الحِجابَ وانصُرِ المظلوم".

(١) النقير: ما نقر في نواة التمر، والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط في شق النواة والمراد أنه

يسأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

وللطرطوشي مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبي وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذي ألفه للمأمون البطائحي وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالي (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم، ويبين في مقدمته منهجه فيه وغايته قائلاً:

"جمعت محاسن ما انطوى عليه سير ملوك سب من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند، فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمات اللطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رأيته وجمعته من سير الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات.. الهادي من الضلالة والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة".

وقد جعل الطرطوشي الكتاب في أربعة وستين باباً خصّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب في الخصال التي ينبغي أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله في الباب الأول واعظاً للملوك:

"اعتبر بمن مضى من الملوك والأقوال، وخلا من الأمم والأجيال، وكيف بسطت لهم الدنيا وأنست لهم الآجال، وانفسح لهم في المنى والآمال، وأمدوا بالآلات والعدد

والأموال، كيف طحنهم بِكُلِّكَلِه المنون^(١)، واختدعهم بزخرفه الدهر الحُتُون، وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجیعة، ولذاتها فانية، وتبعتها باقية، فاعتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يومك لغدك، ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ولین ریاشهم^(٢) ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء مُنقلبهم".

ولم يكد يترك الطرطوشي خبراً أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبّاد والصالحين الأطهار إلا دوّنّها في كتابه مع ما ساقه في تضاعيفه من عظاته التي تموج بها صفحاته. وهو بحق في الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعاً حكاماً وغير حكام.

(١) الكلّكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: الموت.

(٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

أعمال نثرية:

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما في طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما في المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما في مذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصّة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال في كلمات مجملة.

طوق الحمامة لابن حزم:

ابن حزم^(١). هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالي بني أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لبلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معروفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذا السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونصّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبني أمية قائلاً:

قُرَيْشُ الْعَلَاءِ أَغْيَاصُهَا وَالْعَنَابُ

سَمَاءُ بَيْ سَاسَانَ وَدَارَا وَبَعْدَهُمْ

وهو في الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفي الشطر الثاني ينتمي بالولاء إلى بني أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أي مبرر لكي يرجح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبني أمية، وظل مشايعاً لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولاً أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

وكانت أسرة ابن حزم تعيش في قرية تملكها تسمى مُنت ليشم من قرى مدينة لبلة على بعد خمسين كيلو متراً غربي إشبيلية، وبها ولد أبوه أحمد، ورحل منها مبكراً إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرف عليه ابن أبي عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذته وزيراً له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن في الجانب الشرقي من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبي عامر ومجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر في كُور غربي الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكل تربيته في صباه إلى جواري قصره وكنّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجواري في قرطبة ومدن الأندلس - وفي ذلك يقول ابن حزم في كتابه "الطوق": "لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه

غيري، لأني رُبيت في حُجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حَدِّ الشباب وحين أبقل وجهي (نبت الشعر فيه) وهنَّ علَّمنني القرآن وروَّينني كثيرًا من الأشعار ودربنني في الخط". وجعلته هذه النشأة يستشعر مبكرا عاطفة الحب لمن كن في سنة من الجواري، ويقول في الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فما استحسن بعدها سوداء الشعر أبدا. وظل يختلط بهؤلاء الجواري ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا في سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتتلمذ للشيخ وفي مقدمتهم ابن الجصور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوي وتاريخ الطبري وكان لا يزال في سن مبكرة. وكثيرا ما كان يرافق أباه في مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لا يزال يسكن الجانب الشرقي من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدث في هذا الجانب إلى دورهم القديمة في الجانب الغربي من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للثائرين ضده واعتقل وأُغرم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على في هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلَفَ بها تسمى نُعْمًا كانت غاية في الحسن خَلَقًا وخلقًا، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتقر له دمة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تبادت في السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤

إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبي عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهراً ثم رُدَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهراً وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنهما يشايعان أموياً بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليهما، ولم يلبث أن زحف معهما بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والآنقضاض منها على قرطبة التي كانت قد أصبحت في قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا دائرة فبكاها طويلاً، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفي سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموي فاتخذه وزيراً له مع خذنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويعتقل الخليفة الجديد المستكفي ابن حزم فترة، وترد إليه سريعاً حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: "كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة" ويقول ابن بشكوال في كتابه الصلة: "كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار" ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على

معارضيه نحو أربعمئة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيًا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فترة ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري، وتنقل في مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقي، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها في الفقه كتاب الإبطال في مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهي القياس والرأي والتعليل والاستحسان والتقليد محاولاً نصرة مذهبه الظاهري، وكتاب الإيصال في فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين في مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأي، وكتاب المحلّ في المذهب الشافعي، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حجة الوداع. ومنها في التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهي تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها في المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها في تاريخ الأديان كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذي لم يعرفه الغرب إلا في منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حرّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لأرائهم العقيدية، ويعرض في تفصيل لأركان العقيدة الدينية القويمة (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيما بعد توماس الإكويني في كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة في الأصول كتابه الإحكام في أصول الأحكام" ومربنا في الفصل الثاني أنه أشار في مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية

والعبرية وأن العربية الشمالية العدنانية لغة مضر وربيعة تحالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن في العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفهما أوربا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت في مقدمة الكتب التي عنت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادي بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته في الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكي ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس في عصره، وفيها يصور الفضائل والرذائل الخلقية مضيئاً إليها بعض اعترافات في تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريباً منها مقالات في الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشراً علمه ومذهبه الظاهري في الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكي أبي الوليد الباخي في جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لا يزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العود إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيراً وبها توفي سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف ألفه في سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس في الطبيعة الإنسانية في أصل عنزها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوي قبل حلول النفوس في الأجساد في

عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكلة فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين باباً، منها عشرة في أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب في النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر باباً في أعراض الحب المحمود والمذموم، وهي أبواب الصديق المساعد والوصل وطى السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة في المحوبة والقناعة والوفاء والغدر والضنا والموت. ومنها ستة أبواب في آفات الحب، وهي أبواب العاذل والرقيب والواشي والهجر والبين والسلو، ثم بابان في قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعرَضُ لا في كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أي موارد أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائماً مكشوفة كالشمس. وفي تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس في الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون جبهة حب نقياً بريئاً من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه في الحب قوله في باب السلو:

"وإنى لأخبرك عنى أنى ألفتُ في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غايةً في حُسن وجهها وعقلها

وعَفَافُهَا وطَهَارَتُهَا وَخَفَرُهَا وِدْمَاثَتُهَا، عَدِيمَةُ الْهَزْلِ، مَنِيعَةُ الْبِذْلِ، فَقِيدَةُ الدَّامِ^(١)، قَلِيلَةُ الْكَلَامِ، غَضِيضَةُ الْبَصَرِ، شَدِيدَةُ الْحَذَرِ، نَقِيَّةٌ مِنَ الْعُيُوبِ، دَائِمَةُ الْقُطُوبِ^(٢)، حُلُوةُ الْإِعْرَاضِ، مَطْبُوعَةُ الْإِنْقِبَاضِ.. لَا تَقْفُ الْمَطَامِعَ عَلَيْهَا، وَلَا مَعْرَسَ^(٣) لِلْأَمَلِ لَدَيْهَا.. عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تُحْسِنُ الْعُودَ إِحْسَانًا جَيِّدًا، فَجَنَحَتْ إِلَيْهَا، وَأَحْبَبَتْهَا حُبًّا مَفْرَطًا شَدِيدًا، فَسَعَيْتُ عَامِينَ أَوْ نَحْوَهُمَا - أَنْ تَجِيبَنِي بِكَلِمَةٍ، وَأَسْمَعَ مِنْ فَمِهَا لَفْظَةً، غَيْرَ مَا يَقَعُ فِي الْحَدِيثِ الظَّاهِرِ إِلَى كُلِّ سَامِعٍ - بِأَبْلَغِ السَّعْيِ، فَمَا وَصَلْتُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْبَتَّةِ فَلَعَهْدِي بِمُصْطَنَعٍ^(٤) كَانَ فِي دَارِنَا.. تَجَمَّعَتْ فِيهِ دَخَلَتُنَا^(٥) وَدَخَلَةُ أَخِي: مِنَ النِّسَاءِ وَنِسَاءِ فَتَيَانِنَا وَمِنْ لَآثِ^(٦) بَنَا مِنْ خَدْمِنَا مِمَّنْ يَخْفُ مَوْضِعُهُ وَيُلَطِّفُ مَحَلَّهُ، فَلَبِثْنَا صَدْرًا مِنَ النَّهَارِ ثُمَّ تَنَقَّلْنَا إِلَى قَصْبَةٍ^(٧) كَانَتْ فِي دَارِنَا مُشْرِفَةً عَلَى بَسْتَانِ الدَّارِ، وَيُطَّلَعُ مِنْهَا عَلَى قَرْطَةِ وَفَحُوصِهَا^(٨) مَفْتَحَةَ الْأَبْوَابِ، فَصَرَنَ يَنْظُرُونَ مِنْ خِلَالِ الشَّرَاجِيِبِ^(٩) وَأَنَا بَيْنَهُنَّ. وَإِنِّي لِأَذْكُرُ أَنِّي كُنْتُ أَقْصِدُ نَحْوَ الْبَابِ الَّذِي هِيَ فِيهِ، أَنْسَا بِقَرْبِهَا، مَتَعَرِّضًا لِلدَّنُوِّ مِنْهَا، فَمَا

(١) الدَّامُ: الْعَيْبُ.

(٢) الْقُطُوبُ: الْعَبُوسُ.

(٣) مَعْرَسٌ: مَكَانٌ.

(٤) مُصْطَنَعٌ: وَلِيْمَةٌ.

(٥) الدَّخَلَةُ: مَنْ يَكْثُرُ دُخُولُهُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنْهُمْ أَوْ لَيْسُوا مِنْهُمْ.

(٦) لَآثٌ: اخْتِلَطَ.

(٧) قَصْبَةٌ: غُرْفَةٌ أَوْ غُرْفٌ مُشْرِفَةٌ فِي الدَّارِ.

(٨) فَحُوصٌ قَرْطَةٌ: ضَوَاحِيهَا.

(٩) شَرَاجِيِبٌ: قَوَائِمٌ.

هي إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لطف الحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال^(١) إلى غيره. وكانت قد علمت كلفى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الإطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. وأعلم أن قيافة^(٢) النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج^(٣) في الآثار. ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمننا إلى سيداتها في سماع غنائها، فأمرتهن، فأخذت العود، وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله، وإن الشيء ليتضاعف حسنه في عين مستحسنه، ثم اندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكأن المضرب كان يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا".

ويمضي ابن حزم فيذكر أن خطوب الفتنة الكبرى بقرطبة فرقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات في جنازة لبعض أهله باكية نادية، فأثارت فيه وجدا دفيناً وحركت ساكنا وذكرته عهداً قديماً وحُباً تليداً ودهرها ماضياً وجددت أحزانه، وما كان نسي، وزاد الشجاً وتوقدت اللوعة. واضطر إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتها لفقدائها الصيانة التي كانت لها في قصر أبيه

(١) الزوال: التحول.

(٢) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.

(٣) مدلج في الآثار هنا: متعمق في تتبع الآثار.

وأيام عِزِّه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أَقَلَّ وَصَلٍ وأنست له بعض الأُنس لَجُنَّ طرباً أو لمات فرحاً، غير أن هذا النفار منها هو الذي أتاح له الصبر والسَّلَوَى مع ما ظل يطوى في نفسه من عذاب حبه وآلامه.

وبمثل هذا التصوير الواقعي القصصى الصريح المرسل في غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى في شبابه. وفي حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه "الحياة المجددة" ويقول الدكتور الطاهر مكى في هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذي اختاره دانتي الإيطالي (١٢٦٥-١٣٢١م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس - كما ذكر بالنشيا - في معرفة دانتي بالتراث الأدبي الأندلسي، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضاً في هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته في الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة في باب "القنوع من المحبوب بأي شيء" عن امرأة في صقلية شاهدت شاباً في غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بعد أتت إلى المكان الذي أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض في مواقع قدميه، ويقول بالنشيا إن شاعرهم الإسباني المبدع "ماثياس"

حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية:

(أ) المقتبس لابن حيان:

هو أبو مروان^(١) حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنها (٣٩٩-٤٢٢هـ). وتوفي سنة ٤٢٧. ورزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال في كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوي النحوي ابن أبي الحباب والعالم اللغوي المشهور صاعد البغدادي وجميعهم توفوا بين سنتي ٤٠٠ و ٤٠٣ للهجرة، مما دل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو في نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل في دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبي الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتبا واسعا. وذكر مترجموه أنه لقب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكي أن يكون هذا اللقب أسبق عليه رسميا فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو

الوليد بن جهور الحكم في إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سيئ التدبير حاصره المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهاز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا في غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنته بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفي الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكّي ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هي:

أخرا الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.

كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.

وكتاب البطشة الكبرى وهو في خلع المعتمد بن عباد لأبي الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيّش في الجنوب الغربي للأندلس.

ونظن ظناً أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتاباً مستقلاً عن كتاب المتين، بل كانت أجزاءه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءاً في كتاب المتين، إذ يقال إنه كان في ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له في رأينا كتابان في تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفي كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذاري والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء:

جزء يضم إمارة الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ) وشطرا من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مرارا في كتابه "تاريخ إسبانيا الإسلامية" ومصير هذا الجزء بعد موت بروفنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨-٢٧٤هـ) نشره الدكتور محمود مكي ببيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكي. وجزء رابع نُشر بمدر يد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطي وصبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ). ثم جزء في أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) نشره بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجري. ويتميز ابن حيان في المقتبس بأنه يضم في تاريخ كل حاكم أموي إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية في عهده مع تراجم مفصلة للوزراء في أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافي والاجتماعي والعمرائي والاقتصادي إلى تاريخها السياسي. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارة في بلاد البشكنس.

"في سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة غزا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمرها الله - غزوته المعروفة ببَنْبُلُونَة: بلد أعداء الله الكفرة البشكنس، وسلك في سفره هذا طريق الشرق، وتمنع من النزول إليه والغزو معه محمد بن عبد الرحمن، وكان بمدينة

العسكر من أحواز^(١) بَلَنْسِيَّة، فنازل حصونه ووطئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلادَ المشركين بَنَبْلُوَّةَ بأنْفَذِ عَزْمٍ وَأَوْكَدَ حَزْمٍ وَأَقْوَى نِيَّةً في الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرجاس^(٢) الكفرة واحتلَّ من أول بلدهم حصن قَلْهَرَّةَ، وكان العَلِجُ شانجه^(٣) أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعْرَفُ بِقَنْطَرَةِ أَلْبَةِ وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلفوا في بساطتها^(٤) جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أُعْجِلُوا عن انتقالها ولجأ عُلُوجُ منهم بأهلهم وأولادهم إلى ثلاثة غيران^(٥) في شفير جُرْفٍ^(٦) على النهر، فلم يزل المسلمون يَتَوَقَّلُونَ^(٧) إليهم فيها، وَيَتَسَوَّرُونَ^(٨). عليهم من أعاليها، حتى فتح الله تلك الغيران عليهم، فقتلوا العُلُوجَ وسبوا الذَّرَارِيَّ وغنموا الأمتعة، وَهَدِمَتْ حصون الكفرة التي كانت في تلك الجهة، فلم يبق فيها صخرة قائمة. ثم تنقل الناصر لدين الله من هذه المَحَلَّةِ^(٩) بعد أن أقام فيها يوما إلى حِصْنٍ فَالْجَشِ فَأَضْرِمَتْ نَارًا أَرَبَاضَهُ^(١٠) واستقصيت زروعُه ونِعْمه بالنَّسَفِ

(١) أحواز: نواحي.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القذر.

(٣) العليج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم البشكنس (٢٩٣-٣١٤هـ).

(٤) بساطتها: أراضيها المبسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادي.

(٧) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعالي.

(٨) يتسورون: يتسلقون.

(٩) المحلة: الموضع.

(١٠) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة.

والاستئصال.. ثم استعزم على الإيغال في بلد الكفرة والاقترحام لسرّواته^(١) والتوصل إلى موضع قرارهم ومجتمع كفارهم ونكايتهم في عقر^(٢) دارهم ومكان أضمنهم.. وأمر بتعبئة الكتائب وترتيب المقانب^(٣) وشك^(٤) العسكر.. وارتحل الناصر لدين الله بين أجبل^(٥) شامخة، وشواهق منقطعة، والجيش لا تمرّ بموضع إلا اضطلمته^(٦) ونسفت زروعها، وأفست ما لم يستوف أكله وهمت قراه وحصونه، إلى أن بلغ مدينة بنبلونة التي إليها ينسب الإقليم، فأصابها خالية مقفرة، فدخلها الناصر لدين الله بنفسه وجال في ساحاتها وأمر بهدم جميع مبانيها وتخريب كنيسة الكفرة المعظمة وموضع بيعتهم^(٧) ومكان منسكهم فجمعت الأيدي عليها، حتى جعلت قاعاً صفصفاً^(٨). وتنقل الناصر لدين الله، وكان في ممره فج^(٩) ضيق المسالك وعمر المجاز.. وتظاهر^(١٠). أعداء الله لأهل الساقة^(١١) متسنّمين^(١٢) في جبل شاهق، ملتجئين الفرصة، فنهضت الخيل إليهم سريعاً،

(١) سرّوات البلاد: أوساطها وأعاليها.

(٢) عقر دارهم: وسطها.

(٣) المقانب جمع مقنب: جماعة الفرسان.

(٤) شك العسكر: حملة للسلاح.

(٥) أجبل: جمع جبل.

(٦) اضطلمته: استأصلته.

(٧) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم.

(٨) صفصفاً: لا نبات فيه.

(٩) فج: طريق.

(١٠) تظاهر: تجمّع.

(١١) الساقة: مؤخرة الجيش.

فكشفتهم وهزمتهم، وقتلت طائفة منهم، فأنقشعوا^(١) مدبرين لائنين لا يُلَوْنُونَ ولا يعرجون، وتقدم المسلمون بعزة القهر وسورة^(٢) النصر".

وهذا الأسلوب الأدبي الخافق بالحيوية البارع في تصوير المواقع الحربية يمضي ابن حيان في المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوي وأدبي لا ينضب، معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بالفاظه التي يرصفها في يسر متلاحقة بجزالتها ورصانتها ونصاعتها وأي نصاعة؟ لكننا كانت الألفاظ مختبئة في أكمائها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حيّان، فتفتحت له أكمائها وانقادت إليه مهيتة له هذه الروعة في اختيارها ونسج تعبيراتها مع الرونق الذي يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشيء من تراويق المحسنات البديعية التي أخذ يصطنعها بعض كتّاب عصره، ولا شيء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله في ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط في السرد التاريخي ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدي المعاني بدقة، مع إحكام التصوير النفسي والاجتماعي لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجواري. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سجل عليها من معاييب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتمم ملامح الشخصية أو تخفف عن القارئ جفاف التاريخ على نحو ما يلقانا في الصفحات الأولى من الجزء الخاص

(١) متسنمين: محتلين ومختفين.

(٢) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا.

(٣) سورة هنا: مجد.

بالناصر وحديثه في مطلعته عن حَظِيَّتِهِ مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرّة وأوقعتها في شَبَاكٍ سَخَطَهُ بدهائها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهي قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدِهِنَّ وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفي الحق أن كتابات ابن حيان في المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام:

هو أبو الحسن علي^(١) بن بسام التَّغْلَبِي الشَّنْتَرِي من شَنْتَرَيْن في أقصى الغرب على نهر تاجّه بالقرب من مصبه في المحيط الأطلسي عند أشبونة، وُلِدَ بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شيء من اليسار، وعُنِيَ بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه في صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء وَمَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أشبونة سنة ٤٧٧ ويلتقي بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدباء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم

(١) انظر في ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ١/٤١٧ ومعجم الأدباء ١٢/٢٧٥ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦/١٠٨ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجعته في محاورته مع ابن عبدون ١/١٤٤ وفي لقائه لابن الدودين ٣/٧٠٣ وفي عمله بدواوين إشبيلية ٤/٢٠ وفي ابتداء تأليفه للذخيرة ٣/٦٥٤ وفي أثناء تحريره لها ٢/٤٥٢ و٣/٧٨٧ و٤/٧ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعي (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة في ثمانية أجزاء.

ورسائلهم. وأكثر نصارى الشمال من الإغارة على بلده، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر في مقدمته للذخيرة - مروّع السّرب، بعد أن استنفد الطريف والتّلال، مما اضطره إلى التّقلب في البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد في كتابه الرايات إنه اتخذها موطناً له، ويذكر ابن بسام إنه خدم في بعض أعمالها السلطاني، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخي يوسف بن تاشفين الذي مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبي بكر، وقد ظل يلي إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاماً. ويشيد ابن بسام في مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدباء من العطاء الوفير، ولم يسمّه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف في حكم إشبيلية والبلاد وإنما يريد به سير بن أبي بكر. ويقول إنه قدّم إلى حضرته الذخيرة مطوّراً لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفياً بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفّره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك في أن سير بن أبي بكر أعطاه في نسخته مبلغاً ضخماً من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفي سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس في ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتّابها ترجمات ضافية،

وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربع أقسام: قسم لقرطبة وما يصاحبها من مَوْسطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربي حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقي من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتباً أو شاعراً أو أميراً أو وزيراً لا يكتفي بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعتمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعيناً بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان في كتابه المتين وبقدرة تحليلية وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافاً بيناً عن الثعالبي في يتيمة والعماد الأصبهاني في خريدته، إذ لا يرصف حشوداً من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاماً، على الرغم من أنه يعتمد في كتابه على السجع مثلها، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها في ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثلاً، هو ترجمته للشاعر أبي عبد الله بن الحداد الذي مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة^(١):

"كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرة، وبحرَ خبرٍ وسيرة، وديوانَ تعاليم مشهورة، وضح في طريق المعارف وضوح الصُّبح المتهلل، وضرب فيها بقُدح ابن مُقبل^(٢) إلى جلاله مَقْطَع، وأصالة مَنزَع، ترى العلم يَنُمُّ على اشعاره، ويتبين في منازعه وآثاره، وله

(١) الذخيرة ١/ ٦٩١.

(٢) قدح ابن مقل: سهم فائز من سهام الميسر.

في العروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخليلية، ورد فيه على السرقسطي المنبوز بالحمار^(١)، ونقض كلامه فيما تكل عليه من الأقطار. وأصل أبي عبد الله من وادي آش إلا أنه استوطن المرية أكثر عمره، وفي بني صمادح معظم شعره، ومع ذلك طوّل عندهم هنالك، ولحق بثغر بني هود، وله فيهم أيضًا غير ما قصيد، وهو القائل بعد خروجه من المرية من قطعة فلسفية:

لزمْتُ قناعتِي وقعدتُ عنهم
فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأسيرا

وكنْتُ سَميرَ أشعاري سفاهاً
فعدتُ لفلسفيّاتي سَميرا

وكان قد مَنى في صباه بصبيّة نصرانية ذهبت بلبّه كلّ مذهب، وركب إليها أصعب مركب، فصرف نحوها وجهه رضاه، وحكمها في رأيه وهواه، وكان يسميها نُورة كما فعل الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عن أحبّوه، وتغيير اسمش من علقوه. ود كتبت في هذا الفصل بعض ما قاله فيها من ملح، ورائق أوصافه ومدح، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرّ بتفضيله، ويشهد له بجملته الإحسان وتفصيله".

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائماً لا ييهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحاً تاماً على نحو ما نرى الآن في السجع الذي قدّم به ابن الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاماً، فهو عربي الأصل من قيس، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتنم عن

(١) هو سعيد بن فتحون وانظره في الجذوة ٢١٦ والذيل والتكملة ٤/ ٤٠.

ذلك أشعاره، وله في علم العروض كتاب ردّ فيه على الفيلسوف السرقسطي الملقب بالحمار محتجاً للخليل بن أحمد واضح هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهمة وقد ألمنا بذلك في ترجمة ابن الحداد. ويذكر أن مسقط رأسه مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بني صمادح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأمرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولّى وجهه إلى بني هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية "وحسن بعدُ بها مَثَوا، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه" وظل بالمرية إلى أن توفي بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا في الترجمة قطعة كبيرة من نشره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنْوِيرَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقي جميلة، وكأن أهلها سموها باسم عربي، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه في المعتصم بن صمادح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبي في جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضاً تتجلى لنا قدرته النقدية إذ يردُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعري، ويقول إن النابغة الذبياني سبق المعري إلى معناه وإن عبد الجليل بن وهبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبي وَجْزَةَ السَّعْدِي الأموي بيتا يتعلق بالمعنى. وينشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبي ويذكر أن المتنبي ألمّ في بيتيه بيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق في بيتيه ببيتين للنمري. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية في الذخيرة مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد في مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين في الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء في سيرته وحبه في مطالع

شبابه لنويرة أو في ثقافته أو في نثره أو في شعره وطرائفه وبدائعه في مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام في القسم الأول بحديثه عن أشعار بني الطنبلي (١/ ٥٤٤) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكن من مليح التعريض، وكأنه أراد به منحي أخلاقياً وإن لم يطبقه بدقة أحياناً. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى ديني إذ نراه في القسم الثاني بترجمته للشاعر ابن وهبون (٢/ ٤٧٨) يحمل على الشعر الفلسفي المتأثر بمنزوع المتنبي وأبي العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغي. وبحق حمل في القسم الأول بترجمة الوزير ابن السماخ (١/ ٨٤١) على الاستعارات البعيدة التي يمجها الذوق كأن يجعل شاعر للكلام كيساً يحل عقده، ويجعل شاعر تان للبلوى برصاً ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأساً. وكان له ذوق أدبي مصفى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يموج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولمع البديع الرائعة بل إنه يموج بفرائد لا تخصي للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفي أنهم يبلغون في الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملاً أدبياً أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره في مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس في الأدب وأنها منه في الأفق الأعلى. وفي الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسي بروائعه الباهة شعراً ونثراً محجوباً عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام في بعض الصحف أنه ابتداءً تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنياً بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة في قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر في بعض فصولها، إذ نراه في ترجمته للكاتب ابن أبي الخصال يذكر أنه لم يجد لديه في سنة ٥٠٣

شيئاً من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهوداً مضنية في سنين متطاولة، وهي جهود تنوء بها العصبة أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بلقين:

هو عبد الله^(١). بن بلقين بن حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي القيرواني آخر أمراء بني زيري لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة وإلبيرة زاوي بن زيري في زمن الفتنة، وظل إلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو في الثامنة من عمره، وحاز حظاً من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة في تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغماراً غير مجربين مثل سماجة الصنهاجي، ويقول ابن الصيرفي المؤرخ إنه كان جباناً هيابة مغمداً بالسيف، فكان طبيعياً أن ترتعد فرائصه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه عشرة آلاف دينار يدفعها سنوياً. وكان طبيعياً أن يهمل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقفته ألفونس في الزلافة وسحقه لجيشه سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المنافسات فيما بينهم ومدّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كل يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في

(١) انظر في عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروكسسال) ٢/٢٣٣ وما بعدها والإحاطة ٣/٣٧٩ وتاريخ ابن خلدون ٤/١٦١ والبيان المغرب لابن عذاري. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف في القاهرة.

الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرهما يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيتون وخشى على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بلقين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما ان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلصاؤه أن يلقي ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقيه مترجلاً مرحباً سائلاً العفو، فأمنه على نفسه وأهله وطيب خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشييعين يؤنسونه في الطريق ويتكفلون أموره، وكتب إليه يوسف: "لا أنساك ما بقيت" وأنزله بأغامت، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - في رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورزق ولدين وبنتا، وترك لهم - حين توفي - مالا جماً.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغامت كتاباً باسم "التيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة" وكانت قد حفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفنسال باسم "مذكرات الأمير عبد الله". وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكى مَقْدَم بني زيري الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوي بن زيري لإمارتهم في غرناطة وتدير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودي ابن النغيلة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النغيلة وإفساده

الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلاً لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلاقة معه مجاهدًا بهالة وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه في اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعداداً لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنوياً، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث في إمارته وبعض الشؤون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصل الحديث في عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للم شعثها ويصور مثل جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهي المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسي والاجتماعي والأخلاقي في الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة في حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسي والحربي فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن في العصر الأموي، بل أصبح حكام الأندلس

وأمرأؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط في حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس في الزلافة وردّه إلى وكره خاسئاً مدحوراً. ولا تصور المذكرات الانحلال الذي عمّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضاً غرناطة وجميع أحوالها في عهد بني زيري وخاصة في عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته في التواطئ المزري مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثا يحاول تبرير فساد سياسته التي أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروفنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتألت بتصحيقات لا تكاد في أحوال كثيرة توجد بينها مسافات في السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول^(١):

"أما الجند من البربر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بجحد^(٢) وقدّموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، بعدهم بأن يبقوهم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما من كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نية أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هم أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: "لأي وجه نحتمل الحصار طاجر هنا أو

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النص في غير موضع.

(٢) في الأصل: بحجر. ز جحد: نكران للحق.

صانع كما في غيرها. وأما الرعية فيخ بخ، ذلك ما كانت تبغي طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاك (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يونسوا عنده في أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخصيان كل طامع في إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصى منهم وليب كانا زعيمي المداخله ورأسا الفتك، يقولان: "نحن لا ولد لنا ولا تالد^(١)" فعلى أي شيء نصير^(٢) إلى القتال؟ وما عسى نطمع إن نصر إليه؟ هل تحصل لنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العيال، من سبق^(٣) استمتع بنا وكنا عنده من جملة الفيء، نزرق كسائر الكسب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدّم لأنفسنا، ووردت عليهم كتب أمير المسلمين بالإنزالات القوية والمثاقيل والمراتب العالية، يعدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم^(٤) له".

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرايطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولا رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقينهم في أماكنهم وزائدهم في رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة

(١) في الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من المال.

(٢) في الأصل: نصبر.

(٣) يريد: انتصر.

(٤) في الأصل: وإسلامهم لنا.

تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلاً بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكتفياً بزكاة العين وعشر الزرع، وانفض عن عبد الله سريعاً العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين في إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خَصِين كبيرين، قالوا إننا لا نعد أنفسنا شيئاً إنما نحن لمن غلب، وأرسلوا هما وأضرابهما الكتب إلى ابن تاشفين، وردَّ عليهم بأنه سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصراً، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تمضي على هذه الشاكلة في لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيفات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسي.

قصة^(١) حي بن يقظان لابن طفيل:

(١) طبعت قصة حي بن يقظان بمصر مرارا وفي دمشق وآخر طبعاتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعهها نفس القصة لابن سينا وللسهروردي وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر في قصة حي بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنشيا ص ٣٤٨ و٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص ٩٩ وما بعدها.

مر بنا في الفصل الثاني تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو في الذروة من الفكر الأندلسي، عاش في القرن السادس الهجري (٥٠٦-٥٨١هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث في قصة أدبية فلسفية قيمة له هي قصة حي بن يقظان، وهي قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشرعية أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكي بالتفصيل قصة حي ونشأته في جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف في تكوينه، ف قيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلى بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زواجاً كفوًّا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى "يقظان"، وحملت منه بجنين، ولما وضعت خشيت أن ينكشف سرها، فوضعت في تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج أليم، فألقت به في تلك الجزيرة وسمعت صياحه ظبية فقدت وليدها، فعطفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجاً إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذاً إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءاً بتحريك يديه واستخدامها وستر سوءته ومعرفته الصيد، والنار واستخدامها في إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان في الحركة وارتفاع الهواء واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل في ملكوت

السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحس حاجته إلى مشاهدته وما ينبغي أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبّد لذلك في غار الأيام ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق في تأملاته منفصلاً عن العالم الخارجي وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحسن شيئاً سوى واجب الوجود، وكأنها فنى فيه عن ذاته، فليس في الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنها هما شيء واحد أو كأنها ذاته هي ذات الحق. وكان يفوق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهي البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسي مرارا وتكرارا، وأحس أنها عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقي يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على "حي" وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد في الطريق الفلسفي الذي سلكه "حي" تعليلاً علوياً لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحي الذي اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التي يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقبّل عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدث أهلها عن العالم الإلهي الذي يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى في ذاته ولا في الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد في الحديث ازدادوا نبواً ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة،

فقد ألهتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحي لا تمكن، فحَسَبُهُم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر "حي" لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهي والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أَسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونقتطف من القصة قطعة يصور فيها "حي" أنه مازال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا في مشاهدته، واستطاع بجهاذه أن تغيب عنه جميع الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك في وضوح أن هذا الشعور شَوَّب يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، ومازال يجاهد في الاتحاد بربه يقول:

"مازال يطلبُ الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتَى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل وضمحل وصار هباءً مَثُورا ولم يَبْقَ إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود، واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولا تعلق قلبك بوصف أمرٍ لم يخطر على قلب بشر فإن كثيرا من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يندرُ وصفها فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القلب لا هو من عالمه ولا من طوره.. ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير في الوجود إلا الواحد

الحَيِّ القيومَ وشاهدَ ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاقَ من حاله تلك التي هي شبيهة بالسُّكر فخطرَ بباله أنه لا ذاتَ له يغير بها ذاتَ الحقِّ تعالى وأنَّ حقيقة ذاته هي ذاتُ الحق وأن الشيء الذي كان يظنُّ أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذاتَ الحقِّ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسبَ إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نورُ الشمس بحاله لم يَنْقُصْ عند حضور ذلك الجسم ولم يزدْ عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذاتَ الحق عز وجل لا تتكثَّر بوجه من الوجوه".

وابن طفيل في هذه القطعة من قصته يصور تصويراً رائعاً شعور المتصوفة بانمحائهم في ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها في أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه مع نصها العربي سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكلي إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: "روبينسن كروزو". وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة ١٧٨٢ وترجمها بونس بويجس إلى الأسبانية سنة ١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ وترجمها بالنشيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة ١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس في بحث نشره عن القصة بمديره سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوربال في مخطوط موريسكي يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي قصة بعنوان

قصة الصنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين في الأندلس) ورأى أنها تلتقي بقصة حي بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعي الأرجوني التي نشرت في منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس في محبس لتنجو من طالع سيئ، واستسلمت في محبسها لابن الوزير وحملت منه ووضعت وليدها في صندوق من الخشب وألقت به في اليم، فحملته الأمواج إلى جيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلاً من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أو تزيد زعم زعماً غيرياً هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حي بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته في قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه في ترجمته المجددة لقصة حي بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلاً بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حي بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف في المحيط الإسباني إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية في القرن السابع عشر! وكان ينبغي أن ينهيه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة في القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطباع الأشياء أن تكون قصة حي بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة في القرن الثالث عشر الميلادي أو قبله أو لعلها ترجمت قديماً إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضاً كان جديراً بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتي ابن سينا اللتين أشار عليهما ابن طفيل في

مقدمته لقصته وهما قصة حي بن يقظان وقصة سلامان وابسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحي بن يقظان عند ابن سينا هي نفس شخصيات قصة حي بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل في مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا في نزعتة الصوفية التي بثها في كتابه أسرار الحكمة المشرقية التي تقابل الحكمة اليونانية. وأيضاً فإنه تابع ابن باجة - الذي نوه به مع ابن سينا في مقدمة القصة - في كتابه تدبير المتوحد الذي يتحد فيه - كما مر بنا في الفصل الثاني - عقل الفيلسوف بالعقل العلوي الفعال مباشرة واصلاً بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل في مقدمته للقصة.

ولا علاقة أي علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالثيا وغيره، وأيضاً لا علاقة بين يقظان في القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حي ابن الله كما ظن بالثيا ظناً خاطئاً، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأي وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حرياً بغرسية وغيره أن يردوا عناصر الإطار في القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد "حي" بدون أم ولا أب في إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودي من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمر وتخلق منه "حي" فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين). وأما على التقدير الثاني وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد

الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعَضَلَهَا ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفَّاءً، وكان له قريب يسمى "يقظان" فتزوجها سرا وحملت منه ووضعت طفلاً، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت به في تابوت أحكمت زَمَّهُ (إغلاقه) وخرجت به في أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به في اليمِّ فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما رَدَّدته بعض كتب التاريخ العربي من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكي من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقاءهما، فقال لجعفر أزوجهما لكل ليحل لك النظر إليها ولا تقريبها، فقال: نعم. فزوجهما منه، وكانا يحضران معاً، وكان الرشيد يتركهما فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حي سراً من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل في وضع أم حى له في تابوت والقذف به في يَمِّ نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء في القرآن الكريم عن أم موسى حين وضعت وخافت عليه من فرعون ومَلَّته أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء في سورة طه - (أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) ونفس الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حي: "وضعت ابنها في تابوت ثم قذفت به في اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة" وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصي في قصة حي بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

المقامات والرحلات

(أ) المقامات:

فن المقامات من أهم فنون النثر العربي، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ - ٣٩٨هـ) نافذاً فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيارين المسمين في عصره بالساسنين المحترفين للكدية أو الشحاذا الأدبية متخذاً له أدبياً شحاذا، أو مستولاً كبيراً، هو أبو الفتح الإسكندري، ومعه روايته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حيل أبي الفتح في استخلاص الأموال والمطاعم من أيدي الناس بفصاحته وخلاصة منطقته في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع في العالم العربي ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحي - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهي المقامة الإبلسية، رسالته التوابع والزوابع التي بناها على لقائه في وادي الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مر بنا - يحاكيه في وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه في وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذا الأدبية، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبي حفص^(١). عمر بن الشهيد الذي لقيه الحميدي في
المرية سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صمادح (٤٣٩ - ٤٨٤هـ) ومقامته
أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعي
حال الكتابة في عصره وأنها أصبحت صنعة ممتن. ويكتفي ابن بسام بعرض فصول
منها، وفي أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك في السحر، وفي فصل
ثان يصف منزل بدوي دخله مع صحبه "فهش البدوي وبش، وكنس منزله ورش،
وصير عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زواية". ويتحدث عن أثاث بيته حديثاً فكها،
ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديك هرم، ويستغيث بهم الديك
ويتشفع - في حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوه أشبه بالأدوية منه
بالأغذية، ويرقون له. ويقدم إليهم البدوي بعض الطافه معتذراً ويقبلون عذره
ويرحلون سحراً عنه. وينزل مع صحبه قرية مسيحية سمعوا فيها صوت الناقوس
والموابير راعهم ما فيه من شمس وأقمار ولا سيوف إلا من مقل ولا تروس إلا من
خجل، فنزلوا فيه وشربوا من الدنان ما أسكرهم ثم شدوا الجياد عنه ركضاً فمروا
بكنسية متهدمة ويبكي ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضي مع صحبه إلى مروج
بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيراً من طير البرك، وينقش على مرمرة بيضاء
مقطوعة شعرية يصور فيها البرك ومياها وما صادوه من طيرها. ويستأنفون السير
ليلاً، ويلقاهم شاب فارس ممتطياً جواداً ومتقلداً حساماً، أبق من أهل حصن لنصارى

(١) انظر في أبي حفص بن الشهيد ومقامته الذخيرة ١/ ٦٧٠ وما بعدها، وراجع في ترجمته الجدوة للحميدي

مروا به، معلناً إليهم أنه عبد الصليب وقرع الناقوس إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إله واحد، ليس له ولد ولا والد. وبذلك تنتهي المقامة وهي أشبه بنزهة متعددة الشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبي الوليد^(١) محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكتابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولاً وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظفٍ شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملاً إليه كتاباً من أمير، فلباه، حتى إذا مثل بين يديه أسمعته مدحة فيه ثم تلاها بنثر مفرط في الثناء عليه من مثل قوله: "هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر^(٢)، والبحر الزاخر، أوهب الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطر من العنبر، في كل منبر، وأفوح من المسك الذكي، في كل ندى" ومضى في مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحاً، وازدهى مرحاً، وقام إليه فقبل بين عينيه. وبذلك تنتهي المقامة، وهي أشبه برسالة في مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبي محمد^(٣) بن مالك القرطبي، وقد ساق في ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صمادح أمير المرية

(١) انظر في ابن المعلم ومقاماته الذخيرة ١١٢/٢ وراجع الجذوة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

(٢) الخادر: المقيم بعينه.

(٣) انظر في أبي محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع في ترجمته القلائد ١٧٠.

ويغرق في مديحه إغراقاً شديداً، ونراه يطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب ووصف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيول مظهرًا في هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناء من مثل قوله: "جذب وريبع معرق، وليل ونهار مشرق، فيه الصاب والعسل والسهل والجبل، ثالث القمرين وسراج الخافقين"^(١)، وعماد الثقليين، المعتصم بالله ذو الرياستين". ويشكو للمعتصم عوز أهله وضيق ذات يده، وأنه لولا ما يقيده من أفرخ كزغب القطا لتقدم في صفوف جنده تارة محاربًا وتارة خطيبًا محمّسًا أو مهادئًا. وبذلك تنتهي المقامة، وهي أشبه بقصيدة مدح طويلة دبجها في المعتصم بن صمّاح.

وعلى هذا النحو نفتقد المقامة التي تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية في عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ) ويؤلف مقاماته في أواخر القرن الخامس وسرعان ما تدوي شهرتها في العالم العربي ويؤمه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمه من الأندلس في فواتح القرن السادس الهجري أبو^(٢) القاسم عيسى بن جهور القرطبي وأحمد بن محمد بن خلف الشاطبي وأبو الحجاج يوسف القضاعي البلنسي والحسن بن علي البطليوسي، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دراسيها هناك يتجرد لشرحها، منهم عبد^(٣) الله بن ميمون العبدري القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر في ترجمة أبي القاسم بن جهور وزملائه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدري في المغرب ١/ ١١١.

العباس^(١) أحمد الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طبع بمصر مراراً في جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريري تقوم - مثل مقامات بديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشحاذا الأدبية، وقد بلغ الحريري بفنها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارسهم لمقامات الحريري وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار في القرن الخامس الهجري القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحي الحريري في مقاماته الساسانية القائمة على الكدية والشحاذا الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدوحية لمحمد^(٢) بن عياض اللبلي المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها، والمقامة العياضية لمحارب^(٣) بن محمد بن محارب الوادي آشي المتوفى سنة ٥٥٣ وهي في مديح القاضي عياض، ومقامة في هجاء بعض أعيان مالقة لعل^(٤) بن جامع الأوسى، والمقامة النخيلية لأبي الحسن النباهي المالقي المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهي مفاخرة بين النخلة والكرمة. وللسان الدين بن الخطيب مقامة في السياسة، وهي أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغي أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل في رعيته وتعهده المجاهدين في

(١) راجع في الشريشي التكملة ١١١ والنفع ١٥٥/٢ والمنهل الصافي ١/٣٥٤.

(٢) انظر ترجمة ابن عياض في المغرب ١/٣٤٤ والتكملة ص ٢٣٣.

(٣) التكملة ص ٤٠٧.

(٤) راجع ترجمته في الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

سبيل الله وأن لا يعولوا في كسبهم إلا على مغانمهم كالجوارح لا تطعم إلا من صيدها وما يقع في مخالبتها، ويلم بسياسة العمال في ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودحض الباطل، وكل ذلك على لسان شيخ فارسي ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعمارة البلدان والتمسك بالشرعية. والرسالة حرية بأن تقرر برسائل السياسة عند ابن المقفع. ولللسان الدين غير مقامة في وصف رحلات له في بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهي أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك ستتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالي منتصف القرن التاسع الهجري يشتهر - في أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزجال، وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما في أمر الوباء الذي ألم بغرناطة زمن أميرها الغني بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشي الوباء، ويقول إنه ينبغي أن يتحول عنه إليمالقة التي كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التي تستوحي مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التس تستوحي الحريري في مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التي رواها الحارث بن همام عن بطلها أبي زيد السروجي. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقي، وهي خمسون مقامة، وسنخصصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال الذي مرت ترجمته والمتولى سنة ٥٤٠ هـ وله مقامة^(١) ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريري: أبا

(١) انظر في مقامة ابن أبي الخصال تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان

زيد السروجي، كما جعل الراوي لها نفس رواية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة بمنظر في الريف والناس متجمعون حول أبي زيد السروجي، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدراهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبي دعوته، ويطعم عنده الطعام المرئ، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركاً له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة في وصف الخمر والشاربين ومن في الحانة من الجواري والغلمان. ويقضي البطل وروايته فيها يوماً هنيئاً، وتنتهي المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندري هل هي كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هي تستلهم الحريري في مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التي استلهمته مقامة العيد لعبد^(١) الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بليش، وكانت مجاورة لمالقة، وهي مقامة خاطب فيها الرئيس ابا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكي قصة ساساني من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتي بشيء وأخذت تهون من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عدا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل

(١) راجع في ترجمة عبد الله الأزدي ومقامته الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٣/ ٤٢١ وما بعدها.

الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مر بقصاب (جزار) وبين يديه عنز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدكان موثق يكتب لهما عقد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شرد، فأخذ ينادي في الأسواق والأزقة من رأي عنز، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقذور. وطلبه المحتسب (شرطي السوق) وصاحب الدهليز أمامه ييكي، ولم يعف عنه إلا بعد أن أدى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجه به مع الحمال إلى داره ولم تبق في الزقاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربة البيت، فبادرت زوجها تقول: "ليس في البيت خل ولا زيت، ومتى تفرح زوجتك، والعنز أضحتك، وافلة سعدها، وأخلف وعدها، وما حبسك عن الكباش السمان" وتأخذ في وصف الكباش السمين الذي كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سجعاً عذباً، وهي تصور جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصور ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأزرت به، وتصور القصاب في زيه وقد شد في وسطه مئزرة وقصر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمير ساعديه، وتصور جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده

من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهي مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسرقسطي:

هو أبو الطاهر^(١) محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الإشتروني نسبة إلى اشتروكه: حصن من أعمال تطيلة في الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكراً للقاء الشيوخ النابهين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسي ببلنسية وعن أبي بكر بن العربي بإشبيلية وعن أبي علي الصدي بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبي محمد الركلي بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطي وذكرت أنه توفي بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثار كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية.

(١) انظر في أبي الطاهر السرقسطي الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققة الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

وقد وضع السرقسطي مقاماته في محاذاة مقامات الحريري وعلى غرارها من اتخذها بطل لها من أبطال الشحادة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب في محاذاة بطل مقامات الحريري: أبي زيد السروجي واتخذ له رواية هو السائب بن تمام في محاذاة راوية مقامات الحريري: الحارث بن همام. وذكر مع السائب في تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطي مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريري وبنائها مثله على عرض حيل شحاذ أدبي كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريري في أنه لا يعطي لكل مقامة لقباً خاصاً بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هي التي ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسي من عمان وكثيراً ما يظهر ي ثياب خلقة وأسفال، منكراً لشخصه على طريقة الحريري. وهو دائماً واعظ يزهد الناس في الحياة ويحثهم على عونه لما يرون من سوء حاله، ويلقون إليه بالدراهم والدنانير، أو يبدلون له المأكّل والطعام، متخذاً دائماً حيلة أو موقفاً، به يستدر عطفهم. وكثيراً ما يشترك معه في الموقف أو الحيلة روايته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التي يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حرة، فيظفر بالثمن، وترد إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطي مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى فيه بأبي العلاء المعري فالتزم في نسجه مالا يلزم من تعداد قوافي السجع أو نهاياته مشروطاً على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفي بتصعيب الممرات إلى سجعاته في بعض مقاماته، إذ نراه في المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها

ثلاثية ولذلك سماها المثلثة مفتتحاً لها بقوله: "اقمت في غزنة"^(١)، فتشرفت من مائها أي مزنة، وتوطأت من أكنافها كل سهلة وحزنة" وسمى تاليتها المرصعة لأنه لم يكتف في سجعاتها بالاتفاق في حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله في مطلعها: "حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العطن"^(٢) المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب" وسمى الثامنة عشرة المدبجة، لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهايتها وتتبادل، على شاكلة قوله في وعظها: "وسامك"^(٣) السماء ورافعها، وماسك الدماء ودافعها، إنك في حبائل الرزايا المضطرب، ومن مناهل المنايا لمقرب"، واشترط على نفسه في المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سماها الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الداية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع في السادسة والثلاثين فاختم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف في هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن في المقامات الأربع التالية وأولاهها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن في الوعظ والوصف ونسج الكلام.

(١) غزنة: مدينة في أفغانستان.

(٢) العطن: مبرك الإبل.

(٣) سامك: رافع.

ويتنقل السرقسطي ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض في أولاهما على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء في الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموي والعباسي، وخص الثانية - وهي المقامة الخمسون - بالحواري النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا في هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب اللوثام، مبيِّناً أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريري ابنه في مقامته الأخيرة - أن يقوموا على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين في العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهي في وصف الخمر وحاناتها. ودائماً يتنقل الشيخ أبو حبيب في مقاماته من بلد إلى بلد في العالم الإسلامي منكراً لشخصه متحولاً من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفي كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل في الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل في المغرب طنجة والقيروان، ونزل في مصر الإسكندرية ودمياط وفي الشام فلسطين وحلب. ونزل في أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشحر وظفار وزبيد والبحرين واليمامة، ونزل بالعراق في بغداد وواسط والأنبار والرقعة وحران، ونزل بإيران في الأهواز وأصبهان والري ومرو، وتوغل في بلاد الترك إلى الكرج وصول وغزنة. ولا يكتفي السرقسطي بإنزال بطله في البلدان الإسلامية والضرب في الصحاري والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريري بحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب

تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا في المقامة الرابعة والأربعين وسأها العنقاوية نسبة إلى العنقاء أثى الرخ، وهما طائران خرافيان ضخمان يتردد ذكرهما في أحاديث بحارة العرب عن رحلاتهم في أعماق البحار والمحيطات مبالغين في وصف ضخامتهما وقوتهما الخارقة وحملهما لمن تحطمت سفنهم إلى البر والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الربان بزرك بن شهريار من بحارة القرن الرابع الهجري في كتابه: "عجائب الهند: بره وبحره وجزائره" إذ يقول إن الرخ أنقذ سبعة غرقت سفينتهم في جزيرة بقرب الهند ويروي عن بعض الملاحين أنه رأى ريشة من يشه تسع وخمسة وعشرين قرية من قرب الماء! كما يذكر أن بحارة وقع في سفينتهم عيب اضطرهم أن يقدموا بها إلى جزيرة صغيرة رأوها في طريقهم، فنزلوا بها وأصلحوا عيب سفينتهم وعن لهم أن يوقدوا ناراً لبعض أغراضهم، فأحسوا الجزيرة تتحرك من تحتهم، فأسرعوا بالنزول إلى سفينتهم، وتولتهم الدهشة، إذ رأوا الجزيرة تغوص في الماء وعرفوا أنها سلحفاة كانت طافية على وجه الماء وأحسنّت النار فغاصت. وإنما ذكرت هذه السلحفاة الضخمة الخرافية والرخ الخرافي قبلها لأن من يقرأ مقامة السرقسطي العنقاوية لا يشك في أنه قرأ كتاب بزرك بن شهريار، وأنه استمد منه حين جعل بطل مقامته وروايته يلججان في رحلة بحرية، "ويخرجان إلى جزيرة عريضة وأرض أريضة"^(١)، ولا ألباب ولا أفكار، ولا عرفان ولا إنكار، إلى أن استيقظا من تلك الغمرات، وصحوا من تلك الكسرات، فعلما أن الجزيرة حيوان بحري أصحر^(٢)، ثم أبحر، وشمس، ثم قمس^(٣) في الماء وانغمس^(٤) والسرقسطي

(١) أريضة: حسنة المرأى.

(٢) أصحر: برز في الصحراء أو الأرض.

يشير بهذا الوصف للحيوان إلى أنه سلحفاة، فإنها حيوان بحري بري إذا نزل إلى الماء قصدا للاستراحة من طول المقام في البر طفا على وجهه. وما يلبث السرقسطي أن يقول إن بطل المقامة وروايته "أظلتها ظلة ظليلة وسحابة بليلة". وتهبط السحابة إلى الأرض وإذا هي الرخ فرخ العنقاء، ويطيل السرقسطي في وصفه وكيف تعلقا بأطراف ريشه يقول السائب الراوي.

"ثم لما صدع الفجر ووضح، وأخضل^(١) الندى ونضح، سار في الهواء سيرا رقيقا^(٢)، وجعل السحاب يسايرنا رقيقا، تخفق تحتنا البروق، وتتطلع إلينا المغرب والشروق، إلى أن فارقنا البحار، وعلمنا أنه الإصحار^(٣)، ولما نحن من ليلنا الإسحار^(٤). ثم أخذ في الإنصباب إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض مونقة وأزهار، فخبرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلبنا بين أرضه وسمائه". ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويرفدوه بالصلوات الحفية، والهبات الخفية وهو دائما يضمن مقاماته مواعظ خلقية وينهي المقامة بشعر، وقد يثر منه في تضاعيفها. ويعود السرقسطي في المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة في جزائر الهند لبطل مقاماته وروايته، غير أن الراوي لا يفضي فيها إلى وصف تلك الجزائر

(١) شمس: نفر. قمس في الماء: غاص.

(٢) أخضل: ابتل.

(٣) رقيقا: لينا متندا. رقيقا التالية: صاحبًا.

(٤) الأصحار: يريد الأرض.

(٥) الأسحار: السير في السحر.

ولا إلى شيء من العجائب البحرية هناك إذ شغل عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل في مجلس غناء. وكأنها كان السرقسطي مطلعاً على شيء من الغيب، إذ جعل البطل في المقامة الحادية والأربعين يتعيش من دب يراقصه ويزمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مدريد في عصرنا إنما هو الدب. وفي الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطي أروع المقامات الأندلسية التي حاكت مقامات الحريري بعده، وكانت حرية بأن يتجرد لها شرح مثل الشريشي مواطنه، وكأنها ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح في الأدب الإسباني إذ نشأ على غرارها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي لون من الفن القصصي ازدهر خلال القرن التالي يصف حياة المشردين والمسؤولين ويقوم على الشحاذة أو الكُدْية، سُمِّيَتْ أقاصيصه باسم "الأقاصيص البيكارسية" وُسِّمِيَ بطلها باسم "البيكارو" ودائماً نشأته متواضعة ويعاني من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسوّل حرفة له يكسب بها قوته مستخدماً في ذلك حيلة وألاعيب شتى تماماً كالشيخ أبي زيد السروجي في مقامات الحريري وكالشيخ أبي حبيب في مقامات السرقسطي، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظية خلقية^(١).

(ب) الرحلات:

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنوياً لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوي الشريف هي التي جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار في العالم الإسلامي وما وراءه من

(١) أنظري ذلك د. مكّي في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

بلدان وشعوب في آسيا وأوروبا وخاصة في أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضاً فإن تعدد مراكز الثقافة في العالم العربي وفي الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّبَ الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد في عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه في جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التي كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة في عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء في الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى في أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد^(١) بن مسلم الداني عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صَاحِد أمير المِرية والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨-٤٧٥هـ) أمير سرقسطة في أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته في رسالة طويلة سماها "طى المراحل" قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفي فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقاءه، ويذكر دعوة إقبال الدولة لإخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم. ويقتطف ابن

(١) انظر في الداني الذخيرة ٣/ ٤٢٧ والمغرب ٢/ ٤٠٥.

بسام من رسالته قطعاً بديعة في وصف الطبيعة، وأخرى في وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تحييهم طساس^(١) من التبر وأباريق رُصّعت بالدر. وللشراب حجر خاصة وكأن الأطباق فيها مقل الجفون ملئت من قُرّة العيون وكأن الكئوس مرّاشف الحور تُمزج بحباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: "كثيراً ما كنت أقترح إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنى وقفةً فيها ولو على قدم، وأرعب (في) زيارتها ولو لمأماً، وأودُّ رؤيتها ول مناماً، لألح دار الخلافة، وارى بيت الرياسة، وجعلت أسلك في منازل المدينة، وأنظر في تلك المشابه المبنية، فإذا رسومها قائمة الأعلام، ونصبها ماثلة الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المرواني وانتبذت إلى المنتزه العبد الرحمانى^(٢)، فإذا الثلاث الأثافي^(٣) والديار البلاقع^(٤). وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هي قبورهم، قد صارت معاقلهم تراباً، ومساكنهم يباباً^(٥)".

ويطيل في تصوير مجد قرطبة أيام بني أمية ويبكيها بكاء مؤثراً ويصور جامعها وقبابه ومقصورته الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثماني بجانيه، وكأنها

(١) طساس: جمع طست.

(٢) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموي بقرطبة.

(٣) الأثافي: جمع أثفية، والثلاث الأثافي: ثلاثة أحجار توضع عليها القدر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٤) البلاقع: المقفرة.

(٥) يبابا: خراباً.

بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختتم الداني رسالته بزيارته للمعتضد في إشبيلية وبيان مى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري ومن أهمهم أبو حامد^(١).
الغرناطي (٤٧٤-٥٦٤هـ) شَغف بالرحلة وتحوَّل في إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١
ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحوَّل إلى نواحي البحر الأسود (بحر
لاخزر) وتوغَّل في بلاد الصَّقالبة والبلغار وعلى ضفاف نهر القُولجا، وصعد إلى أقصى
الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب" وله
كتاب سماه "تحفة الكبار في أسفار البحار" ونشر سيزاردوبلر بمدريد ما شاهده في
شرقي أوروبا، وهو يكثر فيه من ذكر اخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى
حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُّخْلوقَة يتزحلق بها الناس على الثلج في
روسيا يقول:

"الطريق هناك في أرض لا يفارقها الثلج أبداً، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً
(زُخْلوقَة) ينحّءونها، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدمدض ذلك اللوح
ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه
ثقب، وشَدّوا فيه سيورا من جلود قوية يشدّونها على أَرْجلهم. ويقرن (الرجل) بين

(١) انظر في أبي حامد ورحلته مقدمة جبريل فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيقه
قطعة من كتابه "المعرب عن بعض عجائب المغرب" وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي تعريب
الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس
ص ٣٠٣ وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنشيا ص ٣١٢.

اللوحين اللذين يكونان في رِجْلَيْهِ بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمى عَصًا بطوله، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشي هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد البتة، وأي حيوان يمشي عليه يَغوص في ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشي عليه بخفة وسرعة". وهي صورة من الترحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة الترحلق الحديث الذي تُعقد له المسابقات سنوياً في البلاد الأوروبية.

ونلتقي بعد أبي حامد الغرناطي من رحالة الأندلس بآبن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطي القاضي أبو البقاء^(١) البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته "تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق" وقد لقي فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها في ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعينّه أميرها كاتباً في ديوانه زمناً يسيراً، ثم عاد إلى بلده فعين بها قاضياً. ويقول لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة إنه حجّ وقيد عن العلماء، ورحلته في سفر وصف فيه البلاد ومن لقي بفصول، جلب أكثرها من كتابات العماد

(١) انظر في أبي البقاء ورحلته الإحاطة ١/ ٥٠٠ ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة الكامنة ص

الأصبهاني وصفوان بن إدريس. ولابن جابر الوادي آشى الذي مرت ترجمته في الفصل الماضي رحلة دُون فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن^(١) الحاج النميري المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عَيَّن كاتباً في ديوان أبي الحجاج يوسف الأول أمير غيناطة، وفي سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل في عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها، الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المريني حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأجبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فعَيَّن قاضياً إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعراً مجيداً في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة "فيض العباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب" وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهي في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريني من فاس إلى سلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بني مرين لقسنطينة وعنابة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها

(١) راجع في ابن الحاج النميري الإحاطة ١/ ٣٤٢ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج ص ١٤ والمنهل الصافي لابن تغري بردي ١/ ٦٦ وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٨٧ ونثر فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفح الطيب ٧/ ١٠٩ ورحلة: "فيض العباب" حققها الدكتور محمد بن شقرون ونشرها في الرباط.

ابن الحاج بأسلوب أدبي التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذي مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته^(١) مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سماها: "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" وقد سار موكب أبي الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقي من العاصمة غرناطة إلى وادي آش فإلبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بشجر المَرِيَّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملوا سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحين الرجال ويحيهن الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطي رحلة ثانية سماها "معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار" ويسمىها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصف فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور في تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافي وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر

(١) انظر في هذه الرحلة وتالياتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادي.

محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعاً مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلّة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سماها "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" وكانت في أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقي الجزء^(١) الثاني وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هنتاتة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبي الحسن المريني ويفيض في الحديث عن أحوال قبيلة هنتاتة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحييه بقصيدة ويلم بمراكش وغيرها من المدن في طريقه إلى مدينة سلا على المحيط، ويذكر كل ما في تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقي بأخرة من زمن دولة بني الأحمر في غرناطة بالقلصادي على بن محمد القرشي البسّطي (٨١٥-٨٩١هـ) الذي مرّ ذكره في الفصل الثاني بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سماها: "تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب" حققها وقدم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - في وصف البلدان التي نزلها ذهاباً وإياباً في رحلته إلى الحجاز، بل يلّم بها في إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذي تتلمذ لهم فيها، وخاصة في تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخاً. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهي كتب اشتهرت بها

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادي بالقاهرة.

الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

رحلة ابن جبير:

هو محمد^(١) بن أحمد بن جبير الكناني البلسي المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلسية سنة ٥٣٩ وُقيل سنة ٥٤٠ وسمع في نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكْبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل في الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرابه وعبثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كئوس، فملا أبا سعيد الكأس دنائير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصل من غرناطة في شوال، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة،

(١) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٢/ ٣٨٤ والإحاطة ٢/ ٢٣٠ ومقدمة رأيت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دي خويه لطبعتها في ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوففسكني ص ٢٩٩ وبالنشأ ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية في ابن جبير وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠-٩٤. والرحلة طبعت مرارا في ليدن والقاهرة.

وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو في كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدون ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وأمت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوّل في بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها في قرطاجنة بساحل الأندلس في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١.

ورحلة ابن جبير تقصّ ما شاهده في البلدان التي زارها ونزل بها في صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وكأن الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائياً، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" وأثر من نشرها في العصر الحديث من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم "رحلة ابن جبير". وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجّ في كل منهما، والسبب في أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعاً إلى إسماع الحديث النبوي وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبي جعفر الوقيشي وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله في طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما في الشكوى من إخوان الزمان - ديواناً سماه: نتيجة وجد

الجوانح في تأيين القرين الصالح". ولكي يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته في نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدي جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يوق ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر في أحيان كثيرة كأنها بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما في تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنًا والعالم الذي يدرس عليه والراتب الذي يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام في روحة باهرة. ويطنل في وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرة كاملة الكسوة للرجال وما اتخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبائيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عيذاب على البحر الأحمر ويقول في بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام في لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يغشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائعة الترصيع والتجزيع وقباب بديعة وسوار وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئاً في المسجد ولا

في ظاهره وسطحه إلا تقيده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحه التي رسمها للمسجد الحرام، ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

"الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليه مما يلي الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله. وجميع سعتها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنا وسبعون شبرا، وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت، الرائع النعت، وينتهي إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر قد علاه تضيخ المسك والطيب، والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود متصلة بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسّمك المسجد. وإلى حيز إزار الرخام تنتهي الأستار، وهى لازوردية اللون.. وفي الصفحة القبليه أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسار فضة، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو عشرين قنديلا معلقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة، وهو مرخم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجة ثمانية، وله باب على هيئة الشباك مقفل، يفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمنبر مغشى بعود الآبنوس، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر، قد طبق عليه بلوح من

الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيدخل الناس أيديهم إليه ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم".

ويسترسل ابن جبير في وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضي الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعاظها وخاصة ابن الجوزي إمام عصره في الحديث والوعظ وفي وصف إحدى مواعظه يقول:

"أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبح البحر، ونعتسف مفازات القفر. إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابعة، والوجهة المفلحة الناجحة".

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها في الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها (تقابلها) وتحاذيها". ويطيل الوصف

لمسجدها الأموي العظيم وما به من عمد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقفه من الفسيفساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض في الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبي في الشام، كما أشاد بها في الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله في ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون في الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أي اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار في عافية. ويبحر من ميناء عكا مع التجار النصارى في إحدى سفنهم المعدة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسينة في صقلية، فنزل بها وتجول في بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة في مطالع القرن الثالث الهجري وعربوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويرعون علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلية حينئذ أن تصبح مجازاً لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا وخاصة في عهد بوجر الثاني وابنه غليوم اللذين طبعاً حياة الدولة في أيامهما بالطوابع العربية الإسلامية، ويصور ذلك ابن جبير في حديثه - برحلته - عن غليوم الذي زار الجزيرة في عهده، فيقول عنه:

"هو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (في أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - "الحمد لله حق حمده" وكانت علامة أبيه "الحمد لله شكراً لأنعمه". وأما جواريه

وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدثنا به خديمه: يحيى بن فتيان الطراز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مسلمة، تعيدها الجوّاري المذكورات مسلمة، وهن على تكتّم في ذلك كله، وهن في فع لاخير أمور عجيبة... وأما فتياهن الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً (طلباً للأجر) ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً، ولهم في فعل الجميل أخبار مأثورة". وهي وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين في أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقل ابن جبير في الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى في "بالرم" العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زي المسلمات ويتحجبن مثلهن منتقبات بالنقب الملونة كما يتزين على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستتكس هناك وسيصبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثراً بعد عين، وصدق حدسه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسي ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبي المرسل البليغ فحسب، بل أيضاً بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - في الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئاً يميزها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبر برون في القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومر بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢هـ / ٧١١م والجهود التي بذلها موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتحها حتى خليج بسكاي وجبال البرينيه التي تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضي أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيها إلى شماليها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويستدعى الفاتح العظيما إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذوا من كلمة "فندالس" سكانها في الجنوب. وتدخل الأندلس في عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسناً في غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبنانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مراراً على نهر الرون وفي اتجاه بواتيه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطراً كبيراً من أوروبا الغربية.

ويقيض لانتشال الأندلس من العصبية المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحر الزقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دجولة آبائه في دمشق التي قضى عليها العباسيون قضاء مبرماً سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون في تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة في التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذي أنشأ للدولة أسطولاً يحمي موانئها على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاماً إدارياً حضارياً، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة في المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذي فرض سلطانه على المسيحيين في الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهي بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاماً. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء في الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتاب، وتنفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف وللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يب منزع في قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعاً يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس

السادس في الزلافة سحقا ذريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيف، وتعود الأندلس في بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث في القرن السابع الهجري، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدي لجيش ألفونس الثامن في موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة في حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عباد الصحابي الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم في المجتمع الأندلسي من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا في الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة مبتدئة بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية في عهده وفود زرياب تلميذ اسحق الموصلي - أكبر الموسيقيين في عهد الرشيد - على قرطبة، ومكن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية في الأندلس بإنشائه له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف اثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية في المأكل وملبس الجنسين وتزيينهما في الهيئة والمظهر،

وأيضاً في اتخذوا الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والأنتق في أثائها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرًا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هي مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام في وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرم لبني ذي النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغت الحضارة المادية في العمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة في هذا المجتمع الأندلسي الحضاري مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها في المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصواحب الصالونات بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير في الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلاً وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألق فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجري وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري.

ولم يكن لإيبيريا دور علمي في العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعمل عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية

المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة في مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجري، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع في الرياضة أسماء مسلمة المجريطي والزرقالي والبطروجي والرقوطي، وتلمع في الطب أسماء الزهراوي وبنو زهر وابن رشد، وفي الصيدلة أسماء الغافقي وابن العوام وابن البيطار وفي الفلسفة أسماء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفي الجغرافية أسماء الرازي وأبي عبيد البكري وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدي كتاباً في طبقاتهم حتى زمنه في القرن الرابع الهجري، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوي ولغوي، ومن أشهرهم الرباحي راوي كتاب سيبويه عن أبي جعفر النحاس المصري ومنذر بن سعيد راوي معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصري، والزبيدي نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلي وابن سيده والشتمري وابن الطراوة وعيسى الجزولي وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتاني المتطبب وحبيب والكلاعي والمواعيني وابن رشد وأبي البقاء الرندي، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجني.

وينقل القراء مبكرين عن روش المصري قراءته وتشيع في الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعي والطلمنكي ومكي بن أبي طالب وأبو عمرو الداني والشاطبي وابن حيان. وتعني الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أسماء بقى بن

مخلد وابن أبي زمين وابن عطية والقرطبي وابن حيان. ويتكاثر المحدثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدي وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهاءهم وقضاتهم عليه وعلى حملة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شبطون وعيسى بندنيار ويحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلي. وينشط المذهب الظاهري هناك، ومن كبا أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وغسما عيل الرعيني، كما عرفت المذهب الأشعري عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، ومنهم من كتب في التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب في تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازي وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفي وابن صاحب الصلاة وأبي الحجاج البياسي وابن الخطيب. ومنهم من كتب في السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعي وابن سيد الناس. ومنهم من كتب في تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب في الأنساب مثل ابن حزم وفي تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب في التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضي وصاعد والحميدي وابن بشكوال والضبي وابن الأبار والملاحي وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب في تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والخشني والنباهي، ويشتهر في الترجمة للأطباء ابن جليجال

وللغويين والنحاة الزبيدي وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحرر.

وأخذت أبحاث بحثاً تحليلياً تاريخياً في نشاط الشعر والشعراء موضحاً كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلاً قوياً، وشركهم المسيحيون في هذا التمثيل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسراً ومتعجباً أشد العجب من هجران الشباب المسيحي للغة وطنه الرومانثة وتمثله للعربية معجباً بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولاً بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشاب أتقنوها وكتبوا بها أشعاراً ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلاً بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عينوا كتاباً في دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية رييرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في حياتهم اليومية لهجة رومانية من اللاتية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعاً من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعاً عاميات دخلتها في جميع البلدان العربية بألفاظ من لغاتها الأصلية التي كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع في الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث في عامية الشام ومصر وغيرهما من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها في ذلك نفس شأنها وازدهارها في جميع الأقطار العربية، وتدلل على ذلك دلالة بينة كثرة الشعراء في كل بلد بالأندلس حتى في الريف وبين أهل القرى، وهي كثرة تأخذ في

الاتضاح منذ القرن الثالث الهجري، وتتسع سعة شديدة في عصر أمراء الطوائف، إذ تعدد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون في إطار طوال العصور التالية. واستطاعت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربي وبين بعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هي صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هي المسمطات، وكان أول من أحدثها عربي هو مقدم بن معافى، وأعطاهها صورتها النهائية بعده عربيات هما الرمادي الكندي وعبادة ابن ماء السماء الأنصاري. وعرضنا أو أشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، وألمنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا في دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبتنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائيين، ولصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عرضت روائع الغزل على مر العصور مجسدة الشأو البعيد الذي بلغته الأندلس في تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما في الحب العذري العربي القديم من حين ملتان وحب ظامي لا ينطفئ أوراها، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم في الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل في الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. ونلتقي بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس في شعر الطبيعة ذروة لعل إقليما عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفي مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة في حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة في الأندلس وي مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء لزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفي ازدهارا عظيما على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربي. وتزدهر فيها المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادي آشي. ومنذ سقطت طليطلة في القرن الخامس يستصرخ الشعراء العرب ومواطنيهم لاستنقاذ مدنها من أيدي حملة الصليب، ويتعالى الصراخ في القرن السابع الهجري وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبي البقاء الرندي.

وازدهر النثر في الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر بها، ويتضح ذلك في كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفي مقماتهم البزلياني وأبو محمد بن عبد

البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن الخطيب، كما يتضح في كثرة كتاب الرسائل الشخصية وفي مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجدي. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهي في تفضيل أهب (جلود) الشياه على البسط مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون في فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التي يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة الترييع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسية الذميمة في الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي. ونلتقي بأعمال نثرية متنوعة وفي مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه في الحب العذري مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر في الأندلس. ونلتقي بالمقتبس لابن حيان وهو طراز في الكتابة التاريخية لا نظير له في كتابه التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية وعرض ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمر غرناطي هو عبد الله بن بلقين، كما تلقانا قصة حي بن يقظان لابن طفيل، وهي قصة طفل ألقى به بعد مولده في جزيرة مهجورة، فتبنته طيبة فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقاً وأخذ يشعر

برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت أن طفيل أن التأمل العقلي الخالص المفضي إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء في أن كلاً منهما يؤدي إلى نفس الغاية وهي الاتحاد الصوفي بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتاً بيناً أن عناصر القصة عناصر عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت في الأدب الإسباني إذ استوحيت منها قصة موريسكية هي قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسباني اليسوعي جراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثاراً مختلفة في الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزي دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات في الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريري في مقاماته القائمة على الكدية والشحاذة والتفاح بالسهج والتعبيرات الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطي وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحروف في قوافي السجع محاكاة لأبي العلاء في لزومياته، وتغلغله ببطل مقاماته في أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذكر - في إجمال - ما أثر به فن المقامات في الأدب الأندلسي إذ نشأت على غرارها في القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها "البيكارو" يترجع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلاً إلى ما يكتسبه عن طريقهما بحيل وخدع شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة في المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى في الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة في الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب في رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية في آسيا وشرقي أوروبا واكتشاف المجهول في تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبي حامد الغرناطي إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير في البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في مكتبة الدراسات الأدبية	في الدراسات القرآنية
*الفن ومذاهبه في الشعر العربي	
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة	
*الفن ومذاهبه في النثر العربي	*سورة الرحمن وسور قصار
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة	عرض ودراسة
	الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
*دراسات في الشعر العربي المعاصر .	في تاريخ الأدب العربي
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة	*العصر الجاهلي
*التطور والتجديد في الشعر الأموي	الطبعة الثالثة عشرة ٤٣٦ صفحة
الطبعة الثامنة، ٣٤٠ صفحة	*العصر الإسلامي
*شوقي شاعر العصر الحديث	الطبعة الثالثة عشرة ٤٦١ صفحة
الطبعة الثانية عشرة، ٢٨٦ صفحة	*العصر العباسي الأول
*الأدب العربي المعاصر في مصر	الطبعة الحادية عشر ٥٧٦ صفحة
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة	*العصر العباسي الثاني
*البارودي رائد الشعر الحديث	الطبعة السابعة ٦٥٧ صفحة

الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة	*عصر الدول والإمارات
*الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية	(الشام) الطبعة الثانية، ٣٥٦ صفحة
الطبعة الرابعة، ٣٣٦ صفحة	*عصر الدول والإمارات
البحث الأدبي :	(مصر) الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة .
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره	*عصر الدول والإمارات
الطبعة السادسة، ٢٧٨ صفحة .	(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة
*الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.	*عصر الدول والإمارات .
الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة	(ليبيا - تونس - صقلية)
*في التراث والشعر واللغة	الطبعة الأولى، ٤٤٦ صفحة .
الطبعة الأولى، ٢٧٨ صفحة	(مصر) الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة .
الرحلات	في الدراسات النقدية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	في النقد الأدبي

الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة	* في التراث المحقق
فصول في الشعر ونقده	* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد
الطبعة الثالثة ٣٦٨	الجزء الأول - الطبعة الثالثة، ٤٦٨ صفحة
في الدراسات البلاغية واللغوية	الجزء الثاني - الطبعة الثالثة، ٥٧٢ صفحة
البلاغة: تطور وتاريخ	كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثامنة ٣٨٠	الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة
المدارس النحوية	* كتاب الرد على النحاة
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة	الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة
تجديد النحو	* الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر .
الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة	الطبعة الثانية، ٣٥٦ صفحة
تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده	
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات	
في مجموعة نوابغ الفكر العربي	
ابن زيدون	

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

*الثناء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

*المقامة

الطبعة الخامسة، ١٠٨ صفحات

*النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة .

في سلسلة "اقرأ"

*مع العقد	الطبعة الخامسة	*معي (١)	الطبعة الثانية
*البطولة في الشعر العربي	الطبعة الثانية	*معي (٢)	الطبعة الأولى
*الفكاهة في مصر	الطبعة الثالثة		